الفخري

في الآداب السلطانية والدول الإسلامية

تأليف

محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي

حققه وضبطه وشرحه

عبد القادر محمد مايو

دار القلم العربي

الفخري

في الآداب السلطانية والدول الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الفخري

في الآداب السلطانية والدول الإسلامية

تأليف

محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي

حققه وضبطه وشرحه

عبد القادر محمد مايو

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود

دار القلم العربي

منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف | ٢١٣١٢٩ | ص.ب |٧٨| فاكس ٢١٢٣٦١ ٠٢١٠٢١

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين بالغ الفضل والإحسان ، والصلاة والسلام على نبيّه الأمين محمد بن عبدالله خيرة الأخيار من بني عدنان ، المرسل رحمة للعالمين ، وبعد فقد منّ الله تعالى على عبده الفقير إلى كرمه وعفوه صاحب التحقيق فهداه إلى كتاب ((الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية)) ليخرج به من ظلمات القدم والغمرة إلى أنوار الحداثة والشهرة وهو من مقتنيات مكتبتي المتواضعة مذ كنتُ طالباً من طلاب كلية الآداب بالجامعة السورية بدمشق عام /١٩٥٥/ م ، وظلّ غائباً عن النظر حاضراً في الوجدان والفكر إلى أن برز لي فجأة كالصديق الموافي في ساعة الشدّة وأنا مشغول بالتصنيفات العديدة التي أصدرتها دار القلم العربي بحلب ، واقترحتُ على صاحب الدار أن تنفض عن هذا المؤلف الجليل غبار الزمن فوافق في الحال لدى رؤية النسخة التي أملكها من الكتاب وتقع في مائتين وتسع وسبعين صفحة وليس بها من تاريخ ولا دليل على المحقّق سوى عبارة ذيّلت الغلاف بعد العنوان ، وتقول العبارة التي هدفها التجارة : [يطلب من مكتب عزّ للتوريدات – مكتبة قومسيون – ميدان الأزهر بمصر] .

وقد بادرت منذ اضطلاعي بعبء تحقيق الكتاب إلى التماس طبعاته المختلفة في كلّ ما يقع تحت يدي ولكنني آثرتُ مؤخراً النموذج الذي توفر بحوزتي لأنه قديم ولأنه بخلوه من الضبط والتشكيل والفهرسة والهوامش المضيئة ، يسمح لي بالمزيد من التدخّل والاجتهاد في ترجيح وجوه الكلام بعضها على بعض فيكون لي دور المحقّق وإن لم أعتمد على الأصل المخطوط . وقد كان لي بتوفيق من الله وبإخلاص النية فضل ضبط النص التاريخي بالشكل وشرح غريب مفرداته بالإضافة إلى ترجمة الأعلام ترجمة موجزة كافية وبذلك المجهود ألحقتُ النص التاريخي بالنص الأدبي فائدةً وأثراً متداولاً . وما يهمني أن يعرفه القارئ لهذا الكتاب أن اعتمادي كان على أربع طبعاتٍ من طبعات الفخري بالرموز والتواريخ الآتية :

أولاً : (عزّ) وهي المتوفرة لدى المحقّق بلا تاريخ .

ثانياً : (ألما) وهي الطبعة الأولى بألمانيا عام /١٨٥٨/ م .

ثالثاً : (رَحْما) وهي الصادرة عن المطبعة الرحمانية بمصر /١٣٤٠/ هـ و /١٩٢١/ م .

رابعاً : (بيروت) وهي الصادرة عن دار بيروت للطباعة والنشر /١٣٨٥/ هـ و /١٩٦٦/ م .

تقع طبعة (عزّ) كما ذكرنا في (٢٧٩) صفحة من القطع المتوسط بورق أصفر .

وتقع طبعة (ألما) في (٣٩٠) صفحة من القطع المتوسط ، يقابلها تقديم ودراسة باللغة الألمانية بقلم المستشرق W . Ahlwardt .

وتقع طبعة (رحما) في (٢٥٣) صفحة من القطع فوق المتوسط مع مقدمة قصيرة للناشر محمود توفيق الكتبي .

وتقع طبعة بيروت في (٣٤٠) صفحة عدا الفهارس بورق أبيض صقيل وهي الطبعة الأكثر حداثةً وإتقاناً .

وقبل استعراض الأوراق المذكورة يهمنا الإلمام بترجمةٍ لحياة المؤلف : ابن طَباطَبا مع ملمحٍ كُلّيّ وموجزٍ جدّاً لكتاب الفخري ليكون ذلك عوناً للقارئ في قطع المسافة بين أول الكتاب وآخره في أُلفةٍ ومحبّة للمادّةالتاريخيّة وهي الغنيّةُ غنى غزيراً بالحكايا والطرائف .

أمّا المؤلّف فهو :

محمّد بن عليّ بن محمّد بن طَباطبا العلويّ . كنيتُه أبو جعفر ، وشهرتُه بابن الطِّقْطَقيّ [1] على خلافٍ في ضبطها ، وختامها بالياء أو الألف المقصورة . كان أبوه نقيب الأشراف العلويّة بالحِلّة والنجف وكربلاء ، وقد خلف أباه في تلك

[1] هكذا ضبطت في كتاب الأعلام للزركلي . انظر المجلد السادس ص ٢٨٣ .

الرتبة .

تزوج بامرأةٍ فارسية من خراسان وأقام بالمَوْصِل ، وتقرّب الى واليها فخر الدين عيسى بن إبراهيم بإهدائه كتاب ((الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية)) الذي فرغ من تأليفه عام /٧٠١/ هـ ، وجعل نسبته إليه باسم ((الفخريّ)) .

وقد عقدَ جلالُ الدين السيوطي في كتابه ((تاريخ الخلفاء)) فصلاً في دولة بني طَباطَبا العلويّة الحَسَنيّة فقال : ((وقام منهم بالخلافة أبو عبدالله محمد بن إبراهيم طَباطَبا في جمادى الأولى سنة تسعٍ وتسعين ومائة [1])) . ويبدو أن المذكور هو الجَدّ الذي نسب إليه ابن طباطبا المؤرّخ ، وله خبر مفصّل في كتاب الأعلام للزركلي ج٥ ص ٢٩٣ . ولم تمدّنا المراجع بتفصيلاتٍ عن حياة صاحب الفخري سوى أنه تزوج من فارسية وزارَ مراغة بأذربيجان واستقر بالموصل وتوفي فيها عام /٧٠٩/ هـ . وقد أبدى انحيازاً للمغول وتهيباً لسلطانهم ولمن حكموا تحت رايتهم بالإضافة إلى علويّته .

أما كتاب ((الفخري)) فقد حوى جزأين هامّين : الأول ، موضوعه الآداب العامة للسلاطين ومُعاشريهم ، وثانيهما التأريخ لثلاثٍ من الدول : هي : دولة الخلفاء الراشدين ، ودولة بني أُميّة ، والدولة العبّاسية ، وقد تعرّض بذكرٍ وجيزٍ للدول العارضة على الكيان العبّاسي كالدولة العلوية المعروفة بالفاطمية مثلاً . وكانت خطته أن يذكر الخلفاء والسلاطين وأعمالهم ثم يُثنّي بذكر من استوزره من الوزراء ، ملمّاً بطرائف الوقائع من الحكايا على وجه الاستطراد لدفعِ الملل عن القارئ .. وهذا ما يجعل كتاب ((الفخري)) أهلاً للمطالعة من جهتين ؛ جهة التاريخ ، وجهة الطرائف والحكايا العجيبة . فهو كتابٌ تاريخ وكتاب أدبٍ ومُسامرة في آنٍ مَعاً ، وقد تقلّد بقلادة الأشعار في كثيرٍ من صفحاته ، وكأنّ الناثر العربي سواء أكان مؤرخاً أو عالماً أم فيلسوفاً ، لا يستغني عن الاغتراف من معين الشعر

---

[1] انظر تاريخ الخلفاء ، طبعة دار القلم العربي بحلب ص ٤٦٧ .

الذي هو ديوان العرب .

ويذكر الأستاذ عبدالوهاب الصابوني في كتابه ((عيون المؤلفات)) أنّ عنده من كتاب ((الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية)) طبعتين الأولى تامّة ولكنها غير محققة طبعت في مصر /١٩٢٧/ م ، والثانية منقحة مصححة تاريخها /١٩٣٨/ م وقد راجعها ونقّحها محمد عوض إبراهيم بك وعليّ الجارم بك ، ولولا أنني قد اطلعتُ على هذه الحقيقة بعد فراغي من تحقيق طبعة (عزّ) المتوفرة لديّ لنظرتُ بشكلٍ أو بآخر في هاتين الطبعتين . على أنني كنتُ قد بيّنتُ حرصي على الانفراد بالجهد في الطبعة غير المنقحة ليكون لي فضل الجدّة والابتكار في إخراج العمل شكلاً ومضموناً .

ومهما يكن ، فللقارئ العربي أن يغتنم في كتاب ((الفخري)) مَرْجِعاً مختصراً ومفيداً بين المراجع التاريخية الأخرى المستفيضة مثل ((تاريخ الأمم والملوك)) لمحمد بن جرير الطبري ، أو ((الكامل في التاريخ)) لعليّ بن محمد المعروف بابن الأثير الجَزري وغيرهما .. ورغم انحياز صاحب الفخري إلى علويّته وحملته على عديدٍ من خلفاء الدولتين الأموية والعباسية يجد القارئ في الكتاب مرجعاً هامّاً في تاريخ العرب والإسلام وهاهو الآن نصٌّ محقق من نصوص الأدب والطرائف ..

اسأل الله تعالى أن يجعل لي فيه ذخراً ليوم الدين ، وأن يجعل فيه مدداً لطلاب المعرفة والعبرة التاريخية ، وهو على كل شيءٍ قدير وبالإجابة جدير .

حلب ١٠ / ٢ / ١٤١٨ هـ

١٦ / ٦ / ١٩٩٧ م

عبدالقادر محمد مايو الحلبي القسطلي

الفخري في الآداب السلطانية
والدول الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مسبّبِ الأسباب ، ومفتّح الأبواب . مقدّر الأمور ، ومدّبر الدهور . واجبِ الوجود ، وخالقِ الأخلاق والجود . مفيض العقل . وواهب الكُلَّ . أُقرُّ أنه المالكُ وأنّ الوجودَ مملوكٌ لعَظمتِهِ . وأشهدُ أنّهُ الفاطرُ . وأن الغيبَ غيرُ مستورٍ لِحكمتِهِ . وأعوذُ بجلالِ عزّهِ من ذلّ الحِجابِ ، وبفضلِ جُودهِ من نقاشِ الحِساب ، وبخافي علمه مِمّا في الكتابِ من العّذابِ ، وأُصلّي على النّفوس العُلويّة المطهّرة من الأدّناس ، وعلى الأجسامِ الأرضيّة المنزّهة عنِ الأرجاس . وأَخُصُّ من بينهمْ بأفضلِ الصلواتِ الزاكياتِ ، وأكملِ التحيّات الناميات ، مَنْ نادى والألْسُنُ حِداد ، وأرشدَ والأكبادُ غِلاظٌ والقُلوبُ جِلاد - محَمّداً النبيَّ الأُميّ ذا التأييدات الإلهيّةِ ، والتأكيداتِ الجلاليّة ، وآلهُ الطيّبين وأصحابهُ الصالحين ، الذين كانوا صدّقوهُ وقد أُرْسِل ، ونَصروهُ وقد خُذِل ، ما سمحَ جوادٌ ووَرِيَ زِنادٌ .

وبعدُ ، فإن أفضلَ ما نَظرَ فيه خَواصُّ الملوكِ ، وَسلكوا إليه أفْضَلَ السُّلوك بَعْدَ نظرِهِمْ في أمرِ الأمّة ، وقيامِهِم فيما استودعوه بالحُجّة ، هو النظرُ في العُلومِ ، والإقبالُ على الكُتُبِ التي صَدَرَتْ عَنْ شرائف الفُهوم ، فأمّا فضيلةُ العلمِ فظاهرةٌ ظهورَ الشّمس عَرِيّةٌ من الشّكّ واللَّبْس ، فمما جاء مِنْ ذلِك في التنزيلِ قولُه تعالى : { **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** }[1] ، وممّا جاء في الحديث - صلوات الله وسلامه على مَنْ نُسِبَ إليه - : ((**إن الملائكةَ لَتَضَعُ[2] أجنحتَها لِطالبِ العِلم**)) .

وأما فضيلة الكُتُبِ فقد قالوا : إن الكتابَ هوَ الجليسُ الذي لا يُنافِقُ ، ولا يَمَلُّ ولا يُعاتبك إذا جفوتَهُ ، ولا يُفْشي سِرَّكَ . وقال المهلّب[3] لبنيه : يا بَنيّ : إذا

---

[1] سورة الزّمر ، الآية /٩/.

[2] تضع : تخفض ، وتضع أجنحتها : كناية عن التواضع إكراماً لطالب العلم .

[3] هو المهلّب بن أبي صُفْرة كان أميراً على البصرة لمصعب بن الزبير . حارب الخوارج . تولّى على خراسان لعبدالملك كان حكيماً ورجل قيادة وسياسة وفضل . توفي ٨٣ هـ .

وقفتمْ في الأسواق فلا تقفوا إلا على من يبيعُ السلاح ، أو يبيعُ الكتب .

وكان الفتحُ بن خاقان [١] إذا كانَ جالساً في حضرة المتوكّل ، وأرادَ أن يقومَ إلى المتوضأ ، أخرجَ من ساقِ مَوْزَته كِتاباً لطيفا ، فلا يزالُ يطالعُه في ممّره وعَوْدِهِ فإذا وَصَلَ إلى الحضْرة أعادهُ إلى ساقِ موْزَته .

أرسل بعضُ الخلفاء في طلب بعض العلماء ليسامِرَهُ ، فلما جاء الخادمُ إليه وجدَهُ جالساً وحواليْهِ كُتُبٌ ، وهو يطالعُ فيها : فقالَ له : إن أمير المؤمنين يستدعيك قال : قل له : عندي قومٌ مِنَ الحكماء أحادثُهم ، فإذا فرغْتُ منهم حَضَرْتُ . فلمّا عادَ الخادمُ إلى الخليفة وأخبرَه بذلك ، قالَ له : ويحك! من هؤلاء الحكماءُ الذين كانوا عِنْدَه ؟ قال : والله ياأميرَ المؤمنين ما كانَ عِنْدَه أحدٌ ! قال : فأحضِرْهُ الساعةَ كيف كان . فلما حَضَرَ ذلك العالم ، قال له الخليفةُ : من هؤلاء الحكماءُ الذين كانوا عندك ؟ قال : ياأميرَ المؤمنين :

لَنا جُلَساءُ ما نَمَلُّ حَديثَهُمْ   أمينونَ مأمونونَ غَيْباً وَمَشْهَدا
يُفيدونَنا مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْمَ ما مَضى   وَرَأياً وتأديباً وَمَجْداً وَسُؤْدَدا
فإنْ قلتَ : أمواتٌ . فلم تَعْدُ أمْرَهُمْ   وإن قلتَ : أحياءٌ. فَلَسْتَ مُفَنَّدا

(طويل)

فَعلم الخليفةُ أنه يُشيرُ بذلك إلى الكُتُب ، ولم يُنْكِرْ عليه تأخُّرَهُ .

وقالَ الجاحظُ : دخلتُ على محمّد بن إسحاق [٢] أميرِ بغداد ، في أيام ولايتِه وهو جالس في الديوان ، والناسُ مُثولٌ بين يديه كأن على رُءوسهم الطير ، ثم دخلتُ إليه بعد مدّةٍ وهو معزول ، وهو جالسٌ في خزانة كُتُبه ، وَحَوالَيْه الكُتبُ والدفاترُ والمحابرُ والمساطرُ . فما رأيتُهُ أهْيَبَ منْهُ في تلك الحالِ ! .

وقال المتنبي :

أعَزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرْجُ سابِحٍ   وَخَيْرُ جليسٍ في الزّمانِ كِتابُ

(طويل)

---

[١] أديب وشاعر كان صاحباً ونديماً ووزيراً للخليفة المتوكّل ، وقتل معه ٢٤٧ هـ .

[٢] هو محمد بن إسحاق الصيمريّ نديم الخليفة المتوكّل ، كان أديباً وشاعراً ظريفاً ، توفيّ ٢٧٥ هـ .

والعلم يزيّنُ الملوكَ أكثرَ ممّا يزيـن السُّوقة ، وإذا كـان الملـكُ عالمـاً صـار العالمُ مَلِكاً وأصلحُ ما نَظَرَ فيه الملـوكُ مـا اشـتمل علـى الآداب السلطانيّة ، والسِّيَرِ التاريخية المطويّة على ظرائف الأخبار ، وعجائب الآثار ، على أنّ الـوزراء كـانوا قديماً يكرهون أنّ الملوك يقفون على شيء من السِّير والتواريـخ ، خوفـاً أن يتفطّـنَ الملوك إلى أشياء لا يحبُّ الوزراءُ أن يتفطّن لها الملوك .

طلبَ المُكْتفي (١) من وزيره كُتُباً يلهو بها ؟ ويقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدم الوزير إلى النوّاب بتحصيلِ ذلك ، وعرضه عليه قبل حمله إلـى الخليفـة ، فحصلـوا شيئاً من كتب التاريخ ، وفيها شيء مما جرى في الأيام السالفة مـن وقـائع الملوك ، وأخبار الوزراء ومعرفة التحيّل في استخراج الأموالِ ، فلمّا رآهُ الوزيرُ ، قال لنوّابه والله إنكم أشدُّ الناسِ عداوةً لي ، أنا قلتُ لكم : حصّلوا له كُتُبـاً يلهـو بهـا ، ويشـتغلُ بها عنّي وعن غيري فقد حَصّلْتُم له ما يُعرِّفهُ مصــارعَ الـوزراء ، ويوجـده الطريـقَ إلى استخراجِ المال ، ويعرّفه خرابَ البلاد من عمارتِها ! رُدّوها ، وحصّلوا له كُتُبـاً فيها حكاياتٌ تلهيه ، وأشعارٌ تُطْربه .

وكانوا يكرهون أيضاً أن يكون في الخلفاءِ والمُلوك فطانةٌ ومعرفةٌ بـالأمورِ ولمّا مات المكتفي ، عزمَ وزيرُهُ على مُبايعة عبدالله بنِ المعتزّ (٢) ، وكـان عبداللـه فاضلاً لبيباً محصلاً ، فخلا به بعضُ عقلاء الكُتّـاب وقـالَ لـه : أيّهـذا الوزيـرُ : هـذا الرأي الذي قد رأيتَهُ في مبايعة ابن المعتز ليس بصوابٍ ، قال الوزيرُ : كيفَ ذلكَ ؟ قـال:أيّ حاجـةٍ لـك أن تُجلِسَ علـى سـرير الخلافـةِ مَنْ يعْــرفُ الـذِّراع والمـيزانَ والأسـعار ، ويَفْهمُ الأمـور،ويعـرفُ القبيــحَ مــنَ الحسَــنِ،ويعـرفُ داركَ وبُسْـتانَكَ وضَيْعتك؟الرأيُ أن تُجلِسَ صبياً صغيراً فيكونَ اسمُ الخلافةِ له، ومعنّاها لَكَ ، فتربّيـه إلى أن يكبر ، فإذا كبرَ عرَفَ لكَ حقَّ التربيةِ ، وتكونُ أنتَ قد قضيْتَ أوطارَكَ

(١) هو علي أبو محمّد بن المعتضد ، الخليفة السابع عشر من خلفاء بنـي العبّاس ، بويـع بالخلافـة سنة /٢٨٩/ هـ .

(٢) عبدالله بن المعتزّ : أمير عباسيّ شاعر وأديب صاحب كتـاب ((البديـع)) ولـي الخلافـة يومـاً وليلة ومات خنقاً سنة /٢٩٦/ هـ .

مُدَّةَ صِغَرِه ، فشكَرهُ الوزيرُ على ذلك ، وعدَلَ عنْ عبدالله بن المعتزّ إلـى المقتدِرِ ، وعمرُهُ يومئذٍ ثلاثَ عَشْرَةَ سنةً .

وكان بدرُ الدين لؤلؤ [1] صاحبُ المَوْصلِ – رحِمَه الله – أكثرَ ما يجـري فـي مجلس أنسه إيرادُ الأشعارِ المطربـة ، والحكايـات المُلهيـة ، فـإذا دخـل شـهرُ رمضـانَ أُحْضِرتْ لـه كتُبُ التواريخِ والسِّير ، وجلس الزَّيـنُ الكـاتب وعـزُّ الدين المُحَدِّث يقرأانِ عليهِ أحوالَ العالَم .

وهذا التقريرُ يَسْتَدعي شرحَ حـالٍ : وذلك أنّـي حيـنَ أحلّنـي حُكْمُ القضـاءِ بالمَوْصلِ الحدْباء ، حَلَلْتُها غيْرَ مُتَعرضٍ لوبْلِها أوْ طلِّها ، ودخـلتُها كما قال عـزَّ مِنْ قائل : { وَدَخَلَ المدينةَ على حينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها } [2] ، وكنـت بنيـتُ عزمـي على المقامِ فيهـا بقَدْرِ ما يَنْكَسِرُ البرْد ، ثـم التوجّـه بعد ذلـك إلى تبْريزَ ، فحيـن استقررْتُ بِالمَوْصِلِ ، بَلَغني مِنْ عدّةِ جهاتٍ مُختلفةٍ ، ومن ذوي آراءٍ غـيرِ مُؤتلفـةٍ ، غـزارةُ فَضْلِ صاحبِهـا الأعْظَـمِ المولـى المخـدومِ الملـكِ المعُظـمِ ، أفضـل الملـوكِ وأعْظَمِهِمْ ، وأكْرَمِ الحُكَماءِ وأحْلَمِهِمْ ، فخرِ الملّـة والديـن ، الممنـوحِ بخصـائصَ لـو كانت للدهر لـما شكا صرفـهُ حُر ولما مسَّ أحدا منهُ ضُرّ ، ولو كانت للبحر لما كان ماؤهُ مِلْحاً أُجاجاً ، ولا خافَ راكبُه مِنْه أمْواجاً ، ولو ظفرتْ بها الأقمارُ ، لما لحقهـا السّرارُ ، عيسى [3] الذي أحيا ميْتَ الفضـائلِ ، ونَشَر طـيَّ الفواضـلِ ، وأقامَ سوقَ المَكارمِ في عَصْرٍ كَسَدتْ فيهِ سُوقـها وأنْهضَ مُقْعداتِ المحاسنِ بَعْدَ ما عجـزت عَنْ حَمْلِ أجسامِها سوقُها ، وذبَّ عن الأحرارِ في زمانٍ هُم فيـه أقلُّ مِـنَ القليل ، ومَـلأَ أيديَهُمْ مِنْ عَطائهِ بأيادٍ واضحةِ الغـرّةِ والتَحْجيل وأفـاء عليهِمْ ظِلَّ رأفـةٍ لا ينتقِل ، وخفضَ لَهُمْ جَناحَ رحمةٍ فما ينِي يَتَفَضَّل عليهم ويتَطَـوّل ، كلّمـا ازداد دولـةً وتمكينـاً

---

[1] بدر الدين لؤلؤ : أتابك الموصل زمن المستعصم قبل واليها عيسى بن ابراهيم ، الذي لازمـه ابن طباطبا .

[2] سورة القصص ، الآية ١٥ .

[3] عيسى بن ابراهيم والي الموصل ، قدّم إليه ابنُ طباطبـا كتابـه هذا : ((الفخـري فـي الآداب السلطانية)) الذي فرغ منه عام /٧٠١/ هـ . وسرار الشهر : آخر ليلة فيه .

زادَ تواضُعاً وليناً ، وكلّما بلغ من المُلْكِ غاية ، رفع لِلكَرَم رايـة ابـن ابراهيـم أعـزَّ اللـهُ نـصرَه ، وأنفذ نَهْيَهُ وأمْرَه ، الـذي أنسـى ذكْرَ الأجـواد ، ورزانـة الأطـوادِ وشجاعَةَ الآسادِ :

للشَّمْسِ فيهِ وللرِّياحِ وللسحا ... بِ وللبِحارِ وللأسودِ شمائلُ

(كامل)

الذي هُوَ في جبهةِ هذا الدهرِ غرّة ، وفي قلادتـه دُرّةٌ لا تـدانيها فـي الدنيـا دُرّة الذي صدّق أخبارَ الماضين ، وحقق ما نُسخ من مآثرِ الأولين .

وقد قال ابن الرومي :

أظُنُّ بـأنَّ الـدهـرَ ما زالَ هكذا ... وأنَّ حديثَ الجُودِ لَيْس له أصْلُ

وَهَبْ أنَّهُ كانَ الكِرامُ كما حكَوْا ... أمـا كـانَ فيهـم واحـدٌ ولَهُ نَسْلُ ؟!

(طويل)

فلو شاهَدَ لصدّق ما سَمِعَ مِنْ أخبار أهـل الكـرم ، ولمـا اختَلجَتْ بيـن جنْبَيْـه عوارض التُّهم ، الحاكم الذي إذا سلّط ذِهنَهُ الشريفَ ، وفكرهُ اللطيفَ ، على القضايا الديوانيّةِ ، والأمـورِ السلطانيةِ ذلّت لـهُ الصّعـابُ ، ولانـتْ لـه الصُّـم الصّـلابُ ، وظهرتْ لهُ الخفايا ، وتعذّر أنْ يُقالَ : في الزوايا خبايا .

أما قُـوّةُ العدل عِنْدَه فسَليمةٌ ، قواعدهـا لديـه قَويمـةٌ ، فـلا تُجْزِعَنْـكَ هَيْبَتُـه المرهوبةُ فإنَّ وراءَها رأفةً بالضعيفِ ، ورقة على الفقيرِ ، وجبراً للكسيرِ .

وَلَهُ من الصَّفْحِ الجَميلِ عَوائِدٌ ... أسْرَ الطليقَ بها ، وفكَّ العاني [1]

(كامل)

ولقد حضرتُ يوماً مجلِسَهُ الرفيعَ وكان يومَ غيثٍ ، وقد تقدم بـصيـانـة البـاب فلما كثر الغيث ، قال للحجّاب : مَنْ حَضَرَ الباب وله حاجةٌ فعرّفونا بهـا ، ثـم قـال : إن أحداً لا يحضُرُ في مثل هذا الوقت إلّا لضرورة ، ولا يجوز أن يردّ خائباً ، فباللـه هل يأتي في هذا الكتاب الذي يريد أن يكون مشتملاً على محاسن الآثار ، إلا ما هو

---

[1] العاني : الأسير المعنّى .

من جنْسِ هذه الحكاية ؟ .

وأما قوة السِّياسة عِنْدَهُ فعظيمةٌ ، لم تعتَرضْها هضيمة [1] ، فلا تغرنكم رقته وابتسامه ، فإنَّ وراءَ ذلك صرامةً يخضعُ لها الأسود ، وشهامة يحذرها السيّد والمَسود .

هُوَ البَحْرُ غُص فيهِ إذا كانَ ساكِناً   على الدُّرِّ ، واحذَرْهُ إذا كانَ مُزْبِدا

(طويل)

وأما قُوّةُ الذكاءِ والتيَقّظِ فهو فيها كما قال المتنبّي :

تَعرِفُ في عَيْنِهِ حقيقَتَهُ   كأنه بالذكاءِ مُكْتَحِلُ
أشْفِقُ عِنْدَ اتقادِ فِكرَتِهِ   عليهِ مِنْها ، أخَافُ يَشْتَعِلُ

(منسرح)

وأمّا قُوّةُ العقل الغَزِير ، والتمييز الصحيح ، فإنّي لأظنُّ أنّ عقلاء الملوكِ الماضين لوَ عاشوا وشاهَدوه لَتعلّموا منْهُ كيْفَ يُساس الجمهورُ ، وكيف تُدبَّرُ الأُمور

وأما قوّةُ الكرمِ الذي تجاوزَ الحَدَّ وخرجَ ، فحدِّثْ عن البحْرِ ولا حرَجَ ، فلو عاش الكِرامُ الذين ضُرِبتْ بهِم الأمثال وعدمت لهمْ النظراءُ والأمثالُ ، لتعلّموا مِنْهُ غوامِضَ الكرَم ولتلقّفوا مِنْهُ محاسِنَ الشيم ، ولو أنصفْتُ لتركتُ وَصْفَ هذهِ القوّةِ مِن قواهُ عَجْزاً عَنِ الإحاطة بكُنْهِ وَصْفِها ، وقُصوراً عنِ القيام بواجبِ وصْفِها ، ولكنّي أقول بحسبِ الجهدِ والطاقة : إن احتقارَه للدنيا احتقارُ الأولياء ، واستصغاره لها استصغارُ الزّهاد :

فلو جادَ بالدنيا وثنّى بِضِعفِها   لظنَّ مِن استصغاره أنّهُ ضَنّا

(طويل)

يُعطي عَطاءَ مَنْ يُبقي الذّكْرَ ويُحييه ، ويُنْفِدُ المالَ ويُفْنيه .

أعاذِلُ ، إنَّ الجودَ ليسَ بِمُهلكي   ولا يُخْلِدُ النفسَ الشحيحةَ لُؤمُها [2]
وتُذْكَرُ أخلاقُ الفتى ، وعِظامُهُ   مُغَيَّبةٌ في التُرْبِ بالٍ رَميمُها

(طويل)

---

[1] الهضيمة : المَظْلَمَة .

[2] اللُّوم : اللُّؤم ، بتليين الهمزة جوازاً ، وهو ضدّ الكرَم .

بهمةٍ نالتِ السماء ، وجاوزتِ الجَوْزاءَ ، ومِنْ هُناكَ حصَلَ لـه الأُنسُ بعِلْمِ النجوم فإنه أخَذَ عِلْمَها بالارْتقاء إليها والاقتراب ، لا بالحسابِ والإصْطِرلاب [١] ، بلغ السماء علواً فشافهته بأسرارها كواكبُها ، وفرع [٢] الأفلاكَ سُمُوّاً فحدثتـه بأخبارِها ، مشارِقُها ومغارِبُها :

لهُ هِمَمٌ لا مُنْتَهى لِكِبارِها وهِمَّتُه الصُّغْرى أجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ

(طويل)

لا تَستقِرُّ في خزائِنِهِ نفائسُ أموالِه ، وليسَ لَها بيْتٌ يحفظها سوى بيُوتِ سُؤّالِهِ[٣]:

إنّا إذا اجتمَعَتْ يَوْماً دَراهِمُنا ظَلَّتْ إلى طُرُقِ العَلْياء تَسْتَبِقُ
لا يَألَفُ الدِّرهَمُ المنقوشُ صُرَّتَنا لكنْ يَمُرُّ علَيْها وَهْوَ مُنْطَلِقُ

(بسيط)

لا يَفْعَلُ السُّكْرُ في كَرَمِه إلا كما يفْعلُ الصَّحْوُ في إمْطارِ ديمه [٤]

يُعيدُ عَطايا سُكْرِهِ عند صَحْوِهِ لِيُعْلَمَ أنَّ الجُودَ مِنْهُ عَلى عِلْمِ
وَيَسْلَم في الإحسانِ مِنْ قَوْلِ قائلٍ تَكَرَّمَ لمّا خامَرَتْهُ [٥] ابنةُ الكَرْمِ

(طويل)

وَمَنْ أسْرارِ كَرَمِهِ أنّهُ مُنزّهٌ عن التّبذير ، وإنْ كان أكثرَ من الكثيرِ لأنّه موضوعٌ في أجَلِّ مَواضِعِهِ ، وواقِعٌ في أفضلِ مواقِعِهِ ، فمتى تعرّض آملٌ أو عَنَّ سائِلٌ [٦] ، بادر إلى إرفاده (٧) مبادرة السيل إلى وهاده .

[١] الإصطرلاب : آلةٌ فلكية اخترعها العربُ لرصد النجوم والأفلاك .

[٢] فَرَعَ الأفلاك : صعدَ إليها وارتقاها .

[٣] السؤّال : جمع سائل ، وهو طالب المعروف والإحسان .

[٤] الدِّيم : جمع ديمة ، وهي السحابة الماطرة .

[٥] خامرتْه : خالطت عَقْلَهُ ، ابنة الكَرْم : كناية عن الخمرة .

[٦] عَنَّ سائلٌ : طرق محتاجٌ .

عَشِقَ المكارِمَ فاستَهامَ بِذِكْرِها والمُكْرُماتُ قليلةُ العُشّاقِ
وأقامَ سُوقاً للثناءِ ، ولم تَكُنْ سُوقُ الثناءِ تُعَدُّ في الأسْواقِ
فاذْكُرْ صَنائِعَهُ فَلَسْنَ صَنائِعاً لكنَّهُنَّ قَلائِدُ الأعْناقِ
والثمْ أنامِلَهُ فَلَسْنَ أنامِلا لكنَّهن مَفاتِحُ الأرْزاقِ

(كامل)

وكأني بِكَ أيها الناظِرُ في هذا الكتاب قَدْ استعظمت ما سمعْت ، فإنْ عَرَضَ لك الشَّكُّ فانظر أعْيانَ هذا العصْرِ ، تجدْهُمْ يناقشون على الذرّة [1] ، وتجدْهُ لا يلتفتُ إلى الذَّرَّة ، وتجدْهُم يحرصونَ على اقتناء الذَّخائر ، وتجدْهُ لا يحرصُ إلّا على الذِكْرِ السّائر والصّيتِ الطائر ، وتجدْهُم قَدْ شَغَفَتْهُمْ محبّةُ الأوْلاد ، وتجدْهُ قد شَغَفَتْهُ مَحَبَّةُ السُؤّالِ والقُصّاد ، وتجدْهُم يَهْرُبون مِنَ المغارمِ [2] ، وتجدْهُ يعُدُّها مِنْ أفضلِ المغانِم ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ تَجِدِ المدائِحَ عِنْدَهُمْ كاسدةً ، وتجدْها عنْده نافِقةً ، وتأمَّلْ تُبْصِرِ المكارِمَ لديهِمْ جامدةً وتبصرْها لَدَيْهِ دافقةً ، وانظرْ بابهُ تجدْه عامِراً بوفودِ الثناء غاصّاً بالأدباءِ والشُّعراءِ والفُضَلاءِ والفُصَحاء .

يَسقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ يلتقط الحَبَّ وَتُغْشى مَنازِلُ الكُرَماءِ [3]

(خفيف)

وتالله ما الدنيا إلا دنياه ، ولا العَيْشُ إلا عَيْشُه الذي أعطاه الله .

ما العيشُ أنْ يُمسي الفتى مُتَشَبِّعاً ضَخْمَ الجِزارَهْ
العيشُ أنْ يُشْجي الفتى أعْداءَهُ ، ويُعِزَّ جارَهْ
حتى يُخاضَ [4] ويرتجى وَيُرى لَهُ نَشَبٌ وَشارَهْ
وَيَروح إمّا للكِتا بةِ سَعْيُهُ ، أو للإمارَهْ

---

[1] يناقشون على الذرّة : كناية عن البخل حتى بالقليل كالذرّة .

[2] المغارم : التكاليف والخسائر . وهنا : الإنفاق .

[3] البيت لبشّار بن برد في مدح عقبة بن سَلْم بن قتيبة ، ورواية الديوان :

يسقطُ الطيرُ حيث ينتثرُ الحَبْـ ـبُ وتُغْشى منازلُ الكرماءِ

[4] يُخاض : يؤتى إليه ويُقصد .

رَجَعْنا إلى حكايةِ الحالِ ، وإتمّام المقالِ : فلفقت المقاديرِ أنْ جَرى ذِكري بَيْنَ يديه وعَرَضَ شيء من أمري عليه فلمحَ بذكاء قلبه ، وصحّة حدْسِهِ مِنْ تِلك الأنباءِ حقيقةَ حالي قَبْلَ اللّقاء ، وتَقَدّم بالحضور في خِدْمتِه ، فلما حضرْتُ راعني ما شاهدتُ من كمالِ هَيْبَتِهِ وراقني ما عاينْتُ منْ جمالِ صُورتِه ، وشريفِ سيرته فكان أوّلَ ما أنشدتُه قولُ المتنبي :

وما زِلْتُ حتى قادني الشوقُ نَحْوَهُ … يسايرني في كُلِّ رَكْبٍ لَهُ ذِكْرُ
وأسْتَعْظِمُ الأخبارَ قَبْلَ لقائِهِ … فلَمّا التَقَيْنا صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ [١]

(طويل)

ثُمَّ تابعَ مِنْ ألطافِهِ ما غرَس بِهِ وِدّاً ، وجنى منه ثناءً وحمْداً ، فرأيْتُ أنْ أخدُمَ حَضْرتَهُ بتأليفِ هذا الكتاب ، ليكونَ تذكرةً له ، وتَذْكِرةً لي عنْدَهُ ، يذكّرني به إذا غِبْتُ عن عالي جنابِهِ ، وانفصلْتُ عن فسيحِ رحابِه .

وهذا كتابٌ تكلّمْتُ فيهِ على أحوالِ الدّولِ وأمورِ المُلْك ، وذَكَرْتُ فيه ما استَطْرفْتُهُ مِنْ أحوالِ المُلوكِ الفُضَلاء ، واستَقْرَيْتُهُ مِنْ سِيَرِ الخُلفاءِ والوُزَراءِ وبَنَيْتُهُ على فصْلَيْن [٢] :

فالفصلُ الأول تكلّمتُ فيه على الأمورِ السلطانيةِ والسّياساتِ الملكيّةِ وخواصِ الملِكِ التي يتميّزُ بها عنِ السُّوقة [٣] ، والتي تجب أن تكونَ موجودةً أو معدومةً فيه وما يجبُ لهُ على رعيّتِهِ وما يجب لهمْ عليْه ، ورصّعْتُ الكلامَ فيه بالآياتِ القرآنيةِ والأحاديثِ النبويّةِ ، والحكاياتِ المُستَطْرفةِ والأشعارِ المستحْسَنة .

والفصلُ الثاني : تكلّمْتُ فيهِ على دولةٍ من مشاهيرِ الدولِ التي كانت طاعتُها عامّةً ، ومَحاسِنُها تامّةً ، ابتدأتُ فيه بِدَولةِ الأربعة : أبي بكر ، وعُمَر ، وعثمانَ

---

[١] صغّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ : كذّبَ الواقعُ ما يُروى من الكلام ، والتجربة أصدق .

[٢] بعضُ الطبعات لم تلتزم بتقسيم المؤلف كتابهُ إلى فصلين ، ومنها هذه الطبعة التي اعتمدنا عليها في تحقيق الكتاب وسنحاول التزام خطّة المؤلّف وتسمية أجزاء الفصل الثاني بأسماء الدّول التي تناولها المؤلّف بالتأريخ . ع . م م .

[٣] السُّوقَةُ : عوامّ الناسِ وأخلاطُهم ، ونقيضهم الملوك والأمراء .

وعليٌّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ – على الترتيب الذي وقعَ ، ثمَّ بالدولـة التـي تَسلّمتْ المُلْكَ منها وهي الدولة الأُمويّة ، ثم بالدولةِ التي تَسلّمت الملكَ منها ، وهي الدولةُ العبّاسيّةَ ثمَّ بالدولِ التي وقَعَتْ في أثْناءِ الدّولِ الكِبارِ ، كدولةِ بني بُويْه ، وكدولَةِ بني سلْجُوقٍ وكَدَولَةِ الفاطميين بمصر على وَجْه الإيجاز ، فإنها دُول وقَعتْ في أثنـاء دَولَـة بنـي العبّاس ولكنها لم تكنْ طاعتُها عامةً ، فأتكلّم على دولةٍ دَولَة بمجموع ما حصَل في ذهني مِنَ الهيئةِ الاجتماعية التي أفَادَتنيها مُطالعةُ السِّيَرِ والتواريخ ، فأذكرُ كيْفَ كانَ ابتداؤُها وانتهاؤُها ، وطَرفاً مُمتعاً مِنْ محاسنِ ملوكها ، وأخبار سلاطينها ، فـإنْ شَذَّ شيءٌ مِنْ أحوالها عن ذِهْني ، واحتَجْتُ إلى إثْباته : من حكايةٍ ظريفةٍ ، أو بيتِ شعرٍ نادرٍ ، أو آيةٍ أو حديثٍ نبوي ، أخذتُه مِنْ مَظانه ، ثم إذا ذكرتُ دولـةً فدولـةً تكلّمْتُ على كلّياتِ أمُورِها ، ثم ذكرتُ واحداً واحداً مِنْ مُلوكِها ، وما جـرى فـي أيّامـهِ مِنَ الوقـائعِ المشـهورةِ والحـوادثِ المـأثورةِ ، فـإذا انقضَـتْ أيّـامُ ذلـك المـلك ، ذكـرتُ وزراءهِ واحِداً واحِداً وظرائـفِ مـا جـرى لهـم ، فـإذا انقضـت أيـامُ الملـكِ ووُزرائِـه ابتدأت بالملك الذي بعده وبما جـرى فـي أيّامـه ، وبسِيرِ وُزرائـه كذلـك ، إلـى آخرِ الدَّوْلَةِ العبّاسية .

والتزَمْتُ فيهِ أمرين : أحدُهما : ألّا أميل فيهِ إلّا مع الحقّ ، ولا أنْطِقَ فيه إلّـا بالعَدْلِ ، وأن أعزِلَ سُلطانَ الهوى ، وأخْـرُج مـنْ حُكْـمِ المَنْشـأ والمربـى ، وأفـرِضَ نفسي غريباً منهم ، وأجنبيّاً بينَهُمْ . وثانيهما : أنْ أعبّرَ عن المعاني بعباراتٍ واضحة تَقْرُبُ مِنَ الأفهامِ لينتفعَ بها كُلُّ أحَدٍ ، عادلاً عـن العبـارات المُسْتَصْعبة التـي يُقْصَـدُ فيها إظْهارُ الفَصاحَةِ ، وإثبَاتُ البلاغَةِ ، فطالما رأيْتُ مُصنِّفي الكُتبِ قَدْ اعترضَتْهُمْ مَحَبَّـةُ إظْهـارِ الفصاحَـةِ والبلاغـةِ فخفيـتْ أغراضُهُـمْ ، واعتَـاصت معـانيهم ، فقلّـتِ الفـائِدةُ بمصنفاتِهِمْ مِنْ ذلك كتابُ القانون في الطِّبِّ لأبي عليٍّ الحُسـيْنِ [1] بـن سينا البخاريّ ، فإنّهُ حَشَاهُ بالعبارتِ الغامِضَةِ ، والتّراكيبِ المُستَغْلَقة ، فبطَلَ غرَضُهُ من

---

[1] هو الحُسينُ بنُ عبدِالله أبو علي بن سينا ، نشأ وتعلّم في بُخارى وإليها نُسب ، له حوالـي مائـة تصنيف أشهرها القانون في الطبّ ، وهو عالم وفيلسوف وطبيب وشاعر متعدّد الجوانب . توفي /٤٢٩/ هـ .

الانتفاع بكِتابهِ ، ولذلكَ ترى عامـّـة الأطبّـاء قدْ عدلـوا عـنْ كتابـه إلـى ((الملكـي)) السّهْلِ العبارةِ ، المُفْهِمِ الإشارةَ .

وهذا كتابٌ يحتاج إليهِ منْ يسـوسُ الجمهورَ ، ويدبّرُ الأمـورَ ، وإنْ أنْصفَـهُ النّاسُ أخَذُوا أوْلادهُمْ بتحفظهِ ، وتَدبُّرِ معانيـه ، بعْدَ أن يَتدبّـروهُ هُـمْ ، فمـا الصغيرُ بأحوجَ إليهِ مِنَ الكبيرِ ، ولا المَلِكُ العامّ الطاعة ، بأحوجَ إليه منْ ملك مدينـةٍ ولاذوو الملْكِ بـأحوجَ إليـه مـن ذوي الأدب ، فـإنّ مـن يَنصّب نفســه لمفاوضـةِ الملـوكِ ، ومُجالَستِهِمْ ومُذاكرَتِهِمْ ، يحتاجُ إلى أكثرَ ممّا في هذا الكتاب ، فعلـى أقلّ الأقسـامِ لا يَسَعُه تَرْكُهُ .

وهذا الكتابُ إن نُظرَ بعينِ الإنصاف رُئي أنْفعَ من ((الحماسة)) التـي لهـج الناس بها ، وأخذوا أولادَهُمْ بحفظِها فإنّ ((الحماسةَ)) [1] لا يُستَفاد منهـا أكثـر مـن الترغيبِ في الشّجاعة والضّيافة وشيء يسيرٍ من الأخلاقِ فـي البـابِ المسمّى ببـابِ الأدبِ ، والتأنّس بالمذاهب الشّعْرية . وهذا الكتابُ يُستفادُ منْهُ هذه الخصالُ المذكورةُ ويُستَفادُ مِنْه قواعِدُ السياسَـةِ ، وأدواتُ الرّياسـة .فهـذا فيـه مـا فـي ((الحماسةِ)) ، وليسَ في الحَماسةِ ، ما فيه . وإنّهُ ليفيد العقْلَ قُوّةَ ، والذّهْنَ حدّةً ، والبَصيرةَ نُـوراً ، وهوَ للخاطرِ الذكيِّ بمنزلةِ المِسنّ الجيّد لِلْفولاذ ، وهو أيضاً أنفعُ مِن ((المقامـات)) [2] التي الناس فيها مُعتَقِدون ، وفي تحفّظهـا راغبـون ، إذ ((المقامـاتُ)) لا يُسْـتفادُ مِنْها سِوى التمرّنِ على الإنشاء ، والوقوف على مذاهِبِ النظم والنثرِ . نعـم ، وفيهـا حِكَمٌ وحِيَلٌ وتجـاربُ ، إلّـا أنّ ذلـك ممّـا يُصغّرُ الهمّةَ ، إذ هـو مبنـيٌّ علـى السُّؤالِ والاستِجْداءِ والتحيّل القبيح على النّزْرِ الطفيف ، فإن نفعت من جـانب ، ضـرت مـن جانب وبعض الناس تنبهوا على هذا من المقامات الحريريـة والبديعيّـة ، فعـدل نـاس إلى ((نهج البلاغة)) مـن كلام أميـر المؤمنين علي بن أبي طـالب – عليه السلام –

---

[1] كتاب ((الحماسة)) لأبي تمّام الطائي الشاعر العبّاسي المشهور المتوفى ترْجيحاً /٢٣١/ هـ ، قيل عنه : إنّه في حماسته أشعر منه في شعره ، إذ كان جيّد الاختيار من أشعار العرب .

[2] المقامات : شكل قديم من أشكال الأدب لـه شـهرته . ومخترعـه الأول بديـع الزمـان الهمذانـي واسمه أحمد بن الحسين وكنيته أبو الفضل . توفي عام /٣٩٨/ هـ .

فإنه الكتابُ الذي يُتعَلم مِنْهُ الحِكمُ والمواعظُ ، والخُطَبُ والتوحيدُ والشجاعةُ والزهدُ وعلوُّ الهمّة ، وأدنى فوائدِهِ الفصاحةُ والبلاغةُ ، وعدلَ الناس إلى ((اليمني)) للعتبي [١] ، وهو كتاب صنفه مؤلفه ليمين الدولة محمود بن سبكتكين [٢] يشتمل على سير جماعةٍ مِنَ المُلوك بالبلاد الشرقية ، عبر فيه بعبارات حظها من الفصاحة وافر وصاحبها إن لم يكن ساحراً فهو كاتبٌ ماهر ، والعَجَمُ مشغوفون به مُجِدّون في طلبه وهو لعمري كِتابٌ يشتَمِل على ظرائف حِكَمٍ ، وبدائعِ سِيَرٍ ، مع ما فيه من فنونِ البلاغةِ ، وأنواعِ الفصاحَةِ ، ولعلّ قائلاً أن يقول : لقد بالغ في وصف كتابه ، وحشا ما شاء في جِرابِهِ ، والمرء مفتونٌ بابنِهِ وشِعْرِه ، فإن اعتراه ريب فليتأمّل الكُتُبَ المُصنّفَةَ في هذا الفنّ ، فلعله لا يرى فيها كتاباً أجْمَعَ للمَعنَى الذي قُصِدَ بهِ مِنْ هذا الكتاب .

وهو أعزّ اللهُ نصرَه [٣] ، وسر بدوام السعادة سِرّه ، قد أغناه الله بالذِّهْنِ القاهر والفَضْلِ الباهِرِ ، عَنْ هذا الكتاب وعَنْ أمثالِهِ ، ولكنّ مهامَّهُ الشّريفةَ رُبّما أضْجَرَته وأنْسَتْهُ ، فإذا رَوّحَ فِكْرَهُ الشريفَ بالنظرِ فيهِ دَفَعَ به الملال ،وتذكّر بهِ ما أنْسَتْهُ الأشْغالُ .

ومن ألطافِ اللهِ تَعالى أسْأَلُ ألّا يُخْلِي هذا الكتابَ مِنْ فائدتين ، إحْداهُما تَخُصّني : وهي أن يَقَعَ عِنْدَهُ بموقعِ الاستصوابِ ، فأبرأ مِنْ عهْدَةِ الخجل ، والأخْرى تخصّهُ : وهي ألا يُعْدِمَهُ الانتفاعَ به في القولِ والعمل ، إنه ولي كلّ نعمة ومُسدي [٤] كُلّ عارِفةٍ .

---

[١] أبو نصر العُتْبيّ : مؤرخٌ عاش في خراسان له كتاب (اليمنيّ) في تاريخ محمود بن سُبكْتكين الغزنويّ . توفي /١٠٣٦/ م .

[٢] محمود بن سُبكْتُكين الغزنويّ لقبه يمين الدولة هو ثالث ملوك الغزنويين وأشهرهم ، كتب سيرته المؤرخ العُتْبي المذكور آنفاً ، توفي /١٠٣٠/ م .

[٣] المقصود بالدعاء عيسى بن إبراهيم أمير المَوْصِل الذي قدّم إليه المؤلف ابن طاطبا كتابه ((الفخري في الآداب السلطانية)) عام /٧٠١/ هـ .

[٤] أسْدى العارفة أو المعروف : قدّم المعروف إلى غيره .

الفصل الأول
في الأمورِ السُلْطانيّةِ والسّياساتِ الملَكيَّة

أمّا الكلامُ على أصلِ المُلْك وحقيقته ، وانقسامه إلى رياساتٍ دينية ودُنيوية ، من خِلافةٍ وسلطنةٍ ، وإمارةٍ وولايةٍ ، وما كان من ذلك على وجْه الشرع وما لَمْ يَكُنْ ومذاهب أصحابِ الآراءِ في الإمامة ، فليْس هذا الكتابُ موضوعاً للبحثِ عنْهُ ، وإنّما هُوَ موضوعٌ للسّياساتِ والآدابِ التي يُنتفعُ بها في الحوادثِ الواقعة ، والوقائع الحادثةِ ، وفي سياسةِ الرعيّةِ وتحصينِ المملكة ، وفي إصْلاحِ الأخلاقِ والسِّيرةِ .

فأوّلُ ما يقالُ : إن المَلِكَ الفاضلَ هُو الذي اجتمعتْ فيه خِصالٌ وعدمتْ فيه خِصالٌ ، فأمّا الخِصالُ التي يُستحبُ أن توجد فيه : فمِنْها العقلُ : وهْو أصْلُها وأفْضلُها وبه تُساسُ الدُوَلُ بالمُلك ، وفي هذا الوصف كفايةٌ .

ومنها العَدْلُ : وهوَ الذي تَسْتَغْزِرُ بِهِ الأمْوالُ ، وتَعْمُرُ بِهِ الأعْمالُ ، وتُسْتَصلَحُ به الرِّجالُ :

ولما فتحَ السُّلطانُ ((هولاكو)) [1] بغْداد في سنة ستٍ وخمسين وستّمائةٍ ، أمَرَ أن يُستَفْتى العلماءُ ، أيهّما أفضلُ ، السلطانُ الكافرُ العادلُ ، أم السلطان المسلمُ الجائر ؟ ثمّ جَمَعَ العلماءَ بالمُستنصريّة [2] لذلك ، فلما وقفوا على الفتيا أحْجموا عَنِ الجوابِ ، وكان رضيُّ الدينِ عليُّ بنُ طاووس [3] حاضراً هذا المجلس ، وكان مُقدّماً ، فلما رأى إحْجامهم تناول الفتيا ، ووضع خطّهُ فيها بتفضيل العادلِ الكافرِ على المسلم الجائر فوضعَ الناسُ خُطوطَهُمْ بعْده .

ومنها العِلْمُ : وهو ثمرةُ العقل ، وبه يستبْصر المَلكُ فيما يأتيه ويذرُهُ ويأمَنُ الزللَ في قضاياهُ وأحكامه،وبه يتزيَّنُ المَلكُ في عُيونِ العامّة ويصيرُ به معْدوداً في خواص الملوك .

---

[1] هُولاكو : فاتح مغولي ، حفيد جنكيزخان ، قضى على الخلافة العباسيّة في بغداد سنة /٦٥٦/ هـ . كسرَ وأبادَ جيشَهُ المماليكُ في عين جالوت سنة /٦٥٨/ هـ . مات عام /٦٦٣/ هـ .

[2] المستنصريّة : ضاحية معمورة أنشأها الخليفة المستنصر ، واحتلها هولاكو سنة /٦٥٦/ هـ .

[3] عليّ بن طاووس : من فقهاء بغداد في عهد المستعصم العباسي ولم نعثر له على ترجمةٍ وافيةٍ

قال بعضُ الحكماء : الملِكُ إذا كان خلواً من العلم كان كالفيل الهائج ، لا يمرُّ بشيءٍ إلا خَبَطَهُ ، ليسَ له زاجِرٌ منْ عقل ، ولا رادعٌ منْ علم .

واعلمْ أنَّهُ لَيْس المُرادُ بالعلمِ في الملوكِ هو تصوَر المسائلِ المشكِلة ، والتبحّر في غوامضِ العُلوم ، والإغراقُ في طلبها ، قال معاوية : ما أقبح بالملكِ أنْ يُبالغَ في تَحْصيل عِلْمٍ مِنَ العُلوم ! وإنّما المُرادُ منَ العُلومِ في الملك ، هو ألا يكونَ له أنسٌ بها إلا بحيثُ يُمكِنُه أن يُفاوِضَ أرْبابَها فيها ، مفاوضةً يندفعُ بها الحالُ الحاضِرُ ولا ضرورةَ في ذلكَ إلى التدقيقِ .

كان مُؤيّدُ الدينِ مُحمّدُ بنُ العَلْقَمي وزيرُ المستعصم [١] - وهو آخرُ وزراءِ الدّولةِ العبّاسية - يُفاوِضُ كُلَّ مَنْ يَدْخُلُ عليه منَ العُلماء مُفاوضةَ عاقلٍ لبيبٍ محصّلٍ ولم يكنْ له بالعلومِ مَلَكَةٌ ، ولا كان مُرتاضاً بها رياضةً طائلةً .

كانَ بَدْرُ الدينِ لُؤلُؤ صاحبُ المَوْصِل ، لِكَثْرةِ مُجالسةِ الأفاضل وخَوْضِه في الأشْعارِ والحِكايات ، يَستَنْبطُ المعاني الحَسنة على النُّكت اللطيفة ، مع أنه كان أُمّياً لا يكتب ولا يقرأ .

وكان عزُّ الدينِ عَبْدالعزيزِ بنُ جَعْفر النَيسابوريّ [٢] - رضي اللهُ عنهُ - لمِجالَسةِ أهْلِ الفضل ، ولكثرةِ مُعاشَرتِهمْ لهُ ، يتنبّهُ على معانٍ حسنة ، ويَحلُّ الألغازَ المُشكِلَةَ أسْرَعَ منْهُمْ ، ولم يكنْ له حظٌّ مِنْ علمٍ ، وما كانَ يَظْهرُ للناس إلا أنّهُ رجُلٌ فاضِلٌ وخفيَ ذلكَ حتّى على الصّاحِب علاء الدين ، فإن ابن الكبّوش الشاعر البَصْريَ عملَ بيتَينِ في الصاحبِ ونسبُهما إلى عبدالعزيزِ وهُما :

عَطا مَلِكٍ عطاؤكَ ملكَ مِصْرٍ ... وَبعْضُ عبيدِ دَولَتِكَ العَزيزُ
تُجازي كلَّ ذي ذَنْبٍ بِعَفْوٍ ... ومِثْلُكَ مَنْ يُجازي أو يُجيزُ

(وافر)

---

[١] هو محمّد بن أحمد بن العلقميّ ، لقبُه مؤيّد الدّين . وزيرٌ أديب أريب فاضلٌ لآخر خلفاء العباسيين المستعصم . وثق به هولاكو بعد قتل الخليفة . توفي بعد شهور من سقوط بغداد عام /٦٥٦/ هـ .

[٢] عزّ الدين عبدالعزيز بن جعفر النيسابوري ، والصاحب علاء الدين ، وابن الكبّوش ممّن لم تترجمْ لهم كُتُب الأعلام ويبدو أنهم من معارف المؤلف والمعاصرين له أو الملازمين لذاكرته .

فأنشدهما عبدُالعزيز بحضرة الصاحب وادّعاهما ، وخفي الأمرُ على الصّاحب وما أدري مِنْ أيّهما أعْجبُ ؟! أمن الصّاحب كيف خفي عنْهُ حالُ عبدِالعزيز مع أنه السنين الطويلة يعاشِرُهُ في سفرٍ وحضرٍ ، وجدٍ وهزْلٍ ؟ أمْ مِنْ عَبْدِالعزيزِ كيْفَ رضيَ لِنفْسه مثلَ هذه الرّذيلة ، وأقْدَمَ على مثْل هذا مع الصاحب وما خافَ من تنَبُّهِ الصاحبِ واسترذاله لِفعْله .

وتختلفُ علومُ الملوكِ باختلافِ آرائهمْ ، فأمّا مُلوكُ الفرس : فكانتْ عُلومهُمْ حِكماً ووَصايا ، وآداباً وتواريخ ، وهنْدسةً وما أشبه ذلك . وأما عُلومُ ملوكِ الإسلام فكانت عُلوم اللسان ، كالنّحْوِ واللُّغة ، والشّعْر والتواريخ ، حتّى إنّ اللحنَ كان عِنْدهُمْ مِنْ أفحشِ عُيوبِ المَلكِ ، وكانتْ منْزلةُ الإنسان تعلو عنْدهُمْ بالحكايةِ الواحدةِ وبالبيتِ الواحِدِ مِنَ الشّعْرِ ، بل باللفظة الواحدة من اللُغة . وأما في الدولةِ المغُوليّة : فرُفِضَتْ تلك العلومُ كلّها ، ونفقتْ فيها علومٌ أخر : وهي علْم السّياقة والحِساب لِضَبْط المَملكةِ وحَصْرِ الدّخْل والخرْج ، والطِّب لحفظِ الأبدان والأمزجة ، والنجومِ لاختيارِ الأوقاتِ وما عدا ذلك مِنَ العُلومِ والآداب فكاسدٌ عنْدهم ، وما رأيته نافقاً إلا بالمَوْصِلِ في أيام مَلِكِها المشار إليه ، مدّ اللهُ ظِلّهُ ونشرَ فضْلهُ .

ومِنْهاُ الخوفُ مِنَ الله تعالى ، وهذه الخصلةُ هي أصلُ كُلِّ بركةٍ ، فإن المَلِكَ متى خافَ اللهَ أمِنهُ عِبادُ الله رُوِيَ أن عليّاً أمير المُؤمنين – عليه السلامُ – استدْعى بصوتِهِ بعْضَ عَبيدِهِ فلَمْ يُجبْه ، فدعاه مراراً فلم يُجبْه ، فدخل عليه رَجُل ، وقال : ياأميرَ المؤمنينَ إنّهُ بالبابِ واقف ، وهو يسْمَعُ صوتك ولا يُكلِّمُك ! فلمّا حَضرَ العَبْدُ عِنْدَهُ ، قال : أما سَمِعْتَ صَوْتي ؟ قال : بلى ، قال : فما منعك من إجابتي ؟ قالَ : أمِنْتُ عقوبَتك ، قال عليٌّ عليه السّلام : الحمْدُ لله الذي خَلَقني ممّن يأمَنُهُ خلْقُهُ . وما أحسنَ قولَ أبي نُواس[1] لهارون الرشيدِ :

---

[1] أبو نُواس : الحسن بن هانئ الشاعر العبّاسي الأشهر ونديم الخليفة الرشيد . توفّي عام /١٩٥/ هـ .

قَدْ كُنْتُ خِفْتُكَ ثم آمَنَـني مِنْ أنْ أخَافَكَ خَوْفُكَ اللهَ

(كامل)

ولم يكن الرّشيد يخافُ اللهَ ، وأفعالُهُ بأعيانِ آل عليّ ، وهُمْ أولادُ بنْتِ نبيِّهِ لِغَيْرِ جُرْمٍ ، تَدُلُّ على عَدَمِ خوْفِه من الله تعالى ، ولكنّ أبا نُواس جرى في قوْلِه على عادة الشّعراء .

ومنها العفوُ عن الذنوبِ ، وحسنُ الصفح عن الهفَوات : وهذه أكبرُ خصال الخير وبها تستمال القلوب ، وتصلح النيات ، فمما جاء في التنزيل من الحث على ذلك قوله تعالى شأنه : { وليَعفُوا وليصفَحوا ألا تُحبّونَ أن يغفرَ اللهُ لكم } [1] ، وكان المأمون حليماً حسَنَ الصّفْحِ معروفاً بذلك ، هجاه دعْبل الشاعر بأشعار كثيرةٍ من جُمْلتها :

إنّي منَ القومِ الذين سُيوفُهم قَتَلَتْ أخاكَ وشرَّفتْكَ بمَقْعَدِ
شادُوا بذكرِكَ بعد طُولِ خُمولِهِ واستنقذوكَ من الحضيضِ الأوْهَدِ

فلما بلغهُ هذا القولُ لم يزدْ على أن قال : قاتَلَهُ اللهُ ما أشدَّ بُهتانَهُ ، متى كنتُ خاملاً وفي حِجْرِ الخلافةِ نشأتُ وبدرِّها أُرْضِعتُ ؟! ولمّا بلغهُ أنّ دعبلاً قد هجاه قال من أقدمَ على هجاء وزيري أبي عباد [2] ، كيف لا يُقْدِمُ على هجائي ؟! وهذا الكلام ظاهِرُهُ غير مستقيم ، وهو يحتاج إلى تأويل ، فإنّه عكسُ المعْهود ، قد كان ينبغي أن يقول الوزير : من أقدم على هجاءِ الخليفة كيف لا يُقْدِمُ على هجائي ومعنى قولِ المأمونِ : أنّ مَنْ أقدمَ على هجاءِ أبي عبادٍ مع حدّتِهِ وهوْجِه وتسرّعِهِ – وكان أبو عباد كذلكَ – كيفَ لا يُقدم عليَّ في حِلْمي وصفْحي ؟! .

ولولا خوفُ الإطالةِ لذكرْتُ جماعةً من حُلماءِ الملوك في هذا الموضع ، ولكنْ ليسَ هذا الفصلُ موضوعاً للسَّمَرِ وسيَرِدُ منْ ذلكَ ما يُمتِّعُ – إن شاء الله – في الفصل الثاني .

---

[1] سورة النور ، الآية /٢٢/ .

[2] أبو عباد : ثابت بن يحيى بن يسار الرازي ، هو الوزير الخامس ممّن استوزرهم الخليفةُ المأمون ، وسوف تأتي سيرته مع وزراء المأمون .

ومنهمْ مَنْ يرى أنّ الحِقْدَ خَصلَةٌ محمودةٌ في المَلِك ، قال بُزَرْ جُمهرُ [١] : يجب أن يكون الملك أحقدَ مِنْ جَمَلٍ ، وأنا أناظره في هذا القول فأقول : كيف يقالُ كذلك والملك متى كان حقودا فسدت نيّته لرعيّته فمقَتَهمْ ، وقلّ الالتفات إليهم بالشفقةِ عليهم ومتى أحَسُّوا بذلك تغيّرتْ نياتُهم لهُ ، وفسدتْ بواطنُهم ، وهل يتمكّنُ الملكُ مما يريدهُ من مهمّات مملكته ، وبلوغِ أغراضه كما في نفسه ، إلّا بصفاء قلوبِ رعيّتِهِ ؟وأيُّ حكمةٍ في ذلك ؟ وهل فيه سوى تنغيصِ عيش الملك وتبْغيض رعيّته إليْهِ ، وإيحاشِهِمْ منهُ ؟ قال شاعر العرب [٢] :

ولا أحْمِلُ الحِقْدَ القديمَ عليهِمُ وليسَ رئيسُ القومِ مَنْ يحمِلُ الحِقدا

(طويل)

خصوصاً والناس مركّبون على الخطأ ، ومجبولون على تشميرِ الطباع ، فما أكثر ما تصدر منهم موجباتُ الحقد ! فلا يزالُ الملك طول دهره يعاني من الغيظِ والحِقْدِ عليهم ، ما ينغّص عليه لذّتَهُ ، ويشغله عن كثير من مهامِّ مملكته ، وما أكثرَ ما رأينا الرعيّةَ أو الجندَ قد وثبوا على ملوكهم ، فسلبوهم رداءَ المملكةِ بل رداء الحياةِ ! فابتدِئْ مِنْ عُمَر بن الخطاب ، وقد وثب عليه لؤلؤة [٣] عبدُ المغيرةِ بنِ شُعْبة فقتلهُ ، ثم ثَنِّ بعثمانَ بنِ عفانَ – رضي الله عنه – وانظر كيفَ اجتمع عليه رعيّتُهُ من كلِّ جانب ، فحاصروه في داره أيّاما ثم دخلوا عليه فقتلوه ، والمُصْحَفُ في حِجْرِهِ حتى قطرت قطرات من دمه على المُصْحَف ، ثم ثلّثْ بعليِّ بنِ أبي طالب – عليه السلام – وقد ضربهُ عبدُالرحمن بن مُلْجِم – لعنه الله – بسيفِهِ على أمِّ رأسِهِ

---

[١] بُزرْ جُمُهْر : ابن البُختكان ، وزيرٌ حكيم فارسيٌّ له قصّةُ تاريخِ انتساخ كتاب ((كليلة ودمنة)) وله حِكَمٌ منثورة في كتاب ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة .

[٢] شاعر العرب : عني به هنا المقنع الكندي ، وقد اشتهر بقصيدته الفخرية الداليّة التي منها هذا البيت . اسمُه محمد بن عميرة وهو من شعراء العصر الأموي توفي نحو /٧٠/ هـ .

[٣] هو أبو لؤلؤة المجوسيّ الفارسي . انظر حدث الاغتيال في" تاريخ الخلفاء " لجلال الدين السيوطي . طبع دار القلم العربي بحلب ص ١٤٢ . وستلي أخبار مصارع الخلفاء الراشدين في صفحات لاحقة .

بالكوفة فقتلَهُ ، وكان ابنُ مُلْجم مِنَ الخوارج ، هذا في الصدر الأول والناس ناس والدين دين ، ثم تَنَقَّلَ دولةً فدولةً ، وأياماً فأياماً ، إلى أواسط دولة بني العَبّاسِ ، فانظر منذُ عهدِ المتوكل إلى عهد المقتفي ماجرى على واحدٍ واحدٍ من الخلفاء من القتل والخلع والنهب ، بسبب تغير نيات جنده ورعيّته . فهذا سُمِل [1]، وذاك قُتِل ، والآخرُ عُزِل . ثم اسرحْ طَرفَكَ في الدولتين البويهية والسلجوقية تر من هذا الباب عَجَباً . ثم ارجع البصرَ إلى أونكخانَ ملك الترك ، كيف لما تنكّرتْ نيّته على جنكيزخانَ [2] ، وحقد عليه أشياءَ عرضها عليه عِنْدَهُ حُسّاده ، وأراد الوقيعة به وأعلمه بذلك الصبيان فرَحَلَ من ليلته ، ثم حشد وجَمَع ووثب على أونكخان فقتله وملكَ مَمالِكَهُ – تَعلّمْ أن الحقدَ من أضرّ الأشياء للمَلِكِ ، وأن أوفقَ الأشياء له الصفحُ والعفوُ والغفرانُ والتناسي . وما أحسن قول القائل :

اقبَلْ مِنَ النّاس ماتيَسّرْ وَدَعْ مِنَ النّاسِ ما تَعَسّرْ

فإنّما النّاسُ مِنَ زجاجٍ إنْ لَم تَرفِقْ بهِ تَكَسّرْ

(منسرح)

وقد مدح بعضُ الشعراء الحقد ، ولم يسمع بمن مدح الحقد غير هذا ، فقال :

وما الحِقْدُ إلا تَوْأَمُ الشُكْر في الفتى وبعضُ السجايا ينتسبْنَ إلى بَعْضِ

فحيثُ ترى حِقْداً على ذي إساءةٍ فثَمَّ ترى شُكْراً على سالِفِ القَرْضِ

إذا الأرضُ أدت رَيْعَ ماأنْتَ زَارِعٌ من البَذْرِ فهي ناهيكَ مِنْ أرْضِ

(طويل)

هذا قولٌ لا يُعرجُ عليه . وإن عرّجَ عليه أحَد فليعرّجْ عليه غيْرُ الملِك ، فإنّ المَلِكَ أحوجُ الخَلْقِ إلى استِصلاح النّيات ، واستصفاءِ القُلوب .

وَمِنَ الخصالِ التي يُستَحَبُّ أن تكونَ في المَلِك ، الكَرمُ : وهو الأصلُ في استمالةِ القُلوبِ ، وتحصيلِ النصائحِ مِنَ العالمِ ، واستخدام الأشراف . قال الشاعر :

---

[1] سُمِلَ : قُلِعَتْ عَيْنُه .

[2] جنكيزخان : مؤسس الإمبراطورية المغولية ، من سلالته هولاكو وتيمورلنك . مات /٦٢٥/ هـ .

إذا مَلِكٌ لم يكنْ ذا هِبَه [١] فَدَعْهُ فَدَوْلَتُه ذاهِبَهْ

(متقارب)

ومما جاء في الحديث النبوي – صلوات الله على صاحبه – ((تجاوزوا عن ذَنْب السخيّ ، فإنّ الله آخذٌ بيده كُلّما عثر ، وفاتحٌ عليه كلّما افتقر)) . وقال عليٌّ – عليه السلام – ((: الجودُ حارسُ الأعْراض)) . واعلَم أنه لم تتضمَّنْ سيرةٌ من حكايات الجود مِثْلَ مانُقِلَ عن قانِ العادل (وهو أو كتاي بنُ جنكزخان)، فانه غَبَّر [٢] في وجوه جميع كرام الملوك .

مَنَاقِب تفتقُ مارَقَّتْمُ مِنْ جود كعبٍ[٣] وسَماحِ حاتمِ

(رجز)

ومن الاتفاقات الحسنة ، وجوده في عصر المُستنصر بالله . وكان المُستنصرُ أكرمَ من الريح ، ولكن أين يقعُ جودُهُ من جُودقان ؟ ومن أين للمستنصر[٤] مال يفي بعطايا قان ؟.

ومنها الهَيْبَة : وبها يُحفَظُ نظامُ المملكة ، ويُحرسُ منْ أطماع الرعيّة . وقد كان الملوك يبالغون في إقامةِ الهيْبة والنامُوس ، حتى بارتباط الأسود والفيلة والنمور ، وبِضَرْبِ البُوقاتِ الكبارِ كبوقِ النفير ، والدَّبادب [٥] والقصَع ، ورَفْع السَّناجقِ[٦] ، وخَفْقِ الألوية على رُؤوسهم . كلُّ ذلك لإثبات الهيْبة في صُدورِ الرعية ، ولإقامة ناموسِ المملكة . كان عضُدُ الدولةِ إذا جلَس على سريره أحْضِرتْ الأسودُ والفِيلةُ والنمورُ في السلاسل ، وجُعِلَتْ في حواشي مجلِسِه ، تهويلاًبذلك على الناس ، وتَرْويعاً لهم .

---

[١] ذا هبة : صاحب عطاء . وفي البيت جِناسٌ بديعيٌ واضح .

[٢] غبَّرَ في وجوههم : فاقَهم وغلبهم ، وهنا الغلبةُ في مجال الكرم .

[٣] كعب : هو كعب بن مامة من أشهر أجواد العرب بعد حاتم الطائي .

[٤] المستنصر :الخليفة العبّاسي قبل الأخير من خلفاء بغداد ، عاصر أوكتاي بن جنكيزخان . توفي /٦٤٠هـ .

[٥] الدَّبادب : الطُّبول . [٦] السَّناجق : الألوية والرايات

ومنها السِّياسةُ : وهي رأسُ مالِ الملك ، وعلَيْها التَّعْويلُ في حقنِ الدماء ، وحِفْظِ الأمْوالِ ، ومَنْعِ الشُّرورِ ، وقَمْعِ الدعّار [١] والمُفسدين ، والمنْعِ من التظالم المؤدّي إلى الفِتْنَة والاضطراب .

ومنها الوفاءُ بالعَهْد : قال تعالى سلطانُه : { **وأوفُوا بالعَهْدِ إن العَهْدَ كانَ مَسئولا** } [٢] . وهو الأصْلُ في تسكينِ القُلوب ، وطُمأنينةِ النفوسِ ، وَوثوق الرعيّة بالملك إذا طَلَبَ الأمانَ منه خائفٌ ، أو أراد المعاهدةَ منْهُ مُعاهد .

ومنْها الاطّلاعُ على غوامِضِ أحْوال المملكَةِ ودقائقِ أمورِ الرعيّةِ، ومُجازاةُ المُحْسِنِ على إحْسانِه والمسيءِ على إساءتِه. كان أردشير [٣] الملك يقولُ لمنْ شاءَ من أشرافِ رعيّته وأوضاعِهم : كانَ البارحةَ منْ حالك كيت وكيت حتىّ صار يقال إنّ أردشير يأتيه مَلَكٌ من السّماء يخبرُه بالأمور . وماذاك إلا لتيقظه وتصفّحه .

فهذه عشْرُ خصالٍ من خِصالِ الخيرِ ، منْ كُنَّ فيهِ استَحَقَّ الرياسةَ الكبْرى .

ولَوْ نظرَ أصحابُ الآراءِ والمذاهب حقّ النظرِ ، وتركوا الهوى ، لكانَتْ هذه الشرائِطُ هي المُعْتَبرة في استحقاقِ الإمامة، وماعداها فغيرُ طائل . وقال بُزُرْجُمهر [٤] . ينبغي أن يكونَ الملِكُ كالارضِ في كتمانِ سرّه وصَبْره ، وكالنارِ على أهلِ الفساد وكالماءِ في لينهِ لمِن لاينهُ ، وينْبغي أن يكونَ أسْمعَ منْ فرس ، وأبْصَر مِنْ عُقابٍ ، وأهدى مِنْ قطاةٍ ، وأشدَّ حذراً مِنْ غُراب ، وأعظمَ إقداماً من الأسَد ، وأقوى وأسرعَ وثوباً مِنَ الفَهْد وينْبَغي للملكِ ألا يستَبِدَّ برأيه وأنْ يُشاوِرَ في الملمّات خَواصَّ الناسِ وعُقلاءَهُمْ ومَنْ يتفرَّسُ فيه الذكاءَ والعقلَ وجَودَةَ الرأيِ ، وَصِحّةَ التمييزِ وَمَعْرِفَةَ الأُمورِ . ولا ينبغي أن تمنعهُ عزّةُ المُلْك من ايناسِ المستشارِ بهِ وبَسْطِهِ ، واستمالةَ قلْبه حتى يَمْحَضَه النّصيحةَ فإن أحداً لا ينصحُ بالقسْر ولا يعطي نصيحَتَه إلا بالرّغبة ، وما أحْسَنَ قَوْلَ الشاعر في هذا المعنى :

---

[١] الدُّعّار : جمع داعِر ، وهو الفاسِق المُجاهر .

[٢] سورة الإسراء ، الآية /٣٤/. .

[٣] أردشير : مؤسس المملكة الساسانية من الفُرْس . ولعلّ الكلمة تعني مطلق الملك بالفارسية .

[٤] بزُرْجُمهر : وزير وحكيم فارسي ، سبقتْ ترجمتُه .

أُهانُ وأُقصى ثم يَسْتَنْصِحونَني ومن ذا الذي يُعطي نَصيحَتَهُ قَسْرا ؟!

(طويل)

قال الله تعالى : { **وشاوِرْهُمْ في الأمرِ** } وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُشاوِرُ أصحابَه دائماً .

لمّا كانتْ وقعةُ بَدْرٍ [١] خَرَجَ - صلّى الله عليه وسلّم - من المدينةِ في جماعةٍ من المسلمين ، فلما وَصَلوا بَدْراً نزلوا على غيرِ ماء ، فقام إليه رَجُلٌ [٢] من أصحابه وقال : يارسول الله : نزولك هاهنا شيء أمرك الله به أو هو من عِنْدِ نَفْسِك قال : بل هو من عِنْدِ نَفْسي ، قال : يارسولَ الله : إن الصَّوابَ أن تَرْحَلَ وتَنْزِلَ على الماء فيكونَ الماءُ عندنا ، فلا نخافُ العَطَشَ ، وإذا جاء المشركون لا يجدون ماءً ، فيكونُ ذلك مُعيناً لنا عليهم ، قالَ رسولُ الله ، صدقْتَ ، ثم أمرَ بالرحيل ، ونزلَ على الماء ، واختلف المتكلّمون في كون الله تعالى أمر رسولَهُ بالاستشارةِ ، مع أنه أيّدهُ ووفّقه ، وفي ذلك أرْبعةُ وجوهٍ : أحدها : أنّهُ - عليه السلام - أُمِرَ بمشاورةِ الصحابةِ استمالةً لقلوبهم وتطييباً لنفوسهم . والثاني : أنه أُمر بمشاورتِهِمْ في الحرب ليستقرَّ له الرأيُ الصحيحُ فيعمل عليه . والثالث : أنّه أُمرَ بمشاورتِهِمْ لما فيها مِنْ النفع والمصلحة . والرابع : أنه إنما أُمرَ بمشاورتهمْ ليقتدي به الناس ، وهذا عندي أحْسَنُ الوجوه وأصلحُها . قالوا : الخطأُ مع المَشُورةِ ، أصلحُ من الصواب مع الانفراد والاستبداد ، وقال صاحبُ كليلة ودمنة[٣] :

لا بدَّ لملِكٍ من مستشارٍ مأمورٍ يُفضي إليه بسرِّهِ ، ويُعاونُهُ على رأيِهِ ، فإن المستشيرَ - وإن كان أفضل من المستشار وأكمل عقلاً وأصحَّ رأيًا - قد يزدادُ برأيِ المشير رأياً ، كما تزدادُ النارُ بالدُّهنِ ضوْءاً ونُوراً ، قالَ الشاعرُ :

---

[١] انظر خبر موقعة بدر في سيرة ابن هشام أو مختصر السيرة بإعداد محمد عفيف الزعبي ص /١٢٢/ .

[٢] هو الحُباب بن المنذر . انظر مختصر السيرة ص /١٢٢/ .

[٣] لعلّه قصدَ بُزُرْ جُمهر الوزير الحكيم الفارسي ، أو عبدالله بن المقفع المترجم لكليلة ودمنة عن الفارسيّة .

إذا أعوزَ الرأيُ المشورةَ فاستَشِرْ   برأيِ نَصيحٍ أو مَشُورةِ حازِمِ [1]

(طويل)

واعلَمْ أنّ للمَلِكِ أُموراً تخصُّه يتميز بها عن السوقة ، فمنها : أنه إذا أحبَّ شيئاً أحبه الناس ، وإذا أبغض شيئاً أبغضه الناس ، وإذا لَهِجَ بشيء لهج به الناس إمّا طَبْعاً أو تَطَبُّعاً ، ليتقربوا بذلك إلى قلبه ، ولذلك قيلَ : الناسُ على دينِ مُلوكِهِمْ فانظرْ كيفَ كانَ زيُّ الناسِ في زمنِ الخلفاء ، فلما ملكت هذه الدولة -أسبغ الله إحسانَها وأعلى شأنَها- غيَّرَ الناسُ زِيَّهُم في جميعِ الأشياء ، ودَخَلُوا في زيِّ مُلوكِهِم بالنطقِ واللباس ، والآلاتِ والرُّسوم والآداب ، مِنْ غيرِ أن يكلّفوهم ذلك أو يأمُروهم به أو يَنْهوهم عنه ، ولكنهم علموا أن زِيَّهُمْ الأوّلَ مستهجَنٌ في نظرهِمْ ، مُنافٍ لاختيارِهم فتقرّبوا إليهم بزِيِّهم ومازال الملوكُ في كلِّ زمانٍ يختارون زِيّاً وفنّاً ، فيميلُ الناسُ إليه ويلهَجُون بهِ ، وهذا من خواصِّ الدولةِ وأسرارِ الملك .

ومِنْ خَواصِّ المَلِكِ : أن صحبَتَهُ تورِثُ التيهَ والكِبْرِ ، وتقويَ القلْبَ وتكبُّرُ النفس وليسَ صحبةُ غيرِ الملِكِ تفعلُ ذلك ، ومن خواصّه : أنه إذا أعْرَضَ عن إنسانٍ وجد ذلك الإنسانُ في نفسِهِ ضعْفاً ، وإن لم ينَلْهُ بمكروهٍ ، وإذا أقبل على إنسانٍ وَجَدَ ذلكَ الإنسانُ في نفْسِهِ قوّةً ، وإنْ لم يُصِبْهُ منْهُ خيْر ، بلْ مُجرَّدُ الإعراضِ ، والإقبالِ يفْعَلُ ذلكَ ، وليسَ أحدٌ من الناسِ بهذه المنزلة غيرَ السُّلْطانِ .

وأما الخِصالُ التي يُستَحَبُّ أن تكونَ معدومةً فيه : فقد ذكرها ابنُ المقفع في كلامٍ له قال : ليسَ للمَلِكِ أن يغضَبَ ، لأنّ القُدْرةَ مِنْ وراءِ حاجتِه ، وليس له أن يكذِبَ لأنه لا يقدر أحدٌ على إلزامه بغيرِ ما يريد ، وليْس له أن يبْخلَ ، لأنه أقلُّ الناسِ عُذْراً في خوفِ الفقْرِ ، وليسَ لهُ أن يكون حقوداً ، لأن قدره قد عَظُمَ عن المجازاة لأحْدٍ على إساءةٍ صدرتْ منْهُ ، وليس له أن يحلف إذا حدَّثَ ، لأن الذي يحملُ الإنسانَ على اليمينِ في حديثِهِ خِلالٌ : إمّا مهانةٌ يَجِدُها في نفْسِهِ واحتياجٌ إلى

---

[1] البيت للشاعر العباسي بشّار بن برد . والشائع في روايته :

إذا بلغَ الرأيُ المشورةَ فاستعِنْ   برأيِ نصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ

وهو من قصيدة طويلة كانت في مدح إبراهيم بن عبدالله بن الحسن العلويّ ، فلمّا قتل ، جعلها بشّار في أبي جعفر المنصور ، الخليفة العبّاسي الثّاني .

أن يُصدّقَهُ الناسُ ، وإمّا عيٌّ وحصرٌ وعجْزٌ عن الكلام ، فيريدُ أن يجْعلَ اليمين تتمةً لكلامِهِ أو حَشْواً فيه ، وإما أن يكون قدْ عرف أنه مشهورٌ عند الناس بـالكذبِ ، فهوَ يَجعلُ نفسه بمنزلةِ من لا يُصدّق ولا يُقْبلُ قولُه إلّا باليمين ، وحينئذٍ كلّما ازداد أيْمانـاً ازدادَ الناسُ له تكذيباً ، والملِكُ بمعزلٍ عَن هذهِ الدنايا كلّها ، وقدْرُه أكْبرُ منْ ذلِك .

ومِنَ الخِصالِ التي يُستَحبُ أنْ تكون معدومةً في الملك : الحدّةُ ، فإنّها رُبّمـا أصْدَرَتْ عَنْهُ فِعْلاً يندمُ عليه حينَ لا ينفعُ الندمُ ، وأكثرُ ما ترى الحداد مِنَ الرِّجـالِ سريعي الرُّجوع ، ولذلك قال - عليه الصلاة السلام - : ((خيرُ أمّتي حِدادُها)) .

ومن الخِصالِ التي يُستَحبُ عدمُها في الملكِ : الضّجرُ والسّأمُ والمللُ ، فذلك من أضرّ الأُمورِ وأفسدِها لحالِهِ .

واعلَم أنّ للملكِ على رَعيّتِهِ حُقوقاً ، وأنّ لهمْ عليهِ حُقوقاً ، فأمّا الحقوقُ التي تَجِبُ للملِك على رعيّته ، فمنها الطاعةُ : وهي الأصلُ الذي ينتظمُ بـهِ صـلاحُ أمورِ الجمهورِ ، ويتمكن به الملكُ من الإنصـافِ للضعيفِ مـن القويّ ، والقِسْمة بـالحقّ ، وممّا جاءَ في التنزيل من الحثّ على ذلك - وهي الآية المشهورة في هذا المعنـى - قوله تعالى : { **يأأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمْرِ منكـم** } (١) .

ومـن أمثـالهم : ((لا إمْرةَ لِمَـنْ لا يُطـاع)) (٢) . ولـم يُنْقل فـي تـاريخٍ ولا تَضمّنَتْ سيرةٌ مِنَ السير ، أنّ دولةً من الدول رُزِقَتْ من طاعة جُنْدها ورعاياها ، ما رُزِقَتْهُ هذه الدولةُ القاهرة المغوليّةُ (٣) ، فإنّ طاعة جُنْدها ورعاياهـا لهـا ، طاعـةٌ لـم تُرْزَقْها دَولةٌ من الدّول .

فأما الدّولةُ الكِسْرَويّة (٤) : فإنّها على عظمِها وفخامتِها ، لم تبلغْ ذلك ، وقد

(١) سورة النساء ، الآية /٥٩/ .

(٢) نُسِبَ القول إلى الإمام علي بن أبي طالب بعبارة : لا رأيَ لمن لا يُطاع .

(٣) الدولة المغوليّة : عنى بها الدولة التي أسّسها جنكيزخان وامتدّت علـى يدي سلالته إلـى بغداد وغربيّ آسيا ، وحدّت توسُّعها معركةُ عين جالوت عام /٦٥٨/ هـ .

(٤) الدولة الكسرويّة : عنى بها الفارسية التي سمّي كلّ من ملوكها بكسرى .

كانَ النُّعمانُ بنُ المنـذرِ [1] مَلِكُ الحيرةِ نائباً لكسْرى على العرب ، وبين الحيرةِ والمدائنِ التي كانت سريرَ مُلْكِ الأكاسرةِ فراسخُ معدودةٌ والنُّعْمانُ في كلِ أيّامِهِ قدْ عَصا على كِسْرى وإذا حضرَ مَجْلِسَهُ تبسّطَ وتجرّأَ على مُجاوبتِه ، وكان متى أراد خَلْعَ طاعتِه دخلَ البريةَ فأمِنَ شرّهُ .

وأمّا الدُّولُ الإسلاميّةُ : فلا نسبةَ لها إلى هذه الدولة حتّى تُذْكرَ معها ، فأمّا خلافةُ الأربعةِ الأُوَلِ : وهم أبو بكرٍ الصديقُ ، وعُمرُ بنُ الخطّاب ، وعُثْمانُ بنُ عفّانَ - رضي الله عنهم - وعليُّ بنُ أبي طالب - عليه السّلامُ - فإنّها كانت أشْبَهَ بالرُّتَبِ الدينيةِ من الرُّتَبِ الدنيويةِ في جميع الأشياء ، كان أحدُهم يلبسُ الثوبَ من الكرباسِ الغليظ ، وفي رجْله نعلان مِنْ ليفٍ ، وحمائلُ سيفه ليفٌ ، ويمشي في الأسواقِ كبعضِ الرعيّة ، وإذا كلّمَ أدنى الرعيّة أسمَعَهُ أغلظَ منْ كلامِه ، وكانوا يعُدّون هذا من الدينِ الذي بُعثَ به النبيُّ صلواتُ الله عليه وسلامُه ، قيلَ إنَّ عُمرَ ابنَ الخطّاب جاءَتْهُ برودٌ مِنَ اليمن ففرّقَها على المُسْلمين فكان نصيبُ كلِّ رجُلٍ مِنَ المُسْلمين بُرْداً واحداً ، وكان نصيبُ عُمرَ كنصيبِ واحدٍ من المسلمين ، قيلَ : ففصّله عُمَرُ ثم لَبِسَهُ ، وصَعِد المنبر فأمرَ الناس بالجهاد فقام إليه رجُلٌ من المُسْلمين وقالَ : لا سمْعاً وطاعةً ، قالَ لمَ ذلك ؟ قال : لأنك استأثَرت علَيْنا ، قال عُمَرُ : بأيِّ شيءٍ استأثرتُ ؟ قالَ : إنّ الأبرادَ اليمنيّةَ لما فرّقتها حَصَلَ لكلِّ واحدٍ من المسلمين بُرْدٌ منها ، وكذلك حَصَلَ لَكَ ، والبُرْدُ الواحد لا يكفيك ثوباً ، وتراك قد فصّلتَهُ قميصاً تامّاً ، وأنتَ رَجُلٌ طويلٌ ، فلو لم تَكُنْ قد أخذت أكثر منْهُ لما جاءكَ مِنْهُ قميصٌ فالتفت عمر إلى ابنِهِ عبدِالله وقالَ : ياعبدالله أجِبْهُ عنْ كلامه ، فقامَ عَبْدُالله ابنُ عُمَرَ وقالَ : إنَّ أميرَ المؤمنين عُمَرَ لمّا أرادَ تفصيلَ بُرْدِه لم يكفه ، فناولْتُه مِنْ بُرْدي لِأُتَمّمه لَهُ ، فقالَ الرّجُلُ : أمّا الآن فالسّمْعُ والطاعةُ [2] .

وهذه السِّيَرُ ليْسَتْ منْ طرزِ مُلوكِ الدنيا ، وهي بالنبوّات والأمورِ الأُخْرَوِيّة أشبهُ .

---

[1] النعمان بن المنذر أشهر ملوك الحيرة وآخرهم من العرب . كنيتُه أبو قابوس . مدحه النابغة الذبيانيّ . مات في سجن كسرى سنة /٦٠٢/ م .

[2] السمعُ والطاعةُ : لك علينا السمعُ والطاعة ، ونصبُهما واردٌ على تقدير آخر .

وأما خِلافة بني أُميّةَ : فكانت قد عظُمتْ وتفخّم أمْرُها ، وعرُضَتْ مملكتُها [١] ولكنّ طاعتهُمْ لم تكُنْ كطاعةِ هؤلاء ، وكانَ بنو أُميّةَ في الشام ، وكانَ بنو هاشم بالمدينةِ لا يلتفتون إليهم ، وإذا دخلَ الرجلُ الهاشميُّ على الخليفة من بني أمية أسمَعَهُ غليظَ الكلام وقال له كلَّ قولٍ صعْب .

وأما الدّولةُ العباسية : فلم تبلغ طاعة الناس لها مابلغتْ هذه الدولة [٢] ، مع أن مدّتَها طالتْ حتى تجاوزتْ خمسمائةِ سنة، ومملكتُها عرُضتْ حتّى إنّ بعضَهم جبى مُعْظَمَ الدنيا . وستقعُ الإشارةُ إلى ذلك عنْد الكلامِ على دولةِ بني العبّاسِ . وحاصلُ الدنيا في أيّامِ الرشيدِ ، في حسبةٍ جامعة تشتملُ عليها كتُبُ التواريخ - يدل على ذلك . فأما أوائلُهمْ : فجبَوا شطرا صالحاً من الدنيا . وقويتْ شوكتُهم . كالمنصورِ والمهديّ والرشيدِ والمأمونِ والمعتصم والمعتضد والمتوكل . ومع ذلك لم تكن دولتُهم تخلو من ضعْفٍ ووهْنٍ من عدةِ جهاتٍ : منها امتناع الروم عليهم ، وقيامُ الحربِ بينهم وبين ملوكها النّصارى في كلّ سنةٍ على ساق . ومع ذلك كانت جبايَتُها تستصعبُ عليهم ومُلوكُها لايزالونَ على الامْتناع منْهُمْ ، وقد كانَ منْ أمْر المعتصم وعمّورية ما بَلَغك ولعلّ طرفاً منْهُ يبلغك في هذا الكتاب : عند الكلام في الدّولة العباسية .

ومن أسبابِ الوَهْنِ الواقعِ في دولتهم خروجُ الخوارجِ في كلّ وقتٍ . فأمّا المَنْصورُ: فلم يشرب ريقاً حُلْواً منْ ذلك ، وخرج عليه النَّفْسُ الزكية محمّدُ بنُ عبدِ الله بنِ الحسنِ بنِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ - عليهمُ السَّلامُ - بالحجاز فجرتْ بينهُ وبينَهُ حُروبٌ أفضَتْ إلى إرْسال عيسى بن موسى بن محمّد بن عليّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبّاس إلى الحِجازِ لمحاربةِ النّفْسِ الزكيّة ، فقتلهُ بموضعٍ قريبٍ من المدينة يُقالُ لهُ أحجارُ الزّيت . وذلك في سنةِ كذا [٣] ، ولذلك سُمّيَ النفسُ الزكيّةُ قتيلَ أحجارِ الزّيْت

---

[١] عرُضَت المملكةُ : اتّسعت عرْضاً .

[٢] هذه الدولة : عنى بها الدولة المغولية بعد فتح هولاكو لبغداد ٦٥٦ هـ .

[٣] سنة /١٤٥/ هـ.

وخرج عليه أخو النّفْسِ الزكيّةِ . وهو إبراهيمُ بنُ عبدِ اللهِ بالبصْرة فقلقَ المنصورُ لذلك غايةَ القلقِ وقامَ وقعَد حتّى توجّهَ إليه عيسى بنُ موسى فقتلهُ بقريةٍ قريبةٍ من الكوفةِ يُقالُ لها باخمرى [١] - رضي اللهُ عنه - ومِنْ هاهُنا حقَد المنصورُ على العلويّين وفعلَ بهِمْ تلك الأفاعيل . ولعل طرفاً منها يبلغكَ في هذا الكتاب إذا انتهيت من الكلام إلى الدولةِ العبّاسيّةِ . وكذلك جرى أمرُ الخوارج مع خليفةٍ خليفةٍ ، حتى كان الرعيّةُ لاينامون في بيوتِهِمْ آمنين ولايزالون يتوقّعونَ الفتنةَ والحرْب ، كما كان حالُ أهلِ قزوين في مجاورةِ قلاعِ الملاحدة .

حدثني الملِكُ إمامُ الدين يحيى بن الافتخاريّ - رضي اللهُ عنه - قال : أذْكُرُ ونحنُ بقزوينَ إذا جاءَ الليلُ جعلْنا جميع مالِنا مِنْ أثاث وقماش ورحْلٍ في سراديبَ لنا في دُورنا غامضةٍ خفيةٍ ، ولانتركُ على وجه الأرض شيئاً، خوفاً من كبْساتِ الملاحدة . فإذا أصبحنا أخرجنا أقمشتنا ، فإذا جاء الليل فعلنا كذلك . ولأجل ذلك كثُر حمل القزاونة للسكاكين وكثُر حملهم للسلاح .وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمرِ شمْسِ الدين قاضي قزْوين ، وتوجُّهه إلى قان وإحضار العسكر وتخريبِ قلاعِ الملاحدة ماكان.وليس هذا الموضع موضع استيفاء الكلام في هذا ، فإنه اعترضَ وليس بمقصود .

وكما جرى للموفّقِ بنِ المتوكّل في مرابطة الزّنْج أربع عشرة سنة [٢] : مازال يُصابِرهم من البصرة وواسط طول هذه المدة حتّى أفناهُمْ ، وكان لطول المدة قد ابتنى الزّنجُ هناكَ مدائنَ ، ثم خرِبَتْ وآثارها الآنَ باقيةٌ .

وأما أواخِرُهُمْ :- أعني أواخِرَ خلفاء بني العبّاسي - فضعفوا غايةَ الضعف حتّى عَصَتْ تكريتُ عليهم ، وفي ذلك يقولُ شاعرهم :

في العسكرِ المنصورِ نحنُ عِصابةٌ　　　مِنْ دولةٍ أخْسِسْ بِنا مِنْ مَعْشَرِ

---

[١] وكان مقتل ابراهيم بن عبد الله وهو أخو النفس الزكيّة ، في (باخمرى) بالقرب من الكوفة عام ١٤٥ هـ ، أيضاً .

[٢] وقعت ثورة الزنج في عهد المعتمد واستمرت في البصرة وماحولها مدة أربع عشرة سنة /٢٥٦ - ٢٧٠/ هـ إلى أن أخضعها الموفق أخو المعتمد .

خـذ عَقْلَنا مِنْ عقدنـا فيما ترى مِـنْ خِسَّـةٍ ورَقَـاعـةٍ وتَـهَوُّرِ
تِكْريتُ[1] تُعْجِزُنـا ونحنُ بِعقْلِنا نَمْضي لتأخذَ تِرْمِذاً[2] مِنْ سَنْجَرِ[3]

(كامل)

وكانُوا – أعني المتأخّرين من خلفاء بنـي العَبّـاس – قـد اقتصـروا فـي آخـر الأمـر علـى مملكـةِ العـراقِ فحسـب ، حتـى إن ((إربـل[4] ، لـم تكـنْ فـي حُكْمِهِـمْ . ومازالت خارجةً عن حكمهم إلى أن مات مظفرُ الدينِ بـنْ زيـن الديـن علـيّ كُوجـك صاحبُ إرْبل وذلك في أيامِ المستنصر[5] ، فعيّن عليّ شرف الدين إقبالَ الشّرابي ، وكان مُقدَّمَ الجيوش ليتوجه إلى إربل ليفتحها ، وجهزه بالعساكر فتوجّه الشرابي اليها وأقام عليها أيّاما محاصِراً ثم فتحها فضُربت البشائرُ ببغداد يوم وصول الطائر بفتحها . فانظر الى دولةٍ تضرب البشائر على أبواب صاحبها ، ويزَيِّن البلد لأجل فتح قلعة إِرْبل ، التي هي اليوم في هذه الدولة من أحقر الأعمار وأصغرها وأهونها بلى قد كان ملوكُ الاطراف ، مثْل ملوك الشام ومصر وصاحب الموصل ، يحملون إليهم في كل سنة شيئاً على سبيل الهديّة والمصانعة ويطلبون منهم تقليدا بولاية بلادِهم ، بحيث يتسلّطون بذلك على رعيّتهم ، ويوجبون عليهم طاعتهم بذلك السبب ولعل الخلفاء قد كانوا يعوّضون ملوك الأطراف عن هداياهم بما يناسبها ، أو يفضلُ عنها كلّ ذلك لحفظ الناموس الظاهر ، وليكون لهم في البلاد والأطراف السكّة والخطبة ، حتى صار يضرب مثلاً لمن له ظاهر الأمر وليس له من باطنه شيء أن يقال قنع فلان من الأمر الفلاني بالسكّة والخطبة ، يعني قنع منه بالاسم دون الحقيقة فهذه جُمَلٌ من أحوال الدولة العباسية .

---

[1] تكريت : مدينة على نهر دجلة شمالي سامَرّاء ، وكنّى بها الشاعر عن قرب المسافة .
[2] ترمذ : مدينة في أوزبكستان على حدود أفغانستان ، كنّى بها عن بعد المسافة عن بغداد .
[3] سنجر : آخر سلاطين السلاجقة الكبار . كانت نهايته على أيدي قبائل الغزّ ، وبذا انحطت السلطنة السلجوقية . وكنى به الشاعر عن الصونة والسلطان .
[4] إربل : مدينة تاريخية في شمال العراق ، تُعرف اليوم بأربيل .
[5] المستنصر ، بويع بالخلافة ٦٢٣ هـ ومات /٦٤٠ / هـ وهو الخليفة قبل الأخير من خلفاء الدولة العباسية . وكان كريماً متلافاً .

وأما الدولتان البُوَيْهية [1] والسلجوقية [2] : فلم تعرض مملكتهما مع قوة شوكة ملوكهما كعضد الدولة في بني بويه ، وطغرلبك في بني سلجوق ، ولم تعمّ طاعتهما ولم يشمل ملكهما . وأما الدولة الخوارزمشاهية :- مع أن جريدة السلطان جلال الدين اشتملت على أربعمائة ألف مقاتل - فلم يَعْرُضْ ملكها أيضاً ، ولا تجاوزَتْ النواحي القريبة منها ، بل جلال الدين غزا أطراف الهند .

ومن الحقوق الواجبة للمَلِكِ على الرعيّة التعظيمُ والتفخيمُ لشأنه في الباطن والظاهر وتعويدُ النفس ذلك ورياضتُها بحيث تصير ملكةً مستقرة ، وتربيةُ الأولادِ على ذلك وتأديبُهم به ليتربى هذا المعنى معَهُمْ.

وهاهُنا موضعُ حكايةٍ : وهي أنَّ سلطان هذا العصر - ثبّت الله قواعد دولته وبسط في الخافقين ظِلَّ مَعْدَلَتِهِ - لما ورد إلى بغداد في سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة دخل المستنصرية [3] لمشاهدتها والتفرج فيها . وكانت قبل وروده إليها قد زينت وجلس المدرسون على سددهم ، والفقهاء بين أيديهم ، في أيديهم أجزاء القرآن وهم يقرءون منها ، فاتفق أن الركّاب السلطاني بدأ بالاجتياز على طائفةالشافعيّة ، ومدرّسُها الشيخُ جمالُ الدين عبدُالله بنُ العاقوليّ ، وهو رئيسُ الشافعيّة ببغداد ، فلما نظروا إليه قاموا قياماً فقال للمدرّس المذكور : كيف جاز أن تقوموا لي وتتركوا كلام الله ؟ فأجاب المدرّسُ بجوابٍ لم يقع بموقعِ الاستصواب في الحضرة السُّلطانية - أعلى الله في الدنيا كلمتها وفي الآخرة درجتها - ثم بعد ذلك حكي لي المدرس المذكور صورة السؤال والجواب فأما السؤال : فهو ما حكيْتُه ، وأمّا جوابُه فلم

---

[1] الدولة البويهية : أسسها أبو شجاع بويه ، وأولاده الثلاثة ، عماد الدولة وركن الدولة ومعزّ الدولة ، حكمت في أصفهان وشيراز وكرمان وبغداد . من أقوى ملوكها عضد الدولة . قضى عليها طغرل بك السلجوقي /٤٤٧/ هـ .

[2] الدولة السلجوقية : أحلّت نفوذ السلاجقة في بغداد ، وهم من أسرة تركمانية جدّها سلجوق ، قضت على نفوذ البويهيين وقضى عليها جنكيزخان وخلفاؤه ومنهم هولاكو .

[3] المستنصرية : ضاحية معمورة من ضواحي بغداد ، شيّدها الخليفة المستنصر /٦٢٣ - ٦٤٠/ هـ . وفيها قصور وقنطرة وخان حربي لارتباط الخيل والفرسان . وقد سبق ذكرها .

أضبطه ، وقلتُ له : قد كان يمكن أن يقال في جواب هذا السؤال : إنّ تركنا للمُصْحَفِ إن كان في أيدينا ، واشتغالنا بغيره لم يُحَرَّمْ علينا في شريعتنا ، ولا جُعِلَ علينا في ذلك حَرجٌ ، ثم إنّ هذا المُصْحف الذي تركناهُ وقمنا بين يدي السّلطان ، قد أمرنا فيه بتعظيم سلاطيننا .

ومن الحقوق الواجبة للملك على رعيّته : النصيحة ، فمما جاء في الحديث - صلوات الله وسلامه على من نُسب إليه - قوله صلى الله عليه وسلم : ((الدين النصيحة)) ، قيل : لمن يارسول الله ؟ قال : ((لله ولرسوله ولجماعة المسلمين)) .

ومنها تركُ اغتياب الملك في ظَهْرِ الغيْب ، قال صلى الله عليه وسلم : ((لا تَسبّوا الوُلاة ، فإنّهم إنْ أحْسنوا ، كانَ لهم الأجرُ وعليكم الشكر ، وإنْ أساءوا فعليهم الوِزْر وعليكم الصبر ، وإنّما هم نقمةٌ ينتقم الله بها ممّن يشاء ، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحميّةِ والغضبِ ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرّع)) .

وأما الحقوق الواجبة للرعيّة على الملك فمنها : حماية البيْضة [1] ، وسدُّ الثُّغور وتحصينُ الأطراف ، وأمنُ السّوابل ، وقمْعُ الدعّار [2] ، فهذه حقوقٌ تلزمُ السلطانَ تجري مجرى الفروضِ الواجبة ، وبهذه الأمور تجبُ طاعتُه على رعيّته وبنحوِ من هذا احتجّ الخوارجُ على أميرِ المؤمنين عليٍّ - عليه السّلامُ - عقيبَ انقضاءِ حَرْبِ صِفّين قالوا له :أنْتَ فرّطْتَ في حفْظ هذا الثغر - يعني ثغر الشأم - بتحكيمِك الحَكَمَيْن ، فأنتَ مخطئٌ مُفَرْط ، فليس لك علينا طاعة : فإن اعترفْتَ بهذا الخطأ واستغفرتَ رَجعْنا إلى طاعتك ، وقاتلنا معك العدوّ . فعرّفهم - عليه السلام - أنه غلب رأيه في قضية التّحكيم وأن التّحكيم لم يكن رأيه فأصرّوا على قولهم ولم يقبلوا ونابذوه وقاتلوه ، حتى كانت الوقعة المشهورة بالنّهْروان .

---

[1] البيْضة : في الأصل ، الخوذة . وحماية البيْضة : كناية عن حماية شرف الأمّة وعزّتها .

[2] الدعّار : مرتكبو الفواحش ، والدّعارة .

ومن الحقوقِ الواجبةِ للرعيةِ على الملك : الرفقُ بهم ، والصَّبْرُ على صادراتِ هفواتهم ، قال صلوات الله عليه وسلامه : ((ماكان الرفق في شيء إلا زانه ولاكان الخَرَقُ [1] في شيء إلا شانه)) وقد رُوِيَ عنه - صلوات الله عليه وسلامه : ((من الرفقِ أشياءُ لاتليقُ إلا بمنصب النبوّة)) كان صلاحُ الدين يوسف بن أيوبَ صاحبُ مصر والشام ، كثير الرِّفْقِ موصوفاً به . دخل مرّة الحمام عقيبَ مَرْضَةٍ طويلة أضعفتهُ وانتهكتْ قوتَهُ فأُدخل الحمّام وهو في غايةٍ منْ الضّعف ، فطلب من مملوكٍ كان واقفاً على رأسه ماء حارا فأحضر له في طاسةِ ماءً شديدَ الحرارة ، فلما قَرُبَ منه اضطربت يدُ المملوك فوقعت الطاسةُ عليه فأحرقَ الماءُ جَسَدَه ، فلم يؤاخذْه ولابكلام . ثم طلب منه بعد ذلك بساعةٍ ماء بارداً . فأحضر له في تلك الطاسة ماءً شديدَ البرد ، فحين قرب منه اتفق له ما اتفق في المرّة الأولى ، من اضطرابِ يدهِ ووقوعِ الطاسة عليه ، بذلك الماءِ الشديد البرد فغشي عليه وكادَ يموتُ ، فلما أفاق قال للملوك إن كُنْتَ تريدُ قتلي فعرّفني . ولم يزدْ على هذه الكلمة (رضي الله عنه) . قيل :تقدّمَ رجلٌ أبخر[2] إلى بعضِ الرؤساء يشاورُه فقال له تنحَّ عنّي فقد آذيتني . قال الرجل : لا كرامة لا عزازة . ما رأسّاك وقمنا بين يديك إلا حتى تحتمل منا ماهو أشدُّ من هذا وتصبر منّا على ما هو أعظم منه . ومّما يجبُ للرعيّة على الملك : رَدْعُ قويِّهِمْ عن ضعيفهم ، وإنصافُ ذليلهم منْ عزيزِهم وإقامةُ الحدود [3] فيهم، وإقرار حُقوقهم مقارّها ، وإغاثةُ ملْهوفهم ، وإجابةُ مُستَصْرِخِهِمْ ، والتسويةُ في حكمه بين الأبعد منهمْ والأقرب ، والأذلَّ والأعزّ. قالَ عُمَرُ بنُ الخطّاب لرجلٍ : إني لا أحبكَ قال :فتنقصني من حقّي شيئاً ؟ قال عمر : لا. قالَ الرجلُ : فما يفرح بالحبِّ بعد هذا إلا النساء !.

ويجبُ للملكِ أن يعرف نعمةَ الله عليه بأن اصطفاهُ لهذه المرتبة العلّية دون سائرِ الخلق ، وبأن جعله يفزعُ منه كلُّ أحد ولم يجعله يفزعُ منْ أحد ، فلا يزالُ لها

(1) الخرَق : ضدّ الرفق ، الغِلْظة والطيش .
(2) الأبْخر : كريه رائحة الفم ، أو النَفَس .
(3) إقامة الحدود : إيقاع العقوبات الشرعيّة على المُذنبين .

ذاكراً شاكراً .فأمّا الذكْـرُ : فلامتثـال قولـه تعـالى: { **وأمـا بنعمـةِ ربّك فحدّثْ** } [1]، وأمـا الشكر : فلطلب المزيد لقوله تعالى : { **لئن شكرتم لأزيدنكم** } [2] .

ويجـبُ أن يكـون بينـه وبيـن ربّـه معاملةٌسـرّية لايعلـمْ بهـا إلا اللـــه ، فتلـك المعاملةُ تقي مصارع السوء ، وهذه العبارة مقبولة عند جميع أصحاب الملـل، وعنـد الحكماء أيضاً هي مقبولة ، ويمكن تأويلها على هذا المطلوب بحسب اعتقادهم .

ويجب أن يكونَ لهُ دعواتٌ يناجي بها ربّه ، وهـي دعـواتٌ تليـقُ بـالملوك ولاتصلُحُ للعوامّ ، ولابأسَ ان أُثبتَ في هذا الموضع فصْلاً من الدعاء الملكي . وهذا مما اقترحتُه أنا ولم أعلَم أن أحداً تنبّه عليه .

---

[1] سورة الضحى ، الآية /١١/ .

[2] سورة إبراهيم ، الآية /٧/ .

فصلٌ مِنَ الدُّعاءِ مُختصر

اللهمَّ إني أبرأُ إليكَ منْ حَوْلي وقوّتي ، وألجأُ إلى حَوْلكَ وقُوّتكَ ، أحمدُكَ على أن أوجدتني مِنَ العَدَم ، وفضّلتني على كثير من الأُمم ، وجعلت في يدي زمام خلقك واستخلفتني على أرضك . اللهم فخذ بيدي في المضايق واكشف لي وجوه الحقائق ووفقني لما تحب ، واعصمني من الزلل ، ولاتسلب عني ستر إحسانك وقني مصارع السوء واكفني كيد الحساد وشماتة الأضداد ، والطف بي في سائر متصرفاتي ، واكفني من جميع جهاتي . ياأرحم الراحمين !!

ويحسن بالملك الفاضل إكرامُ فُضلاء رعيّته واختصاصُهُمْ بالبرِّ . قالَ بعضُ الحكماء : لايجوز أن يكونَ الفاضلُ من الرجال إلاّ مَعَ الملوك مكرّمًا، أو مع النسّاكِ مُتبتّلاً [١] ، كالفيلِ لايَحْسُنُ أن يُرى إلاّ في مَوْضعيْن : إما في البرِّيَة وَحْشيًا وإما للملوكِ مَرْكبًا . كما قال الشاعر :

كمثْلِ الفيلِ إمّا عِنْدَ مَلْكٍ وإمّا في مراتِعِه مَنيعا

(وافر)

ومما يُكْرَهُ للملكِ : مخالطةُ الأنذال والسوقة والجهال فإنّ سماع ألفاظهم الساقطة ومعانيهم المَرْذولة ، وعباراتهم الدنية ، مما يحط الهمّة ويضع المنزلة ، ويصدىء القلب ويُزْري [٢] بالملك . ومخالطةُ الأشراف ومعاشرةُ أفاضل الرّجال ، مما يُعلي الهمّة ويذكي القلب ، ويفتق الذهن ويبسطُ اللسان . وتلك قاعدةٌ مطّردةٌ للملوك ، مازالوا يُدْخلون إليهم عوامَ الرعيّة ويعاشرونهم ويستخدمونهم ، ولم يخلُ أحدٌ من الخلفاء من مثلِ هذا وكأن لسانَ حالهم يقول : نحن نخلّي الكبار كبارًا ، فإذا اختصصْنا عاميًا نوّهنا بذكره وقدّمناه حتى يصير من الخواص . كما أننا إذا أعرضنا [٣] عن أحد من الخواص أرذلناه حتى يصير من أراذل العوام .

---

[١] متبتّلاً : ممعنًا في العبادة والإخلاص للخالق . منقطعا للعبادة والتّسبيح .

[٢] يُزْري : يحط بالمقدار .

[٣] أعْرَضْنَا : تركنا وأهملْنا .

وكذلك هو ، فإنّ هذه خاصيّة من خواصّ الملك ، وقد سبق ذكرُها وكل هذا مأخوذ من الخواصّ الألهية ، فإنّ العناية الالهيةَ إذا صدرتْ ذرّةٌ منها إلى النفوس ، صار ذلك الإنسان نبيّاً أو إماماً أو ملكاً . وإذا صدرت في حقّ الزمان صار ذاك اليوم يومَ العيد الكبير ، وليلةَ القَدْر ، وأيّام الحج ، وأيّام المواسم والزيارات لسائر الأمم ، وإذا صدرت تلك الذرّة في حقّ المكان ، صار بيت مكّة ، والبيت المقدّس والمَشاهد والجوامعَ والزيارات والمتعبّدات ، ومواضعَ التقرّبات .

وهاهنا موضع حكاية : كان ببغداد حمّال يُقال له : عبدُ الغني بن الدّرنوس فتوصّلَ في أيامِ المستنصر [1] حتى صارَ برّاجا [2] في بعض أبراج دارِ الخليفة ، فما زال يحسن التوصّل إلى ولَد المستنصر وهو المستعصم آخر الخلفاء ، وكان في زمن أبيه محبوساً فما زالَ هذا البرّاجُ يتعهده بالخدْمةِ طولَ مدة الأيام المستنصرية إلى أن توفي المستنصرُ وجلَسَ على سرير الخلافة ولده أبو أحمد عبدُ الله المستعصم ، فعرف لهذا البَرّاجِ حقّ الخِدْمة ، ورُتّبةَ متقدم البرّاجين ، وفي آخِرِ الأمرِ استحبَّهُ في باطنِ داره ، واختصّه وقدّمهُ حتى بلغ إلى أنه صار إذا دخل إلى الوزيرِ ينهضُ له ، ويُخلي المجلسَ منْ جميعِ الناسِ ، إذا كان ابنُ الدرنوس حاضراً وسببُ إخلاءِ المجلسِ الوزيريّ عِندَ حضور ابن الدّرنوس أنه يمكنُ أن يكونَ قد جاءَ في مُشافهة من عندِ الخليفة . ولقّبَ : نجمَ الدين الخاص ، وصار من أخصّ الناس بالخليفةِ. وبلغَ من منزلتِهِ أنه كان يتعصّبُ لصاحب الديوان يعرضُ مطالعاته ومهامّه على يدِ نجمِ الدين الخاصّ ، وكان يمدّه في كلّ سنةٍ بمالٍ طائلٍ حتى يحفظَ غيْبَهُ ، ويزكيّه في الحضرةِ الخليفية . وجرى بيني وبين جمال الدين علي بن محمد الدَّستَجَرداني - رحمه الله - كلامٌ في معنى هذا ابن الدّرنوس ، فصوّبْتُ أنا رأيَ المُستَعْصِم في الإحسانِ إليه ، وقلت : إنّهُ خدمهُ وأثبت عليه حقا ، وقد كافأه فلا عَيْبَ في هذا . وقال جمال الدين - رحمه الله - مامعناه : إن تسليطه لمثل ذلك

---

[1] المستنصر : الخليفة العباسي قبل الأخير من خلفاء بغداد . وهو أبو المستعصم .كانت خلافته ٦٢٣/ - ٦٤٠/ هـ .

[2] البرّاج : آمرُ برج الحراسة في القصر الخلافي .

الأحمقَ على أعراضِ الناس وأموالِهم ، وإدْخالـه فـي المملكـةِ حتـى كـادَ أن يولّـي الوزراءَ ويعزِلَهم ، قبيحٌ مـن المستعصم ودليـلٌ علـى جهلـه ، وإلاّ فـإنْ كـانَ مـرادُهُ الإحسانَ إليه مكافأةً له على سابقِ خدمته ، فقد كان يجبُ أن يكون ذلك بمالٍ يُعطـاه أو برفعِ منزلةٍ لايختلُّ بسببها أمرٌ في المملكة ولايتطرّقُ بها قدْحٌ في عقـل الخليفـة ، وكان نظرُ جمالِ الدينِ في هذا المعنى أدقَّ مِنْ نظري ، والحقُّ فـي جانبـه - رحمَـه الله - وكانتْ هذه المفاوضةُ بيني وبينه في كتابِ كتبتُه فيه اقتضى الحـالُ ذِكْرَ هـذه القضيـةَ وكتَـبَ هـو الجـوابَ عنـهُ ، وأعـاد كتـابي إلـيَّ لأنـــي التمســتُ منــه إعــادةَ كتابي،والكتابان هما في هذا التاريخ عندي بـخطي وخطِّه رحمه الله

وَمِمّا يليق بالملكِ ويُكْمِلُ فضلَهُ : أن يكون عاليَ الهمّةِ رحيب الصّدْرِ محبّـاً للرياسة مُعِداً لها أسبابَها ، طامِحَ البصر إليْها مُعْمِلاً فِكْرَهُ فـي توسيـعِ مملكتـه وعلوُّ درجته، غيرَ مخلدٍ إلى التنعّم ولاجانحٍ إلى الترف ، ولامنهمك في اللّذات. قال بعضُ حكماءِ الفرس : هممُ النّاس صغارٌ ، وهممُ الملوكِ كبارٌ . وألبابُ الملوكِ مشغولةٌ بكلِّ شيءٍ عظيـمٍ وألبـابُ السُّوقة [1] مشـغولةٌ بأيسر الأشْياء . وليعلم الملـك أن الرياسةَ عروسٌ مُهورُها الأنْفُس . نظرَ معاويةُ إلى عَسْكَرِ أمير المؤمنين علـي - عليه السلام - فـي صفِّين [2] فالتفتَ إلى عمْرو بنِ العاص وقال : منْ يطْلُبْ عظيمـاً يخاطرْ بعظيمٍ . وإني نظرت فيما أحاول فإذا الموتُ في طلـب العزّ ، أحسنُ عاقبةً من الحياةِ مَعَ الذلّ ، قال بعض الشعراء :

هِيَ النفسُ إن ماتتْ فقد ماتَ قبْلَها	كـرامٌ وإنْ تسلَمْ فلِلحَدثانِ
إذا النَّفْس لم تَشْرَهْ إلى طَلَبِ العُلا	فتِلْكَ مِنَ الأمْواتِ في الحَيَوانِ

(طويل)

ومن الغاية في المعنى قولُ امرئِ القيس :

ولَوْ أنَّ ما أسعى لِأدْنى مَعيشةٍ	كفاني - ولمْ أطلبْ - قليلٌ من المال
ولـكنّـما أسعـى لـمجدٍ مؤثّل	وقـدْ يُـدرِكُ الـمَجْدَ الـمُؤثَّلَ أمثالـي

---

[1] السُّوقة : عوّام الناس ، نقيض الملوك والخواصّ .

[2] صفّين : موقع وشريعة ماء جرت فيه المعركة المشهورة بين أنصار عليِّ بن أبي طالب ، وأنصار معاوية بن أبي سفيان وانتهت المعركة إلى التحكيم عام /٣٧/ هـ .

ومما يكملُ فضيلةَ الملكِ : أنْ تكون قوّةُ الاختيارِ عنْـدهُ سليمةً لم تعترضْها آفةٌ فيكونَ يختارُ الرجـالَ اختيـاراً فـاضلاً ، كـان النـاصرُ [١] آيـةَ الدنيـا فـي اختيـارِ الرجال فكانَ من توصّلاتِهِ إلى معرفةِ الرّجُلِ إنْ أشْكل عليـه ، أنْ يُشـيعَ بيْـنَ النـاسِ أنّهُ يُريدُ أن يُوليّه المَنْصِبَ الفُلانيّ ، ثم يتمادى فـي إبْـرام ذلـك أيّامـا ، فيمتلـئ البلـد بالأراجيف ، لِذلك الرجل فيفترقُ فيه الناس : فقـومٌ يصوّبـون ذلـك الـرأي ويصفـونَ فضائل الرجل ، وقوم يغلّطـونَ الخليفـةَ ويذكـرون عيـوبَ الرجـل ، وللخليفـةِ عُيـونٌ وأصحاب أخبار لا يُؤْبَه لهم ، يخالطونَ أصنـافَ النـاس ، فيكتـبُ أصحـابُ الأخبـارِ إليه بما الناس فيه من الغليان في ذلـك ، فيعـرفُ بصِحّـةِ نظـره وتمييزه أيُّ القولَيْنِ أرْجَحُ وأصْوَبُ ، فإنْ رجحَ في نظره تفضيلُ الرجلِ ، ولّاهُ وخلع عليه ، وإنْ ترجّـح عنده قولُ الطاعنين عليه وتبيّنَ له نقْصُه ، تركه وأعْرضَ عنْهُ وفـي الجملـة فحسـن الاختيار أصلٌ عظيم ، قال الشاعر :

من كانَ راعيهِ ذِئباً في حَلوبَتِهِ[٢]	فهو الذي نفسَه في أمره ظلما
يَـرْجُـو كِـفايَـتَـهُ والـغَدْرُ عادتُه	ومَنْ يُرِدْ خائناً يستشعرِ النَّدَما

(بسيط)

ومما يُكْرَه للملوك : المبالغةُ في الميلِ إلى النساء ، والانهماكُ في محبّتِهنّ ، فأمّا مشاورتُهنّ في الأمورِ : فمجلبةٌ للعجْزِ ، ومدعاةٌ إلى الفسـاد ، ومنبهـةٌ [٣] علـى ضَعْفِ الرّأيِ اللهمّ إلا أن تكون مشـاورَتُـهُن يُـراد بِـها مخالفتهن ، كما قـال -عليـه السلام- : ((شاوروهُنّ وخالفوهن)) وفي هذا الحديث سؤال وجواب .

إنْ قالَ قائل : إذا كـان المـراد مخـالفتهن فـي آرائهن فـأي فـائدةَ فـي الأمـرِ بمشاورتهن وقد كان يكفي في هذا أن يقال خالفوهن فيما يشـرن بـه ؟ فـالجوابُ مِـنْ وَجْهين : أحدُهمـا : أن الأمـر الأول للإباحـة ، والامـر الثـاني للوُجـوب . يعنـي إذا شاورتموهن فخالفوهن .والآخر : أن الصواب لايزالُ في خلاف آرائهن ، فإذا أشكل

---

[١] الناصر : أبو العباس أحمد بن المستضيء . تولى الخلافة العباسية في بغداد /٥٧٥ - ٦٢٢/ .

[٢] الحلوبَة : الأغنام والأنعام التي تُحلب ، وقد استعارها الشاعر للرعايا من البشر .

[٣] منبهة : دليلٌ .

عليكم الصّوابُ فشاوروهُنَّ فإذا مِلْن إلى شيءٍ فاعلموا أن الصواب في خلافِهِ.وفي هذا تظهر فائدة الأمْرِ بمشاورتهن يعني بها يُستَدَلُّ على الصّواب . وحدث أن عضد الدولة [١] فنا خسرو بن بويه شغفته امرأةٌ من جواريه حبّاً ، فاشتغل بها عن تدبير المملكةِ ، حتّى ظهر الخللُ في مملكتِهِ ، فخلا به وزيرُهُ وقال له : أيّها الملك : انَّ هذه الجاريةَ قد شَغَلَتْكَ عن مَصالحِ دَولتك حتّى لقد تَطرق النَّقْصُ عليها من عدّةِ جهاتٍ ، وماسببُ ذلك الا اشتغالك عن إصْلاح دولَتِك بهذه الأمة ، والصّوابُ أن تتْرُكَها وتلْتفِتَ إلى إصْلاحِ ماقدْ فسد منْ مملكتك قالَ : فبعد أيام جلس عَضُدُ الدولة على مُشْتَرفٍ له على دِجْلَة ، ثم استدعى الجارية فحضرتْ ، فشاغلها ساعةً حتّى غفلتْ عَنْ نفْسها ، ثم دَفَعها إلى دِجلة فغرقتْ وتفرغ خاطرُهُ من حبها ، واشتغل بإصْلاح أُمورِ دَولَتِه ، فاستَعْظَم النّاسُ هذا الفعْلَ من عَضُدِ الدولة ، ونسبوه فيه إلى قوّة النفسِ ، حينَ قَويتْ نفْسُه على قتْل مَحبوبَتِه .

وأنا أستدلُّ بهذا الفعْلِ على ضَعْفِ نَفْسِ عضُدِ الدولة لا على قوّتها، فإنه لو لمْ يحس من نفسْهِ بالانفعالِ العظيمِ لحبِّها ، لما توصّل إلى إعْدامها ، ولو تركها حيّة ثم أعرض عنها لكانَ ذلك هو الدليلَ على قوّةِ نفسه .

ولكلِّ صنفٍ من الرعية صنْفٌ من السياسة فالأفاضلُ يساسون بمكارم الأخلاقِ والإرشادِ اللطيفِ ، والأوساطُ يساسون بالرَّغْبَة الممزوجة بالرهبة ، والعوامّ يساسون بالرّهْبَة ، وإلزامِهِمْ الجَدَدَ [٢] المُستقيم ، وقسْرهم[٣] على الحقِّ الصَّريح .

واعلمْ أن الملكَ لرعيته كالطبيبِ للمريض: إن كان مزاجُه لطيفا لَطّفَ له التدبير ودَسَّ له الأدْويةَ المكروهةَ في الأشياء الطبية ، وتحيّل عليه بكلِّ ممكنٍ حتى يبلغَ غَرَضَهُ مِنْ بُرْئِهِ ، وإنْ كانَ مزاجُه غليظاً عالجهُ بمرّ العلاجِ وصريحه وشديدِهِ. ولذلك لا ينبغي للملكِ أن يَتَهَدَدَ مَنْ يكفي في تأديبه الإعراض والتقطيب ،

---

[١] عَضُدُ الدولة : اسمه فنّا خُسرو ، أعظم ملوك بني بويه المتنفذين في بغداد ، مدحه الشاعر المتنبي واستوزر الصاحب ابن عبّاد. توفي ٣٧٢ هـ .

[٢] الجَدَد : الجادّة المستقيمة .

[٣] القسْر : الإرغام والإجبار .

وكذلك لا ينبغي أن يحبس من يكفي في تأديبه التّهديد ، كما أنه لا ينبغي أن يضرب مَنْ يكفي في تأديبه الحَبْس ، ولا أن يقتُلَ بالسيف من يكفي في تأديبه ضَرْبُ العصا وتمييز هذه الحالات ، بعضِها من بعضٍ أعني معرفةَ المزاجِ الذي يكفي فيه التهديدُ ولا يحتاجُ إلى الحبسِ . أو يكفي فيه الحبسُ ولا يحتاج إلى الضّرب - يحتاج إلى لُطْفِ حَدْسٍ وصحّةِ تمييز وصفاءِ خاطرٍ ويقظةٍ تامّة وفطانة كاملة . فما أشدَّ ما تتشابه الاخلاق . وتلتبسُ الأمزجةُ والطّباعُ ..

ويجبُ على المَلِكِ أن يَنْظُرَ في أمْرِ القتل وإزهاقِ النفس ، فيعلمَ أنَّهُ الحادثُ الذي لا حياةَ للحيوانِ بعدَه في الدنيا ، وأنه لو اجتَهد أهلُ الأرض كلُّهم على إعادته إلى الحياة لم يقدِروا على ذلك . وبِحَسبِ هذا الحال ، يجبُ أن يكون تثبُّتُه في إزهاقِ النّفْسِ وهَدْمِ الصّورة وتأنّيه وتروّيه ، حتى تقومَ الأدلّةُ على وُجوبِ القتل ، فإذا وَجَبَ استعمله على الوَضْع المعهود ، مِنْ غيرِ تأنّقٍ فيه وتنوّعٍ غريب ، وتمثيل بالمقتول . وَرَدَ عن سيد البشر - صلواتُ الله عليه وسلامه - : ((اياكم والمُثْلَة [١] ولو بالكلبِ العَقور [٢])) .

لما ضَرَبَ ابنُ مُلجم - لعنه الله - عليّ بنَ أبي طالب بالسيفِ قُبِضَ ابنُ مُلجم وَحُبِسَ حتّى يُنْظَرَ مايكونُ من أمرِ عليٍّ - عليه السلام - فجمع عليٌّ ولدَهُ وخاصتَّه وقال : يابني عبدِ المطّلب - لاتجتمعوا مِن كُلِّ صوبٍ تقولون قتل أميرُ المؤمنين لا تمثّلوا [٣] بالرجل ، فإني سمعتُ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - يَنْهى عن المُثْلَة ولو بالكلب العقور . وانظروا إذا أنا متُّ مِنْ ضربي ، فاضربوا الرجل ضربةً بضربةٍ [٤] .

ومن فوائدِ التأني والتثبّت في القتل . الأمْنُ مِنَ النّدم حين لا يُجدي النّدَمُ .

---

[١] المُثْلَة : القتل مع التنكيل وتشويه الجُثّة .

[٢] الكلب العقور : الهائج للعَض .

[٣] لا تُمثّلوا بالرَّجُل : لاتقتُلوه قِتْلَة المتشفّي مع التنكيل .

[٤] ذكرُ واقعة اغتيال الإمام عليّ واردٌ في موضعٍ لاحق .

كان أفاضِلُ الملوكِ والخُلفاءِ يستعملون هذه الخصلة كثيراً ، فلا يسرعون إلى قَتْل رجلٍ معروفٍ مشهورٍ ، خوفاً أن يحتاجوا إليه بعد ذلك ، فيتعذر عليهم بل كانوا يحبسونهُ في غوامِض دُورِهِمْ ، ويقيمون له كلَّ مايحتاجُ إليه من أطعمةٍ شهيَّةٍ، وفواكهَ وثلجٍ وأشربةٍ وفرشٍ وثير ، ويحملونَ إليه كُتُباً يلهو بها ويقْطعونَ خبَره عن الناس ، حتى يثبتَ في نفوسِ أهلهِ وأصحابه أنّه قد هلك ، ثمَّ تُستصفى أموالُه وأموالُ أصحابه ، وتُستَخرجُ ذخائِرُه وودائعُه ، ويصيرُ في عداد الموتى . فلا يزالُ كذلكَ ، حتّى تدعُوَهم الحاجةُ إليه فيُخْرِجوه مُكْرَماً وقد تأدّب وتهذّب .

مَنْ لمْ يؤدّبْهُ والِداهُ أدّبَه الليلُ والنّهارُ

(منسرح)

وهَهنا مَزَلَّةٌ ربما وقعَ فيها أفاضلُ الملوك ، وهي أن بعض الملوك ربّما كانَ مُعْجَباً بنفسِه ، محباً لأن ينتشرَ عنهُ حديثُ صرامةٍ وشهامةٍ ، وسياسةٍ قاهرة . فيستهينُ بالقتلِ ويسهّلُ أمرهُ ويبادرُ إليْه . وغرَضُهُ إثباتُ الهيبة وإقامةُ السياسة ، من غيرِ التفاتٍ إلى ما في طيِّ ذلك من إزهاق النفس ، التي حُرِّمَتْ إلا بالحق .وهذا مِنْ أخطَرِ الأمورِ على المَلِكِ والصّوابُ ألا يزالَ في نفسه كارهاً للقتل ، صادفاً عَنْهُ مهما أمكَن ، حتّى تدْعو إليه ضرورةٌ ليس فيها حيلةٌ ، فحينئذٍ يقدم عليه بنفسٍ قويةٍ وَجَنانٍ ثابتٍ . فإنّ قتل واحدٍ أصلحُ من تركه حتى يُحتاجَ إلى قتْل خمسةٍ ، وقتل خمسةٍ خيرٌ من تركهم حتى يدبَّ فسادهم حتى تبلغ الحاجة إلى قتل مائةٍ ، ومن أجل ذلك قال الله تعالى : { ولكم في القصاص حياةٌ } [1] وقيل : القتل أنفى للقتل . قال الشاعر :

بِسَفْكِ الدما ياجارتي تُحقَنُ الدِّما حتى يراق على جوانبه الدم [2]

(طويل)

---

[1] سورة البقرة ، الآية /١٧٩/ .

[2] صواب البيت .

بسفك الدِّما ياجارتي تُحقَنُ الدِّما وبالقتلِ تنجو كلُّ نفسٍ من القتْلِ

انظر طبعة بيروت ص ٤٣ ، ورحما ص ٣. ، وألما ص ٥٣ .

وقال المتنبي :

لا يَسلَمُ الشَّرَفُ الرفيعُ مِنَ الأذى   حتّى يُراقَ على جَوانِبِه الدَّمُ

(كامل)

أوْصى بعضُ الحُكَماءِ بعضَ الملوك قال : أيّها الملك ، إنّما هو سيفُكَ وبرْهَمُكَ فازْرعْ بهذا من شكرك ، واحصُدْ بهذا من كفرك . جاء رجلٌ الى رسولِ الله- صلى الله عليه وسلم - وقال لهُ - يارسولَ اللهِ خذ الحدَّ مني . فأعرَضَ عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتفت إلى يمينه ، فدار الرجل حتى حاذاه وأعاد القول فأعرض - عليه السلام - عنه مرة أخرى ، فعاود القول والتمس أخذ الحدّ منه فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم إزْهاقَ نفْسه ، والتفت إلى أهْلِ الرجل وأصْحابِه كمَنْ يُعلِمُهم الاعتذار عنهُ ، وقال : كأنه متغيرٌ في عقله . قالوا يارسول الله ما نعرفه إلاّ عاقلا . فحينئذ لم يَبْقَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم - حيلةٌ ، فأمر باستيفاء الحدّ منه . والمطاميرُ الغامضةُ التخليدِ فيها يقومُ مقامَ القَتْل ، مَعَ الأمْنِ مِنَ النَّدم المخشيّ فيه . وأما أصناف العُقوباتِ . فيجبُ على المَلِكِ الكامِلِ أن يُنْعِمَ النَّظرَ فيها أيضاً . فكم من عقوبةٍ قد أتتْ على مُهْجَةِ المعاقَبِ ، من غير أن يرادُ إزهاق نفسه . وأصْعَبُ مافيها التعذيبُ بالنار وهي عقوبةٌ غيرُ مباركةَ ، لأن العقوبةَ بالنارِ مختَصةٌ بالله - عزّ وجل - فلا يجوز للعبد أن يشاركهُ فيها . والنَّظرُ في أصنافِ العقوباتِ موكَلٌ إلى نظرِ المَلِك الفاضِل ، وبحسب مايقتضيهِ الحالُ الحاضِرُ ، ولكنَّ الأصلَ الكلّي فيه ، أن يكونَ الملكُ في نفْسه كارهاً لذلك غيْرَ مُتَحَلٍّ بهِ ، لا يبادرُ إليه ولا يُقدِمُ عليه ، إلا إذا دَعتْ إليه ضرورةٌ ماسةٌ لا يُقضى فيها حقُّ نفسه ، ولا يُشفي بها غَيْظُ صدْرِهِ. وهذا مقامٌ صعبٌ لا يرتقي إليه أحدٌ ، إلا مَنْ أخَذَ التوفيقَ بيَدِه- قيل - إنّ علياً عليه السلام - صرعَ في بعضِ حُروبه رَجُلاً ، ثم قَعَدَ على صدره ليحتزّ رأسَهُ ، فبصقَ ذلك الرَّجلُ في وَجْهه ، فقام علي - عليه السلام - وتركه . فلما سُئِلَ عن سبب قيامه وتركه قتل الرجل ، بعد التمكن منه ، قال : إنه لما بَصَقَ في وجهي اغتظْتُ منه فخفْتُ إنْ قتلته أن يكونَ للغضبِ والغيظِ نصيبٌ في قتله . وماكُنتُ أن أقتُله إلا خالِصاً لوجه الله تعالى .

قال أَبَرويز [١] : الملوكُ يَشْتُمونَ بالأفعالِ لا بالأقْوالِ ، ويسفَهونَ بالأيـدي لا بالألْسُنِ . وقد نظم هذا المعنى شاعِرِ العرب [٢] فقال :

وتجهلُ أَيْدينا ويحلم رأينا ... وَنَشْتُمُ بالأفعالِ لا بالتَكَلُّمِ

(طويل)

ومما يُكْرَهُ للملِك – الانهماكُ في اللّذات وسماعِ الأغاني ، وقَطْعُ الزّمانِ بذلك قال الشاعرُ أبو الفتْحِ البُستي :.

إذا غَدا مَلِكٌ باللهو مشتغِلاً ... فاحكُمْ على مُلْكِهِ بالوَيْلِ والحَرَبِ

أما ترى الشَّمْسَ في الميزانِ هابطةً ... لمّا غدا وهو بُرْجُ اللهوِ والطَّرَبِ

(بسيط)

وما دخلَ الخِذلانُ على مَلِكٍ من طريقِ اللهو واللعب ، كما دخلَ على جلال الدين [٣] بن خُوارزم شاه – فإنّه لما هَرَبَ من المغول تَبِعوه ، فكان إذا رَحَلَ عن بلدةٍ نزلوها بعدَه ، وإذا أصبح في مكانٍ أمْسَوْاهم في المكانِ يريدونَ قَصْدَهُ . وهوَ معَ ذلكَ مُواصِلٌ لِشُرْبِ الخمر ، عاكفٌ على الدفّ والزّمرِ ، لا ينامُ ألاّ سكرانَ ، ولايصبحُ إلاّ مخموراً نَشوانَ . وعسكرُه في كلّ يومٍ يَقِلُّ ، وأمْرُه كلُّ يومٍ يزيدُ اضطراباً ، ورأيُهُ في كلِّ لحظةٍ يفيل ، وحدُّه يفلّ ، وهو لا يشعرُ بذلك ولا يلتفتُ إليه،حتى قال شاعره يخاطبه :

شاهَا زمَي كِواه جه برخُواهـذ ، خاست

وز مَستَى هر زَمان جه برخواهذ خاست

---

[١] أَبْرَوَيز : هو كِسْرى أبرويز ، ملكٌ ساسانيٌّ احتلّ أورشليم /٦١٤/ م وتغلّبَ عليه هرقل .اغتيل في السّجن عام /٦٢٨/ م .

[٢] شاعرُ العرب : لَقَبٌ من لم يحضرْ في ذاكرة المؤلف من الشعراء .

[٣] جلال الدين خوارزم شاه : آخر ملوك الدولة الخوارزمية التي أسسها خوارزم شاه في بلاد ماوراء النهر ومن مدنها بخارى وسمرقند واجتاحها المغول بقيادة جنكيزخان وتيمورلنك وقضى عليها /١٤٣١/ م ، حوالي /٦٤٥/ هـ .

شَــهْ مَسْت وَجِهانِ خرابَ وَدُشْمَنْ بس وبيس
يَيْـداست كــه أزين قَيان جه برخواهذ خاست*

(دوبيت)

وممن دَخلَ عليه النقص من الملوك بسبب اللهو واللعب - محمّـدُ بـنُ زُبَيْـدة الأمينُ كان كثيرَ اللهو واللعب منهمكاً في اللذات . قيلَ - إنه لعبَ يوماً هو ووزيـرُه الفضل بن الرَّبيع بالنَّرد ، فتراهنا في خاتميهما ، فغلبَ الأمينُ فأخذَ الخاتمَ ، وأرسـل في الحال وأحضر صائغاً . وكانَ على خاتمهِ مكتوباً ((الفَضلُ بن الربيع)) ، فقـال للصائغِ - اكتُبْ تـحـته (يُصفَع) ، فنَقَشَ الصائغُ ذلكَ في الحـالِ ، ثم أعـادَ الخـاتمَ إلى الفضلِ بنِ الربيعِ وهو لا يَعلَمُ ما نُقِشَ عليهِ ، ثم مَضَـتْ علـى ذلـك مـدة ، فبعد أيام دَخَلَ الفضل بن الربيع عليـه . وهـو لا يعلـمُ مـانُقِشَ عليـه فقـالَ لَـهُ - مـا علـى خاتمِك مكتوب ؟ قال اسمي واسمُ أبي فتناولَهُ الأمـينُ ثـم قـال لـه - مـاهذا المكتـوبُ تحتَ اسمِكَ فلمّا قرأه الفَضلُ بن الربيع فَهِمَ القضية، وقال : لاحـول ولاقـوة إلا باللـه العليِّ العظيم ، وهذا والله هو الخذلان المبين ! أنا وزيرك ولي اليوم كذا وكذا يومـاً أختم الكتب بهذا إلى الأطراف ، وهو على هذه الصفة هذا والله آخر الدولة ودمارها والله لا أفلَحْتَ ولا أفلَحْنا مَعَك ! فكانت الفتنةُ بعْد ذلك بيَسير .

وكان المستعصمُ آخر الخلفاء شديدَ الكَلَفِ باللّهوِ واللّعب ، وسماع الأغاني ، لا يكادُ مجلِسهُ يَخلو مِنْ ذلك ساعةً واحدةً ، وكان ندماؤه وحاشيتُه جميعُهم منهمكيـن معه على التنعّم واللذّات ، لا يُراعون لَهُ صلاحـاً ، وفي بعـض الأمثـال (الحـائن لا يسمعُ صياحاً) [١] وكُتِبَتْ له الرِّقاعُ [٢] من العوامّ ، وفيها أنـواعُ التحذيـر ، وأُلقيت وفيها الأشعار في أبواب دارِ الخلافة ، فمِنْ ذلك :

قُلْ لـلخليفـةِ مَـهْـلاً أتــاك مــا لا تُـحِـبُ

---

* هذا الشعر نظم على طريقة الدوبيت وقد نقله ابن طباطبا بالفارسيّة وقد حذف من طبعة بيروت ص ٤٥ ، وأثبت مع الشكل في ألما ص ٥٥ . وترجمته أيها الشّاه ، ماذا يستفاد من معاقرة الخمرة ، ومن معاقرة الخمرة على الدوام ماذا يُستفاد ؟! . الشاه في سُكرٍ والعالم من حوله خراب ، والأعداء محيطون بكل جانب ، والعاقبة لا تخفى .

[١] الحائن : من حانَ قَدَرُهُ فلا ينفع فيه التحذير من المصيبة .

[٢] الرِّقاع : جمع رقعة وهي القطعة المكتوبة .

ها قد دهتك فنونٌ مِنَ المصائِب غَرْبُ [١]
فـانهَـضْ بـعَزمٍ وإلّا غـشاك وَيْـلٌ وحَرْبُ
كَسرٌ وَهتْكٌ [٢] وأسْرٌ ضَرْبٌ ونَهْبٌ وَسَلْبٌ

(مجتثّ)

وفي ذلك يقولُ بعضُ شعراءِ الدولة المُستعصميّة ، مِنْ قصيدةٍ أوّلها :

يـا سائِـلي ولـمَحْضِ الـحـقِّ يَرْتادُ أصبحَ فـغنْـدي نِشْدانٌ وإنْشادُ
واضيعةَ الناسِ والدّينِ الحنيفِ وما تلقاه مِنْ حادِثاتِ الدَّهْرِ بَغْدادُ
هَـتْـكٌ وقَـتْـلٌ وأحْـداثٌ يَشيبُ بِها رَأسُ الـوليد وتعذيبٌ وأصفادُ[٣]

(بسيط)

كلُّ ذلك وهو عاكِفٌ على سـماع الأغـاني ، واسـتماع الـمثالثِ والمثـاني [٤] ومُلْكُهُ قد أصبح واهيَ المباني .

ومما اشتهرَ عنهُ : أنه كتب إلى بَدْرِ الدين لؤلؤ [٥] صاحب المَوْصِل ، يطلب منه جماعةً من ذوي الطَّرَب ، وفي تلك الحال وصلَ رسولُ السلطانِ هُولاكو إليـه ، يطلبُ مِنْهُ منجنيقاتٍ وآلاتِ الحصار ، فقـال بدر الديـن : انظـرُوا إلـى المطلوبَيْن ، وابكوا على الإسلامِ وأهلِه ! وبلغني أن الوزير مؤيّد الديـن مُحمّد بـن العلقمـيّ [٦] ، كان في آواخر الدولةَ المستعصمية ينشدُ دائماً :

كَيْفَ يُرْجى الصلاحُ من أمرِ قَوْمٍ ضيّعوا الحَزْمَ فيهِ أيَّ ضياعِ
فـمـطـاعُ الـمقـالِ غَيْـرُ سَديـدٍ وسديـدُ الـمقـالِ غَيْرُ مطاعِ

(خفيف)

---

[١] غرْب : هنا ، كثيرة دافقة .

[٢] الهتك : فضح الأعراض والأستار .

[٣] الأصفاد : القيود والسلاسل .

[٤] المثالث والمثاني : من مجالس الغناء أو منظوماتها المغنّاة .

[٥] بدر الدين لؤلؤ : أتابك الموصل في زمان المستعصم آخر خلفاء بني العباس في بغداد .

[٦] هو وزير المستعصم ، استبقاه هولاكو بعد فتح بغداد ، وكان حكيماً أريباً .

قالوا : ولا ينبغي للرجل الكامل إلا أنْ يكونَ في الغايـةَ القصْوى مـن طلـبِ الرياسةِ أو في الغايةَ القصوى منْ تركِها :

إذا ما لَمْ تكُنْ ملِكاً مُطاعاً فـكنْ عَـبْداً لخالِقـهِ مُطيعا
وإنْ لم تملكِ الدنيا جميعاً كما تَهْواهُ فاتْرُكْها جَميعا

(وافر)

هاهنا مَوْضِـعُ حكايـةٍ تشتملُ علـى أدوات الرياسـة : قيل : ورَدَ أبـو طـالبٍ الجارحيُّ الكاتبُ - ولم يكنْ في عصرهِ أكتب ولا أفضـلَ منـه - إلـى (الـرَّيّ) [1] قاصداً حضرةَ ابنِ العميد [2] ، فلم يجدْ عندهُ قبولا ، ولا رأى عنده ما يحب ، ففارقَهُ وقصدَ أذربيجانَ وسارَ إلى ملِكِهَا ، وكان فاضلاً لبيباً ، اختبرهُ وعرفَ فضلَهُ ، فلما سأله المقامَ عندَهُ وأفضلَ عليه ، فأقامَ لديهِ على أفضلِ حالٍ ، فكتبَ إلـى ابْنِ العميـد يوبِّخه على جهلِ حقِّهِ وتضييعه لمثله ، فمن جملة الكتاب :

حَدِّثْني : بأيِّ شيءٍ تحتجُّ إذا قيل لك ، لم سُمِّيتَ الرئيـس ؟ وإذا قيـلَ لـك مـا الرِّياسةُ ؟ أتدري ما الرِّياسة ؟ الرِّياسـة ، أن يكـون بـابُ الرئيس مصونـاً فـي وقـتِ الصَّوْنِ ومفتوحاً في وقتِ الفتحِ ، وأن يكونَ مجلسُه عامراً بأفاضلِ النَّـاسِ ، وخيرُه واصلاً إلى كُلِّ أحَدٍ ، وإحْسانهُ فائِضاً ، ووجهُهُ مبسوطاً ، وخادمهُ مؤدَّباً ، وحاجبُـه كريمـاً طَلْقاً وبوّابُه لطيفاً ، ودِرْهَمُه مبذولاً ، وطعامُـهُ مـأكولا ، وجاهُـهُ مُعَرَّضـاً ، وتذكرته مسوّدة بالصلاتِ والجوائزِ والصدقـات ، وأنـت !! فبـابُكَ لا يـزالُ مقفـلاً ، ومـجلِسُكَ خالياً وخيرُكَ مقنوطاً منــه ، وإحْسـانُك غَيْرَ مرجُوٍّ ، وخـادِمُك مذموماً ، وحاجِبُك هَرّاراً [3] وبوّابُك شرسَ الأخـلاقِ ، ودرْهَمُـك فـي العيّـوق [4] ، وتذكرتـك محشوّةٌ بالقبضِ على فلانٍ واستئصال [5] فُلانٍ ، ونَفْيِ فلانٍ ، فبالله عليكَ هل عندكَ

---

[1] الرَّيّ : مدينة كانت مزدهرة في العهد البويهي ، خربها الفتح المغولي حوالي /٦١٧/ هـ .
[2] ابن العميد : أبو الفضل محمّد ولي الوزارة لركن الدولة البويهي . أديب وشاعر . مات سـجيناً /٣٦٦/ هـ .
[3] هَرّاراً : عَبوساً في وجه القادمين ، يهرُّ كالكلب .
[4] العيّوق : أقصى البعد . نجم كالثريّا .
[5] استئصال فلان : قتله واغتياله .

غيرُ هذا ؟ ولولا أن أكون قد دستُ بساطَكَ ، وأكلتُ من طعامِكَ ، لأشعْتُ هذه الرقعةَ ، ولكنّي أرعى لك حقَّ ما ذكرْتُ ، فلا يعلمُ بِها ، إلا الله وأنت ، ووالله ثمَّ واللهِ ثمَّ واللهِ ، ما لها عندي نسخةٌ ولا رآها مخلوقٌ غيري ، ولا عَلِمَ بها فأبْطِلها أنت إذا وقفتَ عَلَيْها وأعدِمْها ، والسّلامُ على من اتّبع الهُدى .

ويجبُ أن يكونَ الملِكُ مجازياً على الإحْسانِ بمثْله ، وعلى الإساءَةِ بمثْلِها لتكون رعيّتُه دائماً راجين لبرِّهِ ، خائفين من سَطوتِه . وما أحسنَ قولَ النابغةِ للنعمان بن المنذر في هذا الباب !! وهو :

وَمَنْ أطاعك فانفَعْهُ بطاعتِهِ   كما أطاعَكَ ، وادْلُلْهُ على الرُّشْدِ
وَمَن عَصاكَ فَعاقِبه مُعاقبةً   تَنْهى الظلومَ ولاتقعُدْ على ضَمَدِ [٣]

(بسيط)

وقالتِ الفُرْسُ : فسادُ المملكةِ واستجراءُ الرعيّةِ وخرابُ البلادِ ، بإبْطالِ الوَعْدِ والوَعيدِ . ولايليقُ بالملكِ الفاضلِ أن يكونَ افتخارُهُ بزخارفِ الملك ، ممّا حَوتْهُ واشتملتْ عليهِ خزائنهُ من نفائسِ الذخائر ، وطرائفِ المقتنيات فإنَّ تلك تُرُهاتٌ لاحقائقَ لها ، ولامعرَّجَ لفاضلٍ عليها ، وكذلك لاينبغي له أن يكون فخرُه بالآباءِ والأجداد ، وإنما ينبغي أن يكون فخرُه بالفضائلِ التي حصّلها ، والأخلاقِ التي كمّلها ، والآدابِ التي استفادها ، والأدواتِ التي استَجادها .

افتخرَ بعضُ الأغنياءِ عندَ بعضِ الحُكَماء بالآباءِ والأجدادِ ، وبزخارفِ المالِ المستفاد ، فقالَ له ذلك الحكيم : إنْ كانَ في هذه الأشباه فخرٌ ، فينبغي أن يكونَ الفخرُ لها لا لك ، وإن كان آباؤك كما ذكرت أشرافاً ، فالفخر لهم لا لك .

قال العسجدي : كان بعضُ الحكماء إذا وُصِفَ عندهُ إنسانٌ يقول : هو عِصاميٌّ أم عِظاميٌّ ؟ فإن قيل له : هو عصاميٌّ نبُل في عينه . وإن قيل : هو عظامي لم يكترثْ بِهِ وقوله عصاميَ إشارة إلى قول القائل :

نفسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصاما   وعلَّمَتْهُ الكَرَّ والإقْداما

---

[٣] الضَمَد : الظُلم .

وصيَّرتْه مَلِكاً هُماما [1]

(رجز)

يَعني أنه بعقلِهِ وبنفسهِ صارَ رئيساً ، وقولُهُ عظاميّ يعني أنـه يفتخِرُ بالآبـاء والأجْداد والعظـام النَّخِرة . قـال العَسْجديّ [2] لبَعضُ أصحـاب ابـن العميـد [3] ذي الكِفايتين : كيفَ رأيتَ الوزيـرَ ؟ فقـالَ : رأيتُـه يـابس العُود ، ذميمَ العُهـود ، سـيءَ الظنّ بالمعبود . فقال العَسْجَديُّ : أما رأيتَ تِلْك الأبّهَةَ والصّيت ، والموكبَ والتجمّلَ الظاهرَ والدارَ الجليلة والفَرْشَ السنيَّ ، والحاشية الجميلةَ ؟ فقال ذلك الرجل : الدولـةُ غيرُ السؤدَد والسلطنة غيرُ الكَرَم ، والحظُّ غيرُ المَجْد . أيـن الـزوّارُ والمنتجِعُـون ؟ وأين الآملِونَ والشاكِرون؟ وأين الواصفون الصـادقون ؟ وأين المُنْصـرفون الرّاضـون وأين الهِبات وأين التفضلات ؟ وأين الخِلَع والتشريفات ؟ وأين الهَدايا وأين الضّيافات هيهات هيهات لا تجيء الرياسةُ بالتّرهاتِ ، ولا يحصل الشَّـرفُ بـالخُزعْبلاتِ ! أمـا سمعتَ قولَ الشاعر :

أبا جَعْفَرٍ لَيْسَ فَضْلُ الفتى ... إذا راحَ ، في فَرْطِ إعْجابِهِ
ولا فـي فَراهـةِ بِرْذَوْنِـهِ [4] ... ولا فـي مَـلاحـةِ أثْـوابِهِ
ولكنّه في الفَعالِ الجميـل ... والـكَـرَمِ الأشْـرفِ النّابِهِ

(متقارب)

ولمؤلِّفِ هذا الكتابِ – أصلح الله شانهُ ، وصانه عمّا شانَهُ – في هذا المعنى

لـيسَ فـضلُ الـفتى علـى النّاسِ في ثَوْ ... بٍ ودارٍ وبَـغْـلـةٍ ولِجامِ
إنـمّا الـفَضْـلُ فـي تـفـقّـدِ جـارٍ ... ونسيبٍ وصاحبٍ وغُلامِ

(خفيف)

---

[1] عِصام : حاجبُ الملك النعمان ، والبيت المذكور من أمثال العرب للفتى الذي يسمو بجدّه وكدّه معتمداً على نفسهِ وحدها .

[2] العسجديّ : لم نعثر له على ترجمة في المراجع القريبة . ويبدو أنه متأدب في مجالس الأمـراء والوزراء كابن العميد .

[3] ابن العميد : أبو الفضل ، محمّد وزير وشاعر وأديب . توفي ٣٦٦ هـ .

[4] البِرْذَوْن : البغل . الدابة من الخيول التركيّة . فراهةُ البِرْذَوْن : نشاطه .

قالوا – السّياسات خمسةُ أنواع – سياسةُ المنزل ، والقرية ، والمدينةِ ، والجيشِ والمُلْكِ . فمن حَسُنَتْ سياسته في منزله ، حسنت سياسته في قَرْيَتهِ . ومن حسنت سياسته في قريتهِ، حَسُنَتْ سياسته في مدينته ، ومَنْ حَسُنت سياسته في مَدينتِه حسنت سياسته للجيْش ، ومَنْ حَسُنَتْ سياسته للجيش ، حَسُنَتْ سياسته للمُلْك . وأنا لا أرى هذا لازماً : فكم من عامّي حَسن السّياسة لمنزله ، ليس له قوة سياسة الأمور الكبارِ . وكم من مَلِكٍ حسنِ السياسةِ لمملكته ، ليْسَ يُحسن سياسة منْزله والمملكةُ تُحرَسُ بالسيفِ وتدبَّرُ بالقلمِ . واختلفوا في السيف والقلم أيهما أفضل وأولى بالتقديم : فقومٌ يرون أن يكون القلم غالباً للسيف ، واحتجوا على مذهبهم لأن السيفَ يحفظ القلم فهو يجري مَعَهُ مجرى الحارسِ والخادم ، وقوم يرون أن يكونَ السّيفُ هو الغالب ، واحتجّوا بأن القلم يخدم السيف لأنه يحصّل لأصحاب السيوف أرزاقهُمْ فهو كالخادِمِ له . وقوم قالوا : هما سَواءٌ ولا غنى لأحدهما عن الآخر . قالوا المملكةُ تَخْصِبُ بالسّخاء ، وتَعْمُرُ بالعدل وتثبتُ بالعقل ، وتُحرسُ بالشجاعة ، وتساسُ بالرِّياسةِ . وقالوا : الشُجاعة لصاحبِ الدولةَ . ومن وصايا الحكماء : اجْعَلْ قتالَ عَدُوِّك آخِرَ حيلتِك ، وانتهزِ الفرصةَ وقْتَ إمكانها ، وكِلِ [1] الأمورِ إلى أكْفائها . ومن ركب ظهرَ العجلة لم يأمنَ الكَبْوة ومن عادى من لاطاقة له به فالرأيُ له مداراته وملاطفته ، والتضرّع إليه حتّى يخلص من شَرهِ ببعض وُجوه الخلاص . قالوا : ويَنْبَغي للملك ملاطفةُ أعدائهِ وإخوانِ اعدائه فبدوام الإحسانِ اليهم تزولُ عداوتهم . وإنِ أصرّوا على عُدوانه بعد إحسانه ، كانوا قد بغوا عليه ، ومن بُغي عليه فلينصرنه الله . وَعَظَ بعضُ الحكماء بعض أفاضل الملوك فقال :الدُنيا دُوَلٌ فماكان فيها لك أتاك على ضعفِك ، وماكان فيها عليك لم تدْفعْهُ بقوّتك . والشرّ مخوف ، ولا يخافه إلا العاقلُ والخير مرجوّ يطلبه كلُّ أحدٍ وطالما تأتّى الخيرُ من ناحية الشرّ ، وتأتّى الشرُّ من جهةَ الخير ، وهذا مأخوذٌ من قوله عزّ وجلّ : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون** ﴾ [2]

---

[1] كِلِ : فعل أمر من وَكَلَ : بمعنى أَسند المنصب أو المسؤوليّة .

[2] سورة البقرة ، الآية /٢١٦/ .

وهاهنا موضع حكاية . تقدم نورُ الدين [١] صاحبُ الشام إلى أسد الدين شيركوه [٢] عمّ صلاح الدين يوسف بن أيوب بالتوجه إلى مصر لأمر ندبَهُ إليه فقال أسد الدين شيركوه : يامولانا . ما أتمكن منْ هذا دون أن يجيء صُحبتي يوسف ابنُ أخي – يعني صلاحَ الدين – قال فتقدّم نورُ الدين إلى صلاح الدين بالتوجّه صحبة عمّهِ أسدِ الدين شيركوه ، فاستعفاهُ صلاح الدين من التوجّه وقال : ليس لي استعداد . فتقدم نورُ الدين بإزاحة علله ، وجزم عليه في التوجّه قال صلاحُ الدين فخرجْتُ مع عمّي كارِهاً وأنا كمن يُقادُ إلى المذبح ، فلمّا وصلنا مصْرَ وأقمْنا بها مدّة ؛ كان منّي ما كانَ من تملّكِ مصْر ، ثم ملكها صلاحُ الدين وعرضَتْ مملكتُها ، وتملّك الشأم [٣] وسيأتيك نبأ هذا مفصّلاً مشروحاً عند الكلام على الدولة الصلاحيّة إن شاءَ اللهُ تعالى ووفق ما قالوا : العدوُ عدوّان ، عدوٌ ظلمك ، وعدوٌ ظلمتَهُ . فأما العدوُ الذي ظلمتَهُ ، فلا تثق إليه واحترزْ منهُ مهما أمكنكَ ، وأما العدو الذي ظلمك ، فلا تَخَفْهُ كلَّ الخوْف ، فإنه ربما استحيا من ظُلْمك وندم ، فرجع لك إلى ما تُحبُّ منهُ وإن أصر على ظلمك انتصفَ لكَ منه منْ إليه يلجأ المظلومون .

وربّما نفعَ العدوُ وضرّ الصديقُ ! قال الإسكندر [٤] : انتفعتُ بأعدائي أكثرَ مما انتفعتُ بأصدقائي ، لأن أعدائي كانوا يعيّرونني ويكشفون لي عيوبي ، وينبهونني بذلك على الخطأ فأستدركهُ . وكان أصدقائي يزيّنون لي الخطأ ويشجّعونني عليه وقال الشاعر :

وما ساءَني إلا الذين عَرَفْتُهُمْ   جزى اللهُ خَيْراً كلَّ مَنْ لَسْتُ أعْرِفُ

(طويل)

وقيل للإسكندر : بمَ نلْتَ هذه المملكة العظيمة على حداثة السنّ ؟ قال : باستمالة الأعداء وتصييرهم بالبرّ والإحسان أصدقاء . وتعاهدُ الأصدقاء أعظمُ الإحسانِ وأبلغُ الإكرامِ .

---

[١] نور الدين : هو ابن عماد الدين زنكي . حاكم حلب بعد اغتيال أبيه . ملكَ الشامَ ومصر وحاربَ الصليبيين وانتزع منهم الرّها وبانياس وضمّ إليه الموصلَ . توفي ودفن في دمشق ، سنة /٥٦٩/ هـ .

[٢] أسد الدين شيركوه بن شاذي ، أضحى وزير العاضد الفاطمي في مصر بعد خدمته لنور الدين توفي /٥٦٤/ هـ

[٣] الشأم : لغةٌ في الشآم ، مثل الشأم ، وهي مشهورة جدًا في البلاد .

[٤] الإسكندر : هو الإسكندر المقدوني أو الكبير ، من أشهر الغزاة الفاتحين لقبه ذو القرنين هزم داريوس ملك الفرس واحتلّ مصر وأسّس الإسكندرية . مات في بابل عام / ٣٢٣ / قبل الميلاد .

قال بعضُ الحكماء : لا يَرُدُّ بأس العدوّ القاهر مثْلُ التذلّل والخضـوع كما أن النبات الرّطْبَ يَسْلَمُ من الريح العاصفة بلينه ، لأنه يميل معها كيف مالت . وما لهجَ [١] الملوك بشيءٍ أشدَّ من لهجهم بالصَّيْد والقَنْص ، وهو الشيءُ الذي طالما اتّفقَتْ فيه النكت العجيبة ، والطُّرَفُ الغريبة ، وكانَ المعتصم ألْهج الناس به : بنى في أرضِ دُجيْل [٢] حائطاً طوله فراسخَ كثيرةً ، وكانَ إذا ضرب حلقة يضايقونها ولا يزالون يحدّون الصيدَ حتى يُدْخِلوه وراء ذلك الحائط ، فيصيرُ بين الحائط وبَيْنَ دِجلة ، فلا يكون للصيد مجال فإذا انحصرَ في ذلك المَوْضع دخل هو وولدُهُ وأقاربُه وخواصُّ حاشيتِهِ ، وتأنّقوا في القتلِ وتفرجوا فقتلوا ما قتلوا وأطْلَقُوا الباقي . وقيل : إنّ المعتصم دوّغ [٣] عِدّةً من حُمُر الوحوش وأطلقها ، لأنّهُ بلغهُ أنّ أعمارها طويلة

وها هنا مَوْضعُ حكايةٍ طريفةٍ عجيبةٍ : حدّثني صفيُّ الدين عبد المؤمن بن فاخر الأرْمويّ ، قال : حدثني مجاهد الدين أيبك الدّويدارُ [٤] الصغير . قال : خرجنا مرة في خدمة الخليفة المُستعصم إلى الصيد ، وضربْنا حلقةً حلقةً قريباً من الجلهمة - وهي قرية بين بغداد والحلّة - ثم تضايقت الحلقة حتى صار الفارسُ منّا يصيدُ الحيوانَ بيدِهِ ، فخرجَ في جملةِ حمرِ الوحْش حمارٌ كبيرُ الجثة ، عليه وسم ، فقرأناه وإذا هو وَسْمُ المعتصم . قال : فلما رآه المستعصم وَسَمَه بِوَسْمِهِ وأطلقه . وكان بين المعتصم والمستعصم حدودُ خمسِمائةِ [٥] سنةً !

ومن طريفِ ما سمعتُ من امر الصَّيْد ، ما حدّثني به رجلٌ منْ أهْل الأدب ببغداد قال : حدثني محمّدُ بنُ صالحِ البازياريّ [٦] قال : تصيّدنا بين يدي السلطان (أباقا) [٧] يوماً ، فطارَ - ونحنُ بين يديه - ثلاثةُ كراكي [٨] على سمْتٍ مستقيم

---

[١] لهجَ بالشيء : تحدّث عنه .
[٢] دُجَيل : ناحية في الأهواز فيها نهر بهذا الاسم .
[٣] دوّغ : أنهك بالمطاردة .
[٤] الدويدار : كلمة فارسية بمعنى كاتب الملك أو حامل الدواة .
[٥] هُنا يشيرُ إلى مدى تعمير حمار الوحش .
[٦] البازرياريّ : محترف تدريب البلز أو الصقر على الصيد .
[٧] السلطان أباقا : ابنُ هولاكو المغوليّ ، حالف الصليبيين وانهزم جيشه في الأناضول أمام بيبرس ، وتغلب عليه قلاوون قرب حمص . مات / ٦٨٠ / هـ .
[٨] الكراكيّ : جمع كركي وهو طائر بريّ طويل الساقين والمنقار .

فأطلقْنا شاهيناً فعَلا وانحطَّ على الأعلى من الكراكيِّ فلطمهُ ، فوقع على الثاني فكسره ، ثم وقعا كلاهما على الثالث فكسَراه ، ووقعت الثلاثةُ بين يدي السُّلطان ، قال : فتَعجَّبَ من ذلك غايةَ العجب ، وخلع علينا جميعنا . وقال الصاحبُ علاءُ الدين في جهان كشاي : إن حلقةَ جنْكزْ خان كان أمدُها مسير ثلاثة شُهورٍ . وما أرى هذا إلا مُستَبْعداً . وما لَهِجَ الملوكُ بالصيدِ هذا اللهجَ الشَديد . ولا كلفوا به هذا الكلفَ العظيمَ . وأطلقوا للبازياريّة الأموال الجليلة ، وأقطعوهم الإقطاعات السنيّة ، وسهّلوا عليهم حجابهُمْ ، وقطعوا مُعْظمَ زمانهمْ فيه باطِلاً ولا عبثاً . فإنَّ القَنْص يشتَمِلُ على فوائدَ كثيرةٍ جليلةِ النَّفْعِ . منها –وهُو الغرضُ الأشْرفُ منه – تمرينُ العساكِرِ على الرَّكْضِ والكرِّ والعطْف ، وتعويدُهُم الفُروسيّةَ ، وإدمانهم للرمي بالنشّاب ، والضربِ بالسّيفِ والدبّوس ، واعتيادُ القتلِ والسّفْك ، وتقليلُ المبالاة بإراقةِ الدّماء وغصبِ النفوس . ومنها اختبارُ الخيولِ ، ومعرفةُ سبقها وصبرِها على دوامِ الركضِ ومنها أن حركةَ الصيد حركةٌ رياضيةٌ تعينُ على الهضم وتحفظ صحّةَ المِزاج ومنها : فضلُ لحم الصيدِ على باقي اللحومِ ، لأنّه بقلقه من الجوارح تثُورُ حرارته الغريزيّةُ ، فتزيدُ في حرارةِ الإنسان . قال بعضُ الحكماء – وخيرُ اللحمِ ما أقلقه الجارحُ إقلاقاً . ومنها – الطُّرفُ العجيبةُ التي تتّفق فيه ، وقد تقدم ذكْرُ شيءٍ منها .

وكان يزيدُ بن معاوية أشدَّ الناس كلفاً بالصَّيد ، لا يزالُ لاهياً بهِ ، وكان يُلْبِسُ كلابَ الصيد الأساورَ منَ الذَّهبِ ، والجلال المنسوجةَ منْهُ ، ويهب لكلّ كلبٍ عبْداً يخدمه. قيل : إن عبيد الله بن زياد أخذ منْ بعضِ أهل الكوفة أربَعمائةِ ألفِ دينارٍ جبايةً وجَعلها في خزْنِ بيت المالِ . فرحلَ ذلك الرجلُ من الكوفة وقَصَدَ دمشقَ ليشكو حالَه إلى يزيدَ – وكانتْ دمشقُ في تلك الأيام فيها سريرُ الملكِ – فلما وصلَ الرجل إلى ظاهر دمشْقَ ، سألَ عن يزيد فعرفوه أنهُ في الصيد ، فكره أنْ يدْخُلَ دمشق وليس يزيد حاضراً فيها . فضرب مخيّمه ظاهر المدينة وأقام به ينتظر عَوْدَ يزيدَ مِنَ الصيد . فبينما هو في بعض الأيام جالسٌ في خيمته ، لم يشعر إلا بكلبةٍ قد دخلتْ عليه الخيْمةَ ، وفي قوائمها الأساورُ الذّهب ،

وعليها جُلّ [١] يساوي مبلغاً كثيراً ، وقد بلغ منها العطشُ والتعبُ ، وقد كادتْ تموت تَعَباً وعطَشاً ، فعلم أنها ليزيد ، وأنها قد شذّتْ منه . فقام إليها وقدّم لها ماءً ، وتعهّدها بنفسِهِ . فما شعر إلا بشابٍ حَسَنِ الصورةِ على فرس جميلٍ ، وعليه زيُّ الملوكِ ، وقد علته غبرة فقام إليهِ وسلّمَ عليه ، فقال لَه - أرأيتَ كلبةً عابرةً بهذا الموضع ؟ فقال - نعم يا مولانا ، ها هي في الخيمة قد شربتْ ماءً واستراحت ، وقد كانت لما جاءتْ إلى ها هنا ، جاءتْ على غايةٍ من العطش والتّعب . فلما سمعَ يزيدُ كلامَهُ ، نزل ودخلَ الخيمةَ ، ونظر إلى الكلبةِ وقد استراحتْ ، فجذبَ بجُلّها ليخرجَ بها فشكَا الرّجلُ إليه حالَهُ ، وعرّفَهُ ما أخذ منه عُبيدُ الله بنُ زياد . فطلبَ دواةً وكتبَ له بردّ مالِهِ وخِلْعَةٍ سنيّةٍ ، وأخذ الكلبةَ وخرَجَ . فَرَدّ الرّجلُ [٢] مِنْ ساعتِهِ إلى الكوفةِ ولم يدخُلْ دِمَشْق .

وكانَ السلطانُ مسْعود [٣] يبالغُ أيضاً في ذلك ، ويُلْبِسُ الكلابَ الجِلالَ الأطْلسَ الموشاةَ ، ويسوّرها بالأساور . وكان يقلل في بعض الوقت الالتفاتَ إلى أمين الدولة ابن التلميذ [٤] الطبيب النصرانيّ ، وكان فاضلاً ظريفاً فقال :

مَنْ كانَ يُلبس كَلْبَهُ	وشياً ويقنعُ لي بجلْدي
فالكلبُ خيرٌ عِنْدَهُ	مني ، وخيرٌ مِنْهُ عِنْدي

(كامل)

وحدثني الأميرُ فخرُ الدين بغدي بنُ قشتمر قالَ - ضرب جدّي الملكُ قَشْتَمر حلقةً للصيّدِ ، فوقعَ فيها إنسانٌ قصيرٌ جدّاً ، كصغيرٍ يكون عمرُهُ خمسَ سنين ، وقد طالَتْ أظفارُهُ وشعر بدنِهِ طولاً مفرِطاً . قال : فامسْكوه وأحضروهُ بين يدي

---

[١] الجُلّ : ثوب تصان به الدابّة أو الحيوان وجمعها جلال وأجْلال .

[٢] ردّ إلى الكوفة : رَجَعَ إليها .

[٣] مسعود : هو مسعود بن محمّد السلجوقي . خلع المسترشد وأقام المكتفي من خلفاء بغداد . توفي / ٥٤٧ / هـ .

[٤] ابن التّلميذ : طبيب نسطوري ، له شِعْرٌ طريفٌ ومُلح . مات / ٥٦١ / هـ .

الناصر[1] فاستنطقوه فلم ينطقْ ، فأحضروا له الطعام فلم يأكلْ والماء فلم يشربْ ، فاجتهدوا معه بكل ممكن على أنْ يتكلَمَ ، وهو صامتٌ لا ينْطقُ ببنت شفةٍ . فقالَ لَهُ بعضُ الحاضرين : فأيَّ شيءٍ تريد ؟ فلم يتكلَمْ . فقال له : تريدُ نُطلِقُك ؟ فحركَ رأسَهُ يعني نعم . قالَ : فتقدَّمَ الناصرُ بإطلاقه . فلما أُطلِقَ عدا أشدَّ منْ عَدْوِ الغزال ثم دخل البريَّة . سُئِلَ بُزُرْجُمُهر[2] عن أردشير[3] فقال : أحيا الليل للحكمة ، وفرَّغ النهار للسِّياسةِ وقيلَ له : لأيِّ حالٍ عَمَّ كِسْرى بمعروفهِ جميعَ رعيّتِهِ قال : خوفاً أنْ يفوتَهُ المستحقّ قيل له : فكيف يمكن أن يعمَّ بمعروفه جميعَ رعيّته ؟ قال : نعم كانَ ينوي لهم الخير ، فإذا نوى لهم الخير فقدْ عمّهُم بمعرُوفِه . رُوِيَ عَنْ عُمَر بنِ الخطّاب – رَضِيَ اللهُ عنه – أنه قالَ : يزَعُ اللهُ بالسلطان أكْثَرَ مما يَزَعُ بالقرآن . قالوا : لأن الناس يخافون من عواجِلِ العقوبةِ أشدَّ مما يخافونَ مِنْ آجلِها .

ومما لا يليقُ بالملكِ الكاملِ – الإفاضةُ في مجلسِهِ في وصْفِ الطّعامِ والنّساءِ لئلا يشارِكَ بذلك العامّةَ . لأن العامّةَ قد قنعوا منْ عيشِهِم باليسير واقتصروا عليه ، وتركُوا الأمور الكبار . فإذا أرادوا أن يَفيضوا في حديثٍ ، لم يكن لهم إلا وَصْفُ أنواعِ الأطعمةِ ووصفُ أصنافِ النّساء . وقالَ الأحنفُ بنُ قيسٍ[4] : جنّبوا مجالسَنا ذِكْرَ الطّعامِ والنساء . قال أبرويز لابنه : لا تُوسِّعَنَّ جندك فيستغنوا عنكَ ، ولا تُضَيِّقَنَّ عليهم فيضجَروا منك ، وأعْطِهِم عطاءً قَصْداً ، وامنعهم منْعاً جميلاً ، ووسِّع عليهم في الرَّجاء ولا توسِّعْ عليهم في العطاء . ولما سمعَ المنصور هذا الكلام صادف منه موضعاً قابلاً للشُّحِّ الغالب عليه ؛ فقال : هذا هو رأيي . وهذا معنى قولِ القائل : أجِعْ كلْبَكَ يَتْبَعْكَ . فقامَ إليهِ بعضُ القُوّاد وقال : يا أميرَ المؤمنين أخافُ أن يلوح له غيرُكَ برغيفٍ فيدعك ويتبعه ! قالوا : سياسةُ الرِّياسة ،

---

[1] الناصر : هو الخليفة أبو العبّاس أحمد بن المستضيء بأمر الله . امتدَّ حكمه / ٥٧٥ – ٦٢٢ /

[2] بُزُرْجُمُهر : ابن البختكان ، وزير وحكيم فارسي . روى قصة انتساخ كليلة ودمنة .

[3] أردشير : مؤسس المملكة الساسانية الفارسية ، اشتهر بحكمته .

[4] الأحنف بن قيس : سيّد بني تميم في البصرة ، ضُرِب المثلُ بحلمه وحكمته . توفي / ٧٤ / هـ

أشد من الرياسة . كما أن سياسةُ الخدمة أشدُ من الخِدمة . وكما أن التوقّي بعد شرب الدواء أشدُ من الدواء . كذلك ربُ الصنيعة ، أشدُ من الصنيعة ، وعلى الرئيس أن يصبرَ على مَضَضِ الرئاسة . قال بعضُ حكماء الترك ، ينبغي أن يكون في قائد الجَيْش عَشْرُ خِصالٍ من أخلاقِ الحيوان -جرأةُ الأسَد ، وحملة الخِنْزِير [1] ، ورَوَغانُ الثعلب ، وصبرُ الكلب على الجِراح ، وغارةُ الذِّئب ، وحِراسةِ الكركي ، وسَخاءُ الدّيكِ وشفقة الدَجاجة على الفراريج ، وحَذَرُ الغراب ، وسِمَنُ تعرو ، (وهي دابة تكون بخراسانَ تَسمَنُ على السَفر والكمد) . قالوا : والفاضِلُ من طُلاب الرياسة هو الذي يكون مطْبوعاً على المعرفةِ ، مَخْلوقاً فيه صحة التمييز مُكْتسباً للعلم بما جرى في الدنيا من تَصاريف الدهور ، وتنقُّل الدُول عارفاً بمداراة الأعداء كَتُوماً لِسِرّه ، إذا كانَ قطبُ السياسة عليه يدورُ . وأن يستمدَّ لعقله مِنْ عُقولِ العقلاء ، فإنَّ العقْل الفردَ لا يقومُ بنفسه . وينبغي أن يكون ذا رويّةٍ عند اشتباهِ الآراءِ ، وعزيمةٍ عند اختلاف الأهْواء ، حتى يكشف .

وأما الحَزْمُ فهُوَ الأصلُ الذي يبني عليه في تحصينِ المملَكة . وقد كان يجبُ تقديمُه وذِكْرُه في أولِ الكتاب عِنْد أخواته منَ الخِصال المحمودة ، ولكن العقلَ يشتملُ عليه ويستلزمه ، فأكتفي بِذِكْرِهِ عَنْهُ . ولا بأسَ بذِكْرِ نبذةٍ في هذا الموضع منه . قالوا : أحزَمُ الملوك مَنْ مَلَكَ جِدُّهُ هزلَهُ ، وقهرَ رأيه هواهُ ، وعبَّرَ عن ضميرِهِ فِعلُهُ ، ولَمْ يَخْتَدِعْه رضاه عَنْ حَظّه ، ولا غضبُه عنْ كيْدِهِ . وكان يُقال : الحازمُ مِنْ الملوك من يبعثُ العيونَ [2] على نفسه ويتفقدُها ، حتى لا يكونَ الناسُ بعَيْبِه أعلَمَ مِنْهُ بعيب نفسهِ . وقالوا : أحْزمُ الملوك من حملَ رعيّتَهُ على التخلُّقِ بأخلاقِهِ ، والتأدبِ بآدابهِ ، بالرفقِ والتوصّلِ الحسنِ والتأنّي اللطيف . وخطر لي في هذا المعنى سِرٌ لطيفٌ وهو أنَّ الرعيّة إذا تدرّجوا إلى التخلّق بأخلاقِ الملكِ والتأدّبِ بآدابهِ ، صاروا مُستَحْسِنين لصادِراتِ أحواله وأفعالِهِ لأنّهمْ هم يفعلونها ويعتمدونها

---

[1] الحملة: الهجمة الشرسة .

[2] العُيون : قصد بها الجواسيس .

فلا يصير أحدٌ منهم يذمُ سيرتَه ، ولا يُزْرِي عليه ، ومتى كانت طباعُهمْ منافيةً لطباعِهِ ، وأخلاقُهم مضادَّةً لأخلاقِه ، أُغْروا بالإزْراء عليه ، والذمّ لأفعالِه ، وهذا سرٌّ لطيفٌ منطوٍ في قولِهم ! وقالوا : أحزمُ الملوكِ من تقدّمَ بإحكام الأمرِ قبل نزُولِ حاجَتِه . وتداركَ المهمّ قبل وُقوعه . قيل للإسكندر [1] : ما علامةُ دوامِ الملك ؟ قال : الاقتداء بالحزْمِ والجدّ في كل الأمورِ . قيل : فما علامةُ زوالِهِ ؟ قال الهزْل فيه . وقال أنوشِرْوان [2] : الحزمُ حفْظُ ما وُلِّيتَ وترك ما كُفيت . وقال آخر أحزمُ الملوكِ من ملك أمْرَهُ ، ودبَّر خصالَه ، وقمعَ شهْوتَه وقهر نوازعَهُ . قالوا : ينبغي أن يكونَ أول أمر الملك الحزْم ، فإذا وقع الأمر فينبغي أن يكون حينئذ الجدّ والاجتهاد . قيلَ لِبعْضِ فُضلاء الملوك : نراكَ إذا وفَدَ عليكَ وافدٌ أطلتَ مُجالستَهُ ، وربما لا يكونُ أهلاً لذلك . قالَ : إنّ حقيقة حالِ الرجل لا تبينُ في مجلسٍ أو مجلسين ، فأنا أُطاولُ عشرتَهُ وأختبرُه في عدة مجالس ، فإن كان فاضلاً اصطفيتُهُ ، وإن كان ناقصاً تركتُهُ . وقال آخرُ : لا ينبغي لأحدٍ أن يدعَ الحزْمَ لظفر ناله عاجزٍ ، ولا يرغبُ في تضييعه لنكبةٍ دَخلَتْ على حازم . قالوا : من لم يقدّمْهُ الحزمُ أخّرَهُ العَجْز . وقيلَ لعبدِ الملك [3] بن مَرْوانَ : ما الحزمُ ؟ قال : اختداع الناسِ بالمال واستمالتهم به ، فإنّهُمْ أتباعُه ، أين كانَ كانوا ، وكيف مالَ مالوا . وقال بعضُ الملوك لبعض الحكماء : متى تكون الثقة بالعدوّ حزماً ؟ قال : إذا شاورته في أمرٍ هو لك وله . وقال مُسلِمةُ بنُ عبدِ الملك [4] : ما فرحْتُ بظفر ابتدأته بعجزٍ ، ولا ندمْتُ على مكروهٍ ابتدأتُه بحزمٍ .

---

[1] الإسكندر : الفاتح المشهور ، اشتهر بحكمته وقيادته للجيوش . انتصر على داريوس ملك الفرس ، وبنى الإسكندرية في مصر توفي / ٣٢٣ / ق م .

[2] أنوشيروان : ملك ساساني حارب الروم البيزنطيين واستولى على اليمن . اشتهر بعدله وإصلاحاته . مات / ٥٧٩ / م .

[3] عبد الملك بن مروان : خامس الخلفاء الأمويين . كان فصيحاً حكيماً ، وطد دعائم الدولة . توفي / ٨٦ / هـ .

[4] مسلمة بن عبد الملك : أمير أموي ، وقائد جيش قضى على ثورة يزيد بن المهلب عامل خراسان . توفي / ١٢٠ / هـ .

ومما يجبُ على الملكِ الفاضل : إمْعانُ النظر في أمر الأسْرارِ ، وصَوْنُها وتَحْصينُها وحِراستُها من الإفْشاءِ والذِّياع ، وهذا بابٌ يحتَاجُ فيه إلى التأني التامّ ، فكم مِنْ مملكةٍ خَرِبَتْ وكَمْ من نَفْسٍ تَلِفَتْ بسَبب ظُهورِ سرٍّ واحدٍ ! وحفظُ السرِّ وكتمانُهُ من أفضل ما اعتنى به الإنسان ؛ فمما جاء في ذلك في الحديث ((مَنْ كَتَمَ سِرَّه مَلَكَ أمْرَه)) وقال علي - عليه السلام - ((الرأيِ تحصينُ السرّ)) .

أسَرَّ بعضُ الناسِ إلى رجلٍ حديثاً وأمرَهُ بكتمانه ، فلما انقضى الحديث قال له : فهمتَ ؟ قال : نسيتُ . وقال عمرو بن العاص [1] : إذا أفشيتُ سرّي إلى صديقي فأذاعه كان اللومُ لي لا لهُ . قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لأنّي أنا كُنْتُ أولى بصيانته مِنْهُ . ومِنْ أناشيدِ هذا الباب :

إذا ضاقَ صَدْرُ المرءِ عن سِرِّ نَفْسِهِ فَصَدْرُ الذي يُستَوْدَعُ السرَّ أضْيَقُ

(طويل)

قالوا : لا ينبغي أن يكونَ سرُّ الملكِ إلا عنْدَ واحدٍ ، فإنه إذا كان عِنْدَ واحد كان أحْرى ألا يظهر ، إما رَغْبَةً وإما رهبةً ، لأنه إن ظهر تحقّق الملك أن ظهورَهُ قد كان من جهةِ ذلك الرجل ، ومتى كان السرُّ عند جماعةٍ ثم ظهر ، أحال كُلُّ واحدٍ منهم على الآخر ، فإن عاقبهم الملك جميعاً كان قد ظلمهم إلا واحداً ، وإن ترك معاقبتهم طَمِعوا وتطرّفوا على إفشاءِ أسراره . قال الشاعر :

وسرُّكَ ما كانَ عِنْدَ امْرِىءٍ وسِرُّ الثلاثةِ غَيْرُ الخَفي

(متقارب)

فإنْ احتاجَ الملِكُ إلى إظْهارِ سرّه لجماعةٍ فأصلَحُ مالهُ أن يُفْضي به إلى كُلِّ واحدٍ منهم على سبيلِ الانْفِراد ، ويُوصيه بالكتْمان ويُوهِمُه أنّهُ ما أفضى إلى غيرِهِ بِهِ ، فذلك أجدر لأن ينكتم السر . شاور بعض ملوك الفرس و زراءه في أمر ، فقال واحد منهم : لا ينبغي للملكِ أنْ يستَشير بأحدنا إلا خالياً به ، فإنه أكْتَمُ للسرِّ

---

[1] عمرو بن العاص : قائد عربي شهير ، فتح مصر وبنى فيها مدينة الفسطاط في عهد عمر بن الخطاب . نصر معاوية بدهائه . توفي عام / ٤٣ / هـ .

وأحزَمُ في الرأيِ ، وأجدَرُ بالسلامةِ ، وأعفى لبعْضنا منْ غائلة [1] بعضٍ .

وما اعتَنَت دولةٌ بتحصينِ الأسْرار والمبالغةَ في حفْظها كالدولة العبّاسيّة ، فإنْ لها منْ هذا الباب عَجائب ، وكَمْ منْ نعْمةٍ أزالوها عنْ أربابها ، ونفْسٍ أزْهقوها بسببِ كلِمةٍ منقولةٍ ، أو حكايةٍ مقُولةٍ . جرى في أيام الناصر [2] قضيةٌ ظريفةٌ لا بأسَ بذكرها ها هنا .

كان للناصرِ ولدان هما ولدا ولده ، وكانَ قد أقطعهما بلادَ خوزستان [3] وتوجَّها إليها وأقاما بها ففي بعض الليالي أفكر الناصرُ في أمرهما واشْتاقهما ، وخافَ عليهما من حادثٍ يحدث بتلك الناحية ، فأرسلَ في الحال إلى وزيره القمّي [4] وقال له : أرسل في هذه الساعة إليهما من يأمرهما بالوصول إلى بغداد ، ولا تُشْعر بهذا مخلوقاً . فأحضر الوزيرُ نجّاباً في ذلك الحال . وكان جماعة من النجّابين يبيتون في كلّ ليلةٍ بباب الديوان ، يبيتُ أحدهم وتحتَ رأسهِ راحلتُه وزاده ونفقتُه ، وقد ودّعَ أهلَه ، فإنْ عرضَ في الليل مُهمٌّ توجّه فيه فلما حضرَ النجّابُ بين يديّ الوزيرِ شافَهَهُ بالمُراسلةِ ، وقالَ له تَخْرج في هذه الساعة ، وإياك أن يعلم هذا أحد فيكون عوضُهُ نفسَك . ثم تقدّم الوزيرُ يحملُ مفتاحَ بابٍ من أبواب السُور له ، فلما مضى ليَخْرُجَ اجتازَ ببعضِ الدروب وامرأتانِ في منظرتين متقابلتين تتحدثان ، فقالت إحداهما للأخرى : ترى هذا النجّابُ إلى أين يمشي في هذا الوقت ؟ فقالت لها الأخرى يمشي إلى دستَر لإحضار أولاد الخليفة فإنه قد خاف عليهما وقد اشتاقهما لأن جدّتهما هناك قد طالتْ . فلما سمع النجّابُ ذلك ترجّعَ من ساعَته إلى الديوان ؛ واستأذنَ على الوزير . فلما علِمَ الوزيرُ برجوعِه انزعجَ لذلك وأحْضرَهُ ، وسألهُ عن سبب عَوْدِهِ ، فقالَ له : يا مولانا جرَى الساعةَ في الدرب الفلاني كيت وكيت ، وخفْتُ أن أتوجَّهَ

---

[1] الغائلة : الشرّ والبطش .

[2] الناصر : هو الخليفة العباسي الرابع والثلاثون ولي الخلافة / ٥٧٥ / هـ وتوفي / ٦٢٢ / هـ . واسمه أحمد بن المستضيء بأمر الله ، وسبقت ترجمته .

[3] خُوزستان : إقليم في غربي إيران من مدنه : عبادان وتُستَر وخُرّم شهر .

[4] القمّي : هو محمّد بن عبد الكريم أصله من قُم ونشأته في بغداد . استوزره الخليفة العباسيّ الناصر . توفي / ٦٢٩ / هـ .

وينتشر هذا الحديثُ ، فما تشكّون في أنني أنا الذي أظهرتُه فيكونُ ذلك سببَ هلاكي ، فقال الوزير : قد عرفنا ذلك اخرُجْ وتوجّه في أمان الله تعالى فإن الشياطين تنقل عظائمَ الأخبار . ومما يجري هذا المجرى ، ما حدثني به بعضُ أهلِ بَغْدادَ . قال : حدثني صديقٌ لي قال : كنّا نتمشى في دولاب بستانِ البقل ، وقد أمعنّا في الدخولِ إلى أقصاه ، فَسَمِعْنا صوتَ قائلٍ يقول : مات أباقا [1] ، قال : فنظرنا فلم نُبْصِرْ أحداً . ثم إنّنا أرخنّا اليوم ، فلما فشا الخبرُ كان كما قال . قيل : إن صاحب الموصل – وأظنه بدر الدين [2] – قال لمجد الدين بن الأثير الجزري [3] : أريد أن تُعين لي في هذه الساعة على رجلٍ دينٍ أمينٍ يكون موْضعاً للسرّ أحمّلهُ مشافهةً سريّةً إلى الخليفة ؛ ويتوجه في هذه الساعة فأفكر ابنُ الأثير ساعةً ثم قال يا مولانا : ما أعرفُ أحداً بهذه الصفة إلا أخي [4] . قال : فقُمْ وعرّفْهُ ذلك . وأرسلَهُ إلى دارِهِ ، وحكى لأخيهِ ما جرَى عِنْدَ السلطان ، وقال لهُ يا أخي والله ما شهدتُ لكَ إلا بما أعرفُهُ منكَ ، فتوجَّهْ إلى خِدْمةِ السلطانِ ، وامتثِلْ ما يشيرُ به . فحضر ابنُ الأثير عِنْدَ السلطان وشافهه بالمراسلة ، وقال له : تتوجّهُ في هذه الساعة . فحضر ابن الأثير إلى داره ليودِّعَ أخاه فوجده قائماً في الدهليز ينتظرهُ ، فقال لهُ : شافهكَ السلطانُ بالحديث . قال : نعم ، قال : فما هو ؟ قال : يا أخي الساعةَ شهدتَ لي عِنْدَهُ بالدينِ والأمانةِ وحِفْظِ السرّ ، فيجوز أن أكْذِبَكَ في الحال ؟ قال لي شيئاً ما أقولُهُ إلا لمن أمَرَني أن أقوله له . قال فبكى مجدُ الدينِ أخوه ودَعَا له . ومِنَ الأشعارِ المقولةِ في ذلكَ قولُ الحماسيّ :

---

[1] أباقا : سلطان مغولي خلف أباهُ هولاكو . سبقت ترجمته .

[2] بدر الدين : هو بدر الدين لؤلؤ ، عامل المُستعصِم على المَوْصِل سبقت ترجمته .

[3] مجد الدين : أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني . صاحب كتاب (جامع الأصول في أحاديث الرسول) توفي / ٦٠٦ / هـ .

[4] لمجد الدين بن الأثير هذا ، أخوان آخران ، هما عزّ الدين أبو الحسن المؤرّخ ، وضياء الدين أبو الفتح الكاتب صاحب كتاب ((المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)) ولم يحدد في روايته أيهما المقصود بحكاية الأمانة على السرّ .

وفتيان صدقٍ لستُ مُطْلِعَ بعضِهم على سرِّ بَعْضٍ غير أنّي جِماعُها [1]

لكلِّ امرىءٍ شِعْبٌ مِنَ القَلْبِ فارغٌ ومَـوْضِعُ نَجْـوَى لا يُـرامُ اطِّـلاعُها

يَظَلّونَ شتّى في البِـلادِ وسِـرُّهُمْ إلى صَخْرةٍ أعيا الرجالَ انصداعُهـا

(طويل)

ومن جيّد ما قيلَ في ذلك :

لا تسـألي القـومَ : مـا مالي وكَثْرتُه وسائلي القومَ : ما مَجْدي وما خُلُقي

هَلْ أطْعَنُ الطعنةَ النجلاءَ عَنْ عَرَضٍ وأكـتمُ السِّـرَّ فيـه ضَـرْبَـةَ العُنُقِ

(بسيط)

ومن جَيِّدِه قولُ الصابىء :

فَقُلْ لِصَديقي كُنْ على السِّرِّ آمناً إذا لَمْ يَكُنْ بيْني وبيْنَكَ ثالثُ

(طويل)

وقل الآخر :

وإنكَ كلّما استوْدِعْتَ سِرّاً أنمُّ مِنَ النَّسيمِ على الرِّياضِ [2]

(وافر)

ولمؤلّفِ هذا الكتاب في ذلك من جُمْلَةِ أبياتٍ :

وما احْتَفَرَ الأصْحابُ للسرِّ حُفْرةً كَصَدْري ولو جارَ الشَّرابُ على عَقْلي

(طويل)

وقوله في ذلك أيضاً :

وإنْ يَكُنِ الزجاجُ يَنِمُّ طَبْعاً فَسِيْدُنا أنمُّ مِنَ الزُّجاجِ

(وافر)

ومن الأمورِ التي يجبُ تدقيقُ الفكر فيها ، والتثبّت التامّ والتأني فـي تأمّلهـا : حديثُ السّعاياتِ والنمائم . فكَمْ مِنْ نمّامٍ أو ساعٍ قد شفى غيْظَـهُ بإيقـاعِ مسكينٍ بينَ يَدَيْ مَلِكٍ قاهرٍ ، في تهمةٍ هو بريءٌ منها ، ثم اشتبه الأمرُ على الحاكم فأهلكَ الرجلَ البريءَ بغيرِ ذنبٍ ؛ ثم لمّا عَلِمَ نَدِمَ حينَ لا ينفعُ الندمُ ، فعمَّ الضررُ بذلك الساعي

---

[1] جِماعها : جامعُها وكاتِمُها .

[2] قوله ((أنم من النسيم على الرياض)) كناية عن البوح بالسرّ وإفشائه .

والمسعيّ إليه ، لأنهما أهلكا دينَهما بما فعلاهُ . والمسعى به لتعجله العقوبة . فعمّ الضررُ الثلاثةَ ، ومما جاءَ في ذلك في التنزيل : ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيّنوا أنْ تصيبُوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتمْ نادمين** ﴾ [1] ومما جاءَ في الحديث : ((مَنْ كان يؤمن بالله واليومِ الآخر فلا يرْفعَنْ إلينا عَوْرَةَ [2] أخيهِ المسلم)) .

رَفَعَ إنسانٌ إلى يحيى بن خالد [3] بن برمك قِصّةً يقول فيها : إنه قد ماتَ رجلٌ تاجرٌ غريبٌ ، وقد خلَّفَ جاريةً حسناءَ وولداً رضيعاً ، ومالاً كثيراً ، والوزيرُ أحقُّ بهذا . فكتب يحيى بنُ خالدٍ على رأسِ القصّةِ : أما الرّجلُ فرحمه الله . وأما الجارية : فَصانَها الله ، وأما الطِّفْل : فرعاه الله . وأما المال : فثمَّرَهُ الله . وأما الساعي إلينا بذلك : فلَعَنهُ الله . قيل : لما تولى عبد العزيز بن مروان [4] دمشقَ - ولم يكنْ في بني أمية ألبُّ منْهُ وكان حَدَثَ السنِّ - طَمعَ فيه أهلُ دمشْقَ ، وقالوا : صبيٌّ لا عِلْمَ له بالأمور ، وسَيَسْمَعُ كلَّ ما نقولُ له فقام إليه رجلٌ وقال : أصلَحَ اللهُ الأميرَ . نصيحة !! فقالَ : ليتَ شِعْري ما هذه النصيحة ، التي قد ابتدأتني بها من غير يدٍ سبقت مني إليك ؟ هاتِ نصيحتَكَ . قالَ : لي جارٌ وهو عاصٍ خالعٌ للطاعة - وذكر له عُيوباً - فقالَ له عبدُ العزيز : إنّك أيها الرجل ما اتّقيتَ اللهَ تعالى ، ولا أكْرَمْتَ أميرك ولا حَفِظْتَ جِوارَك ! إنْ شئْتَ نظرْنا فيما تقول ، فإن كُنْتَ صادقاً لم يَنْفَعْكَ ذلك عِنْدَنا ، وإنْ كُنتَ كاذِباً عاقبناك وإنْ استَقَلْتنا أقلْناك . فقال : بل أقِلْني أيها الأمير ، قال : اذهب حيث شئت ، لا صحبك الله ، إنّي أراكَ شرَّ رجلٍ ! .

---

[1] سورة الحجرات ، الآية / ٦ / .

[2] العَوْرة : هنا ، ما يكره المرءُ الاطّلاعَ عليه من قِبَل غيره .

[3] يحيى بن خالد بن برمك : أبو الفضل وجعفر ، وقد كان مربيّاً وكاتبا للرشيد ثم استوزره ومن بعده ولداه حتى كانت نكبة البرامكة المشهورة . مات سجيناً في الرقّة سنة / ١٩٠ / هـ .

[4] عبد العزيز بن مروان : المعروف أنه ولي مصر لأبيه مروان بن الحكم الأموي واستمرّ إلى أن توفي عام / ٨٥ / هـ وهو والد الخليفة عمر بن عبد العزيز .

كان الوزيرُ عليُّ بنُ محمد بن الفرات وزيرُ المقتدر يبغضُ السُّعاة . فكان إذا رفع أحد إليه قصة فيها سعاية بأحد ، يُخْرِجُ حاجبه إلى الباب ، والناس على طبقاتهم وقوفٌ فيقولُ : أينَ صاحبُ هذه السعاية ؟ قد قال لك الوزير : كذا وكذا فيفتضح ذلك الرجل في ذلك الجمع ، فترك الناسُ السعايات في أيامه . قال عبدُ الرحمن بنُ عوْف [1] - رضي الله عنه - : ((من عرفَ فاحشةً فأفشاها كان هو الذي أتاها)) كتب قُباذ [2] الملك لابنه كِسْرى عهداً ، فمن جملته ((يا بنيَّ : لا تُدْخِلَنْ في مشورتك بخيلاً فإنه يقصّر بك عن غايةِ الفضل ، ولا جباناً فإنّه يُضيِّقُ عليك الأُمور عند انتهازِ الفرصة . يا بني : ليكن أبغضَ رعيّتك إليك أكثرهم تكشيفاً لمعايبِ الناس ، فإن في الناس عيوباً أنت أحقُّ منْ سترها وكره ما تكشّفَ منْ غائبها فإنّما إليكَ الحكمُ على ما ظهر ، والله يحكمُ فيما غاب . فاكره للرعيّة ما تكرهُ لنفسِكَ واسترْ العَوْرَةَ بستر الله عليك ما تحبُّ سَتْرهُ . ولا تعْجلْ إلى تصديق ساعٍ ، فإنْ الساعي غاشٌّ وإنْ قالَ قولَ النَّصيح . وأعطِ الناس منْ عفوك مثل ما تحبُّ أن يعطيكَ مَنْ فوقك)) .

ومن مليح ما قيلَ في ذلك قولُ مهْيار [3] يخاطبُ بعض الوُزراء :

يا سيفَ نصري والمهنّدُ تابعي ... وربيعَ دهري والزّمانُ مُصافُ [4]

---

[1] عبد الرحمن بن عوْف : صحابيّ سابق إلى الإسلام ، وأحد العشرة المبشرين بالجنّة . شهد المعارك وجُرح يوم أُحُد . كان جواداً سخيّاً . توفي في المدينة المنورة / ٣٢ / هـ .

[2] قُباذ : والد كِسْرى أنوشروان الملك الساسانيّ المشهور . وقد سبقت ترجمة كسرى .

[3] مهيار : هو مهيار الدَّيلمي تلميذ للشريف الرضيّ . اعتدّ بأصله الفارسي في شعره . وله ديوان . توفي / ٤٢٨ /هـ .

[4] مُصافٌ : محترٌّ بحر الصيف .

ومُعيــدَ أيّـامي عليَّ بَـدائِنــاً[1] سِمناً وَهُنَّ على الأنامِ عِجـــافُ
أخلاقُــكَ الغـرُّ السّجايـا مالَها حملتْ قذى الواشينَ وهي سُلافُ ؟ [2]
والإفكُ [3] في مرآةِ رَأيكَ مالَهُ يَخفى وأنــتَ الجَوْهـرُ الشفّـافُ ؟

(كامل)

ومن مليحِ قولُ القائل :

سَعى إليكَ بيَ الواشي فلم تَرني أهْلاً لتكذيبِ ما ألقى منَ الخبَرِ
ولو سعى بكَ عندي في ألذِّ كرىً طيفُ الخيالِ لبِعْتُ النومَ بالسَّهَرِ

(بسيط)

اختلفوا في الملك القاهرِ العَسوف ، والملك المقتصد الضّعيف : ففضلوا القاهر العسوف واحتجّوا بأن القويُّ العسوف يكفُّ الأطماع عن رعيّته ، ويحميهم من غيره بقوّته . وله أنفة تعصِمُهم من شرِّ غيره ، فتكون رعيّته بمثابة من كُفِيَ شرَّ جميعَ الناسِ وابتُليَ بشرٍّ واحدٍ . وأما المقْتصد الضعيفُ : فيهملُ رعيّتَهُ فيتسلّطُ عليهم كلُّ أحدٍ ويدوسُهم كلُّ حافرٍ ، فيكونون بمثابةِ مَنْ كُفي شرّ واحدٍ وابتُلي بشرِّ جميعِ الناس ، وبينَ الحالين بَوْنٌ بعيد .

وقالَ بعضُ الحكماء . سلطانٌ يخافُه الرعيةُ ، خيرٌ من سلطانٍ يخافُها . قال أنوشيروان : عندي لمن عرّضَ ذمّهُ سفْكُه ؛ ولمن جاوز حدّهُ تقويمُه ، ولمن تعدّى طورهُ قمْعه . قال بعضُ الحكماء : أمرانِ جليلانِ لا يصلحُ أحدهما إلا بالانفراد . فالمُلْك متى وقعَ فيه الاشتراكُ فَسَدَ . وأما الذي لا يصلحُ إلا بالاشتراك – فالرأيُ ، متى وقعَ فيه الاشتراك وثِق فيه بالصّواب . ولا يجوز لملك أن يصغر في نفسه أمر عدوه ، وإن كان صغيراً في نفس الأمر . ولا يجوز لجلساء الملك أن يصغّروا أمرَ عدوّه ، فإنهم إنْ صغّروه حتى ظَفِرَ بهِ العدوُّ كان وَهْناً له ، إذ قد غلبهُ عدوٌّ صغيرٌ وإنْ ظفر هُوَ بالعدوِّ لم يكن قد صنعَ طائلاً . لمّا رَجعَ رسول الله – صلى الله عليه

[1] البدائن : سِمان الإبل والأنعام ، والعجاف : المهزولات .
[2] السُّلاف : الخمرة .
[3] الإفك : الكذِب .

وسلم – من وقعة بدر ومعه الأسرى والغنائم ، وقد قتل الله رؤوس المشركين ؛ تلقّاهُ الناس من ظاهر المدينة عن أميال فجعلوا يهنئونه بالفتح ، وجعل الناس يسألُ بعضُهم بعضاً عمن هلك وسلم ، فقال بعضُ الصحابة : والله ما قتلنا إلا عجائزَ صُلْعاً . فأقبلَ عليه رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – باللوم ولم يزلْ كالمعرض عنه ، ثم قال له : أولئك يا ابن أخي الملأ .

ومن مليح ما رأيتُ في هذا المعنى ، قولُ حكيمِ الهنْد لبعضِ مُلوكِهمْ : لا تحقرنَ أمْرَ الأعداءِ وإن صغُروا ، فإن الزنبر [1] إذا جُمع جُعل منه حبْل يشدُ به الفيل . وإغبابُ [2] الرأي من الأمور المهمّة . وأجْودُ الرأي ما وقعَ فيه التأني والتثبّت ، وبذلك يُؤمنُ زللُ الرّأي . قال الأحنفُ بنُ قيس [3] لأصحاب عليٍّ – عليه السلام – أغبّوا [4] الرأيَ فإنّ إغبابَه يَكشِفُ لكم عنْ مَحْضِه .

واستشيرَ بعضُ العقلاء في أمرٍ فسكت ، فقيلَ له : لمَ لا تتكلّم ؟ فقال : ما أحبُّ الخبزَ إلا بائتاً [5] ، ولما عزمَ الخوارجُ على مبايعة عبد الله بن وَهْبٍ [6] الراسبي أرادوه للرأي ، فقالَ : ما أنا والرأيُ الفطيرُ [7] والكلامُ المقتضب ، فلما فَرَغوا منَ البيْعة قالَ : اتركوا الرأيَ يغبُّ – أي يأتي عليه يومٌ وليلةٌ – وكان يستعيذُ باللهِ من الرأي الفَطير .

قالوا : مرَّ الحارثُ بن زيدٍ بالأحنفِ بن قيسٍ ، فقالَ له : لولا أنّكَ عجلان لشاورْتُكَ

---

[1] الزِّئبَر : ما يظهر من درز الثوب . وهو أوهى الخيوط أو نتافتها . وبلغة العوام ، الزُّغبُر .

[2] إغْباب الرأي : تأجيلُ إنْفاذِه ، والتمهّل فيه .

[3] الأحنف بن قيس : أبو بحرٍ التميميّ . داهية وفصيحٌ وحليمٌ وصاحب رأيٍ ومشورة . توفي في الكوفة / ٧٢ / هـ .

[4] أغبّوا الرأيَ : بيّتوه . تريّثوا في إصداره .

[5] الخبز البائت : هنا ، استعارة للرأي المبيّت ، بلا استعجالٍ في إنفاذه .

[6] عبد الله بن وَهْب الراسبيّ : زعيم الخوارج من الأزد ، قتل في معركة النهروان في حربه مع عليّ / ٣٨ / هـ .

[7] الفطير : ضدّ الناضج ، الفجّ .

وهذا دليلٌ على كراهيتهم للرأي الفطير . وكانوا لا يُشاورون الجائعَ حتى يَشبع ، ولا الأسيرَ حتى يُطْلَقَ ، ولا الطالبَ حتى يبلغ حاجته ، ولا العطْشان حتى يَرْوى ، ولا الضالَّ حتى يَهتدي . وقال بعضُ الشعراء يصفُ عاقلاً :

عليمٌ بأعقابِ الأمورِ كأنّما ... يُخاطبُهُ مِنْ كُلِّ أمْرٍ عواقِبُهْ

وما أعرفُ أحسنَ من قولِ ابنِ الروميِّ [1] في تفصيل الرأيِّ المختمر على الرأي الفطير :

نار الرَّوِيَّةِ نارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ ... وللبديهةِ نارٌ ذاتُ تَلْويحِ
وَقَدْ يُفَضِّلُها قومٌ لِعاجِلِها ... لكنَّه عاجِلٌ يمضي مَعَ الرِّيحِ

(بسيط)

ومما يوجبُهُ العقلُ الصحيحُ ، أنَّ الإنْسان لا يدخلُ في أمرٍ يعسُرُ الخروجُ منه ، قال الشاعر :

ما مِنَ الحَزْمِ أنْ تُقاربَ أمْراً ... تَطْلُبُ البُعْدَ مِنْهُ بَعْدَ قَليلِ
فإذا ما هَمَمْتَ بالشيءِ فانظُرْ ... كَيْفَ مِنْهُ الخروجُ بعدَ الدُّخولِ

(خفيف)

قالوا : وأفضلُ من ذلك أن الإنسان لا يُدْخِلُ نَفْسهُ في أمرٍ يحتاجُ في الخروجِ مِنْهُ إلى فِكْرٍ ، قال معاويةُ لعمرو بن العاص – رضي الله عنهما – ما بلغَ مِنْ دَهائِكَ ؟ قال : ما دخلتُ في أمرٍ إلا وأحْسَنْتُ الخُروجَ منه ، فقال معاويةُ : لكني أنا ما دخلتُ في أمرٍ أحتاجُ في الخروجِ مِنْهُ إلى فِكْرٍ .

ومن الأُمورِ المهمّة للملك ، حُسْنُ نظرِهِ في إرسالِ الرُّسُل ، فبالرسول يستدلُ على حالِ المرْسِل . قال بعضُ الحكماء : إذا غابَ عنكم حالُ الرجل ، ولم تعلموا مقدارَ عقلِه ، فانظروا إلى كتابِه ورسولِه ، فهما شاهدان لا يكذبان . ويجبُ أن يكون في الرّسول خصال – منها العقْلُ ، ليميزَ بهِ الأمْرَ المُستقيم من المعْوَجّ .

---

[1] ابنُ الروميّ : عليّ بن العبّاس ، شاعرٌ عباسي مشهور ، عرف بتشاؤمه ، توفي / ٢٨٣ / هـ

والأمانةُ والعفافُ لئلا يخونَ مُرْسِلَه ، فكم من رسولٍ برقَتْ له بارقةُ طمَعٍ من جهة منْ أُرْسِلَ إليه ، فحفظَ جانبَهُ وترك جانبَ مُرْسله . أرسلَ معاويةُ - رضي الله عنه إلى ملك الروم رسولاً من أقاربه كان يعتمد عليه لتقرير أمر الهدنة ، واشترط معاوية شروطاً غليظةً ، فلما حضر الرّسولُ عِنْد ملكِ الروم ، اجتهد به على تخفيف تلك الشروط فلم يقْبلْ . فخلا به وقال له : بلغني أنّك فقير ، وأنك إذا أردت الركوبَ إلى معاويةَ تستعير الدوابَ . قال : كذلك هو .

قال : فما أراك تعملُ لنفسكَ شيْئاً ، وهذا المالُ الذي عنْدنا كثير ، فخذ منه ما يغنيكَ إلى الأبد ودَعْ مُعاويةَ . وأحضرَ لهُ عشْرينَ ألفِ دينار فأخذها وخفف له الشروط وأمضى الهدنة ، ثم رجع إلى معاوية . فلما نظرَ معاويةُ في الكتاب علم بالحال فقال له : ما أراك عملتَ إلا له ! وعزم على مؤاخذته ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أقِلْني [1] قال : قدْ أقلتُكَ ، وأعرض عنه [2] . وفيما فعل كمالُ الدين محمّد بن الشّهرزوري [3] حين أرسله أتابك زنكي صاحب الموْصل إلى بغداد لتقرير أمرِ الرّاشِد [4] - منّبهةٌ على وجوب تدقيقِ النظر في اختيار الرسل - وذاكَ أنه لمّا خُلِعَ الراشدُ ببغدادَ فارقها وحضر إلى الموصل مُسْتعيناً بأتابك زنكي ، وخَلا بهِ ووَعَدهُ ومنّاه أنه إنْ عادَ إلى الخلافة أن يَفْعل معه ويصنع فتهوّسَ أتابك زنكي بذلك وضمنَ لهُ صلاحَ الحالِ مع السلطان مسْعود ، ثم إنَّ أتابكَ زنكي عزمَ على مُراسلةِ الديوانِ ببغدادَ في هذا المعنى فاختارَ للرسالة كمال الدين بن الشهرزوري قاضي الموْصِل ، فأرسله ووصّاه بالاحتجاج والمبالغة في تقرير أمر الراشِد ونقضِ ما

---

[1] أقِلْني : نحِّ عني العقوبة والمسؤوليّة . اعفُ عنّي .

[2] أعرضَ عَنْهُ : انصرف عنه وقاطعهُ . هَجَرَهُ .

[3] كمال الدين الشهرزوري : قاضي الموْصل عند أتابك زنكي وكانت للمؤرّخ ابن الأثير به معرفة على ما يبدو من الرواية .

[4] الراشد : الخليفة العباسي الثلاثون . أزاحهُ السلطانُ مسعود السلجوقي ، ولجأ إلى الموصل ثم فرّ إلى أصفهان حيثُ قتل عام / ٥٣٢ / هـ .

أبرموه مِنْ خِلافةِ المقتفي [1] فتوجّه كمالُ الدين إلى بغداد ، قال ابن الأثير صاحب التاريخ [2] - حكى لي كمال الدين المذكور ، قال : لما حضرتُ بالديوانِ قيلَ لي : تُبايعُ أميرَ المؤمنين ؟ فقلتُ أميرُ المؤمنين عنْدنا بالمَوْصل وله في أعناق الخلقِ بيْعةٌ متقدِمة قال - وطال الحديث في ذلك ، وعدتُ إلى منزلي فلما جاء الليل جاءتني عجوزٌ سِرّاً واجتمعتْ بي وأبلغتني رسالةً منْ المقتفي ، مضمونها المعاتبة لي على ما قُلْتُ واستنْزالي عنه ، فقلتُ : غداً أخدمُ خدمةً يظهرُ أثرُها ، فلما كان الغد ، حضرتُ بالديوانِ وقيلَ لي في معنى البيعة ، فقلتُ : أنا رجلٌ فقيهٌ قاضٍ ، ولا يجوزُ لي أن أُبايعَ إلا بعدَ أن يثبتَ عندي خلْعُ المتقدّم . فأحضروا الشهود فشهدوا عندي بفِسْقِ الرّاشد فقُلْتُ : هذا ثابتٌ لا كلامَ فيه ، ولكن لا بُدّ لنا في هذه الدعوى من نصيبٍ ، لأن أميرَ المؤمنين المقتفي حصَلَتْ لهُ خلافةُ الله في أرْضه والسلطان فقد استراح ممن كان يقْصُدُه فنحن بأيِّ شيءٍ نرْجعُ ؟ فرُفع الأمرُ إلى المقتفي ، فأمرَ أنْ يُعْطى أتابك [3] زنكي [4] صريفينَ ودربَ هارون وحَرْبى مُلْكاً ، فبايعتُ المقتفي وعدتُ ، وقد حصَل لي مالٌ صالِحٌ وتُحفٌ وهدايا . وما أدري والله من أيِّ حاليْهِ أعجب ؟ ! من فِعْلِه هذا وخيانتهِ لِمُرْسِلهِ وتسويد وُجْهِه مع من استجارَ به ، فإنه لم يكن الفائدة من إرسالِ كمال الدين إلا تقويةَ أمرِ المقتفي وتأكيد خلْعِ الراشد ، أمْ مِنْ حكايتِهِ عَن نفسِهِ مِثْلَ هذه الفعلة ؟ ! .

وكذلك ما جرى لعميدِ المُلْكِ الكندري وزير السلطان طغرلبك : أرْسَلَهُ السلطانُ طُغْرُلبك ليخطبَ له امرأةً ، فمضى الكندري وخطبها لنفسِهِ وتزوجها

---

[1] المقتفي : خليفة عباسي أجلسَهُ السلطان مسعود على سدّة الخلافة بعد الراشد . توفي / ٥٥٥ / هـ .

[2] هو المؤرّخ من أبناء الأثير الإخوة الجزريّين الثلاثة .

[3] أتابك : لقبٌ تركي أطلقه السلاجقة على بعض رجال البلاط والوزراء والقادة ، وقد تمكن بعضُهم من السيطرة وإنشاء دول كدولة زنكي في الموصل .

[4] جدّ الأتابكة المتنفذ في المَوْصِل وقد امتد حكم أسرة الأتابكة إلى الجزيرة والشام ، بدءاً من عماد الدين زنكي إلى بدر الدين لؤلؤ .

وعصى على طُغْرُلبك . فلما ظفر به طُغْرلبك [١] لم يقتُلْه ، واستبقاهُ في خِدْمَتِهِ احتياجاً إلى كفايته .

ومن الأشعار المقولة في ذلك قول القائل :

إذا كُنْتَ في حاجةٍ مُرْسِلاً   فأرسِلْ حكيماً ولا تُوصِهِ

(متقارب)

وأجود من هذا المعنى وأكمل قول الآخر :

إذا أرْسَلْتَ في أمرٍ رَسُولاً   فأفهِمْهُ وَأرْسِلْهُ أديبا
فإنْ ضيَّعتَ ذاك فلا تَلُمْهُ   على أن لمْ يَكُنْ عَلِمَ الغُيوبا

(وافر)

ومما يزينُ المَلِكَ ، اصطناعُ العوارف إلى أشراف رعيّته ، فبذلك تميلُ أعناقهم إليه ويَدْخلونَ بذلك في زمرةِ خدمِه وحاشيتِهِ . وما زال أفاضلُ الملوك يلحظون هذا المعنى فيَتَفَضّلونَ دائماً على أشراف رعيتهم أنواع الإفضال ليسترقّوهم بذلك . كان معاويةُ - رضي الله عنه - أشدَّ الملوكِ لَهْجاً بهذا المعنى . كانَ يُعْطي عبدَ الله بنَ جعفَر بن أبي طالبٍ ، وعبدَ الله بن العبَّاس - رضي الله عنهما - في كلّ سنةٍ جُملاً طائلةً من المال . وكفاكَ منْ ذلك ، أن عقيلَ بن أبي طالب - رضي الله عنه - فارقَ أخاه عليَّ بن أبي طالب - عليه السلام - وقصد معاوية مستميحاً وما ذاك لشحٍّ عند أمير المؤمنين - عليه السلام - فإنّه كان - صلواتُ الله عليه وسلامه - يباري الريح جوداً وكرماً ، وكان جميع ما يدخل له من أملاكه يخرجه في الصدقات والمبرات ، ولكن عقيلاً كان يريد من مالِ المسلمينَ أكثرَ منْ حقّهِ ، وما كان دينُ أمير المؤمنين - عليه السلام - يقتضي ذلك وكانَ معاويةُ - رضي الله عنه - يُعطي لأجلِ مصلحة الدنيا ، ولا يفكّرُ فيما كان يفكّرُ فيه أميرُ المؤمنين - عليه السلام - وانظرْ إلى كمال الدين حيْدرة [٢] ابنِ عُبيد الله الحُسَيْني المَوْصِلي وكان شيخَ أهْلِهِ ومقدّمَهم سِنّاً وزُهْداً وفضْلاً وورعاً كيف استمالهُ صاحبُ المَوْصِل

---

[١] طُغْرُلْ بك : مؤسّس سلالة السلاجقة . قضى على البويهيين في بغداد / ٤٤٧ / هـ . وخلع عليه الخليفةُ العباسيُ القائم لقبَ السلطان وملك المشرق والمغرب .

[٢] حيدرة بن عبيد الله : ترجم له المؤلف من خلال رأيه فيه ، ولم تذكره المراجع من كتب الأعلام .

بدرُ الدين [1] بما أسداه إليه من الإنْعام حتى مدَحهُ ، وانخرط في زمرة شُعرائهِ ، فمن شعره فيه :

هنيئاً بجدّ ساعدتكَ سُعودُهُ … وتمَّ لهُ يَوْمَ التفاخرِ عيدُهُ
وبُشْرى بإقبالِ أهلَّ بشيرُهُ … كما وَفَدَتْ عِنْدَ الهناءِ وُفودُه
وأنّى لبدرِ الدين ذي الفَخْرِ والعُلا … نديدٌ ، وكلا ، أن يُصابَ نَديدُهُ

(طويل)

ومعَ أنّه صارَ مِنْ شُعرائه ، وانْخرَطَ في زُمْرةِ مُدّاحِه ، كانَ بدرُ الدين ، بعد مَوْتِ كمالِ الدين حيدرة إذا اجتازَ على تربته – وهي تربة مفردة ظاهر المَوْصِلِ جنوبية قبلية – يترك العَسْكرَ ويدخلُ إليه يزورُه ؛ ويدعو لِنَفْسِهِ عِنْدَ ضَريحِهِ .

(رحمهما الله تعالى)

---

[1] بدر الدين : لعلّه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الأتابك من آل زنكي . توفي / ٦٥٦ / هـ ، وقد مرّت ترجمته غير مرّة .

الفصل الثاني

في الكلامِ على دولةِ دولة

وفيه :

الدولةُ الأولى : دولةُ الأربعةِ الراشدين

الدولةُ الثانية : الدولة الأُميّة

الدولةُ الثالثة : الدولةُ العبّاسيّة

لقد تم الكلام على الأمور السلطانية والسياسات الملكية ، وعلم بذلك سيرة الملك الفاضل المستحق للرياسة ، وخواص الملك التي يتميز بها عن الرعايا ، والحقوق الواجبة لذلك على رعيته ، والحقوق الواجبة لهم عليه واندرج في أثناء ذلك الكلام على كليات أحوال الدول على سبيل الإجمال . وكل ما مضى في هذه الأوراق من اللطائف والمحاسن فقد وفر الله تعالى منه حظَّ المولى الملك الفاضِل ، حاطه الله تعالى بأنواعِ ألطافه ، وبلّغهُ أقصى الغاياتِ من إسعاده وإسعافه ، لأن الله تعالى هداه بسابقِ عنايتهِ إلى محاسنِ الشّيم ، وفضّله بخافي لطفه على كثيرٍ من الأمم .

وهذا أوان الشروع في الكلام على دولةٍ دولة :

الدولة الأولى : دولة الأربعة

وهم المعروفون بالخلفاء الراشدين

قال محمد بن عليّ بن طباطبا مؤلّفُ هذا الكتاب المعروف بالفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة : أمّا الدولة الأولى ، وهي دولة الأربعة فإن ابتداءَها كان منذ قُبِضَ رسولُ الله – صلواتُ الله عليه وسلامه – وبويع أبو بكر بنُ قُحافة – رضي الله عنه – وذلك في سنة اثنتي عشرة من الهجرة وانتهاؤها حين قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – عليه السلام – وذلك في سنة أربعين من الهجرة واعلم أنها دولةٌ لم تكنْ من طرز دُول الدنيا ، وهي بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه . والحق في هذا أن زيَّها قد كان زيّ الأنبياء وهديها هدي الأولياء . وفتوحُها فتوح الملوك الكبار . فأما زيُّها : فهو الخشونة في العيش ، والتقلل في المطعم والملبس ، كان أحدهم يمشي في الأسواق راجلا وعليه القميص الخَلَق المرقوع إلى نصف ساقهِ ، وفي رجله تاسومة [1] وفي يده درّة [2] فمن وجب عليه حد استوفاهُ منه . وكان طعامُهم من أدنى أطعمة فقرائهم ، ضرب أميرُ المؤمنين عليه السلام ، المثل بالعسل والخبز النقي فقال في بعض كلامه . ولو شئتُ لاهتديتُ إلى مصفى هذا العسل بلبُاب هذا البرّ . واعلم أنهم لم يتقللوا في أطعمتهم وملبوسهم فقراً ولا عَجْزاً عن أفضل لباس وأشهى مطعم ، ولكنّهم كانوا يفعلون ذلك مواساةً لفقراءِ رعيّتهم ، وكسْراً للنفس عن شهواتِها ، ورياضةً لها لتعتاد أفضل حالاتها . وإلا فكل واحد منهم كان صاحبَ ثروةٍ ضخمة ، ونخلٍ وحدائق وغير ذلك من الأسباب ولكنّ أكثرَ خَرْجِهمْ كان في وجوه البرّ والقرب كان لأمير المؤمنين علي ارتفاع طائل من أملاكه يخرجه جميعه على الفقراء والضعفاء ويقتنع هو وعياله بالثوب الغليظ من الكرْباس [3] ، وبالقرص من خبزِ الشعير . وأما فتوحها وحروبها فإن خيلها بلغت إفريقية وأقصى .

---

[1] التاسومة : حذوة القدم الخفيفة .

[2] الدِرّة : السَوْطُ ، يضربُ به المؤدّب .

[3] الكِرْباس : القماش الخشن .

خراسان وعبرت النهر ، فإن عبيد الله بن عبّاس تولى إمارة سمرقند [١] وبها مات وفيها قبره فأولَ حروبِها قتالُ أهل الرّدة .

شرح كيفية الحال في ذلك على سبيل الاختصار

لما قُبِضَ رسولُ الله صلوات الله عليه وسلامه ، ارتدَ ناسٌ من الأعْرابِ عن الإسلام ، وامتنعوا عن أداءِ الزكاة ، وقالوا لو كان محمّدٌ نبيّا لما مات . فوعظهم ذوو اللب والعقل ، وقالوا لهم أخبرونا عن الأنبياء – عليهم السلام – هل تقرّون بنبوتهم ؟ قالوا : نعم ، قالوا : فهل ماتوا ؟ قالوا : نعم . قالوا : فما الذي تنكرونه من نبوّة محمد – عليه السلام – ؟ فلم يَنْجَعِ القولُ فيهم . فجهّز أبو بكر – رضي الله عنه – إلى طائفةٍ منهم جيشاً ، فتوجَهتِ الجيوشْ إليهم وقاتلتْهُمْ ، وكانت الغَلَبةُ للجيوشِ الإسلاميةِ فأبادتْهم قَتْلاً وأسْراً ، ورجع من تبقى منهم إلى الإسلام وأدّى الزكاة ومن فتوحها الكبار فتْحُ الشأم .

شرح كيفية ذلك

لما كانت سنةُ ثلاثَ عشرةَ من الهجرة ، وهي السنةَ التي توفي فيها أبو بكر ورجع أبو بكر – رضي الله عنه – من الحجّ – شرع في تجهيز الجيوشِ إلى الشأم فبعثَ عسكراً كثيفاً جعل على كل قطعة منه أميرا ، وسمّى لكلّ أمير بلداً إن فتحه واستولى عليه كان لهُ ثم أمدّهم بخالد بن الوليد – رضي الله عنه – في عشرة آلاف فتكمّل بالشأم ستة وأربعونَ ألفَ مقاتل ، وجرت بينهم وقائعُ وحروبٌ امتدّت إلى أن ماتَ أبو بكر ، وبويعَ عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – فعزل عُمرُ خالدَ بنَ الوليد – رضي الله عنهما – عن إمارة الجيش ، وكان قد أُمّر ، ثمّ أمّر على الناس

---

[١] سَمَرْقَند : مدينة من أقصى ما بلغه الفتح الإسلامي وتقع شرقيْ بخارى ، خرّبها جنكيزخان وأضحتْ فيما بعد عاصمةً لتيمورلنْك .

أبا عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - فورد رسولُ عمر إلى الجيش بالشأم بكتاب عمر إلى أبي عبيدة بتوليته وعزل خالد . واتفق وصول الرسول وهم مشغولون بالحرب فجعل الناس يسألون الرسولَ عن سبب قدومه ، فأخبرهم بالسلامة ووعدهم أنَّ وراءه مدداً لهم ، وكتم عنهم مَوْتَ أبي بكر ثم وصل إلى أبي عبيدة بن الجراح فأخبره سرّاً بموتِ أبي بكر ، وناوله كتاب عمر بتوليته وعزل خالد. فاستحيا أبو عبيدةَ منْ خالد وكره أن يعلمه بالعزل ، وهو قد بذل جهده في القتال فكتم أبو عبيدةَ الخبر عن خالد وصبر حتى تمَّ الفتح وكتبَ الكتابَ باسم خالِد ، ثم أعلمه بموتِ ابي بكر ، وبعزْلِه فسلّم إليه الجيش . وكانَ فتحُ دمشق في سنة أربعَ عشرةَ مِنَ الهجرة ، في خلافةِ عمرَ بنِ الخطاب - رضي الله عنه - وفي الدولة المذكورة كان فتحُ العراق ، وأخْذُ المُلكِ من الأكاسرة .

شرح مبدأ الحال في انتقال الملك
من الأكاسرة إلى العرب

إنَّ الله تعالى بسابقِ علمه وبالغِ حكمته وعِزَةِ قدرته ، إذا أراد أمراً هيّأ أسبّابه وقد وصف نفسه عزَّ وجل بقوله { **قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزعُ الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيءٍ قدير** } [١] ولما أراد - جلَّ شأنُهُ ، وعزَّ سلطانُهُ - نقل الملك عنْ فارسٍ إلى العرب أصدرَ من المُنذرات بذلك ما ملأ به قلوبهم وقلوبَ أوليائهم رُعْباً . فأوّل ذلك : ارتجاسُ [٢] الإيوان [٣] وسقوطُ الشرفات منْهُ ، وذلك عنْد ميلادِ الرسول - عليه أفضلُ الصلوات - وخمودُ نارِ فارس ولم تكن خمدتْ قبل ذلك بألف عام ، وذلك في عَهْدِ أنوشروان العادل . فلمّا رأى أنوشِرْوان سُقوط الشُرفات وانشقاقِ الإيوان غمّهُ ذلك ولبسَ تاجهُ وجلسَ على سريره ، وأحْضر وزراءَهُ وشاورَهم في

---

[١] سورة آل عمران ، الآية / ٢٦ / .

[٢] ارتجاس : اهتزاز .

[٣] الإيوان : قصر كِسرى أنوشيروان ملك الفرس .

ذلك . ففي تلك الحال وصل كتابٌ من فارس بخمود النار ، فازداد كسرى غمّاً إلى غمّهِ وفي تلك الحال قام الموبذان [١] وقص الرؤيا التي رآها ، قال : رأيتَ – أصلح الله الملك – كانَّ إبلاً ضعافاً تقودُ خيْلاً عرابا قد قطعتْ دجلة وانتشرتْ في بلادها . فقال له كسرى : فأيُّ شيء يكون تأويلُ هذا ؟ قال أصلَحَ الله الملك ، حادثٌ يحدث من جهة العرب وفشا الحديثُ بذلك بين العجم وتحدّث به الناس فسكن الرُعْبُ قلوبهُمْ وثبتتْ هيبةُ العرب في نفوسهم . ثم تتابعتْ أمثالُ هذه المنذرات الخواذل إلى آخر الأمر : فإنَّ رُستُم لما خرَجَ لمحاربةِ سعد بن أبي وقّاص رأى في منامِه كان ملَكاً قد نزل مِن السماء ، وجمعَ قِسيَّ الفُرس وختم عليها وصعد بها إلى السماء ، ثم انضمَّ إلى ذلك ما كانوا يشاهدونَهُ من سداد منْطقِ العرب ، وطمأنينة نفُوسهِمْ ، وشدَةِ صبرِهمْ على الشدائد ثم ما جرى في آخر الأمْرِ مِنِ اختلاف كلمتِهم بعْدَ مَوْتِ شهْريار وجلوسِ يزْدجَرْد على سريرِ المملكة وهو صبيٌّ حَدث ضعيف الرأي . ثم الطّامّة الكبرى وهي انعكاسُ الريح عليهم في حربِ القادسيّة ، حتى أعْمَتْهم بالغبار وعمّتهمْ بالدمار ، وفيها قُتِلَ رُستَم [٢] وانفلّ جيْشُهم . فانظر إلى هذه الخواذِل ، واعلم أن للهِ أمْراً هُوَ بالغهُ .

شرح الحال في تحيّز الجيش إلى العراق واستخلاص الملك من الفرس

كان ثغرُ [٣] فارس مِنْ أثقلِ الثُّغور على العرب ، وأعظمها في نفوسهم وأكثرها هيبةً . وكانوا يَكْرَهون غزْوَه ويجنبون عنه استعظاماً لشأنِ الأكاسرة ، ولِما هُوَ مشهورٌ من تدويخهم الأمم ، حتى كان آخرُ أيام أبي بكر – رضي الله عنه – فقامَ رجلٌ من الصحابة يقال له : المثنّى [٤] بن حارثة – رضي الله عنه – وندبَ

---

[١] المُوبذان : حكيم الحكماء باللغة الفارسيّة .

[٢] رُستُم : آخر قوّاد الفُرس ، هزمهُ سعد. بن أبي وقّاص في القادسيّة .

[٣] الثّغر : مصطلح قديم لمنطقة الحدود والتناحر مع الأعداء .

[٤] المثنّى بنُ حارثة : صحابيٌّ وقائدٌ ، نسبهُ إلى بني شيبان . غزا بلاد فارس في أيّام أبي بكر ، وأمدّه بخالد بن الوليد لفتح العراق وفارس . توفي متأثرا بجراحه عام / ١٤ / هـ .

الناسَ إلى قتالِ فارس وهوّنَ عليهم الأمْر ، وشجّعهُمْ على ذلك ، فانتدبَ معه جماعةً وتذكر الناسُ ما كان رسولُ الله - صلوات الله عليه - يَعدُهمْ به من تملّك كُنوز الأكاسرةِ .

ولم يتمَّ في ذلك أمرٌ في خلافةِ أبي بكر ، حتّى كانت أيامُ عُمر بن الخطاب - رضي الله عنهما -وكتَبَ إليه المثنّى بن حارثة يُخْبرهُ باضطراب أمور الفرس وبجلوس يَزْدَجرد بنِ شَهْرِيار [1] على سرير الملك وبصغر سنّه وكان قد جلس على السرير وعمرَه إحدى وعشرون سنةً - فقوي حينئذٍ طمعُ العرب في غزو الفرس . فخرج عمر - رضي الله عنه - وعسكر ظاهر المدينة ، والناسُ لا يعلمون أينَ يُريد ، وكانوا لا يتجاسرون على سؤاله عن شيء حتى إنّ بعضهم سأله مرة عن وقت الرحيل فزجرهُ ولم يعلمه ، فكانوا إذا أعضل عليهم أمر ، وكان لا بد لهم من استعلامه منه استعانوا عليه بعثمان بن عفان أو بعبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنهما - وإذا اشتدّ الأمرُ عليهم ثلّثوا بالعبّاس - رضي الله عنه فقال عثمانُ لعمر : يا أميرَ المؤمنين ما بلغكَ وما الذي تُريد ؟ فنادى عُمرُ رضي الله عنه - الصلاة جامعةً . فاجتمعَ الناسُ إليهِ فأخْبرَهُم الخبر ووَعظَهُمْ وندبهم إلى غزوِ الفُرس وهوّنَ عليهم الأمر . فأجابوا جميعاً بالطاعة ، ثم سألوه أن يسيرَ معهم فقال : أفعلُ ذلك إلا أن يجيء رأيٌ هو خيرٌ منْ هذا . ثم بعث إلى أصحاب الرأي وأعيانِ الصحابة وعقلائهم فأحضرَهُمْ واستشارهم ، فأشاروا عليه بأن يُقيم ويبعث رجلاً من كِبارِ الصحابة ويكونَ هو منْ وَرائه يمدّه بالأمْداد . فإن كان فتحٌ فهو المطلوب ، وإنْ هلَكَ الرجلُ أرسل رجُلاً آخر . فلما انعقد إجماعُهم على هذا الرأي صَعِدَ عمرُ المنبر - وكانوا إذا أرادوا يكلّمون الناس كلاماً عامّاً صعدَ أحدُهمْ المنبرَ وخاطبَ الناسَ بما يُريد - فلمّا صَعِدَ عُمر قال : ((أيُّها الناسُ إنّي كنتُ عازماً على الخُروجِ معكم ، وإن ذوي اللبّ والرأي منكم قد صرفوني عن هذا الرأي ، وأشاروا

---

[1] يَزْدَجرد بنُ شهريار : آخر ملوكِ الساسانيين . هزَمهُ العربُ في القادسيّة وفي نهاوند . مات اغتيالاً وانقرضتْ بمقتلهِ دولةُ الفُرس الساسانيين عام / ٣١ / هـ .

بأن أقيمَ وأبعث رجلاً من الصحابة يتولى أمرَ الحرب)) ثم استشارهم فيمنْ يَبْعثُ ، وفي تلك الحال وصلَ إليهِ كِتابٌ مِن سَعْدِ بن أبي وقّاص وكانَ غائباً في بعض الأعمال ، فأشاروا على عُمَر بسعْدٍ رضي اللهُ عنهما - وقالوا : إنّهُ الأسدُ عادياً . ووافق ذلك حُسْنَ رأيٍ مِنْ عمرَ بنِ الخطّاب رضيَ الله عنهُ في سعد بنِ أبي وقّاصٍ ، فاستحضَرَهُ وولاه حَرْبَ العِراقِ وسلّم الجيشَ إليهِ - فسارَ سعدٌ بالناس ، وسارَ عُمر بن الخطاب - رضيَ الله عنه - معهم فَراسخ [1] ، ثم وعظهم وحثهم على الجهاد وودعهم ، وانصرف إلى المدينة ، وتوجّه سعد ، فجعلَ ينتقلُ في البريّة التي بين الحجازِ والكوفة يستعلم الأخْبار ، ورُسُلُ عمر تأتيه وكتبُه يشير عليه فيها بالرأي بعد الرأي ، ويمدّه بالجنود بعدَ الجنود ، حتّى استقر رأيُه على قصد القادسيّةِ وهي كانت بابَ مملكةِ الفُرس . فلما نزل سعد بالقادسية احتاجَ هو ومن معه إلى الأقوات فبعثَ ناساً وأمرَهُمْ بتحصيلِ شيءٍ من الغنمِ والبقر ، وقد أجفلَ أهلُ السواد قدّامهم ، فوجدوا رجلاً فسألوه عن الغنم والبقر فقال : لا علم لي بذلك وإذا هو الراعي ، وقد أدخل الدوابَّ في أجَمةٍ هناك . قالوا : فصاح ثورٌ منها : كذَبَ الراعي ها نحن في هذه الأجمة . فدخلوا إليها واستاقوا مِنْها عدّة ، وأحضروها إلى سعْدٍ فاستبشروا بذلك وعدّوها نصرةً من الله تعالى . والثور إن لم يكن قد تلفظ بحروفٍ يكذّبُ بها الراعي فإنّ صياحه في تلك الساعةَ حتى يُستَدلُّ بصياحه على الدوابّ عند شدة الحاجة إليها تكذيبٌ صريحٌ للراعي . وهو من الاتّفاقات العظيمةِ الدّالّة على النصرِ والدولة والاستبشار به واجبٌ . وحينَ وردَ الخبرُ إلى العجَمِ بوُصول سعْدٍ بالجيش ، ندَبوا لَهُ رُستُمْ [2] في ثلاثينَ ألفَ مقاتلٍ ، وكان جيشُ العربِ من سبعة آلاف إلى ثمانيةِ آلاف . ثم اجتمعَ إليهم بعدَ ذلك ناسٌ فالتقوا ، فكانَ العَجَمُ يضحكونَ من نبلِ العربِ ويشبّهونَها بالمغازل .

وها هنا مَوْضعُ حكاية تناسب ذلك ، لا بأسَ بإيرادها : حدّثني فلكُ الدين

[1] فراسخ : جمعُ فرْسَخ وهو مقياس قديم للمسافات .. يبلغُ / ٨٠٠٠ / متراً .

[2] رُستُم : قائد الجيش الفارسي في القادسية ، انتهت المعركة بمصرعه .

محمد [١] بنُ أَيْدَمَر قال : كنتُ في عسكرِ الدُّوَيْدار الصّغير لما خرج إلى لقاء التتَر بالجانبِ الغربيِّ من مدينةِ السَّلام ، في واقعتها العظمى سنةَ ستٍّ وخمسين وستمائة قال : فالتقينا بنهرِ بشيرٍ من أعمالِ دُجَيْلٍ ، فكان الفارسُ منّا يخرجُ إلى المبارزةِ ، وتحتَه ، فرسٌ عربيٌّ وعليه سلاحٌ تامٌّ كأنّه وفرسه الجبلُ العظيم ، ثم يخرج إليه من المغولِ فارسٌ تحته فرسٌ كأنه حمار ، وفي يده رُمْح كأنه المغزل ، وليس عليه كِسْوةٌ ولا سلاح فيضحكُ منهُ كلُّ منْ رآه . ثم ما تمّ النهارُ حتّى كانت لهم الكرَّةُ [٢] فكسرونا كِسْرةً عظيمةً كانتْ مِفتاحَ الشرِّ ثم كانَ من الأمرِ ما كان .

ثم تردّدتْ الرسل بينَ رُستُمْ وسَعْدٍ ، فكان البدويُّ يأتي إلى باب رُسْتُم وهو جالسٌ على سريرِ الذهب ، وقد طُرِحتْ لَهُ الوسائد المنسوجة بالذّهب ، وفرشَ له الفرشُ المنسوجُ بالذهب وقد لبسَ العجمُ التيجانَ وأظهروا زينتَهُمْ وأقاموا الفيلة في حَواشي المجلس . فيجيءُ البَدَويّ ؛ وفي يدهِ رُمْحُهُ ، وهو متقلّدٌ سيفه مُتَنَكّب قوْسَهُ فيربطُ فَرَسَهُ قريباً من سريرِ رُسْتم ، فيصيحُ العجم عليه ويهمّون بمنعهِ فيمنعُهم رُسْتُم ثم يَستَدْنيه [٣] فيمشي إليهِ مُتكئاً على رُمْحه يطأ به ذلك الفراشَ وتلك الوَسائد فيخرّقُها بزجِ رُمْحِه وهم ينظرون . فإذا وَصل إلى رُسْتُم راجعه الحديث ، فكان رُستم لا يزال يسمعُ مِنهُمْ حكماً وأجْوبةً تروعُهُ وتهولُهُ .

فمن ذلك أنَّ سَعْداً – رضي الله عنه – كانَ يبعثُ في كلِّ مرّةٍ رَسولاً .فقالَ رُستم لبعضِ مَنْ أرْسِلَ إليه : لِمَ لَمْ يبعثوا إلينا صاحبَنا بالأمس ؟ قال : لأنَّ أميرَنا يعدلُ بيننا في الشدّةِ والرَّخاء . وقال يَوْماً لآخر : ما هذا المغْزَل الذي في يدك ؟ يعني رُمْحَهُ فقالَ : إنَّ الجمرَةَ لا يضرُّها قصرُها ؛ وقالَ مرّةً أخْرى لآخرَ : ما بالُ سَيْفِكَ أراهُ رثّاً ؟ فقالَ:إنه خَلِقُ المغْمَد حديدُ المضْرب . فراع رُسْتُم ما رأى مِنْ أمثالِ هذا وقال لأصحابِهِ : انظُروا فإن هؤلاء لا يخلو أمرُهُم من أن يكون صدقاً أو

---

[١] فلك الدين محمّد بن أيدمر : من معارف ابن طباطبا ومعاصريه ، ولم تترجم له المراجع المعروفة .

[٢] كانت لهم الكرّة : كناية عن الانتصار .

[٣] يستدنيه : يدعوه ليدنوَ منه .

كذباً ، فإن كانوا كاذبين فإ ن قوماً يحفظون أسرارَهم هذا الحفظ ، ولا يختلفون في شيء . وقد تعاهدوا على كتمانِ سِرّهمْ هذا التعاقد ، بحيث لا يظهرْ أحدٌ سِرَّهُمْ – لقومٌ في غايةِ الشِدّةِ والقوةِ وإنْ كانوا صادقين فهؤلاءِ لا يقفُ حِذاءهم أحدٌ . فصاحوا حولَهُ ، وقالوا : اللهَ اللهَ أنْ تتركَ ما أنتَ عليه لشيءٍ رأيتَهُ منْ هؤلاءِ الكلابِ ، بلْ صمّمْ على حربِهِمْ . فقالَ رُستُم : هو ما أقول لكم . ولكنني معكم على ما تريدون . ثم اقتتلوا أياماً كان في آخرها انعكاس الريح عليهم حتّى أعماهُمْ الغُبار ؛ فقُتِلَ رُستُم ، وانفلَّ [1] الجيشُ ، وغُنِمَتْ أموالُهم وأجفَلَ [2] الفرْسُ يطلبون مخاضاتِ دجْلَةَ ليقعوا في الجانبِ الشرقيِّ وقد تبِعَهُمْ سعْدٌ عبرَ المخاضاتِ ، وقتلَ منْهُمْ مقتلةً عظيمةً أُخرى بجلُولاء [3] ، وغنِمَ أمْوالَهُم وأسر بنتاً لكسْرى ثم كتب سعدٌ إلى عُمَرَ – رضي الله عنهما – بالفتحِ ، وقد كانَ عُمَرُ في تلكَ الأيَامِ شديدَ التطلُّعِ إلى أمْرِ الجيْشِ ، فكان كلَّ يومٍ يَخرُجُ إلى ظاهرِ المدينةِ راجلاً يتنسمُ الأخبار ، لعلَ أحداً يَصِلُ فيخبرَهُ بما كانَ منْهُم ، فوصلَ البشيرُ منْ عندَ سَعْدٍ بالفتحِ فرآهُ عُمر فقال له : من أين جئتَ ؟ قالَ : من العراق ، قال : فما فعلَ سعدٌ والجيش ؟ قال : فتحَ اللهُ عليهم . كلُّ ذلك والرّجلُ سائرٌ على ناقتِه وعُمرُ يمشي في ركابه ، وهو لا يعلمُ أنهُ عُمر . فلمّا اجتمع الناسُ وسلّمُوا على عُمر بإمرة المؤمنين عرَفَهُ البدويُّ فقال : هلا أعلمْتني – رَحِمك الله – أنّكَ أميرُ المُؤمنين ؟ قال : لا بأس عليك يا أخي . ثُمَّ كتبَ عُمر إلى سَعْدٍ : قِفْ مكانَكَ ولا تَتْبعْهم ، واقْتنِع بهذا ، واتّخذ للمسلمين دار هِجْرة ومدينةً يسكنونها ، ولا تَجْعل بيني وبيْنَهُمْ بَحْراً ، فاتّخذ لهم سعْدٌ الكوفة ، واختطَّ بها المَسجِدَ الجامِعَ ، واختطَ الناسُ المنازِلَ ومصَّرها [4] سعْدٌ ، ثم حكمَ في المدائِن ، وملكَ الكنوزَ والذّخائِر .

---

[1] انفلّ الجيش : هُزِمَ وتفرّقَ فُلولاً . [2] أجفَلَ : خافَ وفزِعَ .

[3] جلُولاء : موقع بين العراق وبلاد فارس فيه انتصر المسلمون على يزدجرد الثالث آخر الملوكِ الساسانيّين .

[4] مصّرها : جعلها مِصْراً أي مدينةً للإقامةِ بها .

ذِكْرُ طُرَفٍ مُسْتَمْلَحَةٍ وَقَعَتْ حِينَئِذٍ

منها : أنَّ بعضُ العرَبِ ظفرَ بجرابٍ فيه كافورٌ [١] ، فأحضرهُ إلى أصحابِهِ فظنّوه ملْحاً فطبخوا طعاماً ووضعوا فيهِ كافوراً ، فلمْ يروا له طعْماً ولم يعلموا ما هو ، فرآهُ رجلٌ فعرف ما فيه ، فاشتراه منْهمْ بقميصٍ خلقٍ [٢] يساوي دِرْهَمَيْنِ . ومنها : أن بدوياً ظفرَ بحجرٍ من الياقوت كبير يساوي مبلّغاً عظيماً فلمْ يدْرِ قيمتَه ، فرآهُ بعضُ منْ يعرف قيمته فاشتراه منْهُ بألفِ دِرْهَم ، فبعْدَ ذلك عرفَ البدويّ قيمتَه ولامَه أصْحابُهُ وقالوا له : هلا طلبتَ فيه أكثر منْ ذلك ؟ قال : لوْ علمتُ أنّ وراءَ الألفِ عدداً أكثرَ من الألفِ لطلبْتُهُ . ومنها : أن بعْضَهمْ كان يأخذُ في يدهِ الذّهبَ الأحمر ويقول : من يأخذ الصفْراء ويُعْطيني البيضاء ؟ يرى أن الفضّةَ خيرٌ مِنَ الذّهب ! .

ذكر ما آلتْ إليه حالُ يَزْدَجَرْدَ

ثُمَّ إنَّ يزْدَجرْدَ [٣] هَربَ إلى خُراسان ، وما زالَ أمْرُه يضْعُفُ حتّى قُتِلَ في سنةَ إحدى وثلاثين من الهجرة بخُراسان ، وهُوَ آخرُ ملوكِ الأكاسرة [٤] ، وفي الدولةِ المذكورةِ دُوِّنَتْ الدواوينُ ، وفُرِضَ العطاءُ لِلْمُسْلمين ، ولم يكونوا قَبْلَ ذلكَ يَعْرِفونَ ما الديوان .

شَرْحُ كيفيَةِ تدوينِ الدَّواوين

كان المسلمونَ هُمْ الجُنْدَ ، وكانَ قِتالُهم لأجلِ الدينِ لا لأجْلِ الدُّنيا . وكان لا يزالُ فيهمْ دائماً من يَبْذُلُ شَطْراً صالِحاً مِنْ ماله في وجوهِ البرّ والقُرْبِ ، وكانوا لا

---

[١] الكافور : ضَرْبٌ من الطِّيب لونه أبيض كالملح ، وهو نفيسٌ وغالٍ .

[٢] الخَلِق : المُمزّق . البالي .

[٣] يَزْدَجَرْد : هو يزدجرد الثالث الساسانيّ وقد مرّ ذكرُهُ مراراً كان مصرعه اغتيالاً عام / ٣١ / هـ .

[٤] الأكاسرة : جمع كِسْرى وهو الملك من الفُرس أو العجَم .

يُريدونَ على إسلامِهم ونَصرِهم لنبيِّهم - صلواتُ الله عليه وسلامه - جزاءً إلا مِنْ عِنْدِ اللهِ تعالى ولَمْ يَفْرِضِ النبيُّ - صلوات الله عليه وسلامُه - ولا أبو بكرٍ رضي الله عنه لهم عطاءً مُقَرّراً ولكنْ كانوا إذا غزَوْا وغنموا أخذوا نصيباً مِنَ الغنائم قرَّرَتْه الشريعةُ لَهُمْ . وإذا وَرَدَ إلى المدينة مالٌ منْ بعضِ البلاد ، أُحْضِرَ إلى مسجد الرسول - صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ - وفُرِّقَ فيهم على حَسب ما يراهُ (صلى الله عليه وسلم) وجرى الأمرُ على ذلك مدّةَ خلافةِ أبي بكرٍ (رضي الله عنه) فلمّا كانتْ سنة خمسَ عَشْرَةَ مِنَ الهجرة ، - وهي خِلافةُ عُمر رضي الله عنه - رأى أن الفُتوحَ قد تَوالَتْ ، وأن كُنوزَ الأكاسرة قد مُلِكتْ ، وأن الحمول مِنَ الذَّهَبِ والجواهر النفيسة ، والثياب الفاخرة قد تتابعتْ فرأى التوسيعَ على المسلمين وتفريقَ تِلْكَ الأموالِ فيهم . ولم يكنْ يعرفُ كيف يَصنَعُ ، وكيف يَضْبطُ ذلك . وكان بالمدينة بَعْض مرازبة [1] الفُرْس . فلما رأى حَيْرَةَ عمر قال له : يا أميرَ المؤمنين : إن للأكاسرة شيئاً يُسمّونه ديواناً ، جميعُ دَخْلِهِمْ وَخرْجِهِمْ مضبوطٌ فيه لا يشذُّ منه شيء . وأهلُ العطاء مرتبّون فيهِ مراتبَ لا يتطرق عليها خَلَلٌ .فتنبّه عُمرُ - رضي الله عنهُ - وقالَ : صِفْهُ لي فوَصَفَهُ المرزبان ، فَفَطِنَ عُمرُ لذلك ودونَّ الدواوين وفَرَضَ العطاء فَجَعَلَ لِكُلِّ واحدٍ من المسلمين نوعاً مُقَرَّراً ، ، وفَرَضُوا لزوجاتِ الرسول - صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ - ولسراريه وأقاربهِ حتّى استنفدَ الحاصل ولم يدَّخِرْ في بيتِ المالِ شَيْئاً . قالوا ، فقامَ إليه رجلٌ وقالَ : يا أميرَ المؤمنين : لو تَركْتَ في بيوتِ الأموال شَيْئاً يكون عدةً لحادثٍ إنْ حَدَثَ : فزَجرَهُ عُمرُ وقال : كلمةٌ ألقاها الشيطانُ على فيكَ وقاني الله شرَّها ، وهيَ فتنةٌ لِمنْ بَعْدي . إني لا أُعِدُّ للحادثِ الذي يَحْدُثُ سوى طاعةِ اللهِ ورسولِه ، فهيَ عُدَّتُنا التي بها [2] بلغنا ما بَلَغْناه ثمَّ إنَّ عُمر رأى أن يَجْعل العطاءَ على حسب السَّبْقِ إلى الإسلام ، وإلى نُصْرَةِ الرسولِ - عليه الصلاةُ والسلام - في مواطن حُروبِه . ثمَّ استخدمَ الكُتّابَ في

---

[1] المَرازِبَة : جمع مَرْزُبان : قائد جيش باللغة الفارسيّة أو هو الرجل الخَطيرُ الشأن .

[2] كذا في طبعة بيروت ص / ٨٤ / ، وفي رَحما ص / ٦٠ / ، وفي ألما ص / ١٠٢ / .

الدواوين وأمَرَهُمْ بترتيبِ الطَّبقاتِ وضَبْطِ العطاء . فقالوا : بمن نبدأُ يا أميرَ المؤمنين ؟ فأشارَ ناسٌ من الصَّحابةِ عليه بأن يبدأ بنفسه ، وقالوا : أنتَ أميرُ المؤمنين ، وتقديمُكَ واجبٌ . فكرِهَ عُمَرُ ذلك وقال : ابدؤوا بالعبّاسِ عَمِّ رسولِ الله – صلواتُ الله عليهِ – وببني هاشمٍ ، ثمَّ بمنْ بعْدهُمْ طبقةً طبقةً وضعوا آلَ الخطّابِ حَيْثُ وَضَعَهُمْ الله عزّوجلَ . فاعتَمدَ ما أشار بهِ ، وجرى الأمْرُ على ذلك مُدَّةَ خلافتِهِ وخلافةِ عُثْمان ، رضي الله عنهما . ثم في آخر خلافته خطرَ لهُ تغييرُ هذا الرأيِ ، وأنْ يَفْرِضَ لكلِ واحدٍ من المسلمين أربعة آلاف وقال ألْفٌ يَجْعَلُها لعيالِهِ إذا خَرَجَ إلى الحَرْبِ ، وألفٌ يَتَجَهّزُ بها ، وألْفٌ يصْحَبُها معه ، وألفٌ يَرْتَفِقُ [1] بها . فمات عمر – رضي الله عنه – قبل إتمام هذا الرأي ومنْ وقائعها المشهورة وقعةُ الجَمَل .

شَرْحُ مَبْدأ وَقْعَةِ الجَمَلِ وكَيْفيَّةِ الحالِ في ذلك

لما قُتِلَ عُثْمانُ بنُ عفّانَ – رضي الله عنهُ – اجتَمَعَ الناسُ وقصدوا منزلَ أمير المؤمنين عليٍّ – عليه السلام – وسألوهُ تولّي أمرهمْ ، فأبى عليهم . وقالَ : لا حاجةَ لي في أمرِكُمْ . فألَحّوا عليه إلحاحاً شديداً ، واجتَمعوا إليه من كلِّ صوبٍ ، يَسألونَهُ ذلك حتّى أجابَ ، فبايَعَهُ الناس فسارَ فيهمْ بسيرةِ الحقِّ ، لا تأخذُه في اللهِ لوْمَةُ لائِم ، وكانت حركاتُهُ وسكناتُه – عليه السلام – جميعُها لله ، وفي الله ، لا يقضي بها حقّ أحدٍ .

وكانَ لا يأخذُ ولا يُعْطي إلا بالحقِّ والعدْلِ ، حتّى إنَّ أخاهُ عقيلاً وهو ابنُ أبيهِ وأمّهِ طَلَبَ من بيتِ المال شيئاً لم يكنْ له بحقٍّ ، فمنعَهُ عليه السلامُ وقال : يا أخي : لَيْسَ لكَ في هذا المالِ غيْرُ ما أعطيتُك ، ولكن اصبر حتّى يجيءَ مالي وأُعْطيكَ مِنْهُ ما تريد . فلم يرضَ عقيلٌ هذا الجوابَ وفارَقَهُ وقصدَ مُعاويةَ – رضي الله عنهُ – بالشأم ، وكانَ لا يُعْطي وَلَدَيْهِ الحَسَنَ والحُسيْنَ – عليهما السلام – أكْثَرَ منْ حقِّهِما فانظُر إلى رَجُلٍ حَمَلَهُ وَرَعُهُ [2] على هذا الصَّنيعِ بولَدَيْهِ ، وبأخيهِ مِنْ

---

[1] يرتفق بها:ينفقها على نفسه ولمنفعته [2]الوَرَع:التشدُّدُ في الدين وطاعة الله،خوفالمعصية والإثم

أبَوَيْهِ ..

فلمّا سارَ فيهم هذه السيرة ، ثَقُلَ على بَعْضِ النـاس فعْلـهُ ، وكرهـوا مكَانَـهُ . فَخَرَجَ الزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ - رضي الله عنهما - بعْدَ ما بايعاهُ إلى مكّة ، وكـانتْ عائِشَـةُ زوجةُ الرسول - صلواتُ الله عليهِ وسلامه - بمكّةَ . قَدْ خرجتْ إليها ليالي حُوصِرَ عُثْمانُ بنُ عفّان - رضي الله عنْهُ - فاتّفقا معَها على عَدَمِ الرِّضـا بإمـارةِ علـيٍّ ، وعلى الطّلَبِ بِدَمِ عُثْمان ، ونَسَبوا عَليّاً - عليه السلام - إلى أنّهُ ألَّب [1] النّاسَ علـى عُثْمانَ وجَرّأهُمْ على قتلِهِ - وما زالَ علـيٌّ - عليـه السـلام - مـنْ أكْبرِ المسـاعدين لعثْمانَ الذّابين عَنْهُ ، وما زالَ عُثْمانُ يلجأُ إليـه فـي دَفْـعِ النـاس عنـهُ فيقـومُ - عليـه السلام - في دَفْعِهِمْ عَنْهُ القيـامَ المحمـودَ - وفـي آخِرِ الأمْرِ لمّـا حُوصِـرَ عُثْمـانُ ، أرْسَلَ عَليٌّ - عليه السلام - ابنه الحَسَنَ - عليه السلام -لِنُصْرَةِ عُثْمان رضي اللـه عنه . فقيلَ : إنّ الحسن - عليه السلام - استَقْتَل مَعَ عُثْمان ، وكانَ عُثْمانُ يسألُهُ أن يكُفَّ فيُقْسِمَ عليهِ وَهُوَ يَبْذُلُ نفسَهُ في نُصْرَتِهِ . وأمّا طَلْحَةُ - رضي الله عنه - فإنّـهُ كانَ مِنْ أكْبَرِ المُساعدين على عُثْمان . وهذا ما تشْهَدُ به جميعُ التواريخِ .

وأمّا عائِشَةُ - رضـي الله عنها - فإنّها كانَتْ قد خرجَتْ من المدينةَ إلى مكّةَ ليالي حُوصِرَ عُثْمانُ بنُ عفّان ، ثم رَجَعَتْ مِنْ مكّةَ إلى المدينةَ ، فلَقِيها فـي الطّريـق بعضُ أخوالِها فقالت لَهُ : ما وراءَكَ ؟ قـالَ : قُتِلَ عُثْمانَ ، قالتْ : فمـا صنَـعَ النـاسُ بَعْدَهُ ؟ قـالَ : بـايعوا عَلِيّاً ، قـالت : لَيْـتَ هـذه [2] انْطَبقَتْ علـى هـذه إنْ تَـمَّ الأمْـرُ لِصاحِبِكَ ! ! ثمّ رَجَعَتْ إلـى مكّـةَ وَهْـيَ تقـول : قُتِلَ واللـه عُثْمـانُ مظلومـاً ، واللـهِ لأَطْلُبَنَّ بدمِهِ . فقالَ لها الرجلُ : لِمَ ؟ واللـه إنّ أوّلَ مَـنْ أمـالَ حَـرْوفَهُ [3] لأنْـتِ ، واللهِ لَقَدْ كُنْتِ تقولينَ : اقتلُوا (نَعْثَلاً) فقد كفَرَ - وكان ذلك لقباً لعثمان - فقـالتْ : إنّهُمْ استتابوه ثم قتلوه ، وقَدْ قُلْتُ وقالُوا وقَوْلي الأخيرُ خَـيرٌ مـنْ قَوْلـي الأوّلِ . ولمّـا رَجَعَتْ إلى مكّةَ اتّفَقَتْ مَعَ الزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ على ما ذَكَرْنَاهُ ، مِنَ الطّلَبِ بِدَمِ عُثْمانَ ،

---

[1] ألّبَ : حَرّضَ .

[2] ليتَ هذه : قصدت انطباق السّماء على الأرض لِهَوْلِ الحَدَث .

[3] أمالَ حروفَهُ : عابَ اسْمَهُ .

وسخط إمارةَ علي ، واتّفقَ معَهمْ مرْوانُ بن الحكم – وهو ابنُ عـمْ عُثْمـانَ – وقـالُوا للناسِ : إنّ الغوْغاءَ [١] منْ أهلِ الأمْصارِ وَعبيـدِ أهْلِ المدينـةِ ، اجْتمعوا علـى هـذا الرجلِ المِسْكينِ – يعني عُثْمان – فقتلُوه ظلْماً وعُدْواناً ، فسفكوا الدّمَ الحرامَ في البلدِ الحرامِ في الشّهرِ الحرامِ . ثمَّ استَمالوا أُناساً وعزمُـوا علـى قصْدِ البصـرةِ واسْتمالةِ أهلِها والْتقوا بها على قِتالِ عليٍّ – عليه السّلامُ – فلمّا انتهى ذلك إلى أميرِ المؤمنيـن قامَ فَخَطَبَ النّاسَ وأعلَمَهُمْ الحال ، وقالَ : إنّها فتنـةٌ وسأُمْسِـكُ الأمْـرَ مـا استَمْسَـكَ بيدي . ثمَّ بلَغهُ ما هُم فيهِ مِنَ الجُموعِ والتّصْميمِ على الحـرب فنهد إليهـم فـي جَيْشٍ مِنَ المُهاجرينَ والأنْصار .

وقد كانتْ عائشةُ – رضـي الله عنهـا – فـي توجُّهها إلـى البصـرةِ اجتـازتْ بماءٍ يُقال له : الحَوْأبَ ، فنَبَحتْها كِلابُه . فقالتْ للدليل : ما اسمُ هذا الموضع ؟ قال : الحَوْأب فصرَخَتْ بأعلى صوتِها وقالَتْ : : رُدّونـي { إنـا للـه وإنـا إليـهِ راجعون } سَمِعْتُ رسولَ اللهِ – صلى الله عليـه وآلـه وسـلم – يقـولُ عنْد نسـائه : ((أيتكُنَّ تَنْبحُها كِلابُ الحَوْأب ؟)) ثم عَزَمَتْ على الرُّجوعِ ، فقالوا لها : إن الدّليلَ كذَبَ ولَمْ يَعْرِفِ المَوْضِعَ .

وقالوا لها : إنْ لَمْ تسيري مِنْ هذا المَوْضِع وإلا أدْرَكَكُم [٢] عليٌّ بن أبـي طـالبِ فيـهِ فهلكتُمْ فسارتْ وسارَ عليٌّ – عليه السّلام – فالتقى الجمعانِ بظاهرِ البصرةِ ، وجرَتْ خُطُوبٌ وحُروبٌ ، ففي بَعْضِها التقى – عليه السّلام – وطلحةُ والزّبيرُ ، فقـالَ علـيٌّ – عليه السّلام – لِطَلْحَةَ : يا طَلْحَةُ : تَطْلُبُ بِدَمِ عُثْمانَ ؟ فلَعَنَ اللهُ قَتَلَةَ عُثْمـانَ ، يـا طلحةُ : أجِئْتَ بِعِرْسِ [٣] رسُولِ اللـهِ – صلـى اللـه عليـه وآلـه وسـلم – تُقـاتِلُ بهـا وخَبّأْتَ عِرْسَكَ في البيتِ ؟ أمَا بايعتني ؟ قال : بـايعتُكَ والسّيفُ علـى عُنُقـي . فقـالَ عليٌّ – عليه السّلام – للزُبير : يا زُبيرُ : ما أخْرجَك ؟ قال : أنْتَ ، ولا أراكَ أهْلاً لِهذا الأمْرِ ولا أولَى بهِ مِنّا . فقال عليٌّ – عليه السّلام – : لقدْ كُنّا نعدُّكَ منْ بني

---

[١] الغوْغاء : سفلة السُّوقة والعوّام . السُّفهاء من الجمهور .

[٢] كذا في ألما ص / ١٠٦ / وفي رحما ص / ٦٢ / ، وفي طبعة بيروت ص / ٨٦ /.

[٣] العرْس : الزّوجة أو الزّوْج .

المُطّلب حتّى بلغَ ابنُكَ ابن السّوء ففـرّقَ بيننـا عَبْدُ اللـه بـنُ الـزّبـير . وتَذكرهُ علـى أشياءَ وقال له : أتَذْكر لمّا قالَ رسولُ اللهِ - صلواتُ اللـه عليـه وسـلامُهُ - لتقاتِلَنـه وأنت ظالِمٌ له ؟ قالَ : اللهمّ نعـمْ ، ولَـوْ ذكـرْتُ لمـا سـرْتُ مسـيري هـذا ، وواللـهِ لا أُقاتِلُكَ أبداً ؟ فانصرفَ أمـيرُ المؤمنيـن - عليـه السّلام - إلـى أصْحابـه وقـال : أمـا الزّبير : فقَدْ أعْطى اللهَ عهداً ألا يُقاتِلَكُمْ ثمّ إنّ الزبير عَزَمَ على تركِ الحرْبِ فخدَعَـهُ ابنُهُ عبْدُ اللهِ ، وما بَرِحَ بِهِ حتى كفّرَ [1] عَنْ يمينـهِ وقـاتَلَ ، ولمـا تـراءى الجمْعـانِ كـان عَسكَرُ عائِشَةَ وطَلْحَةَ والزّبيرِ - رضـي اللـه عنهـم - ثلاثيـنَ ألفـاً ، وعَسْكَـرُ عليٍّ - عليهِ السّلامُ - عِشْرين ألْفاً ، فقَبْلَ أن تَنْشبَ الحربُ وعظهُـمْ أمـيرُ المؤمنيـنُ - عليه السّلام - وندَبَهُمْ إلى الصُّلْحِ ، وبَذَلَ لهم كلّ ما ليس علَيه فيه غضاضــةٌ مـنْ جهَةِ الدين . فمالوا شيئاً إلى الصلح ، وباتوا على ذلك . ثُمّ في الغداةِ نشبَ القِتال بيـن القبيلين وجرَتْ مُناوشاتٌ وحُروب ، أفْضتْ إلى نُصْرَةِ جيْشِ أميرِ المؤمنين - عليـه السّلام - .

فَأَمّا الزُّبيرُ لمّا رأى النّصْرَةَ عليهم ردّ رأسَ فرسـه ومـرّ فتبعـه رَجُـلٌ مـنْ عَرَبِ البَصْرَةِ فتَبِعَهُ عُمَيْر بنُ جُرْمُوز فقَتَلَهُ بوادي السباع ، وأتى إلى علـيٍّ - عليـه السّلام - بسيفِـهِ فقالَ للحاجِبِ : استأذِنْ لقاتِل الزُّبير ، فقال عليٌّ - عليه السّلام - : بشّرْ قاتِلَ ابنِ صفيّةَ بالنـار (وصفيّـةُ أُمّ الزبـير وهـي عمّـةُ أميرِ المؤمنيـن - عليـه السّـلام) ولمّـا رأى سيْفَهُ قـالَ : سيْفٌ طالمـا جـلا الكُروبَ عنْ وَجْـه رسولِ اللـه صلَواتُ اللهِ عليه ! ! .

وأمّا طَلْحَةُ : فجَاءَهُ سَهْمٌ في رجلِهِ فأعْطبهُ ، فدخَلَ البصْرَةَ رديفاً لغُلامِهِ وقد امتلأ خفُّهُ دماً ، وَهُوَ يقولُ : اللهمّ خذ لعثمانَ مني حتّى ترضى . فمـاتَ بـدارٍ خَرِبَـةٍ من دُورِ البصرة ، وَقَبْرُهُ اليومَ بالبَصْرة فـي مشْـهدٍ مُحْتَرَمٍ عندَهُـمْ ، إذا اعتَصَـمَ بِـهِ خائِفٌ أوْ طَريدٌ ، لا يَجْسُر أحَدٌ كائناً مَنْ كان على إخراجِهِ منْهُ . ولأهل البصْرَةِ فـي طَلْحةَ اعتقادٌ عظيم إلى يومنا ، وقيلَ : إنّ الذي قتلَ طَلْحَةَ مروانُ بنُ الحكم .

---

[1] كفّرَ عن يمينه : أدّى لوجهِ الله ما فرض على الحانث بيمينه ، كالصوم أو عتق الرقاب .

وأمّا عائشةُ – رضي الله عنها – : فإنها كانتْ على جمل في هَوْدَجٍ ، وقَدْ أُلْبِسَ هَوْدَجُها الدُّروعَ والنّسائجَ الحديد ، فلما اشتدَّ القتالُ وانفلتتْ جُمُوعُها عُرْقِبَ الجَمَلُ [1] فوقع ، ورُفِعَ هودَجُها حَمْلاً ووُضِعَ في مكانٍ بعيدٍ عن النّاس وكانَ أخوها محمّد بنُ أبي بكر منْ أصْحابِ عليّ – عليه السّلام – وابن زوجَتِهِ أسْماءَ بنْتِ عُمَيْس [2] – رضي الله عنها – فأمرهُ عليٌّ – عليه السّلام – أنْ يمضي إلى أُخْتِهِ وينظرَ أهي سليمةٌ أم أصابها شيء منْ جراحٍ ؟ فمضى فرآها سليمةً ، ثم أدخَلَها ليلاً إلى البصرة ، ثم إنّ أميرَ المؤمنين – عليه السّلام – أذن للنّاس في دَفْنِ القتلى ، وكانوا عشرة آلافٍ منَ القبيلَيْن ثم أمر – عليه السّلام – بجمعِ الأسلابِ ، وأدخلها إلى المسجد الجامعِ بالبصرة ، ونادى في الناس مَنْ عرف من قماشِهِ فليأخذه ثم إن أمير المؤمنين – عليه السّلام – أحسن إلى عائِشةَ غايةَ الإحْسانِ ، وجهّزَها بكُلِّ ما ينبغي لمثلها ، وأذِنَ لها في الرجوعِ إلى المدينة وبَعَث معها كُلَّ مَنْ نجا مِمَّنْ خَرَجَ مَعَها إلا مَنْ أحَبَّ المقامَ ، واختارَ لها أرْبعينَ امْرأةً منْ نساء أهْلِ البَصْرةِ المعروفاتِ لأجْلِ مُؤانستها في الطريق ، وسيّرها في صحبةِ أخيها محمّد بن أبي بكرٍ مكَرّمةً محترمةً . فلما كانَ يومُ رحيلها حضَر عليٌّ – وحضرَ النّاسُ فقالت عائشةُ – رضي الله عنها – : يا بنيّ (وإنما قالت ذلك لأن نساء النبيّ عليه السلام هُنّ أمّهاتُ المؤمنين كذلك قال اللهُ تعالى ورسولُه صلوات الله عليه) : ((لا يعتبُ بعضٌ على بعضٍ إنّهُ والله ما كان بيني وبَيْن عليّ في القديم إلا ما يكونُ بينَ المرأةِ وأحمائِها [3] وإنه على مَعْتَبتي [4] لمِنَ الأخيار)) وقال عليٌّ – عليه السّلام – : ((صَدَقَتْ واللهِ ، ما كانَ بيني وبينها إلا ذاك ، وإنّها لزوجةُ نبيِّكم في الدنيا والآخرة))

---

[1] عُرْقِبَ الجَمَلُ : أُصيبَ في عُرْقُوبِهِ . والعرقوب . عصبٌ غليظٌ فوق العقب .

[2] أسماءُ بنت عُمَيْس : زوجة جعفر بن أبي طالب تزوّجها أبو بكر الصدّيق بعد قتل زوجها في وقعة مؤتة فولدت له محمّداً . ولمّا مات أبو بكر تزوجها عليٌّ توفيت نحو سنة / ٤٠ / هـ . انظر الأعلام ج ١ ص / ٣٠٦ / .

[3] الأحْماء : مفردها الحَمُو ، وهو الواحد من أهل الزوج أو الزوجة .

[4] المَعْتَبة : العَتْب والمُؤاخذة أو استرضاء العاتب .

ثم سارَتْ وشَيّعها عليه السلامُ أميالاً ، وأرْسل بنيه معَها مسيرة يوْم ، وتوَجّهتْ إلى مكّةَ وأقامتْ بها إلى أيّامِ الحجّ ، ثم حَجّتْ وانصرفتْ إلى المدينة ، وكانتْ وقعةُ الجَمَلِ في سنة ستٍّ وثلاثينَ منَ الهجرة . ومنْ وقائعها المشهورة وقعةُ صفّين :

شَرْحُ كَيفيّةِ الحالِ في ذلك

لما انصرفَ أميرُ المؤمنينَ – عليه السّلام – منْ وقْعة الجمل ، أرْسَلَ إلى مُعاوية – رضي الله عنه – يُعرّفُهُ اجتماعَ الناس على بيْعته ، ويُعلمُهُ ما كانَ منْ وقعةِ الجمل ويأمُرُهُ بالدخول فيما دخلَ فيه المهاجرونَ والأنصار . وكانَ مُعاويةُ – رضي الله عنه – أميراً بالشأم منْ قِبَل عُثْمان – رضي الله عنه – وكانَ ابنَ عمّهِ [1] فلمّا وَرَدَ إلى معاوية – رضي الله عنه – رسولُ أميرِ المؤمنين عليٍّ – عليه السّلام – خافَ معاويةُ – رضي الله عنه – منْ عليٍّ – عليه السّلام – وعلمَ أنّهُ متى استتبَّ الأمرُ عزلَهُ ولم يستعْمِلْهُ . وقدْ كانَ ابنُ عبّاس [2] والمغيرةُ [3] بنُ شعْبَة – رضي الله عنهما – أشارا على أميرِ المؤمنين – عليه السّلام – أنْ يُقرَّ معاويةَ – رضي الله عنه – بالشأم مدّةً حتى يبايعَ الناسُ ويتمكّنَ ثم يعزلهُ بعد ذلك . فلم يُطعهُما عليه السلام ، وقال : إني إنْ أقررته على إمارته ولو يوماً واحداً ، كُنْتُ عاصياً في ذلك اليوم الله تعالى . ولم تكن الخدعُ والحيلُ من مذهب عليٍّ – عليه السّلام – ولم يكن عنده غيرُ مرِّ الحقّ . فحينَ ورد الرسولُ إلى معاوية – رضي الله عنه – طاولَهُ ، ثم استشار بعمروِ بن العاص – رضي الله عنه – وكانَ أحدَ الدُّهاة ، وكانَ معاويةُ – رضي الله عنه – قد تألّفهُ واستمالهُ ليتقوّى برأيِهِ ودهائِهِ

---

[1] قولُه : (كانَ ابنَ عمّه : قصد أنّ معاوية كانَ ابنَ عمِّ لعثمان بن عفّان من جهة جدّهما أبي العاص بن أميّة ومعاوية هو ابنُ أبي سفيان بن حرب بن أميّة .

[2] ابن عبّاس : هو عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب الصحابي المحدّث العالم ، توفي / ٦٨ / هـ .

[3] المغيرة بن شُعْبة : صحابي من دهاة العرب كان واليا على البصرة لعمر ثم لعثمان ، توفي / ٥٠ / هـ .

فأشارَ عمرُو بنُ العاصِ على مُعاويةَ - رضي الله عنهما - أنْ يُظهِرَ قميصَ الدم الذي قُتِلَ فيه عُثْمانُ بنُ عفَّان وأصابعَ زوجتِه - رضي الله عنهما - ويعلِّقَ ذلك على المِنْبَرِ ، ثمّ يَجْمَعَ الناس ويبكي عليه ويُلْصِق قتل عثمان بعليّ - رضي الله عنهم - ويطالبه بدمه ليميلَ إليه أهلُ الشام ويقاتلوا مَعَه . فأخرج معاويةُ - رضي الله عنه - القميصَ والأصابعَ وعلّقَهُ على المنْبَر وبكى واستَبْكى الناسَ ، وذكّرهم بمُصابِ عُثْمانَ - رضي الله عنه - فانتدب أهلُ الشأم مِنْ كلّ جانبٍ ، وبذلوا له الطّلَبَ بِدَمِ عُثْمانَ - رضي الله عنه - والقتال معه على كل من آوى قتلته ثم كتب معاوية - رضي الله عنه إلى أمير المؤمنين - عليه السّلام - كتاباً يذكرُ فيه ذلك فحينئذ تجهّزَ عليٌّ - عليه السّلام - للْقتال وكاتبَ الناسَ ليجتمعوا معَهُ ، وكذلك صنَعَ معاويةُ - رضي الله عنه - ثم الْتقوا بصفِّين (١) من أرض الشأم فجرَتْ بينهم مُناوَشاتٌ وحُروبٌ كان أوّلُها : أنّ معاوية وأصحابَهُ - رضي الله عنهم - سبقوا إلى شريعة (٢) الماءِ فملكوها . ومَنَعوا أصحابَ أميرِ المؤمنين - عليه السّلام - مِنَ الماءِ ، ولم يكن هُناكَ شريعةٌ غيرَها . فلمّا أُخبِر عليٌّ - عليه السّلام - بذلك أرْسَلَ إلى معاوية - رضي الله عنه - يقول له : إنّ مذهبنا ألا نبدأكم بقتال حتى نحتجَّ عليكُمْ ، وننظرَ فيما جئنا له وتَنْظُرون . وقد مَنَع أصحابُكَ الناسَ مِن الماء ، فابعثْ حتّى يخلّوا سبيلَ الماءِ ، وإنْ شئتم أنْ نتْرُك ما جئْنا لهُ وتكون مقاتلتنا على الماءِ ، فيكونَ الغالبُ هو الشاربَ ، فعلْنا ذلكَ . فقالَ مُعاويةُ - رضي الله عنه - لأصحابِهِ ما تشيرون ؟ قال قومٌ من بني أميّة : نرى أن تمنعه الماء حتى يموتوا عطشاً أو يرْجِعوا لِطلَبِ الماءِ فتكونَ هزيمةً ، فقالَ عمرو بن العاص - رضي الله عنه - ((أرى أن نخلّي لهم سبيلَ الماء ، فإنّ القومَ لا يعطشون وأنت ريّان)) فأخر معاويةُ - رضي الله عنه - الجوابَ وقال : سأنْظُرُ ، فاقتتل الناسُ على الماءِ ، وأمدَّ عليٌّ - عليه السّلام - أصحابَهُ وأمدَّ معاويةُ - رضي الله عنه - أصحابَهُ ، ونشبتْ الحرْبُ

---

(١) صفِّين : موقع على نهر الفرات غربيّ للرقّة . (٢) الشّريعة : مَورِد الماء ومستقاهُ .

والتَحَمَ القِتالُ ، فملك أصحابُ عليٍّ – عليه السَّلام – الشَّريعة ، فأرادوا مَنْع أصحاب معاوية – رضي الله عنه – فأرسل إليهم عليٌّ – عليه السَّلام – وقالَ خذوا حاجَتَكُمْ مِنَ الماءِ ولا تمنَعوهُمْ مِنْهُ .

ودامَ على ذلك مُدّةً حتى كادَ عَسْكَرُ عليٍّ – عليه السَّلام – أنْ يغْلبوا ، وظهرتْ أماراتُ الفتْحِ ، فخافَ عمرُو بنُ العاص – رضي الله عنه – من الهلاك ، فأشارَ على معاوية – رضي الله عنه – برفْعِ المصاحفِ على الرِّماحِ ، والدعاء إلى ما فيها مِنْ أمْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ . فلما رُفِعَتْ المصاحفُ فَتَرَ أكثرُ الناس عن الحربِ ، وجاءوا إلى أميرِ المؤمنين – عليه السَّلام – وقالوا : يا عليُّ أجبْ إلى كتاب الله – عزَّ وجل – فوالله إنْ لمْ تَفْعَلْ لنحمِلنَّك كارهاً إلى مُعاوية – رضي الله عنه – أو لنفْعَلَنَّ بكَ كما فعلنا بابنِ عفّانَ – رضي الله عنه – فقال لهم عليٌّ – عليه السَّلام – يا قومُ إنّها خدعةٌ منهم ، وإنّهم ليس فيهم مَنْ يَعْمَلُ بهذه المصاحف . أولَسْتُمْ على بيّنةٍ من ربكم ، فامضُوا لِشأنكم وقاتلوا عَدُوَّكُمْ . فلم يفعلوا وغلبوه ، فأجابَ إلى تركِ القتالِ ، ثم أرسلَ إلى معاوية – رضي الله عنه – رَسولاً يقولُ له : ما الذي تريدُ برفعِ هذه المصاحفِ ؟ قال : نُحكّم منّا رَجُلاً ومنْكُمْ رَجُلاً ، ونُقْسِمُ على الرجليْنِ أن يَنْصَحا الأُمّةَ ويعملا بما في كتابِ الله – عزّ وجلَّ – وما لم يجداه في كتاب الله حملاه على السُّنّةِ والجماعة ، فأيُّ شيءٍ حكما به قَبِلْناهُ . فتراضى الناسُ جميعاً بذلك إلا أميرَ المؤمنين – عليه السَّلام – فإنه رضيَ كارهاً مغْلوباً . ونفرٌ يسيرٌ مِنْ بطانَتِهِ كالأشتر [1] وابنُ عبّاس[2] – رضي الله عنهم – وغيْرهما . وانعقد الإجماعُ على تحكيمِ رَجُلين . فأما أهلُ الشأم : فاتفقوا على أنْ يكون الحكمُ منْ جهتِهمْ عمرو ابنَ العاص – رضي الله عنه – داهيةَ العرب . وأمّا أهلُ العراق : فطلبوا أبا موسى

---

[1] الأشتر : هو مالِكُ بنُ الحارث النَّخَعيّ ، أميرٌ وقائدٌ شجاع من أنصار علي بن أبي طالب . توفي / ٣٧ / هـ .

(٢) ابن عبّاس : هو عبد الله بن عبّاس بن عبد المطلب . ابنُ عم الرسول – صلى الله عليه وآله وسلم – ، وملازِمُه كان محدّثاً فقيهاً . شهد مع عليٍّ موقعتي الجمل وصفّين . توفي / ٦٨ / هـ . انظر تفصيل ترجمته في الأعلام للزركلي المجلّد الرابع ص / ٩٥ / .

(1) الأشعريّ – رضي الله عنه – وكانَ شيْخاً مُغفلاً فلم يَستصلِحْه أميرُ المؤمنين – عليه السَّلام – للتحكيم ، وقال : إنْ كان ولا بد من التحكيم ، فدعوني أُرسل عبدَ اللهِ ابنَ عبّاس . فقالوا : لا والله هُوَ أنْتَ وأنت هُو ، قال : فالأشتر . قالوا : فهل سَعّرَ الأرْضَ غيْرُ الأشتر ؟ قال : فقدْ أبيتم إلا أبا موسى . قالوا : نعم . قالَ : فافعلوا ما شئتم فاتّفق الناسُ على أبي موسى وعمرو بن العاص – رضي الله عنهما – وتواعدوا إلى شُهور ، وسكنتْ الحرب ، وانصرفَ الناسُ إلى أمْصارِهِمْ ، ورَجَع معاويةُ – رضي الله عنه – إلى الشأم واميرُ المؤمنين – عليه السَّلام – إلى العراقِ

ثُمَّ بَعْد شُهور سار الحكمان ليجتمعا بدَوْمَة الجنْدَل (2) وكانت ميعادَ الحَكَمَيْن ، وسار ناسٌ من الصَّحابةِ ليشهدوا ذلكَ المقام . وكانَ أميرُ المؤمنين – عليه السَّلام – قد أرْسَلَ صحبةَ أصحابه عبد الله بن العبّاس – رضي الله عنه – فلما اجتمعَ الحكمان قال عمرُو بنُ العاصِ لأبي موسى الأشعري : يا أبا موسى : ألستَ تعلمُ أنْ عُثْمانَ قُتِلَ مظلوماً ؟ قال : أشهدُ . قالَ : ألستَ تعلمُ أنّ معاوية وآل مُعاويةَ أولياؤهُ ؟ قالَ : بلى . قال : فما منَعكَ منه وبيتُه في قريش كما قد علمتْ ؟ فإنْ خِفْتَ أن يقولَ الناسُ ليستْ له سابقة ، فقل : وَجدتُه وليَّ عثمان الخليفة المظلوم ، والطّالبَ بدَمِهِ ، الحَسَنَ السياسةِ والتّدبير ، وهو أخو أُمِّ حَبيبَةَ (3) زوجِ النبيِّ – صلواتُ الله عليه – وكاتِبُهُ وقد صَحِبَهُ وعَرَض عمرٌو لأبي موسى بولايةَ ، ووعده عن مُعاويةَ بأشياءَ ، فأبى موسى وقال معاذ الله أن أُولّي لمعاويةَ وأن أقبل في حُكْم الله رشوةً ! فقالَ لهُ عمرٌو : فما تقول في ابني عبد الله ؟ وكان لعمرو ابن العاص ابن اسمه عبد الله (4) من خِيارِ الصحابة ، رضي الله عنهم ، فأباه أبو موسى وقال لعمرو : إنَّكَ

---

(1) أبو موسى الأشعريّ : عبد الله بن قيس القحْطاني . صحابي ولاهُ عمر بن الخطاب على البصرة عام / ١٧ / هـ فافتتح الأهواز وأصبهان . ولي الكوفة لعثمان ثم لعليّ واختاره أنصار عليّ حكماً بينه وبين معاوية فخدعه عمرُو بن العاص الممثّل لجانب معاوية . توفّي في الكوفة سنة / ٤٤ / هـ . انظر الأعلام ج ٤ ص / ١١٤ / .

(2) دَوْمَةُ الجَنْدَل : واحة مشهورة من شبه الجزيرة العربية . اجتمع فيها حكما عليٍّ ومعاوية ثم عقدا التحكيم في أذرح بين معّان وسلع من وادي الأردن .

(3) أمّ حبيبة : رملة بنت أبي سفيان أخت معاوية . صحابيّة . ومن زوجات الرسول . توفيت / ٤٤ / هـ .

(4) عبد الله بن عمرو بن العاص : صحابي عابد ناسك كتب الحديث النبوي ورواه ، توفي سنة / ٦٥ / هـ .

غَمَسْتَهُ معك في هذهِ الفتنة ، ولكن هل لك في إحياء اسم عمر بن الخطاب ؟ وندَبَهُ إلى عبدِ اللهِ بنِ عُمَر فأباهُ عمرو . فلما لم يتفقا قال لـه عمرو : يا أبا مُوسى فأي شيءٍ هو رأيك ؟ قال أبو موسى : رأيي أن نخلع عَلِيّاً ومعاوية - رضي الله عنهما - مِنْ هذا الأمر ونُريحَ الناسَ مِنْ هذهِ الفتْنة ، ونَدعَ أمر الناس شُورى فيَختار المسلمون لأمرهم مَنْ يُجْمِعون عليه . قال عمرو - رضي الله عنه - نعْم ما رأيتَ وأنا مَعَكَ على ذلك . ولاح لعمرو وجْهُ الحيلة . وكان قدْ عوّد أبا موسى الأشعريّ أن يتقدّمه في الكلام ، يقول لـه : أنْتَ صاحِبُ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأكبرُ سِنّاً . فتَعوّدَ أبو موسى أن يتكلمَ قبل عمرو فتقدم أبو موسى وقالَ : إني وعَمْراً قد اتفقنا على أمر نرجو فيهِ صلاحَ المسلمين . فتقدم عمرو وقال : صَدَقَ وبَرّ ، تقدمْ يا أبا موسى : وأعلِم الناس بما اتفقنا عليهِ فقامَ ابنُ عبّاس وقال لأبي مُوسى وَيْحَكَ إني لأظنُّه قد خدعكَ ، وقَدْ أوْهمكَ أنه اتّفق مَعَكَ على ما تريد ، ثمّ قدّمَكَ لِتعترِفَ به ، فإذا اعترَفْتَ أنْكرَهُ ، فإنّهُ رَجُلٌ غادِر . فإن كُنْتُما قد اتفقتما على شيءٍ فقدّمْهُ ليقولَه قبلك : فقال أبو موسى : إنّا قد اتفقنا ، ثم قالَ إننا قد اتّفقنا على أن نَخْلَعَ عليّاً ومعاويةَ ونَدَعَ أمْرَ المُسْلمينَ شُورى ، يختارونَ مَنْ أجْمعوا عَلَيْهِ . وإني قد خَلَعْتُ عَلِيّاً ومُعاوية من الخِلافةِ كما يُخْلَعُ الخاتَمُ مِنَ الإصْبَع . فتقدّم عَمْرو بنُ العاص - رضي الله عنه - وقالَ أيّها الناسُ قد سمِعتُمْ ما قال ، وأنّهُ قد خلَعَ صاحِبَه ، وأنا أيضاً قَدْ خَلَعْتُهُ معَهُ وأثبتُّ صاحبي مُعاويةَ ، فأنكر أبو موسى وقال : إنّه غَدَرَ وكَذَبَ ، وما على هذا اتّفقنا . فلم يُسْتَمعْ إليه ، وتفرّقَ الناسُ ، ومضى عَمْرو بنُ العاص وأهْلُ الشام إلى مُعاوية وسلّموا عليه بالخلافة ، ومضى ابنُ عبّاس وأصحاب عليّ - عليه السّلام - إلى أميرِ المؤمنين وأخبروه بما جرى وأمّا أبو موسى : فإن أهلَ الشام تطلّبوه فهربَ إلى مكّة ، وعلى ذلك انفصل أمْرُ صِفّين وكان ابتداؤه في سنة ست وثلاثين وانقضاؤها [1] في سنة سبع وثلاثين

---

[1] صحيحه وانقضاؤه . كذا في طبعة بيروت ص / ٩٣ / ، وفي رحما ص / ٦٨ / .

حديثُ الخوارجِ وما كانَ مِنهُمْ
وما آلتْ بِهِمْ الحالُ إليهِ

لما جرى أمْرُ التحكيم على الوَجْـه المشـروحِ ، عـاد الذيـن أشـاروا بـالتَّحكيم وألْزَموا أميرَ المؤمنين - عليه السَّلام - الرِّضـا به فندموا عليه ونفرُوا وأتوا عليّـاً - عليه السلامُ - وقالوا : لا حُكْمَ إلا لله . قال عليٌّ - عليه السَّلام - : لا حُكْمَ إلا للـه . قالوا : فما لكَ حكَّمْتَ الرِّجالَ ؟ قالَ : إنّي لم أرْضَ بقضيَّةِ التَّحكيـم ، وأنتـمْ الذيـن رَضيتُموها . وإنّي أعلمتُكُم أنَّها مكيدةٌ مِـنْ أهـل الشّـام وأمرتُكُمْ بقتـال عدوِّكُمْ مِنْهُمْ فأبيتُمْ إلا التَّحكيم وغلبتُموني على رأيـي . فلمـا لـم يبْـقَ بـد مـن التحكيـم ، استوثَقْتُ وَشَرَطْتُ على الحَكَمَيْنِ أن يَعْملا بكتاب الله عزَّ وجلَّ ، وأن يُحْيِيا ما أحْيا الكتـابُ ، ويُميتا ما أماتَ . فاختلفا وخالفا كتابَ الله وعملا بالهوى . فنحْـنُ علـى الـرأيِ الأوَّل في قِتالِهم . قالَ الخوارجُ : أمّا نحنُ فلا رَيْبَ أنّا رضينا بـالتحكيم أوّل الأمـر ، لكننـا ندِمْنا عليه وعلمنا أنّا كُنّا مخطئين فأنْتَ إنْ أقررْتَ على نَفْسِك بالكُفْر واستَغْفرتَ الله من خطأِكَ وتَضْييعك وتحكيمِكَ الرِّجالَ رجعْنا معكَ إلى قِتال عدوِّك وعدوِّنـا ، وإلا فهـا نحـنُ قد نابذنـاك . فوَعَظَهُمْ بِكُلِّ قَـولٍ ، وبصَّـرهم بكلِّ وجـهٍ فلم يرجعـوا . واجتمعوا أمماً مِـنْ أهْلِ البَصْرة والكوفـة وغيرهِمْ وقصـدوا النَّهـروان [1] . وكـان رأيُهم أن يأتوا بَعْضَ المدنِ الحصينةِ فيتحصَّنوا بهـا ويقـاتلوا فيهـا . وصـدرتْ منهـم أمورٌ متناقضةٌ تدلُّ على أنهم يخبطـون خبْط عشْـواء : مِنْهـا أن رطْبَـةً سَقَطَتْ مـن نخلةٍ فتناولَها رَجُلٌ ووَضَعَها في فيهِ فقالوا لهُ : أكلْتَها غصبْاً وأخذْتَها بلا ثمنٍ فألقاهـا . ومِنْها : : أنَّ خِنْزيراً لِبَعْضِ أهْلِ القُرى مرَّ بِهِمْ فَضَرَبَهُ أحدُهُمْ بسيفِهِ فعقرهُ فقـالوا هذا فسادٌ في الأرض ، فمضى الرَّجُلُ إلى صـاحبِ الخـنْزِير وأرْضـاهُ ومنهـا : أنهـم كانوا يقتلون النفس التي حرَّمَتْ إلا بالحق [2] :قتلوا عبدَ الله بنَ خبـاب -رضـي اللـه عنه - وكان خباب منْ كِبارِ الصَّحابةِ . وقتلوا عدّةَ نساءٍ وسَبَوْا وفعلوا أفاعيل مِنْ

[1] النّهروان : موقع في العراق بين بغداد وواسط تحصّن فيه الخـوارج وهاجمهم فيه عليٌّ فأباد معظمَهُم وشتّتَ شَمْلَهُمْ في واقعـة شـهيرةٍ بهذا الاسـم عام / ٣٧ / هـ . وقد ضبطـت الكلمـة فـي ثُلما النَّهْروان ، انظر ص / ١١٥ / .

[2] قصدَ المؤلف إلى أنّهم مُجرمون .

هذا القبيل. فلما بلغ علياً - عليه السّلام - أمْرُهُمْ وقد كانَ خطبَ النّاس في الكوفةِ ونَدَبَهُمْ إلى قِتالِ أهلِ الشّامِ وإعادةِ الحَرْبِ جذعةً قالوا : يا أمير المؤمنين : أينَ نَمْضي وندعُ هؤلاءِ الخوارجَ يخلِفوننا في عيالنا وأموالنا ؟ سرْ بنا إليهم فإذا فرَغْنا مِنْ قتالِهِمْ رَجَعْنا إلى قِتالِ أعدائِنا مِنْ أهلِ الشّامِ : فسارَ - عليه السّلام - بالنّاسِ إلى الخوارج فلَقِيَهُمْ على النّهروان وأبادَهُمْ . فكأنما قيل لَهُمْ موتوا فماتوا .

كرامةٌ لأميرِ المؤمنين عليٍّ صلواتُ اللهِ عليهِ

لما التقى الخوارجَ بالنّهروانِ أجفلوا قدّامهُ إلى ناحيةِ الجِسْرِ . فظنَّ النّاسُ أنّهُمْ قد عَبَرُوا الجسر ، فقالوا لعليٍّ - عليه السّلام - : يا أميرَ المؤمنين : إنّهُمْ قد عبروا الجسر فالْحَقْهُمْ قبلَ أن يَبْعدُوا . فقالَ أميرُ المؤمنين - عليه السّلام - : ما عَبَرُوا ، وإنَّ مصارِعَهم دُونَ الجِسر ، وواللهِ لا يُقْتَلُ مِنْكُمْ عشَرَةٌ ولا يبقى منْهُمْ عَشَرَةٌ فشكَّ النّاسُ في قولِهِ فلما أشْرفوا على الجسْرِ رأَوْهُمْ لم يعْبرُوا فكَرَّ أصحابُ أميرِ المؤمنين - عليه السّلام - وقالوا لَهُ : هو كما قُلْتَ يا أميرَ المؤمنين . قالَ : نَعَمْ واللهِ ما كُذِبْتُ ولا كَذَبْتُ . فلمّا انْفصلَتْ الوقعةُ وسكَنَتْ الحربُ اعْتُبِر القتلى مِنْ أصحابِ عليٍّ - عليه السّلام - فكانوا سَبْعةً . وأما الخوارِجُ : فذهبت طائفةٌ منهم قبل أن تَنشِبَ الحربُ وقالوا : واللهِ ما ندري على أيِّ شيءٍ نقاتلُ عليَّ بنَ أبي طالبٍ ؟ سنأخذُ ناحيةً حتى ننظرَ إلى ماذا يؤولُ الأمر . وأما الباقون : فثبتوا وقاتلوا فهلَكوا جميعهم . ثم إنَّ أميرَ المؤمنين - عليه السّلام - لما انْقضى أمرُ الخوارجِ رَجَعَ إلى الكوفةِ ، وندبَ [1] الناسَ إلى قِتالِ أهْلِ الشّامِ فتثاقلوا . فأعادَ القَولَ عليهِمْ وَوَعظَهُمْ وحثَّهُمْ على الجهادِ فقالوا : يا أميرَ المؤمنين : كلّتْ سُيوفُنا وفَنيتْ نبالُنا ، وملَلْنا مِنَ الحرب فأمْهِلْنا نُصلِحْ أمورنا ونتوجّهْ - وكان قد عَسْكَرَ ظاهرَ الكوفةِ - فأمْهَلَهُمْ وأمَرَهُمْ أن يوطّنوا نُفوسَهُمْ على الحرب ، ونهاهم عن غشْيان [2] أهاليهم حتى يَرْجِعوا مِنَ الشّامِ . فصارُوا يَتسَلّلون ويَدْخُلون الكوفةَ حتى خلا المُعَسْكَرُ منهم .

---

[1] ندب الناسَ : دعاهُمْ .   [2] غشيان أهاليهم : زيارة أهاليهم ومعاشرِهم .

فَبَطَلَ رَأْيُهُ – عليه السَّلام – وكان ذلك في سنة ثمانٍ وثلاثين .

وفاةُ الأرْبَعَةِ

وفاةُ أبي بكرٍ – رضي الله عنه – أوّلُ مَنْ مات منْهُمْ أبو بكر . ماتَ بالمدينة حتْفَ أنفِهِ في سنة ثلاثَ عشْرة . وكان مرَضُه انتقاض [1] لسْعة الحيّة التي لَسَعَتْه لَيْلَةَ الغارِ [2] ودُفِنَ عِنْدَ النبيِّ – صلواتُ اللهِ عليه وسلامُهُ – في بيتِ عائِشَةَ ابنتِهِ – رضي الله عنها – زوجِ الرّسولِ . وكان الرّسولُ – صلواتُ الله علَيْه – لما قُبِضَ في بَيْتِها . فَدُفِنَ أبو بكرٍ عنده ، وعَهدَ إلى عُمَرَ بنِ الخطّابِ – رضي الله عنه – واستَخْلَفَهُ على الأمّةِ بَعْدَهُ .

مقتل عُمَرَ بنِ الخطّابِ رضي الله عنه

لما وضعَ عُمر بنُ الخطّاب – رضي الله عنه – الخراج اغتاظَ منْ ذلك أبو لُؤلؤة غلامُ المغيرةِ بنِ شُعْبَة . لأنّه كان قد وَضع الخراجَ على مولاه . وكانَ عُمَرُ ابن الخطّاب لقيَ أبا لؤلؤة فقال لَهُ : اصنَعْ لي رحىً فقال أبو لؤلؤة : لأصنعَنَّ لك رَحىً تَدورُ مع الدهر . فقال عُمَرُ : يهدّدني العبد فطَعَنَهُ وهو في الصلاةِ فبقي ثلاثة أيام وماتَ ودُفِنَ في تربة النبيِّ – عليه السّلام – وذلك في سنة ثلاثٍ وعشرين مِن الهِجْرة ، وأمّا أبو لؤلؤة : فاجتمع الناسُ عليه فقتل مِنْهُمْ جماعة ، ثم أُخذَ وقُتِلَ .

ذِكْرُ الشّورى وصفةُ الحالِ في ذلك

(قالَ محمّدُ بنُ عليّ بن طباطبا) : لمّا طُعِنَ عُمرُ اجتمعَ إليه الناسُ وسألوهُ عمّن يتولى بعدَهُ ، فجعل الأمرَ شُورى – والشّورى في اللغة : هي المُشاورةُ – ومعنى هذا : أنّ عُمر لمّا أحسّ بالموت نظر فيمن يعهد إليه ويوليه أمر الأمّة ، فلم

---

[1] انتقاض لسعة الحيّة : نكسة اللسعة المسمومة بعد شفائها .

[2] ليلة الغار : ليلة الهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث لجأ إلى الغار المشهور بغارِ ثوْر .

يصحّ رأيُه في رجلٍ واحدٍ . فجعلها في ستّة من أكابر الصّحابة ، وهُمْ أصحابُ الشورى أميرُ المؤمنين عليّ – عليه السّلام – وعثمانُ بن عفّان ، وطلْحةُ ، والزُّبيْرُ وعبدُ الرحمنِ بنُ عوْفٍ ، وسعْدُ بن أبي وقّاص – رضي الله عنهم – وقال : كلٌّ مِنْ هؤلاءِ صالحٌ للأمر بعدي . وأمرهُمْ أن يتشاوروا ثلاثة أيّام ، ثم يُجمعوا على واحدٍ من هؤلاء الستة . وكان طلحةُ – رضي الله عنه – غائباً ، فقالَ عُمر : إن قدِمَ طلحةَ قبلَ الأيام الثلاثة وإلا فأمْضوا أمركُمْ . وأقامَ عليهم رجلا مِنَ الأنصار وقالَ : إنّ اللهَ أعزّ بكُمْ الإسْلام فاخْتَرْ خمسين رجلاً مِنَ الأنصار ، واستحثَّ هؤلاءِ الرهط حتى يختاروا رَجُلاً . وقالَ : إنْ اجتمعوا خمسةً ورضُوا واحداً منْهم وأبى واحدٌ فاشدخ [1] رأسَهُ بالسّيْف . وإن اتّفق أربعةٌ وأبى اثنان فاضربْ رأسيْهما ،وإنْ رضي ثلاثةٌ منهم رَجُلاً فحكّموا عبدَ الله بن عُمر – يعني ابنهُ – فبأيّ الفريقيْنِ . حكَمَ فليختاروا رَجُلاً منهم – وكانَ قدْ أمر بحضورِ ابْنِه في ذلك المقامِ مشيراً ولم يَجْعَلْ لَهُ مِنَ الأمرِ شيْئاً – فإنْ لم تختاروا بحكمِ عبدِ الله بنِ عُمر فكونوا مع الذين فيهم عبْدُ الرحمن بنُ عوْف ، واقتلوا الباقين إنْ رغِبوا عمّا اجْتمعَ عليهِ الناسُ)) فلم يجرِ ممّا قالَ شيءٌ ، بل لمّا ماتَ بُويع عُثْمانُ بنُ عفّان وكان منَ الأمْرِ ما كان .

مقْتَلُ عُثْمانَ بن عفّانَ

(قال ابنُ طباطبا) : وسببُه أنّ ناساً مِنَ المسلمين نقموا عليه تجاوزَهُ لطريقةِ صاحِبيْه أبي بكرٍ وعُمرَ – رضي الله عنهما – من التقلّل والكفّ عنْ اموالِ المُسلمين وكان هو قد فرّقَ جملةً منها على أقاربه ووسّع على عيالِه وأهلِه . فمنْ جُملةِ ما فَعَل: أنّهُ أعطى عبدَ اللهِ بنَ خالد [2] بن أُسيْدٍ خمسين ألْفَ درْهم ، وأعطى

---

[1] شدخَ الرأسَ : كسرَهُ .

[2] عبدُ الله بن خالد : من أبناء التابعين من الأنصار ، قبيلته الأوْس . وجدّه أُسيْد ممّن شهدوا بيعة العقبة الثانية مع سبعين من الأنصار .

مرْوانَ بنَ الحَكَمِ [1] خمسةَ عشرَ ألفاً ، ولم يكن المسلمون اعتادوا مثْلَ هذا التبذيرِ، وعَهدُهُمْ قريبٌ بضَبْطِ أبي بكرٍ وعُمرَ - رضي الله عنهما - فنفروا مِنْ ذلك ، وجرَتْ بينهم وبينهُ معاتباتٌ ومقاولاتٌ . فاعتذر إليهم بأن أبا بكرٍ وعُمرَ - رضي الله عنهما - منعا أنفسَهُما وأهلَهُما احتساباً لله ، وتركا حقَّ نفوسهما ، وأنا صاحبُ عيالٍ مددتُ يدي فوسَّعْتُ عليَّ وعلى أهلي بشيءٍ منْ هذا المال ، فإنْ سخِطتُمْ هذا فأمري لأمركم تبعٌ . فقالوا أأحْسنْتَ وأنصفْتَ إذ أعطيتَ عبدَ الله بن خالد خمسين ألفاً ، ومروانَ خمسةَ عشرَ ألفاً ؟ قال : فإني أستعيدُ ذلك منهُما . واستعادَ ما أعطاهما . وكانَ إذا عاتبوْهُ على صادراتِ أُمورهِ التي يحْمله عليها ويُحسّنها له مرْوانُ بنُ الحكَمِ ، يعتذرُ مرّةً ، ويلتزمُ لهم ما يشيرون به عليه ، ويحتجُّ مرّةً . وفشا الأمرُ فاجتمَعَ ناسٌ منْ أهْلِ الأمْصارِ على حربِه فجاءَ أهْلُ مصْرَ وناسٌ من كلِّ صُقْعٍ وعزموا على قتله . فخرج ليلاً وجاءَ إلى أمير المؤمنين - عليه السّلام - وقالَ له : يا ابنَ عمّ لي عليكَ حقٌّ وقد قصدتُك ، ولك عنْدَ هؤلاء القوم منْزلةٌ وهم يَقْبلون قوْلَكَ ، وقد ترى جُرْأتَهُمْ عَليَّ ، فاخرُجْ إليهمْ ورُدّهُمْ عنّي ، فركبَ عليٌّ - عليه السّلام - وَرَدَّ الناسَ عَنْهُ وضمنَ لهُمْ حُسْنَ السيرةِ فرجعوا ثم أعْضَلَ [2] الخطبُ وزيّنَ له مروانُ بنُ الحكَمِ أموراً نقمها الناسُ ، فاجتمعُوا عليهِ من كُلِّ صَوْبٍ وأحاطُوا بهِ وحَصروهُ في دارِه ، فأرسلَ إلى عليٍّ - عليه السّلام - يستنصرهُ فأرسلَ إليهِ ابنَهُ الحسَنُ - عليه السّلام - فقاتل عنه قتالاً شديداً ، حتى كانَ يَستَكِفُّه [3] وَهُوَ يقاتِلُ عَنْهُ وَيبْذُلُ نفْسه دُونه . وتكاثرَ الناسُ عليه فدخلوا عليهِ الدّارَ وخَبطوه بالسّيوفِ، وَهُوَ صائِمٌ والمُصْحَفُ في حجْرِه ،وهُو يقرأُ فيه فوقَعَ المُصْحَفُ

---

[1] مروان بن الحكم : هو ابن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس . كان من المقرّبين إلى عثمان بن عفّان واتّخذه كاتباً له . فلمّا قتل عثمان كان مروان من المطالبين بدمه في موقعة الجمل . ولكنه اضطر إلى مبايعة عليّ والإقامة بالمدينة مكرهاً حتى ولي الخلافة الأموية بعد معاوية بن يزيد . توفي عام / ٦٥ / هـ وخلفه ولدُه عبد الملك . انظر الأعلام ص / ٢٠٧ / .

[2] أعضلَ الخطبُ : اشتدّ الخطر وأشكل الحلّ .

[3] يَستَكِفُّه : يقولُ لَهُ اكففْ أو مَهْلاً . كنايةٌ عن شدّة استبسال الحسَن

بين يَدَيْهِ وسالَ الدَّمُ عليهِ فقامتْ زوجَتُه ((نائلة)) [1] لتتلقى عَنْهُ الضَّرب بيدِها ؛ فأصابَ السَّيفُ أصابعها فأبانَها – وهي الأصابعُ التي كان يعلّقُها معاويةُ رضي الله عَنْهُ على مِنْبَرِ الشامِ مَعَ قميصِ عُثْمانَ ليرقّقَ الناسَ – فولّت المرأةُ دهشةً . ثمَّ قُتِلَ عُثْمانُ رضي الله عنه واحتزّوا رأسَهُ ، فوقَع نساؤه عليْه وصحْن وبكيْن . فقالَ بَعْضُهم : دَعُوه فتركوه . ثم داسَ رَجُلٌ من أهل الكوفة يقال له عُمَيْرٌ [2] بن ضابىء البُرْجُميّ أضلاعَهُ فكسرَها ثم نُهِبَتْ دارُه حتى أُخذَ ما على النّساء . ثُمَّ حُمِلَ في تابوتٍ بعد أيّامٍ ليُدْفَنَ ، فقَعَدَ جماعةٌ على الطّريق يُريدُون رَجْمَهُ . فأرْسَلَ أمير المؤمنين عليٌّ – عليه السّلام – إليْهم فرَدَّهُمْ عن ذلك ، ودُفِنَ قريباً مِنَ البقيع . ثُمَّ بعد ذلك اشترى معاويةُ – رضي الله عنه – ما حَوْلَ قبره ومَزَجَهُ بمقابرِ المُسْلمين وأباحَ للناسِ الدفنَ حَوْلَهُ وكان ذلك سنةَ خَمْسٍ وثلاثين مِنَ الهجْرة ، وسمّيَ يوْمُ قتْلِهِ يومَ الدار . لأنّهُمْ هجموا عليه في داره وقتلوه بها .

مقتلُ أميرِ المؤمنين عليّ عليهِ السلام

(قال محمّدُ بنُ عليٍّ بن طباطبا صاحبُ الفخري) : نُقِلَ مِنْ عدّةِ جهاتٍ ، أنَّ أميرَ المؤمنين عليَّ بن أبي طالبٍ – عليه السّلام – كان يقولُ دائماً : ما يمنعُ أشقاكم أن يَخْضِبَ هذهِ مِنْ هذا ؟ يعني لِحْيَتَهُ بدمِ رأسِه ! وكان إذا رأى عبْدَ الرحمن [3] ابنَ مُلْجَم – لَعَنَهُ الله – يُنْشِد :

---

[1] نائلة : بنتُ الفرافصة الكلبيّة كانت خطيبةً وشاعرة وذات رأي . تزوّجها الخليفةُ عثمان بن عفان وأقامت معه في المدينة ، ودافعت عنه سيوفَ قاتليهِ حتى قطع بعضٌ من أصابع كفّها . رفضت الزواج من معاوية الذي خطبها بعد عثمان ولم تعرف سنةُ وفاتها على وجه التحديد .

[2] عُمَيْر بن ضابىء : شاعرٌ من أهل الكوفة . اقتصّ لأبيه الذي مات في سجن عثمان فمثّل بجثته حين قتل في داره . أدرك أمره الحجّاج فقتلَهُ وأنهب ماله عام /٧٥/ هـ .

[3] عبد الرحمن بن مُلْجَم : المُراديّ الحِمْيَري التدؤلي ، كان من شيعة عليّ بن أبي طالبٍ . ثم انقلبَ عليه واتفق مع اثنين هما ((البَرك)) و((عمرو بن بكر)) على قتل عليٍّ ومعاوية وعمرو بن العاص ليلة / ١٧ / من رمضان سنة / ٤٠ /هـ . تمكّن ابن مُلْجَم من جرح عليٍّ في جبهته ومات متأثراً بجرحه فقتل ابنُ مُلْجَم قِصاصاً ومثّل بهِ على غير وصية عليّ رضي الله عنه .

أُريدُ حِباءَه [1] فيريدُ قَتْلي عذيركَ [2] مِنْ خليلك مِنْ مُرادِ

(وافر)

وكان يُقالُ له إذا جَرى على لَفْظِه مِثْلُ هذا : يا أمير المؤمنينَ : فلمَ لا تَقْتُلُهُ ؟ فيقولُ : كيفَ أقتلُ قاتلي ؟ وَهذا يدلُّ على أنَّ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم –أعْلَمَهُ بِذلك في جملةِ ما أعلَمَهُ بهِ . وممّا يؤكّدُ هذا ما رُوي عنْ أنس بنِ مالكٍ [3] – رضي الله عنه – قالَ : مَرض عَليٌ – عليه السّلام – فدخلْتُ عليه أعودُهُ وعِنْدَهُ أبو بكر وعُمَر – رضي الله عنهما – فجلسْنا عِنْدَهُ ساعةً ، فأتى رسولُ الله – صلواتُ الله عليه – فنظَرَ في وَجْههِ ، فقالَ له أبو بكْرٍ – رضي الله عنه – يا نبيَّ الله : إنّا نــراه مـائتـاً فقالَ : ((لن يموت هذا الآن ، ولن يموت حتّى يملأ غَيْظاً ولَنْ يموتَ إلا مقْتولاً)) . وكان عليٌّ – عليه السّلام – دائماً يُحْسِنُ إلى ابْنِ مُلْجَم لَعَنَهُ الله . قالوا : فلما دَخَلَ شَهْرُ رَمضانَ منْ سنةِ أربعين ، كانَ عليٌّ – عليه السّلام – يفطرُ ليلةً عِنْدَ الحَسَنِ وليلةً عِنْد الحُسَيْن ، وليلةً عنْدَ ابن أخيهِ عبد اللهِ بنِ جَعْفَر الطيّار عليْهِمُ السلام ، فإذا أكلَ لا يزيدُ على ثلاثِ لُقَمٍ ويقولُ : إنّما هي ليلةٌ أو ليلتان ، ويأتي أمرُ الله وأنا خميص . فلم يمْضِ إلا ليالٍ قلائلُ حتّى قُتِلَ عليه السلام . وقيل : إنّه قُتِلَ في شَهْرِ ربيعِ الآخر . والأوّل أصحُّ وهو المُعوّلُ عليه .

وأما كيفيّة قتلِهِ – عليه السّلام – : فهيَ أنه خرج من دارِهِ بالكوفةِ أوّلَ الفجر فجعل ينادي : الصلاةَ يرحمكُمُ اللهُ فضربهُ ابنُ مُلْجَم – لعنهُ الله – بالسيفِ على أُمِّ رَأسِهِ وقالَ : الحكمُ لله لا لَكَ يا عليّ ، وصاحَ الناسُ وهربَ ابنُ مُلْجَم ، فقال أمير المؤمنين . لا يفوتكم الرجل ؛ فشد الناسُ عليه فأخذوه ؛ واستناب عليٌّ – عليه السّلام – في صلاة الصبحِ بعضَ أصحابه وأُدْخِل دارَهُ فقال : أَحْضِروا الرَّجلَ

---

[1] حِباءَه : مراعاتَهُ وإكرامَهُ .

[2] عذيرك : بلغتَ عُذْرَك .

[3] أنسُ بنُ مالكٍ : الخزْرجي الأنصاري صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخادِمُه . روى عنه الكثيرَ من أحاديثهِ . لازمَ صحبة رسول الله إلى أن قبض فرحل إلى دمشق ثمّ إلى البصرة ومات فيها حوالي / ٩٣ / هـ .

عندي ، فلما حضر عنده قال له : يا عدوّ الله ، ألم أُحْسِنْ إليك ؟ قال : بلى ، قال فما حملك على هذا ؟ قال : شحذْتُه أربعين صباحاً ، وسألتُ الله أن يقتل به شَرَّ خَلْقِهِ ، فقال أميرُ المؤمنين ((لا أراك إلا مقتولاً بِهِ ، ولا أراك إلا مِنْ شرِّ خلقِ الله)) ثم قال عليه السلام : ((النَّفسُ بالنَّفس إنْ هَلَكْتُ فاقتلوه كما قتلني ، وإنْ بقيتُ رأيتُ فيه رأيي . يا بني عبد المطَّلب : لا تجمَعُوا منْ كل صوبٍ تقولون : قُتِلَ أميرُ المؤمنين . ألا لا يقتلن بي إلا قاتلي)) ثم التفت إلى ابنه الحسن – عليه السَّلام وقال : ((انظُرْ يا حَسَنُ إذا أنا مُتُّ منْ ضربتي هذه فاضربْه ضربةً بضربةٍ ، ولا تُمثِّلن بالرَّجلِ ، فإني سمعتُ رسول الله – صلوات الله عليه – يقول : ((إياكم والمُثْلة [1] ولو بالكلبِ العقور [2])) . ثمّ وصّى بَنيه بتقوى الله تعالى وبإقامةِ الصلاةِ لوقتِها . وإيتاءِ الزكاة عِنْد محلِّها ، وحُسْن الوضوء ، وغفْرِ الذنبِ وكَظْمِ الغَيْظِ ، وصِلَةَ الرحِم ، والحِلْم عن الجاهل ، والتفقّهِ في الدين ، والتثبّتَ للأمرِ والتعاهدِ للقرآنِ ، وحُسْنِ الجوارِ ، والأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المُنْكر ، واجتنابِ الفواحش . ثم كَتَبَ وصيّتَهُ ولمْ ينْطقِ إلا بلا إله إلا الله حتّى قُبِضَ – صلواتُ الله عليه وسلامُهُ – فلما قُبِضَ بعثَ الحَسَنُ – عليه السلامُ – إلى ابنِ مُلْجَم فأحضَرَهُ ، فقالَ للحسَنِ : هل لكَ في أمرٍ ؟ إنّي واللهِ قدْ أعْطيْتُ الله عهْداً ألا أعاهِدَ عَهْداً إلا وفيتُ بِهِ . وإني عاهدتُ اللهَ عندَ الحطيمِ [3] أن أَقْتُلَ عليّاً ومُعاويةَ أو أموتَ دونهما . فخلِّ بيني وبينَ معاويةَ حتّى أمضيَ وأقتلَهُ ولك عهدُ اللهِ على أنّي إنْ لم أقتلْه أو قتلتُهُ وسلِمْت ، أن أجيءَ إليكَ حتّى أضعَ يدي في يدك)) فقالَ الحسنُ : لا واللهِ حتّى تذوقَ النارَ . ثم قدّمَهُ فقتله ، وأخذهُ الناسُ فأدرجوه [4] في بواريء [5] وأحرقوه بالنار .

---

[1] المُثْلة : التنكيل والتعذيب في إنفاذ القتل .

[2] العَقُور : صفة للكلب الهائج المؤذي ، العضّاض .

[3] الحطيم : موقع بجوار الكعبة

[4] أدرَجوهُ : لفّوه .

[5] البَواريء : الأستار ، قد تكون من عيدانٍ وقصبٍ .

وأما مدفنُ أميرِ المؤمنين عليهِ السّلامُ : فإنه دُفِنَ لَيْـلاً بـالغريّ [1] ، ثـم عفـا قَبْرُهُ إلى أن ظهرَ حَيْثُ مشهده الآن (صلواتُ الله عليه وسلامُهُ) .

وأمّا السَّبَبُ الذي حمل ابنَ مُلْجم - لعنهُ الله - على قتْله ، فهو أن ابنَ مُلْجَم كان أحدَ الخوارجِ ، فاجتمع برجلين منَ الخوارج ، وتذاكروا منْ قتَلَ أميرَ المؤمنيـنَ (عليه السلام) منهُمْ بالنّهروان . وقالوا : ما في الحياةِ بعد أصْحَابِنَا نفْعٌ ؛ وتواعدوا على أنْ يَقْتُل كلُّ واحدٍ منهم واحداً من ثلاثة : عليّ بن أبي طالب ، ومُعاوية وعمرو ابنَ العاص (رضي الله عنهم) فقالَ ابنُ مُلْجم : أنا أكفيكُمْ عليًا ، وقال الآخـرُ : أنـا أكفيكُمْ مُعاويةَ وقال الآخرُ : أنا أكفيكُمْ عمْرا . فأما ابنُ مُلْجـم لعنـه اللـه : فإنّـهُ رأى امرأةً جميلةً من بناتِ الخوارج فهويَها فخطبها فقالتْ لهُ : أريد كذا وكذا ، وأريـدُ أن تَقْتُلَ عليَّ بن أبي طالبٍ ، فقالَ لها : ما جئتُ إلا لقتلِهِ ، والتزم لها أن يقْتُلَهُ ، ثم قتَلَهُ وقُتِلَ بَعْدَهُ . واما الآخَرُ فإنّه مضى إلى مُعاوية فقعد لهُ حتّى خـرج فضَرَبَـهُ بالسيفِ على فخذِهِ فَلَمْ يَصنَعْ طائلاً . وتطبَّبَ لها معاويـةُ فـبرِىءَ وقتـل الرجـل ، وقيـلَ ، لـم يَقْتُلْهُ . وأما الآخر فمضى إلى مصْرَ لقتل عمرو بـنِ العـاصِ فقعـد لـهُ ، فـاتفقَ أنَّ عَمْراً انحرَفَ مِزاجُه في تلك الليلة ، فلمْ يخرُج في صبيحتِهـا إلـى الصـلاة واسـتنابَ بعضَ أصحابِهِ فلما طلعَ اعتقَدَهُ الرجلُ عَمْرا فضربَهُ فقتله ، فقبضوه وأحضروه إلـى عمْرو ، فلما رأى الناسَ يُسلّمونَ عليه بالإمـارة قالَ منْ هذا ؟ قالوا : الأمـيرُ عمـرو ابنُ العاص ، قالَ : فمن قتَلْتُ ، قالوا : نائبه . وكان اسمُهُ خارجَةَ فقال الرجلُ لِعمرو ابنِ العاص : أما واللهِ يا فاسقُ ما أردتُ غيْرَك ! فـقال عمـرو : أردتَنـي وأراد اللهُ خارجَةَ . ثم قَدَّمَهُ عمرٌو فقتَلَهُ . ولما بلغَ عائشةَ (رضي الله عنها) قتل علـيٍّ عليـه السلام قالتْ :

فألقتْ عصاها واستَقرَّ بِها النَّوى   كما قَرَّ عَيْناً بالإيابِ المُسافِرُ [2]

(طويل)

---

[1] الغريّ : موقع قريبٌ من الحيرة بظاهرِ الكوفة .

[2] أرادتْ عائشة (رضـي اللـه عنهـا) أن تقول : إنـه اسـتراح بـالموت كمـا يسـتريحُ المسـافرُ بوصوله إلى حيث يستقر .

الدولة الثانية :

الدولة الأموية

وهيَ التي تسلّمت الملك من الدولةِ الأولى

لما قُتِلَ أميرُ المؤمنينَ – صلواتُ الله عليه – بايعَ الناس الحَسَنَ بنَ علـيٍّ – عليهمـا السـلام – فمكـثَ شـهوراً حتـى اجتمـع هـو ومعاويـة ، فتصالحـا للمصلحـة الحاضِرة التي كان الحسنُ – عليه السلام – أعلَـمَ بِهـا ، وسـلّم الخِلافـة إليـه وتوجّـهَ نحوَ المدينة . وبويعَ معاويةُ – رضـي اللـه عنـه – بالخِلافـة العامّـة ، ودُعِـي بـأميرِ المؤمنين ، وذلك في سنةِ أربعين من الهجرة .

ذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ سيرةِ مُعاوية ، وَوَصفُ طَرَفٍ مِنْ حالِهِ

هو مُعاويةُ بنُ أبي سُفيان ، صخرُ بنُ حرب بنِ أميّةَ بنِ عبد شمسِ بنِ عبدِ مَنافٍ كان أبوه أبو سفيان أحَد أشـياخِ مكّـة ، أسـلمَ فـي السـنةِ التـي فتَـح الرسـولُ – صلى الله عليه وآله وسلم – فيها مكّة . وأسلمَ معاويةُ وكتَبَ الوَحْـيَ فـي جملـة مـن كتَبةُ بين يدي الرسول – صلى الله عليه وآله وسـلم – وكـانتْ أُمُّـهُ هنْـدُ بنـتُ عُتْبَـة شريفةً في قريش أسلمتْ عامَ الفَتْح ، وكانتْ في وقعـةِ أُحُد . لمـا صـرِعَ حمـزةُ بـنُ عبد المطّلب – رضي الله عنه – عمُّ رسولِ الله – صلى الله عليه وآله وسلم – مِنْ طَعنَةِ الحربةِ التـي طَعنَهـا . جـاءتْ هنـدُ فمثّلـتْ بحمـزةَ ، وأخـذتْ قِطْعـةً مِـنْ كَبِـدِهِ فمضغتها خُنُقاً عليه ، لأنّه كانَ قد قَتَلَ رجالاً من أقاربها . فلذلـك يقـالُ لمعاويـةَ ابـنُ آكلةِ الأكبادِ .

ولمّا فتَحَ النبيُّ – صلى الله عليه وآله وسلم – مكّةَ ، حضـرتْ إليـه متنكّـرةً في جُمْلَةِ نساءٍ من نسـاءِ مكّـة أتينَ لمبايعتـه . فلمـا تقدّمـتْ هنْـدُ لمبايعتـه اشـترطَ – صلواتُ الله عليه وآلـهِ – شُروطَ الإسْلام عليهـا ، وهـو لا يعلمُ أنّهـا هنْـدُ فأجابتْـهُ بأجوبةٍ قويةٍ على خوْفِها مِنْهُ ، فلما قالَ لها وقـالت ، قـالَ لهـا – صلـواتُ اللـه عليـه

وآله وسلم – : ((تبايعنني على ألا تقتُلنَ أولادكنْ ؟)) وكـانوا فـي الجاهلية يقتلـونَ الأولاد – فقالتْ هِندُ : ((أمّا نحنُ فقد ربيناهُمْ صِغاراً وقتلتهم كباراً يومَ بدْرٍ)) فقالَ : ((وعلى ألا تعصينني في معْروفٍ ؟)) قالت : ((ما جلسْنا هذا المجلسَ وفي عزمِنا أن نعْصيَك)) قالَ : ((وعلى ألا تَسْرِقْنَ ؟)) قالَتْ : ((واللهِ ما سَرَقتُ عمري شيئاً ، اللهمَّ إلا أنني كنتُ آخذُ من مالِ أبي سفيان شيئاً في بعضِ الوقْت)) وكان أبو سفيان زوجُها حاضراً ، فحينئذٍ علم رسولُ اللهِ – صلى الله عليه وآله وسلم – أنّها هِنْدُ ، فقالَ هِنْدُ ؟ قالتْ : نعم ، يا رسولُ اللـه ! فلم يقُلْ شيئاً لأن الإسْلامَ جبُّ [1] ما قبْلَهُ . وأما مُعاويةُ – رضي الله عنه – فكانَ عاقلاً في دنياه ، لبيباً عالماً حليماً ، ملكاً قويّاً ، جيّدَ السياسة حسن التّدبيرِ لأُمورِ الدنيا ، عاقلاً حكيماً فصيحاً ، بليغاً يحلم في موضع الحلم ، ويشتد في موضع الشدة ، إلا أن الحلم كان أغلب عليه . وكان كريماً باذلاً للمال ، محبّاً للرياسة مشغولاً بها . كان يفْضُلُ على أشرافِ رعيته كثيراً . فلا يزال أشرافُ قريش مثلُ عبدِ الله بنِ العبّاس ، وعبدِ الله ابنِ الزبير ، وعبدِ الله بنِ جعْفَر الطيّار وعبد الله بن عمر ، وعبدِ الرحمن بن أبي بكر ، وأبان بنِ عثمانَ بن عفّان ، وناس من آلِ أبي طالبٍ – رضي الله عنهم – يَفِدونَ عليهِ بدمَشْقَ فيكرمُ مثواهُم ، ويُحْسِنُ قِراهم ، ويَقْضي حوائجَهُمْ ولا يزالون يحدّثونَهُ أغلظَ الحديثِ ويَجْبهونه أقبحَ الجبه [2] ، وهْوَ يُداعبهم تارةً ، ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يُعيدُهم إلا بالجوائزِ السنيّة ، والصِّلاتِ الجمّة ، قالَ يوماً لِقيْسِ بنِ (سَعْدِ بن عُبادة) [3] – رضي الله عنه – وهْوَ رجلٌ مِنَ الأنصار : ((يا قيسُ واللهِ كنتُ أودُّ أنْ تنكشِفَ الحروبُ التي كانت بيني وبين عليٍّ – عليه السّلام – وأنتَ حيٌّ)) فقالَ قيْسٌ : (واللهِ إني كنتُ أكرهُ أن تنكشف تلك الحروبُ وأنتَ أميرُ المؤمنين)

---

[1] جَبَّ ما قبْلَهُ : أزالهُ وأجْلاهُ .

[2] الجَبْهُ : المواجهة بالجبهة ، الاستقبال وجهاً لوجه .

[3] سعد بن عُبادة : سيّد قبيلة الخزرج . أسلم وشهد غزوات العقبة وأُحُد والخندق . أقامَ بالشام مُهاجراً ومات بحوران . وقيس بن سعد هو ولده ، وكان ذا دالّةٍ على الأمويين بشرف نسبه الأنصاريّ الخزرجي .

فلم يقلْ له شيئاً . وهذا من أجلِ ما كانوا يخاطبونه بهِ ! .

وبعثَ إلى رجلٍ من الأنصار بخمسمائة دينار فاستقلها الأنصاريّ ، وقالَ لابنهِ : خُذْها وامضِ إلى معاوية ، فاضربْ بها وجهه ، ورُدّها عليه . وأقْسم على ابنه أن يفعل ذلك . فجاء ابنهُ إلى معاوية ومعه الدراهم ، قال : يا أميرَ المؤمنين : إن أبي فيهِ حدّة وسُرْعة . وقد أمرني بكيْتَ وكيْت ، وأقْسم عليّ ، وما أقدرُ على مخالفته . فوضع معاويةُ يدهُ على وجههِ وقال : افعلْ ما أمرك أبوك وارفقْ بعمّك . فاستحيا الصبيُّ ورمى بالدراهمِ ، فضاعفَها مُعاويــةُ وحملَها إلى الأنصاري . وبلغ الخبرُ يزيدَ ابنه ، فدخلَ على مُعاويةَ غضبان وقال : ((لقد أفرطْتَ في الحلم حتّى خِفْتُ أن يُعَدَّ ذلك منكَ ضعفاً وجُبْناً)) فقال معاويةُ : ((أيْ بُنيّ : إنه لا يكونُ مع الحِلْم ندامة ولا مذمّة ، فامضِ لشأنكَ ، ودَعْني ورأيي)) وبمثل هذه السيرةِ صار خليفةَ العالم وخضعَ لهُ منْ أبناء المهاجرين والأنصار ، كلُّ منْ يعتقد أنه أولى منْهُ بالخِلافةِ . وكانَ مُعاويةُ – رضي الله عنه – منْ أدْهى الدهاة : رُويَ أنَّ عُمرَ بنَ الخطّابِ – رضي الله عنه – قالَ لجُلسائه : تذْكرون كِسْرى وقيْصر ودَهاءَهُما ، وعندكُمْ معاويةُ ؟ ! ومنْ دَهائهِ ما اعتهده منْ استمالةِ عَمْرو بنِ العاص . وكان عَمْرُو بنُ العاص أحدَ الدهاة ، وكان أوّلَ ما نشبت الفتنة بين أمير المؤمنين عليٍّ – عليه السّلام – ومعاويةَ معتزلاً للفريقين ، فرأى معاويةُ أن يستميلهُ ويتقوّى برأيهِ ، وَدَهائهِ ومكْرِه فاستمالَهُ ووصلَ حبْلهُ بحبلِه [1] وولاهُ مصْر ودخلَ معهُ في تلكَ المداخِلِ ، وفعلَ في صفّينَ تلك الأفاعيل . ولم يكنْ بيْنهُما مع ذلك مودّةٌ قلبيّةٌ ، وكانا يتباغضانِ سرّاً ، وربّما ظهر ذلك على صفحات وُجوهِهما . . وفلتات ألْسِنتِهما : طلبَ أميرُ المؤمنين – عليه السّلام – في صفّين [2] منْ مُعاويةَ أن يخرج إلى مبارزته فقالَ له عمرو بن العاص – رضي الله عنه – : قد أنصفكَ ولا يحسن بكَ النكول عن مبارزته فقال له معاوية : غششتني وأحْببْتَ قتلي . ألستَ تعلم أن ابن

---

[1] وَصَلَ حَبْلَهُ بِحَبْلِهِ : كناية عن العلاقة والاتّصال .

[2] صفّين : معركة سبق ذِكْرُها ، وقعت بين عليٍّ وأنصاره من جهةٍ وبين معاوية وأنصاره من جهة أخرى . وأعقبها قبولُ عليٍّ للتحكيم مُكْرَهاً . وكان ذلك عام / ٣٧ / هـ .

أبي طالبٍ لا يبرزُ لهُ أحدٌ إلا قتلَهُ ؟ ! .

وقال معاويةُ يوماً لجلسائه : ما أعجبُ الأشياءِ ؟ فقال يزيدُ : أعجبُ الأشياء هذا السّحابُ الراكدُ بينَ السماءِ والأرض ، لا يدْعمه شيءٌ منْ تحته ، ولا هو منوطٌ بشيءٍ مِن فوقه . وقالَ آخرُ : أعْجَبُ الأشياء حظٌّ ينالُهُ جاهل ، وحرمانٌ يناله عاقل . وقال آخر : أعجبُ الأشياءِ ما لَمْ يُرَ مثْلُهُ . وقالَ عمرُو بن العاص : أعجبُ الأشياءِ أن المُبْطِلَ يَغلبُ المحقَّ (يعرِّضُ بعليٍّ عليه السلامُ ومعاوية) فقالَ مُعاويةُ بل أعجبُ الأشياء أنْ يُعْطى الإنسانُ ما لا يستحقُّ إذا كان لا يُخافُ . (يعرض بعمرٍو ومصر) فَنَفثَ كلٌّ مِنْهُما بما في صدره من الآخر ! .

واعلمْ أنَّ معاويةَ كانَ مربّيَ دُوَلٍ ، وسائسَ أُمَمٍ ، وراعي ممالك . ابتكرَ في الدولة أشياءَ لم يسبِقْهُ أحدٌ إليها ، منها : أنّهُ أوّلُ من وضع الحشم للملوك ، ورفعَ الحِرابَ بَيْنَ أيديهِمْ ، ووضعَ المقصورة التي يصلّي الملك أو الخليفة بها في الجامع منفرِداً مِنَ الناس . وذلك لخوفِهِ ممّا جرى لأميرِ المؤمنين – عليه السّلام – فصارَ يُصلّي منفرداً في مقصورةٍ ، فإذا سجد قامَ الحرسُ على رأسه بالسيوف . وهو أوّلُ مَنْ وَضَعَ البريدَ لوصولِ الأخبارِ بسرعةٍ .

كلامٌ في معنى البريد

البريدُ : أن يُجْعَلَ خيلٌ مُضمّراتٌ في عدّة أماكنَ ، فإذا وَصلَ صاحبُ الخبرِ المسرِعُ إلى مكانٍ منها ، وقد تعبَ فرَسُهُ ، ركبَ غيرَهُ فرساً مُسْتريحاً . وكذلك يفعلُ في المكانِ الآخر حتّى يصلَ بسرعةٍ . وأمّا معناه اللغويّ : فالبريدُ هو اثنا عشر ميلاً . وأظنُّ أن الغاية التي كانوا قدّروها بينَ بريدٍ وبريد ، هي هذا القدْر . وقال الصاحبُ علاءُ الدينِ عَطا مَلِك في جهان كشاي : ((ومن جُمْلة الأشياءِ وَضْعَهُمْ البريدَ بكلِّ مكانٍ طلباً لِحِفْظِ الأموال ، وسُرْعة وصول الأخبار ومتجدِّداتِ الأحْوالِ)) وما أرى للبريدِ فائدةً سِوى سرعةِ وُصولِ الأخبار فأمّا حفْظُ الأموالِ فأيُّ تعلّقٍ له بذلكَ ؟ ! .

وممّا اخترعَ معاويةُ – رضي الله عنه – منْ أمورِ المُلْك : ديوانُ الخاتم . وهذا ديوانٌ معتبرٌ من أكبر الدواوين ، ولم تزل السنّةُ جارية به إلى أواسط دولةِ بني العبّاسِ فأُسقِطَ ، ومعناهُ : أن يكون ديوانٌ ، وبه نوّاب فإذا صدر توقيعٌ منَ الخليفةِ بأمرٍ منَ الأمورِ ، أحضر التوقيع إلى ذلك الديوان ، وأثبتَتْ نسختُهُ فيهِ ، وحُزِمَ بخيطٍ وخُتِمَ بِشَمْعٍ – كما يُفْعلُ في هذا الزمان بكُتبِ القُضاة – وخُتِم بخاتمِ صاحبِ ذلك الديوان .

وكانَ الذي حملَ معاويةَ – رضي الله عنه – على اختراعِ هذا الديوانِ ، أنّهُ أحالَ رَجُلاً على زياد بن أبيه أميرِ العراق بمائة ألفِ درْهم ، فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتابَ (وكانت تواقيعُهم تَصْدُرُ غيرمختُومة فجعلَ المائة مائتين) فلما رَفَعَ زيادٌ حِسابَهُ إلى مُعاويةَ – رضي الله عنه – أنكر مُعاويةُ ذلك ، وقال : ما أحلتُه إلا بمائةِ ألفٍ ، ثم استعادَها مِنْهُ ووضعَ ديوانَ الخاتمِ ، فصارتْ التواقيعُ تصدرُ منه مختومةً ، لا يدري أحدٌ ما فيها ، ولا يتمكّن أحدٌ من تغييرها . وكانَ مُعاويةُ – رضي الله عنه – مصروفَ الهمّةَ إلى تدبير أمْرِ الدنيا ، يهونُ عليه كُلُّ شيءٍ إذا انتظم أمْرُ المُلْكِ . فانْظرْ إلى وصْفِ عبد الملك بنِ مروانَ له ، فإنه لحظ فيه هذا المعنى . قالوا : إنّ عبدَ الملك بنَ مروانَ مرَّ بقبر مُعاويةَ – رضي الله عنه فترحّمَ عليهِ ، فقالَ له رجلٌ : قبرُ منْ هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : ((قبْرُ رجلٍ كانَ واللهِ فيما عَلِمتُهُ ينطقُ عنْ علْمٍ ، ويَسكُتُ عنْ حلْم . كانَ إذا أعْطى أغْنى وإذا حاربَ أفنى)) وَوَصفَهُ أيضاً عبدُ اللهِ بنُ العباس – وكان من النقّاد – فقال : ((ما رأيتُ أليقَ منْ أعْطافِ [1] مُعاوية بالرّياسةِ والمُلْكِ)) . وقال له بعضُ بني أمية : ((واللهِ لو قدرت أن تستكثِرَ [2] بالزّنْجِ لاستكْثَرْتَ بهم لينتظمَ لكَ أمْرُ المُلْك)) .

وكان مُعاويةُ – رضي الله عنه – نهماً شَحيحاً عنْد الطْعامِ ، على كَرَمِهِ وسَماحتِهِ . فأمّا نَهمُهُ . فقالوا : إنه كانَ يأكلُ في كلّ يومِ خمس أكلاتٍ أخرُهُنَّ

---

[1] الأعطاف : الأكتاف ، وهي أبرزُ مواضع الثوب من البدن .

[2] تستكثر : تُكثِّر أعْوانَكَ وجُنْدَكَ .

أغلَظُهنّ [١] ، ثمّ يقولُ : يا غلامُ : ارفعْ فوالله ما شَبِعْتُ ، ولكن مللْتُ . ورُوِيَ أنه أُصلِحَ له عِجْلٌ مَشْوِيٌّ فأكل معَهُ دستاً [٢] من الخبز السَميذ [٣] ، وأربع فراني [٤] وجَدْياً حاراً ، وآخر بارداً سوى الألوانِ ووُضِعَ بين يديه مائةُ رطْلٍ من الباقِلي [٥] الرُطْبِ فأتى عليه وأما شحّه على الأكْلِ : فإنّ ابن أبي بكرة دخلَ عليه ومَعَهُ ابنُهُ ، فجعلَ ابنهُ يأكلُ أكلاً مُفْرطاً ، ومعاوية يلحظُهُ وفطِنَ ابنُ أبي بكرة لحنق مُعاوية - رضي الله عنه - ففي الغد حَضَرَ الأبُ وليس معهُ ابنهُ ، فقال له معاويةُ : ما فعلَ ابنُكَ ؟ قال : يا أميرَ المؤمنين : انحرفَ مزاجُهُ . قالَ : قد علِمْتُ أنّ تلكَ الأكْلَة ما كانت تتركُه حتى تهيضَهُ وها هُنا موضعُ حكايةٍ حسنة ، تدلُّ على كرمٍ ومُروءةٍ ونُبْلٍ : : كان بعضُ الوزراءِ مشغوفاً بالأكلِ ، ويُحبُ كلَّ منْ يأكلُ معهُ وكلُ من كانَ أكثرَ أكلاً كانَ أقربَ إلى قلبهِ فاتّفقَ أنه قصدهُ بعضُ الأكابرِ من العلويّين وَكلَ عليهِ [٦] وجوهاً من خراجٍ وضمانٍ وغيرِ ذلك ، وطَلَبَهُ بها ، فوكل عليهِ في نفْسِ دارِهِ أعني دارَ الوزير . ففي بعض الأيّام مُدَّ السَماطُ بين يدي الوزير ، فقال العلوي للموكلين به : إنّي جائع ، فهل تأذنون أنْ أخْرُجَ إلى السّماط وأنتم معي ، فآكلَ وأعودَ إلى هذا الموضع ؟ وكانَ العلويُّ قد فَطِنَ لطَبْعِ الوزير في ذلك ، فاستحْيُوا منه ، وأذِنوا لَهُ في ذلك فخرجَ ، وجَلَسَ في أخرياتِ السّماط وجعلَ يأكلُ بينهم فلحظه الوزيرُ وهو مقبلٌ على الأكل ، فاستدناه ورَفَعَهُ إلى صدْرِ المجلس وقدّمَ له من أطايبِ ذلك الطعام . ولما بالغَ في الأكلِ زادتْ بشاشةُ الوزير وطلاقتُهُ . فلمّا رُفِعَ الطعامُ استدعى الوزيرُ كانوناً فيه نار ، وأحضرَ الحسابَ الذي رُفِعَ على الرجل بهِ ، وقالَ : أيُها السيّد : قد أراحَكَ اللهُ من هذا المال ، وأنتَ في

---

[١] أغلظ الأكلات : أدْسَمُها وأثقلها على المعدة .

[٢] دَسْتاً : مجموعةً ، والكلمة فارسية آلت إلى دستة في الاستعمال الدارج .

[٣] السَّميذ : الدقيق الأبيض .

[٤] الفرانيّ : أقراص الخبز السَّميك المستدير .

[٥] الباقِلّى : الفُول .

[٦] وَكَلَ عليه : فَرضَ عليه .

حِلٌ منه ووالله وحقِّ جَدِّكَ - صلواتُ الله عليه - ليس عندي بهذا الحساب ولا في الديوان به غيرُ هذه النُسْخة . ثم ألقاها في الكانون فاحترقت وأفرج عنه وأذِنَ له في الرَّواح إلى منزلِه .

وكانت وفاةُ معاوية رضي الله عنهُ في سنةِ ستّين من الهجْرة . ولما أدركتْهُ الوفاةُ أوْصى إلى ابنه يزيدَ وصيّةً تدلُّ على عقْله ولبّه ، وخبْرَته بالأمورِ ومعرفتِهِ بالرِّجالِ فلم يَعْمَلْ يزيدُ بشيءٍ منها وقد أثبتها ها هنا لحُسْنها وسدادها .

قالوا : لمّا مَرِضَ معاويةُ - رضي الله عنه - مَرَضهُ الذي ماتَ فيه ، دعا ابنهُ يزيدَ فقال له : ((يا بُنيّ ! إنّي كفيتُكَ الشدَّ والترحال ، ووطّأتُ لكَ الأمورَ ، وذلّلتُ لكَ الأعداءَ ، وأخضعْتُ لكَ رقابَ العرب ، وجمعتُ لك ما لم يَجْمَعْهُ أحد . فانظُرْ أهلَ الحجاز فإنّهُمْ أصلُكَ ، فأكرِمْ من قدم عليك منْهُمْ وتعهَّدْ مَنْ غابَ ، وانظُرْ أهلَ العراق فإن سألوكَ أن تعزلَ كلَّ يومٍ عاملاً فافعلْ ، فإنَّ عزلَ عاملٍ أيسرُ مِنْ أن يُشْهَر مائةُ ألفِ سيفٍ . وانظُرْ أهل الشام ، وليكونوا بطانَتَكَ ، فإن رابكَ من عدوِّكَ شيءٌ فانتصرْ بهمْ ، فإذا أصبتَهُمْ فارددْ أهلَ الشام إلى بلادِهِم ، فإنّهم إن أقاموا بها تغيَّرتْ أخلاقُهُم وإنّي لستُ أخافُ عليكَ أن ينازعَكَ في هذا الأمر إلا أربعةٌ مِنْ قُريش : الحسين بن عليّ وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنهم - فأما ابنُ عمر : فرجُلٌ قد وقذتهُ [1] العبادةُ ، وإذا لم يبقَ أحدٌ غيرُهُ بايَعَكَ . وأمّا الحسينُ بنُ عليٍّ : فهو رَجُلٌ خفيفٌ ، ولن يتركه أهلُ العراقِ حتى يُخرجوه . فإنْ خرَج وظفرت به فاصفحْ عنهُ فإن له رَحِماً ماسّةً ؛ وحقّاً عظيماً ، وقرابةً من محمّد صلواتُ الله عليه وسلامُه . وأمّا ابنُ أبي بكرٍ ، فإنْ رأى أصحابهُ صنَعوا شيئاً صنَع مثْلهُ . ليستْ له همّةٌ إلا في النّساءِ واللهو . وأما الذي يجثم لك جثُوم الأسد ويُراوِغُكَ مُراوغةَ الثعلب ، فإن أمكنتهُ فرصةٌ وثبَ فذاك ابنُ الزّبير . فإنْ هوَ وثبَ عليكَ فظَفِرْتَ به فقطّعْهُ إرْباً إرْباً واحقنْ دماء [2] قَوْمِكَ ما استَطَعْتَ .

---

[1] وقذته العبادة : أضنتْ جَسَده . غلبتْهُ وتركتْهُ عليلاً . [2] حقن الدماء : وفّرها ولم يُرِقْها .

وفي هذهِ الوصيَةِ دليلٌ على ما سبقَ منْ وفور رغبتِه في تدبيرِ المُلْكِ ، وشدّةِ كَلَفِهِ بالرّياسةِ .

ثمَّ ملكَ بَعْدَهُ ابنُه يَزِيدُ

كانَ موفَّرَ الرغبةِ في اللهوِ والقَنْصِ ، والخمْرِ والنساءِ والشِّعرِ . وكانَ فصيحاً كريماً شاعراً مُفْلِقاً [1] . قالوا : بُدِىءَ الشِّعْرُ بملكٍ ، وخُتِمَ بملك . إشارةً إلى امرىءِ القيسِ وإليه ، فمن شعره :

جاءَتْ بوجهٍ كأنَّ البدرَ برقَعَهُ [2] نوراً على مائِسٍ [3] كالغُصْنِ مُعْتَدِلِ
إحدى يديها تعاطيني [4] مُشَعْشَعةً [5] كخدِّها عَصْفَرَتْهُ [6] صِبغةُ الخَجَلِ
ثمَّ استبدَّتْ وقالتْ ، وَهْيَ عالِمةٌ بما تقولُ وشمسُ الراحِ لم تَفِلِ [7]
لا تَرْحَلَنَّ فما أبقَيْتَ مِنْ جَلَدي ما أستطيعُ بهِ تَوْديعَ مُرتحلِ
ولا مِنَ النَّومِ ما ألقى الخيالَ بهِ ولا مِنَ الدَّمْعِ ما أبكي على الطللِ

كانَتْ وِلايَتُه على أصحِّ القَولَيْنِ ثلاثَ سنينَ وستّةَ أشهرٍ . ففي السنةِ الأولى قَتَلَ الحُسَيْنَ بنَ عليٍّ عليهما السلامُ ، وفي السنةِ الثانيةِ نَهَبَ المدينةَ وأباحها ثلاثةَ أيّامٍ وفي السنةِ الثالثةِ غَزا الكَعْبَةَ .

فَنَبْدَأُ بِشَرْحِ قَتْلِ الحُسَيْنِ عليهِ السَّلامِ .

شرحُ كَيْفيَةِ الحالِ في ذلك على وَجْهِ الاختصار

هذهِ قضيّةٌ لا أُحِبُّ بَسْطَ القولِ فيها استعظاماً لها واستفظاعاً ، فإنها قضيّةٌ لم يجرِ في الإسلامِ أعظم فُحْشاً منها . ولعمري إنَّ قتلَ أميرِ المؤمنين – عليه السَّلام – هو الطامّةُ الكبرى ، ولكنَّ هذه القضيّةَ جرى فيها من القتلِ الشنيعِ والسيء ، أو

---

[1] الشاعر المفْلِق : الحاذِقُ في نظمه وصنعتِهِ .

[2] برقَعَهُ : جَعَلَ له بُرْقُعاً . غطّاهُ .

[3] المائس : الميّال الغصن ، وقصد بهِ القدّ . [4] تُعاطيني : تناولني الشراب أو الكأس .

[5] المُشَعْشَعَة : الممزوجة . [6] عَصْفَرَتْهُ : صبغته بلون العُصْفر . والعصفر : صِبْغٌ أصفرُ اللون ومورّد . [7] لم تَفِلْ : لم تأفل ، لم تَغِبْ .

التمثيلِ ما تقشعرُ لهُ الجلود . واكتفيتُ أيضا عنْ بَسْطِ القول فيها بشُهْرتها ، فإنها أشْهَرُ الطامّاتِ . فلعَنَ اللهُ كلَّ من باشرَها وأمرَ بها ، ورضي بشيء منها ولا تَقَبَّل اللهُ منهُ صرْفاً ولا عدْلاً وجعلَهُ مِنَ ﴿ **الأخْسَرين أعمالاً . الذينَ ضلَّ سَعْيُهُمْ في الحياةِ الدُّنيا وهم يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً** ﴾ [1] . وجُمْلَةُ ما جرى في ذلك : أن يزيدَ - لَعَنَهُ الله - لمّا بُويعَ لم يكنْ لهُ همٌّ إلا تحصيلُ بَيْعةِ الحُسَيْنِ - رضي الله عنه - والنَّفرِ الذي حذَّرَهُ أبوه منهم . فأرْسَلَ إلى الوليد بنِ عُتْبةَ بن أبي سفيان وهو يومئذٍ أميرُ المدينةِ ، يأمُرُهُ بأخذِ البيعةِ عليهم . فاستَدْعاهُمْ فحضرَ الحسينُ - عليه السَّلام - عِنْدَه ، فأخبرَهُ بمَوْتِ مُعاوية - رضي الله عنه - ودَعاهُ إلى البيعةِ . فقالَ لهُ الحُسَيْنُ - عليه السَّلام - ((مِثْلي لا يُبايعُ سِراً ، ولكنْ إذا اجْتَمَعَ الناس ، نظرْنا ونظرتَ)) ثم خرجَ الحسينُ - عليه السلام - من عنده وجمعَ أصحابَهُ ، وخَرَجَ مِنَ المدينةِ قاصداً مكّةَ متأبياً من بيعة يزيد ، آنِفاً منَ الانخراطِ في زُمْرةِ رعيّتِهِ . فلمّا استقرَّ بمكّةَ اتَّصلَ [2] بأهلِ الكوفةِ تَأبِّيهِ مِنْ بَيْعةِ يزيدَ وكانوا يكرهون بني أُميّةَ ، خُصوصاً يزيدَ ، لقُبْحِ سيرتِهِ ومُجاهرتِه بالمعاصي ، واشتهارِهِ بالقبائح . فراسلوا الحسين - عليه السَّلام - وكتبوا إليه ، يدعونَهُ إلى قُدومِ الكوفةِ ويبذلون له النُّصرةَ على بني أُميّةَ . واجتمعوا وتحالفوا على ذلك ، وتَابَعُوا الكُتُبَ إليه في هذا المعنى . فأرسَلَ إليهم ابنَ عَمِّهِ مُسْلِمَ [3] بن عقيل بنِ أبي طالبٍ - رضي الله عنه - فلمّا وَصَلَ إلى الكوفةِ فشا الخبر إلى عُبيد الله بن زياد [4] - لعنه الله وأحلَّهُ دار الخِزْيِ - وكان يزيدُ قد أمَّرَهُ على الكوفةِ ، حين بلغه مُراسلةُ أهْلِها الحُسَيْنَ - عليه السَّلام - وكان مُسْلم قد التجأ إلى دارِ هانيءِ بن عُرْوَةَ [5] - رضي الله عنه -

---

[1] سورة الكهف ، الآية / ١٠٤ / .

[2] اتّصل بهم تأبيّه : أي بلغهُمْ امتناعُهُ ورفضُهُ لبيعةِ يزيد بن معاوية .

[3] مُسلم بن عقيل : تابعيٌّ ذو رأيٍ وشجاعةٍ انتدبه الحُسين بن علي للذهاب إلى الكوفةِ حين راسلهُ أهلُها بالبيعة بالخلافة . شعر به عبد الملك بن زياد أمير الكوفة المُوالي ليزيد بن معاوية فطلبه حتى قتله عام / ٦٠ / هـ .

[4] عُبَيْد الله بن زياد : هو ابن زياد بن أبيه الذي نماه معاوية إلى أبي سفيان فآخاه .

[5] هانيء بن عُروة : أحد سادات الكوفة وأشرافها من خواص عليّ بن أبي طالب ، خالف معاوية في بعض أمره ، ولكنّه قُتل على يد عبيد الله بن زياد لإيوائه مسلم بن عقيل .

وكانَ مِنْ أشْرفِ أهلِ الكوفةِ ، فاستدعاهُ عُبَيْدُ اللهِ بنْ زياد ، فطلبه منْهُ فأبى ، فضَرَبَ وَجْهَهُ بالقضيبِ فهَشَمَهُ ، ثُمَّ أحْضَر مُسْلم بنَ عقيل - رضي الله عنهما - فضُرِبَتْ عُنُقُهُ فوْقَ القصْر فهوى رَأسُهُ ، وأتْبِعَ جُثَتُهُ رأسَهُ . وأمّا هانىء : فأُخْرِجَ إلى السوقِ فضُرِبَتْ عُنُقُهُ . وفي ذلك يقولُ الفرزدق [1] :

وإنْ كُنْتِ لا تَدْرِينَ ما المَوتُ فانظُري إلى هانىءٍ في السّوقِ وابْنِ عَقيلِ

إلى بَطَلٍ قَدْ هَشَّمَ السَّيفُ وَجْهَهُ وآخرَ يَهوي مِن طِمارِ [2] قَتيلِ

ثُمَّ إنَّ الحُسينَ - عليه السّلام - خرَجَ مِنْ مَكّةَ متوجِّهاً إلى الكوفةِ ، وهو لا يَعلَمُ بحالِ مُسْلِم فلما قَرُبَ مِنَ الكوفة علمَ بالحالِ ، ولَقيهُ ناسٌ فأخبروهُ الخبرَ وَحَذّروهُ فَلَمْ يَرْجِعْ ، وَصَمَّمَ على الوصول إلى الكوفةِ لأمرٍ هو أعلمُ به من النّاس . فأرسلَ ابنُ زيادٍ إليهِ عَسْكراً أميرُه عُمَرُ بن سَعْد بن أبي وقّاص ، فقاتَلَ الحُسينُ - عليه السّلام - وأصحابُه حينَ التقى الجمعان ، قتالاً لم يُشاهدْ أحَدٌ مِثْلَهُ ، حتى فني أصحابُه ؛ وبقي هُوَ -عليه السّلام- وخاصّتُه ، فقاتلوا أشدَّ قتالٍ رآهُ الناس . ثم قُتِلَ الحُسين - عليه السّلام - قِتْلَةً شنيعةً . ولَقَدْ ظهر مِنْهُ - عليه السّلام - مِنَ الصّبْرِ والاحتسابِ والشّجاعةِ والوَرَعِ والخِبْرةِ التامّة بآدابِ الحَرْب والبلاغة ، ومِنْ أهْلِهِ وأصْحابِهِ - رضي الله عنهم - مِنَ النّصْرِ لهُ ، والمُواساةِ بالنَّفْس ، وكراهيةِ الحياةِ بَعْدَه ، والمُقاتلةِ بيْنَ يَدَيهِ عَنْ بصيرةٍ - ما لَمْ يُشاهَدْ مِثْلُهُ . ووقعَ النهب والسّبْيُ في عَسْكَرِهِ وذراريهِ - عليه السّلام - ثم حُمِلَ النِّساءُ وَرَأْسُهُ - صلواتُ الله عليه - إلى يزيدَ بنَ معاويةَ بدِمَشْقَ ، فجعلَ يَنْكُتُ ثنايا [3] الحُسين - عليه السّلام - بالقضيب ، ثم رَدَّ نِساءَهُ إلى المدينة .

وكانَ قَتْلُ الحُسَيْن - عليه السّلام - في يومِ عاشوراء [4] ، مِنْ سنةِ إحدى وستّين .

---

[1] ونسبَ البيتان إلى شاعر آخر هو عبد الله بن الزّبير الأسدي . انظر الأعلام ج ٨ ص /٦٨/ .

[2] طِمارُ قتيل : علوّ قامة القتيل .

[3] الثنايا : مقدّمة الأسنان في الفم .

[4] عاشوراء : العاشر من المحرّم ، وهو الشهر الأوّل من شهور السنة القمريّة .

شرح كيفية وقعة الحَرَّة

ثم ثنّى بقتالِ أهلِ مدينةِ رسولِ الله صلواتُ الله عليه وسلامُهُ ، وهي وَقْعَةُ الحَرَّة (بالحاء المفتوحة غير معجمة) : ومبدأ الأمر فيها : أنّ أهلَ المدينةَ كرهوا خلافة يزيد وخلعوه ، وحصروا مَنْ كانَ بها من بني أمية وأخافوهم ، فأرسلَ بنو أميّة رَسولاً إلى يزيد يعلمُهُ حالَهُم . فلمّا وصل الرسولُ إلى يزيد وأخبرهُ بذلك تمثّل

لَقَدْ بدّلوا الحِلْمَ الذي في سَجِيّتي فَبَدَّلْتُ قَوْمي غِلْظَةً بِليانِ

(طويل)

ثُمَّ ندبَ إليها عُمرَ بنَ سعيدٍ ، فأحْجم عنها ، وأرْسل يقولُ لهُ : إنّي قد ضَبَطْتُ لك الأمورَ والبلاد ، وأمّا الآنَ إذا صارتْ دِماءُ قريش تهراقُ بالصَّعيد ، فلا أُحِبُّ أن أتولّى ذلك .فندبَ عُبيد الله بن زياد لذلك ، فاعتذر وقال : والله لا جمعتُهما للفاسِق : أقتُلُ ابنَ رسولِ الله – صلى الله عليه وآله وسلم – وأغزُو مدينته والكعبة فندبَ إليها مُسلِمَ بنَ عُقْبَةَ المُرّيّ ، وكانَ شيخا كبيراً مَرِيضاً ، إلا أنّهُ كانَ أحَدَ جبابرةِ العربِ وشياطينهم ، وقيلَ : إنّ أباه [1] قال له : إنْ خالفك أهلُ المدينةَ فارْمِهِمْ بِمُسْلِمِ بن عُقْبَةَ . فتوجّهَ إليها مُسْلِمُ بنُ عُقْبَة وهُو مريضٌ ، فحاصرها مِنْ جهَةِ الحَرّةِ (وهو موضعٌ بظاهرِ المدينةَ) فنُصب لمُسْلِمِ بنِ عُقْبَةَ كرسيٌّ بينَ الصَّفّين ، وجَلَسَ يحرّضُ أصحابه على القتال حتّى فتحها . وقُتِلَ في تلك الوقعةِ جماعةٌ مِنْ أعيانِها ، فيُقال : إنّ أبا سعيدِ الخُدْرِي [2] – رضي الله عنه – صاحبَ رسولِ الله – صلى الله عليه وآله وسلم – خافَ ، فأخذ سيْفَهُ وخرج إلى كهفٍ هناك ليدخل إليه ويعتصم به فتبعهُ بعضُ أهل الشّام ، فخافه أبو سعيد وسل سيفه عليْه ليُروّعَهُ ، فسَلَّ الآخرُ سيْفَهُ . فلما وَصَلَ إلى أبي سَعيدٍ قال له : **﴿ لئنْ بَسَطْتَ إليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني ما أنا بباسطٍ يديَ إليكَ لأقْتُلَكَ ﴾** [3] فقالَ لهُ الشّامي : مَنْ أنْت ؟قال : أنا أبو سعيدٍ . قالَ : صاحبُ رسولِ الله ؟ قال : نعم ، فمضى وتَركَهُ ثم أباحَ مُسْلِمُ بنُ عُقْبَةَ

---

[1] قصدَ أبا يزيد ، وهو معاوية بن أبي سفيان .

[2] أبو سعيدٍ الخُدْريّ : ينتهي نسبه إلى بني خُدْرة من الخزرج صحابي جليل وراوٍ للحديث .

[3] سورة المائدة ، الآية / ٢٨ / .

المدينةَ ثلاثاً ، فقتَلَ وَنهبَ وسبَى [1] وسُمّي مُسلمُ بنُ عقبةَ مُسْرِفاً .

شَرْحُ كَيْفيّةِ غزْوِ الكَعْبَةِ

ثُمّ ثَلّثَ يزيدُ بغزوِ الكعبةِ ، فأمرَ مُسلم بن عقبةَ بقَصْدِها وغزْوِها بعد فراغِهِ من أمرِ المدينةِ . فتوجّهَ مُسلم إليها وكانَ عبدُ الله بنُ الزبير بها ، وقد دعا إلى نفسه وتبعه أهْلُ مَكّةَ ، فماتَ مُسلِم في الطريقِ واستخلفَ على الجيش رجُلاً كانَ يزيدُ أوْصاهُ بتأميره إنْ هَلَكَ . فمضى بالجيشِ إلى مكّة وحصرَها ، وبرزَ ابنُ الزبير إليهِ في أهلِ مكّة ونشبت الحَرْبُ ، وقال راجزُ أهل الشأم :

خطّارة مِثْلُ الفَنيقِ المُزْبِدِ   يَرْمى بِها أعوادُ هذا المَسْجِدِ

(رجز)

وهم في ذلك إذ وَرَدَ نعْيُ يزيد فرجعوا .

ثم مَلَكَ بعدَهُ ابنُهُ مُعاويةُ بنُ يزيدَ بن مُعاويةَ

كانَ صبيّاً ضعيفاً ، ملك أربعين يوما ، وقيل ثلاثةَ أشهرٍ . ثم قالَ للنّاس : إنّي ضَعُفْتُ عن أمركُمْ فالتَمَسْتُ لكم مثْلَ عُمر بن الخطّاب – رضي الله عنه – فلمْ أجِدْ ، فالتمستُ ستة مِثْلَ أهْلِ الشُّورى فلمْ أجِدْ ، فأنتم أوْلى بأمركُمْ فاختاروا لهُ مَنْ أحْبَبْتُمْ ، فما كُنْتُ لأتزَوَّدها ميّتاً ، وما استمْتَعْتُ بها حيّاً ثم دخلَ دارهُ وتغيّبَ أيّاماً وماتَ ، وقيل ماتَ مَسْمُوماً ، وليْسَ له من الأخبار ما يُؤثَر ثمّ مَلَكَ بعْدَهُ مَرْوانُ بنُ الحَكَم : هو مَرْوانُ بنُ الحكمِ بنِ أبي العاصِ بن أميّةَ بن عبد شمْسِ بنِ عبد منافٍ .

ولمّا ماتَ مُعاويةُ بنُ يزيدَ بن معاويةَ ، ماجَ النّاسُ : فأرادَ أهْلُ الشّأمِ بني أميّةَ وأرادَ غيرُهُمْ عَبد الله بنَ الزبير ، ثمّ غلبَ مَنْ رأيُهُ في بني أميّةَ . لكنّهم اختلفوا فيمن يولّونَهُ . فمالَ ناسٌ منهم إلى خالد بنِ مُعاويةَ ، وكان فصيحاً بليغاً ،

---

[1] سقطتْ من الطبعة (عز) عبارة : ((فقيل إنّ الرجل من أهل المدينة – بعد ذلك – كان إذا زوّجَ ابنتَهُ لا يضمنُ بكارتَها ، ويقولُ لعلّها افتضّت في وقعة الحرّة وسمّي ..)) انظرْ رحما ص / ٨٦ / ، وألما ص / ١٣٢ / وطبعة بيروت ص / ١١٦ / .

وقيلَ إنه أصابَ عَمَلَ الكيمياء ، وكان صبيًا . ومالَ ناسٌ إلى مرْوان بن الحكم لسِنّه وشَيْخُوخَتِهِ ، ولأنه قـادَ الجُنـودَ وفتَـح مصْـر ، وكرِهـوا خـالدا لصبُوتـه ، ثـمَّ بـايعوا مروانَ وكان يقالُ لهُ : ابنُ الطَّريد وذلك لأن أباه الحكم طردهُ رسـولُ اللـه - صلـى الله عليه وآله وسلم - عن المدينة فلمّا ولي عثمانُ بنُ عفّـان - رضـي اللـه عنـه - ردَّهُ إليها ، وأنكر المُسلمونَ ذلك منـهُ فاحتجَ بأنَ رسولَ الله - صلى الله عليـه وآلـه وسلم - وَعَدَهُ بردّه ، ورُوِيَتْ أحاديثُ وأخبارٌ في لعْنَة منْ في صُلْبه وضعّفها قـومٌ . وكانَ مروانُ حينَ بويعَ قد تزوّجَ أمَّ خالد زوْجةَ يزيدَ بـنِ مُعاويـةَ ليصغر بذلك مِنْ شأنِ خالدٍ فيسقطَ عن درَجةِ الخِلافةِ ، فدخل خالدٌ يوماً علـى مـرْوان فشـتمَهُ مـروانُ ونَسَبَهُ إلـى الحمـق ، ليُصغّرَ أمرهُ عنْدَ أهـل الشـام فخجِـل خـالدٌ ودخـلَ علـى أمِّـهِ وأخبرَها بما قالَ لهُ مَرْوانُ ، فقالت : لا يعلَمنَّ أحدٌ أنّكَ أعلَمتَني وأنا أكفيـك . ثـمّ إنّ مروانَ نامَ عِنْدَها ليلةً ، فوضَعَتْ على وَجْهه وسادةً ولـم ترْفعْهـا حتـى مـات . وأراد ابنُهُ عبد الملك أن يقْتُلَها فقيلَ له : يتحدّثُ الناس أن أباك قَتَلَتْهُ امرأةٌ فتركَها . وكانت ولايةُ مروان تسعةَ أشهُرٍ وبعْـضَ شـهرٍ ، ذلـك تـأويلُ قـول أميرِ المؤمنين : إنَّ لـه امرأةَ * كلعقة الكلبِ أنْفَهُ .

وفي تلك الأيام أخذَتِ الشيعةُ بثأرِ الحُسيْنِ - عليه السّلام - .

شرح كيفية ذلك على وجه الاختصار

لمّا هَدأتِ الفِتْنَةُ بَعْدَ قتْلِ الحُسيْنِ - عليـه السّـلام - وهلَـكَ يزيـدُ بْـنُ مُعاويـة اجْتَمَعَ ناسٌ مِنْ أهْلِ الكوفةِ وندموا على خِذْلانهم الحُسيْن - عليه السّلام - ومُقـاتَلتِهم لهُ ونصرِهِمْ لِقَتَلَتِه بَعْدَ إرسالِهمْ إليْـه ، واسْتِدْعائهمْ منـه ، القـدوم عليهـم وبذلهـم لَـهُ النّصْرَ وتـابوا مِـنْ ذلـك ، فسُمّوا : التوّابيـن . ثـم إنّهـم تحـالفوا علـى بـذل نفوسـهم وأموالِهم في الطّلَبِ بثأرِه ، ومُقاتلةِ قتلته وإقْرارِ الحقِّ مقـرّهُ فـي رجـلٍ مـن آلِ بيـتِ نبيّهِمْ - صلواتُ الله عليه وسلامُهُ - وأمّروا عليْهم رجلاً منهم يُقالُ له : سُليْمان بنَ

* لعلها إمرة .

صُرَد [1] – رضي الله عنه – فكاتب الشيعة بالأمصار ينْدُبُهُمْ إلى ذلك فأجابوهُ المُوافقة والمُسارعة . ثُمَّ ظهر في تلك الأيَّام المُخْتارُ بنُ أبي عُبَيْد الثقفي [2] ، وكانَ رجلاً شريفاً في نفسه ، عاليَ الهمَّة كريماً : فدَعا مُحمَّد بن عليّ بن أبي طالب – عليه السَّلام – وهُو المَعْروف بابن الحنفيَّة وكانتْ تلكَ الأيَّام أيام فتن وذلك أنَّ مَرْوان كانَ خليفةً بالشأم ومِصرْ ، مُبايعاً على سرير المُلك ، وعبد الله بن الزُّبير خليفةً بالحجاز والبصْرةِ ، مبايعٌ معَهُ الجُنُود والسّلاحُ والمُخْتارُ بن أبي عُبَيْد بالكوفةِ ومعَهُ الناسُ والجُنود والسّلاح ، وقد أخْرَج أمير الكُوفة عنها ، وصارَ وهُو أميرُها يدعو إلى محمَّد بن الحنفيَّة .

ثم إنَّ المختارَ قَويتْ شوكتُهُ ففتكَ بقتلة الحُسيْن ، فضرب عُنُق عُمر بنِ سعْد [3] وابنِـهِ ، وقالَ : هذا بالحُسيْن وابنه عليّ ، ووالله لوقتلْتُ به ثُلثي قُريْش ما وفَوْا بأنملةٍ منْ أنامله . ثـم إنْ مَرْوان أرسلَ عُبيْد الله بنَ زيادٍ [4] في جيشٍ كثيفٍ ، فأرسلَ إليهِ المختارُ إبراهيم ابنَ مالكِ الأشْتر فقتلهُ بنواحي الموْصل ، وأرْسل برأسه إلى المختار فألقي في القصْر . فيُقالُ إنّ حيّة دقيقة تخطّتْ رُؤوس القتلى ، ودخلتْ في فمِ عُبَيْد الله فخرجَتْ مِنْ مِنْخَره ثم دخلتْ في مِنْخَره فخرجتْ منْ فيه . فعلتْ

[1] سُليمان بنُ صُرَد : أبو مطرِّف السَلوليّ الخُزاعيّ . صحابيٌّ ، شهد الجمل وصفّين مع عليّ بن أبي طالب . ندم على تخلّفه عن نصرة الحُسيْن ، وخرج مطالباً بدمه فترأس جماعة ((التوّابين)) ولكنه قتل في معركةٍ مع عبيد الله بن زياد عام / ٦٥ / هـ .

[2] المُختار بنُ أبي عُبيد الثّقفي : أصله من الطائف . أظهر موافقته لبيعة عبد الله بن الزبير ومضى باسمه إلى الكوفة ولكنّه منذ مقتل الحسين بن علي أعلن بيعة محمّد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب وتتبع قتلةَ الحسين بالثأر فقتلَ قاتله وعظم شأنه حتى قتله مُصعب بن الزبير عام / ٦٧ / هـ . انظر ترجمته الوافية في الأعلام للزركلي ، المجلد السابع ص / ١٩٢ / .

[3] عُمَرُ بن سعْد بن أبي وقّاص : قائد الجيش الأموي في مواجهة الحُسين بن عليّ .

[4] عُبَيْد الله بنُ زياد بن أبيه : فاتحٌ ومقاتلٌ من أنصار بني أميّة ، قتلهُ إبراهيم بن مالك الأشتر قائد جيش المختار بن أبي عبيد ، بنواحي الموْصل عام / ٦٧ / هـ .

ذلك مراراً ثم إن عبد الله بن الزبير أرسل أخاه مصعبا و كان شجاعاً ، إلى المختار فقتله و مات مروان بن الحكم في سنة خمس وستين و بويع ابنه عبد الملك

ثُمَّ مَلَكَ ابنُهُ عبد الملك بن مروان

كانَ عَبْدُ الملك لبيباً عاقلاً ، عالماً ملكاً جبّاراً قويَّ الهيبة شديدَ السّياسةِ ؛ حسَنَ التدبير للدنيا . في أيّامِهِ نُقِلَ الديوانُ من الفارسيّةِ إلى العربية ، واختُرِعَتْ سياقةُ المُستَغْرِبين . وهُوَ أوّلُ مَنْ نهى الرعيّة عنْ كثرةِ الحديث بحضرة الخلفاء ومُراجعَتِهم ، وكانوا يتجرؤون عليهم . (وقد تقدم شرْحُ ذلك) وهُو الذي سلّطَ الحجّاج بنَ يُوسُفَ على الناس ، وغزا الكعْبَة ، وقتَلَ عبد اللهِ بنَ الزبير وأخاه مُصْعَباً منْ قبْلِه .

ومِنْ طَرِيفِ ما وقَعَ في ذلك : أنّ عبد الملك لما أرْسَلَ يزيدُ بنُ معاوية الجيشَ لِقتالِ أهْلِ المدينةِ وغزْوِ الكعْبَةِ ، امتَعض عَبْدُ الملك من ذلك غايةَ الامتِعاض وقال : ليتَ السّماءَ انطبَقَتْ على الأرض ! فلما صارَ خليفةً فعل ذلك وأشدَّ مِنْهُ : فإنّه أرْسلَ الحَجّاجَ [1] لِحِصارِ ابنِ الزُّبيْر وغزْوِ مكّة ، وكانَ عبدُ الملك قَبْلَ الخلافة أحَدَ فُقهاءِ المدينة ، وكانَ يُسَمّى : حمامة المسْجد ، لمُداومَته تلاوة القُرْآن . فلمّا ماتَ أبوه وبُشّرَ بالخلافة أطْبَقَ المُصْحَف ، وقال : هذا فراقٌ بيني وبيْنَك . وتصدّى لأمورِ الدُّنيا . وقيلَ : إنّه قالَ يوماً لسَعيد بن المسيّب [2] : يا سعيدُ : قدْ صرتُ أفعلُ الخيرَ فلا أُسرُّ بِهِ ، وأصنَعُ الشرَّ فلاأُساءُ به : فقالَ لَهُ سعيدُ بنُ المسيّب الآنَ تكاملَ فيكَ موْتُ القَلْبِ . وفي أيّامه قُتِلَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبير وأخوه مُصْعَبٌ أميرُ العِراقِ .

فأمّا عبدُ اللهِ بنُ الزبير : فإنه كانَ قد اعتَصمَ بِمكّة ، وبايَعَهُ أهلُ الحجازِ

---

[1] الحجّاج : هو الحجّاج بن يوسُف بن الحكم الثقفي . نشأ في الطائف ودخل في جند عبد الملك بن مروان في الشأم . وثقَ به عبد الملك فولاهُ مقاتلة ابن الزبير في الحجاز فحاصر الكعبة وقضى عليه . ثم ولاهُ العراق فأعمل فيها البطش حتى أخضعها لخلافة عبد الملك وثبتت له إمارة العراق عشرين سنة . توفي عام / ٩٥ / هـ . انظر جوانب أخرى من حياة الحجاج في الأعلام للزركلي ، المجلّد الثاني ص / ١٦٨ / .

[2] سعيدُ بن المسيّب : المخزوميّ القرشيّ . تابعيٌّ من أبرز فقهاء المدينة . أعجب بابن الخطّاب وروى أحاديثه . توفي في المدينة المنوّرة عام / ٩٤ / هـ .

وأهْلُ العِراقِ . وكان عَظيمَ الشُّحّ ، فلذلك لم يتمّ أمرُهُ . فأرسل الحجّاج إليه فحاصَرَهُ بمكّةَ ورَمى الكعبةَ بالمنجَنيق ، وحاربَهُ وخذَلَهُ أهْلُهُ وأصحابُه ، فدَخل على أمّه وقال لها : ((يا أمّت ، قد خذلني النّاسُ حتى ولدي وأهلي ، ولَمْ يبْقَ معي غيْرُ نفرٍ يسيرٍ وَمَنْ ليس عِنْدَهُ أكثرُ مِنْ صبْرِ ساعةٍ . والقومُ يُعطونني ما أردْتُ منَ الدُّنيا فما رأيُكِ ؟)) فقالتْ لَهُ : ((أنْتَ أعْلَمُ بنفسِك . إنْ كُنْتَ تعلمُ أنّكَ على حقٍّ فامضِ لشأنِكَ ولا تُمَكّنْ منْ رَقَبَتِكَ غِلْمانَ بني أميّة ، وإنْ كُنْتَ إنّما أردْتَ الدُّنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومَن معك ، وكم خلودُك في الدنيا ؟ القتْلُ أحْسَنُ)) فقالَ : يا أمّت ((إني أخافُ إنْ قَتَلوني أنْ يُمثّلوا بي)) قالَتْ : ((يا بنيّ ، إنّ الشّاةَ لا يضرُّها سَلْخُها بعد ذَبْحِها)) وما زالتْ تُحرّضُهُ بهذا وأشباهه حتى خرَجَ ، فصمّمَ على المُناجَزَةِ فقُتِلَ . وأرْسَلَ الحجّاجُ بالبِشارةِ إلى عبدِ الملِك ، وكان ذلك سنة ثلاثٍ وسبعين .

وأمّا أخوهُ مُصْعَبُ بنُ الزُّبير أميرُ العراقِ : فكانَ شُجاعاً جميلاً ، جليلَ القَدْرِ ممدوحاً . تزوّجَ سُكَيْنَةَ بِنْتَ الحُسَيْن - عليه السّلام - وعائشةَ بِنْتَ طَلْحَةَ ، وَجَمَعَهُما في داره . وكانتا مِنْ أعْظَمِ النّساء قَدْراً ومالاً وجمالاً ، فقال عَبْدُ المَلِكِ يَوْماً لِجُلَسائِهِ ، مَنْ أشجعُ النّاس ؟ قالوا : أنت . قال : لا لكنْ أشجع الناس مَنْ جمعَ في داره بَيْنَ عائشةَ بنتِ طَلْحة ، وسُكَيْنَةَ بنْت الحُسَيْن . يعْني مُصْعَباً . ثم تَجَهّزَ عَبْدُ المَلِكِ لِقِتالِ مُصْعَب ووَدّعَ زَوْجَتَهُ عاتكةَ بنْتَ يَزيدَ بنِ مُعاوية ، فلمّا ودّعها بَكَتْ فبكى جواريها لِبُكائها ، فقالَ عبدُ الملك : قاتل الله كثيّر عَزّة [1] ، كأنّهُ شاهدَ هذا حين قال :

إذا ما أرادَ الغَزْوَ لم يَثْنِ هَمّهُ حَصانٌ عليْها نَظْمُ دُرٍّ يَزينُها

---

[1] كثيّر عزّة : هو كثيّر بن عبد الرحمن الخُزاعيّ . بدأ حياته راعيا في وادي القرى بجوار المدينة المنوّرة وتشيّع في أوّل أمره لآل عليّ بن أبي طالب ثم مال إلى الأمويّين ومدحهم ولا سيّما عبد العزيز بن مروان . وعبد الملك بن مروان . جاء كثيرٌ من شعره في الغزل بعزّة . توفي عام / ١٠٥ / هـ .

نَهَتْهُ فَلَمّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ نافِعــاً بَكَتْ فَبَكى مِمّا شَجاها قَطِينُها [1]

(الطويل)

ثم سارَ إلى حَرْبِ مُصْعَبٍ ، فالتقيا بأرْضِ دُجيْل ، فاقْتتلوا قتالاً شديداً وقُتِل مُصْعَبٌ . وذلك في سَنَةِ إحدى وسبعين .

وكانَ عبدُ الملكِ أديباً ذكيّاً فـاضِلا ، قـال الشـعبيُّ [2] ، مـا ذاكـرْتُ أحَـداً إلا وجَدْتُ لي الفضلَ عليه إلا عَبْدَ الملكِ بنِ مرْوان ، فإني ما ذاكرْتُــهُ حديثـاً إلا زادنــي فيـه ولا شِعْراً إلا زادني فيه .

وقيلَ لِعبْدِ الملِكِ : لَقَدْ أسرَعَ إليكَ الشَّـيْبُ ، قـال : ((شـيّبني صُعُـودُ المنـابرِ والخوفُ مِنَ اللَّحْنِ)) (وكانَ اللحنُ عنْدَهُمْ في غايةِ القُبْحِ) ومنْ آرائه ما أشــارَ بـهِ وهو صبيٌّ على مُسْلِمِ بنِ عُقْبــةَ المُرِيّ ، حيـن أرْسَلَهُ يزيـدُ بـنُ مُعاويـةَ لِقتـالِ أهـلِ المدينةِ فوَصَلَها وبنو أُميَّةَ مُحاصَرون بها ثـم أُخْرِجُـوا ، فلمـا لقِيَهُـمْ مُسْلِمُ بـنُ عُقْبـةَ استشارَ بعبدِ الملكِ بنِ مروان وكانَ حدَثاً ، فقال لهُ : الرأيُ أن تسير بِمَنْ مَعَكَ ، فإذا انْتَهيْتَ إلى أدنى نخلِها نَزَلْتَ ، فاسْتَظلَّ النـاسُ فـي ظلّـه وأكلـوا مـنْ صَنْـوه . فـإذا أصبَحْتَ مَضَيتَ وتركْتَ المدينةَ علـى اليسـار ، ثـمَّ دُرْتَ بهـا حتّـى تـأتيهم مـنْ قِبَـلِ الحَرّةِ مُشرِّقاً ، ثم تستَقْبِلُ القوْمَ . فإذا استقبلْتَهُمْ وقدْ طَلعـتْ الشّـمْسُ عليهِـمْ ، طَلَعَـتْ بينَ أكتافِ أصحابِك فلا تُؤْذيهم ، بَلْ يصيبُ أهْلَ المدينــةِ أذاهـا ويـروْن مـنِ ائتـلافِ بَيْضِكُم وأسنّةِ رِماحِكُمْ وسُيوفِكُمْ ودُروعِكم مـالا ترَوْنَهُ أنْتُمْ مـا دامـوا مُغرِّبيـن . ثـم قاتِلْهُمْ واستَعِنْ باللهِ . وقال عبدُ الملك يوما لجُلسائه : ما تقولون في قولِ القائل :

أهيمُ بِدَعْدٍ ما حَيِيتُ فإنْ أمُتْ فوا حربا مِمَّن يهيمُ بها بَعْدي

(طويل)

---

[1] انظـر الخبر في ترجمة كثيّر في مقدمة ديوانه بشرح قدري مايو ، طبعة دار الجيل ببيروت ص / ١٣ / .

[2] الشّعْبيّ : عامر بن شراحيل محدِّثٌ وحافظٌ من التـابعين ، قرّبـه عبـد الملـك بـنُ مـروان وكـان رسولَهُ إلى ملك الروم . توفي عام / ١٠٣ / هـ .

قالوا : معنى حَسَنٌ . قال : هذا ميْتٌ كثيرُ الفضُول ، ليس هذا معنى جيّداً . قالوا : صدَقتَ ، قالَ : فكيفَ كان ينبغي أن يقول ؟ فقالَ رجلٌ منهم : كان ينبغي أن يقول :

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإنْ أمُتْ أوكِّلْ بدعدٍ مَنْ يهيمُ بها بعدي

(طويل)

قالَ عبدُ الملك : ما أحسنتَ . قالوا فكيف ينبغي أن يكون ؟ قالَ : ينبغي أن يقول :

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإنْ أمُتْ فلا صلَحَتْ دعدٌ لذي خلّةٍ بَعْدي

(طويل)

قالوا : أنتَ يا أميرَ المؤمنين أشعرُ الثلاثة . ولما اشتدَّ مرضُه قال : أصعِدوني على شَرَفٍ ، فأصعَدوه إلى مَوْضعٍ عالٍ ، فجعل يتنسّمُ الهواءَ ثم قال : يا دنيا : ما أطيبَكِ ؟ إن طويلَكِ لقصيرٌ ، وإن كثيرك لحقيرٌ وإنْ كنّا منكِ لفي غُرورٍ . وتمثّلَ بهذين البيتين :

إنْ تُناقِشْ يكُنْ نِقاشُكَ يا ر بِّ عَذاباً ، لا طَوْقَ لي بالعَذابِ

أو تجاوزْ فأنتَ رَبٌّ صَفوحٌ عَنْ مُسيءٍ ذُنوبُه كالتُّرابِ

(خفيف)

ولما ماتَ صلّى عَلَيْهِ ابنُهُ الوليدُ فتمثَّل هشامٌ ابنُه الآخرُ :

فما كانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِدٍ ولكنّهُ بُنيانُ قَوْمٍ تَهَدّما

(طويل)

فقالَ له الوليد : اسكُتْ ، فأنت تتكلم بلسانِ شيطان . ألا قلتَ كما قالَ الآخرُ

إذا سَيِّدٌ مِنّا مَضى قامَ سيّدٌ قؤولٌ لما قالَ الكِرامُ فَعولُ

(طويل)

وأوْصى عَبْدُ الملك بنُ مروان أخاه عبد العزيز حين مضى إلى مِصْر أميراً عليها فقال له : ((ابسُط بِشْرَك ، وألِنْ كنفك ، وآثِرْ الرِّفْقَ في الأمورِ ، فإنّهُ

أبْلَغُ بِكَ)) [1] وانظرْ حاجبَك فلْيكنْ منْ خيْرِ أهْلك فإنَّهُ وجْهُك ولسانُك . ولا يقفنَّ أحدٌ ببابِكَ إلا أعلمك مكانَهُ ، لتكونَ أنتَ الذي تـأذنُ لـهُ أو تـردّه . وإذا خرجْتَ إلـى مجلسِكَ فابْدأ بـالسَّلامِ يأنسوا بك ، وتثْبتْ في قلوبهمْ محبتُك . وإذا انْتهى إليكَ مُشْكلٌ فاستَظْهِرْ عليْهِ بالمُشاورَةِ ، فإنّها تَفْتحُ مغاليقَ الأمورِ ، وإذا سخطْتَ على أحدٍ فـأخِّرْ عقوبتَه ، فإنك على العقوبةِ بعد التوقف عنه ، أقدرُ منْك على ردِّها بعـد إمْضـائهـا))

وكانتْ وفاتُه في سنة ستٍّ وثمانين .

ثُمَّ ملكَ ابنُه الوليد

كانَ الوليدُ منْ أفْضلِ خلفائهمْ سيرةً عنْدَ أهْلِ الشـأمِ ، بنـى الجوامـعَ ، جـامعَ دِمشْقَ ، وَجامعَ المدينةِ (على ساكِنِها أفضلُ السَّلامِ) والمسْـجدَ الأقْصـى . وأعطـى المجذمين ، وَمنعهُمْ منْ سُؤالِ النّاس . وأعْطى كلَّ مُقْعدٍ خادما ، وكُـلَّ ضريـرٍ قـائداً وَفتَحَ في خِلافتِهِ فُتوحاً عظاماً ، منها الأنْدلسُ وكاشغر ، والهنْد ، وكانَ شديدَ التكلّفِ بالعماراتِ والأبنيـةِ ، واتّخـاذِ المصـانعِ والضّيـاعِ ، وكـانَ النـاسُ يلتقـون فـي زمانِـهِ فيسألُ بعضُهُم بَعْضـاً عن الأبنيـةِ والعمـاراتِ ، وكـانَ أخـوهُ سُليْمانُ يُحـبُّ الطّعـامَ ، فكانَ الناسُ في خلافتِهِ إذا التقوا ، سألَ بعْضُهُمْ بعْضاً عنْ الطّعام . وكـانَ عُمرُ بـنُ عبْدِ العزيزِ صـاحبَ عبادةٍ وتلاوةٍ ، فكـانَ النـاسُ إذا تلاقـوا فـي أيّامـه سـألَ بعْضُهُـمْ بَعْضـاً ما وِرْدُكَ الليلةَ ؟ وكَمْ تحفظ مِنَ القُـرآنِ ؟ وكـم تقومُ مـن الشّـهرِ ؟ وهـذا مِـنْ خَواصِّ المُلْكِ التي تقدّمَ شرْحُها وكانَ لحّاناً لا يُحْسِنُ النّحْوَ وعاتبَـهُ أبـوهُ عبْدُ الملـك على اللَّحْنِ.وقال له : إنّهُ لا يلي العربَ إلا منْ يُحْسِنُ كلامهُمْ ، فدخـلَ الوليدُ بيتـاً ، وأخَذَ مَعَهُ جماعةً منْ عُلماءِ النحو وأقامَ مُدّةً يشتغلُ فيه ، فخرجَ أجْهَلَ ممّا كانَ يـوْمَ دُخولِهِ . فلما بَلَغَ ذلك عبْدَ الملك قال : قدْ أعْذرَ ! .

---

[1] ابسُطْ بِشرَك : كُنْ طَليقَ الوجه مبشّراً بالخير .

أَلِنْ كنفك : كن ليّن الجانب حسن المعاملة .

آثِرِ الرِّفْقَ : فضِّلِ اللطفَ على الغلاظة والشدّة أو القسوة .

أبْلَغُ بِكَ : أكثر إيصالاً إلى ما تريـدُ من سياسة البلد .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ أخوهُ سُلَيْمانُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ

كانَتْ أيّامُهُ ذاتَ فُتوحٍ مُتواليةٍ ، وكانَ غيوراً شديدَ الغيرةِ ، وكانَ نهماً فيقالُ إنَّ الطَّبّاخَ كانَ يأتيهِ بالشِّواء فلا يصبر حتى يبرد ، فيأخذه بكُمِّه ، وكانَ فصيحاً بليغاً وها هنا موضعُ حكايةٍ : قالَ الأصمَعيّ [1] : كُنْتُ مرّةً أفاوضُ هارون الرَّشيدَ ، فجرى حديثُ أصحابِ النَّهم ، فقُلْتُ : كانَ سُلَيْمانُ بنُ عبدِ الملك شديدَ النَّهمِ ، وكانَ إذا أتاهُ الطَّبّاخُ بشواءٍ تلقّاهُ فأخذَهُ بأكمامِه ، فقالَ الرشيدُ : ما أعلَمَكَ يا أصمَعيُّ بأخبارِ النّاس لقد اعتَرَضْتُ مُنْذُ أيّامٍ جِبابَ سُليمان فوَجَدْتُ أثرَ الدُّهْنِ في أكمامِها فظننته طيباً . قالَ الأصمَعيُّ : ثُمَّ أمرَ لي بجبّةٍ منها . وقيلَ : إنَّ سُلَيْمانَ لبس يوماً حُلّةً خضراءَ وعمامةً خضراءَ ونظرَ في المرآةِ فقال : أنا الملكُ الفتى ؟ ثُمَّ نظرتْ إليهِ جاريةٌ مِن جَواريهِ فقالَ ما تنظرين ؟ قالت :

أنْتَ نعمَ المَتاعُ لوكُنْتَ تَبْقى　　　على أنْ لا بقاءَ للإنْسانِ
لَيْسَ فيما علِمْتُهُ فيكَ عَيْبٌ　　　كانَ في النّاسِ ، غَيْرَ أنَّكَ فاني

(خفيف)

فلم تمضِ إلا جُمْعَةٌ واحدةٌ حتّى مات . وكانتْ وفاتُه في سنة تسعٍ وتسعين .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزيزِ بنِ مَرْوانَ

لمّا مرضَ سُلَيْمانُ بنُ عبدِ الملكِ مَرْضتَهُ التي ماتَ فيها ، عَزَمَ على أن يُبايعَ لبعضِ أولادِهِ ، فنهاهُ بعضُ أصحابه ، أو قال له : يا أمير المؤمنين : إنّه مما يحفظُ الخليفةَ في قبرِهِ أنْ يَستَحْفِظَ على الناسِ رجُلاً صالحاً . فقالَ سُلَيْمانُ : أستخيرُ اللهَ وأفعلُ . ثُمَّ استَشارَهُ في عُمَرَ بنِ عبدِ العزيز ، فأشارَ عليه بهِ وأثنى عليهِ خيْراً فكَتَبَ سليمان عَهْدَهُ إلى عُمَرَ ابنِ عبدِ العزيز وختَمَهُ ، ودَعا أهْلَ بيتِه وقالَ : بايعوا لِمَنْ عَهِدْتُ إليهِ في هذا الكتابِ ولَمْ يُعلِمْهُمْ به فبايعوا ، ثُمَّ لمّا ماتَ جمَعَهُمْ ذلك

---

[1] الأصمعي : عبد الملك بن قُرَيب ، أبو سعيد الأصمعيّ . من أشهر رُواة العرب ، وأعلمهم باللغة والشعر والبلدان . نشأ بالبصرة وطاف بالبوادي يجمعُ العلم والأخبار ، وصحبَ الخليفة العباسيّ هارون الرشيد ونادَمَهُ . توفي بالبصرة عام / ٢١٦/ هـ .

الرَّجُلُ الذي أشارَ إليهِ بِعُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ وقد كَتَمَ مَوْتَ سُلَيْمانَ عَنْهُمْ ، وقالَ لهم : بايِعوا مَرَّةً أُخرى ، فبايعوا ، فلمّا رأى أنَّهُ قَدْ أحْكَمَ الأمْرَ ، أعْلَمَهُمْ بموتِ سُلَيْمانَ .

وكانَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ مِنْ خيارِ الخُلَفاءِ ، عالماً زاهداً ، عابداً تقيّاً وَرِعاً . سارَ سيرةً مَرْضيّةً ، ومضى حَميداً . وَهُوَ الذي قَطَعَ السبَّ عَنْ أميرِ المؤمنينَ - صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُهُ - وكانَ بَنو أُمَيّةَ يسبُّونه على المنابر . قال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيز : كان أبي عبدُ العزيزِ بنُ مروان يمرُّ في خُطْبَتِهِ يَهُدُّها هَدّاً ، حتّى إذا وَصَلَ إلى ذكرِ أميرِ المؤمنين عليٍّ - عليه السّلام - تَتَعْتَعَ ، قالَ : فَقُلْتُ لهُ ذلك فقالَ : يا بُنيَّ : أَدْرَكْتَ هذا منّي ؟ قُلْتُ : نعمْ قالَ : يا بنيّ : اعلمْ أنَّ العوامَّ لو عَرَفوا مِنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ما نَعْرِفُهُ نحن ، لتفرّقوا عنّا إلى وَلَدِهِ ، فلمّا وَلِيَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ الخِلافةَ قَطَعَ السبَّ وجَعَلَ مكانَهُ قولَهُ تعالى : ﴿ **إنَّ اللهَ يأمرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذي القُرْبى وينهى عنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ يعظكم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرون** ﴾ [1] وَمَدَحَهُ الشعراء على ذلك : فممن مدَحَهُ على ذلك كثير عزّة [2] بِقَوْلِهِ

وَلِيتَ فلم تَشْتِمْ عليّاً ، ولم تُخِفْ — بَرِيّاً ، ولم تَتْبَعْ مَقالَةَ مُجْرِمِ
وَقُلْتَ فَصَدَّقْتَ الذي قُلْتَ بالذي — فَعَلْتَ ، فأضحى راضياً كُلُّ مُسْلِمِ
وَقَدْ لَبِسَتْ لُبسَ الهَلوكِ [3] ثِيابَها — وَأَبْدَتْ لكَ الدُّنيا بِخَدٍّ ومِعْصَمِ
وَتُومِضُ أحياناً بِعَيْنٍ مَريضَةٍ — وتَبْسِمُ عَنْ مِثْلِ الجُمانِ المُنَظَّمِ
فَأَعْرَضْتَ عَنْها مُشْمَئِزّاً كأنّما — سَقَتْكَ مَدُوفاً [4] مِنْ سِمامٍ وَعَلْقَمِ
وَقَدْ كُنْتَ مِنْها في جِبالٍ أرومُها [5] — ومِنْ بَحْرِها في زاخِرِ السَّيْلِ مُفْعَمِ[6]

(طويل)

---

[1] سورة النحل ، الآية / ٩٠ / .

[2] كثيّر عزة : كثيّر بن عبد الرحمن الخزاعي . شاعر غزل ومدّاح ، تشيع لآل عليٍّ ثم انحاز إلى بني أمية يمدحهم وينال عطاياهم . وكانت وفاته / ١٠٥ / هـ .

[3] الهلوك : البغيّ الفاجرة ، من صفات الدنيا . [4] المدوف : الممزوج . [5] الأروم : الجُذور .

[6] وردت الأبيات مع بعض الاختلاف ، انظر شرحها في ديوان كثيّر بشرح قدري مايو طبعة دار الجيل ص / ٣٤٢ / .

ورثاه الشّريفُ الرضيُّ المُوسَويُّ [1] بقولِهِ :

يا ابنَ عَبْدِ العزيزِ لَوْ بَكَتِ العَيْنُ ... فتىً مِنْ أُمَيَّةٍ لَبَكَيْتُكْ
أنتَ أنقذْتَنا مِنَ السبِّ والشَّتْمِ ... فلو أمكنَ الجزاءُ جَزَيْتُكْ
غَيْرَ أنّي أقولُ : إنّكَ قَدْ طِبْتَ ... وإنْ لَمْ يَطِبْ ولَمْ يزكُ بَيْتُكْ
دير سَمْعانَ لا عَدَتْكَ الغَوادِي[2] ... خَيْرُ مَيْتٍ مِنْ آلِ مَرْوانَ مَيْتُكْ

(خفيف)

وإليهِ الإشارةُ بِقَولِهِمْ : الأشجُّ والنّاقِصُ [3] أعْدَلا بني مَرْوانَ .

وَسَيَجِيءُ ذِكْرُ النّاقِصِ فيما بَعْدُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى وكانتْ وفاتُهُ بِدَيْرِ سَمْعانَ في سنةِ إحدى ومائةٍ .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ يزيدُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ

كانَ خليعَ بني أُمَيّةَ ، شُغِفَ بجاريتَين : اسمُ إحْداهُما ((سلامَةُ)) واسمُ الأخرى ((حبّابة)) فَقَطَعَ مَعَهُما زَمانَهُ . قالوا فغنّتْ يوماً حبّابةُ :

بينَ التَّراقي [4] واللهاةِ [5] حَرارةٌ ... ما تَطْمَئِنُ ولا تَسوغُ [6] فَتَبْرُدُ

(كامل)

فأهْوى يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ لِيطيرَ ، فقالتْ : يا أميرَ المؤمنين : لنا فيك حاجة فقال : واللهِ لأطيرَنّ ، قالتْ : فعلى مَنْ تَدَع الأُمّةَ ؟ قالَ : عَلَيْكِ : وقَبّلَ يَدَها ،

---

[1] الشّريف الرضيّ : محمّد بن الحسين بن موسى العلويّ . نقيبُ الأشراف الطالبيين في بغداد ، جمع نهج البلاغة من كلام علي بن أبي طالب ، وكان من أشعرِ أهل زمانه . توفي عام / ٤٠٦ /

[2] لا عدتْكَ الغوادي : لا جاوزتْك الأمطارُ ، دعاء للقبر بالسّقيا . دير سمعان : موضع موت عمر بن عبد العزيز ودفنه في شمالِ غربي حلب .

[3] الأشجّ : لقب عمر بن عبد العزيز عرف به لأنه شُجّ يوماً بسقوطه من على ظهر بغلته ، والناقص : هو الخليفة الأموي يزيد بن الوليد بن عبد الملك عرف به لإنقاصه العطايا .

[4] التراقي : عظام أعلى الصدر . (٥) اللّهاة : لُحَيمة معترضة في الحلْق .

(٦) تسوغ : تُقْبَل وتُحتَمل .

فخَرَجَ بعضُ خَدَمِهِ وهوَ يقولُ : سَخِنَتْ عَيْنُك فما أسْخَفك ! فانظرْ إلى هذا وإلى أبيه عبدِ الملِكِ حين خَرَجَ إلى قِتالِ مُصْعَب بن الزبير ، وصدَّتْهُ عاتكةُ بنت يزيد بن مُعاويةَ فلم يَلْتفِتْ إليها ، واستَشْهَدَ بذينِك البيتَين ! وقدْ سبَق شرْحُ ذلك في ترجمةِ عبْدِ الملكِ بنِ مرْوانَ . ولم تكن دَوْلَةُ يزيد طائلة ، ولا وقعَ فيها من الفتوحِ والوقائع ما تَحْسُنُ حِكايتُه . وكانتْ وَفاتُهُ في سنةِ خمْس ومائةٍ عِشْقاً وصبابة .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ أخوهُ هِشامُ بنُ عبدِ الملِكِ

كانَ هشامٌ بخيلاً شديدَ البُخْلِ ، إلا أنَّهُ كان غزير العقْلِ حليماً عفيفاً . امتَدَّتْ أيامُهُ وجَرى فيها وقائعُ . فمن وقائعها الشهيرة : قتْلُ زيد بن عليٍّ بن الحُسَيْن بنِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ عليه السَّلام .

شرْحُ مقْتَلِ زيدِ بنِ عليٍّ بنِ الحُسَيْنِ
إمام الزّيديّة رضي الله عنه

كانَ زيدٌ مِنْ عُظماءِ أهْلِ البيت – عليهم السّلام – عِلْماً وزُهْداً وورَعاً وشَجاعةً وديناً وكَرَماً . وكانَ دائماً يُحَدِّثُ نفْسَهُ بالخِلافةِ ، ويرى أنّهُ أهلٌ لذلك . وما زالَ هذا المعنى يتَرَدَّدُ في نفسِه ، ويَظْهرُ على صفحات وجْهِه وفلَتات لسانِه ، حتّى كانتْ أيّامُ هشام بنِ عبدِ الملِكِ ، فاتّهمهُ بوديعةٍ لخالد بن عبد الله القَسْريِّ أميرِ الكوفةِ ، فحَمَلَهُ إلى يُوسُفَ بن عُمر أميرِها في ذلك العصْر ، فاستَحْلَفَهُ أن ما لخالدٍ عِنْدَهُ مالٌ ، وخلّى سبيلَهُ فخَرج ليتَوجّه إلى المدينة فتَبِعَهُ أهْلُ الكوفة وقالوا له : أين تَذْهَبُ – يَرْحَمُكَ الله – ومَعَكَ مائةُ ألفِ سيفٍ نضربُ بها دُونك ، وليْسَ عندنا مِنْ بني أُميّة إلا نفرٌ قليلٌ ؟ لو أنّ قبيلةً واحدةً منّا صمدتْ لهم لكفتْهُمْ بإذْنِ الله ، ورغّبوه بهذا ، وأمثالِه ، فقال لهم : يا قومُ إنّي أخافُ غدْرَكُمْ ، فإنّكم فعلْتُمْ بجدّي الحُسَيْنِ – عليه السّلام – ما فعلْتُمْ ، وأبى عليْهِمْ . فقالوا : نناشِدُك الله إلا ما رجعْتَ ، ونحنُ نبذُلُ أنْفُسَنا دونَكَ ، ونُعْطيكَ من الأيْمانِ والعُهود والمواثيق ما تثِقُ به ، فإنّا نرجو أن تكونَ المنْصورَ . وأن يكونَ هذا الزمان الذي يهْلِكُ فيه بنو أُميّة . فلم يزالوا به

حتّى ردُّوهُ . فلمّا رجَعَ إلى الكوفةِ أقْبلَت الشّيعةُ تختلفُ [1] إليه يُبايعونه ، حتّى أحْصى ديوانه خمْسَةَ عشَر ألْفاً منْ أهْلِ الكوفة ، سوى أهل المدائن والبصْرَة ، وواسطٍ والمَوْصِل [2] . وأهل خرُاسانَ والريِّ وجُرْجانَ والجزيرة وأقاموا بالكوفةِ شُهوراً ثم تمّ الأمْرُ لزَيْدٍ وخفَقت الألويةُ على رأسه . قالَ : الحمدُ لله الذي أكمل لي ديني ، والله إنّي كُنْتُ أستحيي من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن أردَ عليه الحوْضَ [3] غداً ، ولم آمرْ في أمّته بمعْروفٍ ، ولم أنْه عنْ مُنْكرٍ فلما اجتمعَ الناسُ معَ زيدٍ أظْهرَ أمْرَهُ ، ونابذ منْ خالفهُ فجمَع له يوسُفُ [4] بنُ عمَرَ جُموعاً وبَرزَ إليه وَعبّأ كلٌّ منْهُما أصحابهُ والتقى الفريقان ، وجرى بيْنهُمْ قتالٌ شديدٌ فتَفرّقَ أصْحابُ زيدٍ عنْهُ وَخذَلوهُ ، فبقي في شرْذمةٍ يسيرةٍ فأبلى هُو - رضي الله عنه - بلاءً حسناً ، وقاتلَ قتالاً شديداً فجاءهُ سهْمٌ فأصابَ جبينهُ فطلبَ حدّاداً فنزَعَ السّهمَ منْ جَبينِهِ فكانَتْ فيهِ نفْسُهُ فماتَ - رضي الله عنه - منْ ساعتِه ، فحفرَ لَهُ أصْحابُهُ قبْراً في ساقيةٍ ودفنوهُ فيه وأجروا الماء على قبره خوْفاً أن يمثّلوا به ، فلما استظْهرَ يُوسُفُ بنُ عُمرَ أميرُ الكُوفةِ تطلّبَ قبْرَ زيدٍ فلمْ يَعْرِفْهُ ، فدلّهُ عليهِ بعضُ العَبيدِ فنَبشَهُ وأخْرجَهُ فصلَبَهُ ؛ فبقي مُدّةً مصلوبا ، ثُمّ أحْرقَ وذُري رمادُه في الفراتِ (رضي الله عنه وسلّمَ عليه ، ولعَنَ ظالميه وغاصبيه حقّهُ ، فلَقدْ مضى شهيداً مظلوماً) .

وفي أيّامهِ انبثّتْ دُعاةُ بني العبّاس في البلاد الشرقيّة ، وتحرّكت الشيعةُ خفْيَةً وَغزَتْ جنودُ هِشامٍ التُّركَ بما وراء النّهرِ ، وكانَتْ لِجُنودهِ الغَلَبةُ ، ثُمّ بَعْدَ ذلِكَ قتل خاقان .

---

[1] تختلفُ إليهِ : تَرِدُ على منْزلهِ جيئة وذهاباً .

[2] المدائنُ والبَصْرةُ وواسطُ والمَوْصِلُ : من مدن العراق ، والأولى كانت عاصمة الفُرس .

[3] الحَوْض : مورد الماء العذب الموعود به بالجنّة .

[4] يوسُفُ بنُ عُمَر : أبو يعقوب الثقفيّ ، ولِيَ اليمن ثمّ العراق لهشام بن عبدِ الملك فقتل سلفهُ في الإمارة خالدَ بنَ عبدِ الله القسْريّ . كان بطّاشاً كالحجّاج . حَبَسَهُ الخليفةُ يزيد بن الوليد وقتل في سجنه عام / ١٢٧ / هـ .

ثُمَّ مَلَكَ بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك

كانَ مِنْ فتيانِ بني أميّةَ وظرفائهم ، وشُجْعانِهم وأجوادهم وأشدائهم ، منهمكاً في اللّهْوِ والشربِ وسَماعِ الغِناء ، وكان شاعراً مُحْسِناً ، لهُ أشعارٌ حسنةٌ في العِتابِ والغزلِ وَوَصْفِ الخمرِ . فمن جيّدِ شعْرِه ما كتبهُ إلى هشامِ بن عبد الملِك وقَدْ عَزمَ على خلفِهِ – وكانَ هشامٌ لمّا رأى استهتار الوليدِ بالمعاصي وعُكوفهُ على اللذّات ، طَمِعَ في الخلافة لابنِهِ ، وأراده على أنْ يخْلَع نفْسهُ ـ وتناولهُ بلسانه وتهدّدهُ – فكتبَ إليهِ الوليدُ بنُ يزيد :

كَفَرْتَ يداً [1] مِنْ مُنْعِمٍ لوْ شَكَرْتَها ... جَزاكَ بِها الرحمنُ ذو الفَضْلِ والمَنِّ
رَأيتُكَ تَبْنِي جاهِداً في قطيعتي ... ولَوْ كنتَ ذا حَزْمٍ لهدَّمْتَ ما تبني
أراكَ على الباقينَ تَجْني ضَغينَةً ... فيا ويحهم إن مت مِنْ شَرِّ ما تجني
كأنّي بِهِمْ يوماً وأكْثَرُ قَوْلِهِم : ... ألا لَيْتَ أنّا ! حينَ ((يا لَيْتَ)) لا يُغني

(طويل)

وقَدْ سرقَ الناسُ مَعانيَهُ وأوْدَعوها أشْعارَهُمْ . فمِمَّنْ سرقَ معانيه أبو نواس أخَذَ معانِيَهُ في وَصْفِهِ الخَمْرَ .

ومِمّا يُحْكى عَنِ الوليدِ بنِ يزيد : أنّهُ استفتح فألاً في المُصْحَفِ فخَرَجَ ((واستَفْتَحُوا وخابَ كلُّ جبّارٍ عَنيد)) فألقاهُ ورماهُ بسهامٍ وقال :

تُهَدِّدُني بِجَبّارٍ عَنيدٍ ... نعم ، أنا ذاكَ جَبّارٌ عَنيدُ
إذا ما جِئْتَ رَبّكَ يَوْمَ بَعْثٍ ... فَقُلْ : يا ربِّ خَرّقَني الوليدُ

(وافر)

فلم يَلْبَثْ بعدَ هذا إلا يسيراً [2] حتى قُتِل . وكانَ السّبَبُ في قَتْلِه : أنّهُ كانَ قَبْلَ الخِلافةِ على ما وَصَفْنا مِنَ اللّهْوِ والشّربِ ، وانتهاك حُرُماتِ الله (عزَّ وجلَّ) فلمّا أفْضَتْ إليهِ الخِلافةُ لم يزِدْ إلا انهماكاً في اللذات ، واستهتاراً بالمعاصي ، وضمَّ

---

[1] اليد : هنا ، الإنعام والمعروف .

[2] يسيراً : أمداً قليلاً ، مدّةً قصيرةً .

إلى ذلك ما ارتكبهُ منْ إغْضابِ أكـابرِ أهلـه ، والإساءةِ إليهم وتَنْفيرِهمْ . فـاجْتَمَعُوا عليهِ مَعَ أعيانِ رعيّته وهجموا عليهِ وقَتلُوهُ وكانَ المتوليَ لذلـك يزيـدُ بـنُ الوليـدِ بـنِ عبدِ الملك ، وذلك في سنةِ ستٍّ وعشرينَ ومائةٍ .

ثُمَّ ملك بعدهُ يزيد بن الوليد بن عبد الملك

كانَ يظهرُ التنسّكَ ، وكانَ يُقالُ : إنّهُ قدريٌ . وسميَ : ((النّـاقِص)) لأنـهُ نَقّصَ مِنْ أُعْطياتِ أهْلِ الحِجاز ما كان قد زادهُمْ الوليدُ بن يزيدَ بنِ عبدِ الملك ، فسُمّيَ النّاقص لهذا السبب ، ولما بُويعَ بالخلافة خطَبَ الناس ، وقال لهم كلاماً حَسَناً أنا مُثْبتُه ها هُنا لِحُسْنِهِ . خَطَبهُمْ وذكرَ الوليدَ بن يزيدَ وإلحادهُ ، وقال : سيرتُه كـانت خبيثةً كانَ مُنْتَهكاً لِحُرماتِ اللهِ فقتلتُهُ . ثم قال : أيّها الناس : إنّ لكـم عليَّ ألا أضَـعَ حَجَراً على حَجَرٍ ، ولا لَبِنَةً ، على لَبِنةٍ ، ولا أكري (١) نهراً ، ولا أكنزَ مـالاً ، ولا أنقل مالاً مِنْ بلدٍ إلى بلد حتى أسدَّ ثُغْـرةَ وخصاصـة (٢) أهلِـه منْـه بمـا يُغْنِيهِمْ . فمـا فَضَلَ (٣) منْهُ نقلتُه إلى البلدِ الآخر الذي يليه ، ولا أُغْلِقُ بابي دُونكُمْ ، ولَكُمْ أُعْطياتُكم في كُلِّ سنةٍ ، وأرزاقُكم كلَّ شَهْرٍ حتّى يكون أقْصاكُمْ كأدنـاكم . فـإن وَفَيْتُ لكـم بمـا قُلْتُ فعَلَيْكُمْ بالسَّمْعِ والطاعة وحُسْنِ المُؤازرة . وإن لم أُحْرِفْ (٤) ، فلكم أن تخلعوني إلا أنْ أتوب . وإن كُنْتُم تعْلَمون أنَّ أحداً ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسـه مـا قد بذلت لكم وأردتم أن تبايعوه فأنا أوّلُ مَنْ يُبايعُهُ مَعَكُمْ . إنّهُ لا طاعةَ لمخلوقٍ فـي مَعْصيةِ الخالق)) .

أقولُ : إنَّ هذا الكلام حَسَنٌ بالنسبة إلى ذلك الزمـانِ وإلـى اصْطِـلاحِ أهْلِـهِ ، فإنَّ هذه الشّرائطَ هي التي كانتْ مُعْتَبَرةً عنْدَهُم في استحقاقِ الرئاسة . فأمّـا فـي هـذا العصر فلو افتَخَرَ مَلِكٌ من الملوكِ بأنّهُ لا يكري نهْراً ولا يضعُ حَجَراً على حجر ،

---

(١) كرى النهر : حفر فيه حفرة جديدة .

(٢) الثُّغرة : الثُّلمة والنقص ، والخصاصة : الفقر والحاجة .

(٣) فضَلَ : زادَ . (٤) أحرفَ الرّجلُ : كدَّ على عيالِهِ وسعى لخيرهِمْ .

أو نَدَبَ رعيّتَهُ إلى تمليك غيْرِهِ لَعُدَّ سفيهاً ، ولكان جديراً في اصْطلاحهمْ بأن يَمْلِكَ غيْرُهُ .

وفي تلكَ الأيّامِ شَرَعَ حَبْلُ بني أُمَيّةَ يضْطربُ ، وشرعتْ الدولةُ العبّاسيّةُ تَنبُعُ [1] وانْبَعَثَتْ الدعاةُ في الأمصار . وكانتْ وفاته في سنةِ ستٍّ وعشرينَ ومائةٍ .

ثُمّ ملَكَ بَعْدَهُ أخُوهُ إبْراهيمُ بنُ الوَليدِ بن عَبْدِ الملكِ بنِ مروانَ

كانتْ تِلكَ الأيّامُ أيامَ فِتَنٍ ، وكانَ حبْلُ بني أُميّةَ قد اضطرب . فلمّا ماتَ يزيدُ ابنُ الوليد بن عَبْدِ الملك بُويعَ أخوهُ إبراهيمُ بيعةً لم تكُنْ بطائلٍ [2] . فكانَ ناسٌ يُسلِّمون عليه بالخلافةِ ، وناسٌ بالإمارة ، وناسٌ ربمّا يُسلّمون عليه بواحدةٍ منْهُما . واضطَرَبَ أمرُهُ فمكثَ سبعين يوماً ، وسار إليْه مرْوانُ بن محمّد بن مَرْوانَ فَخلَعهُ ، وبُويعَ له بالخِلافةِ وجلَسَ على سريرِ المَمْلكةَ ، وذلك بعدَ حُروبٍ وفتنٍ ووقائعَ يشيبُ منْها الوِلْدان .

ثُمّ ملكَ بَعْدَهُ مَرْوانُ بنُ محمّدِ بنِ مَرْوان

هُوَ آخِرُ خُلفاءِ بني أُميّة ، وعنهُ انتقلتْ الدولةُ إلى بني العبّاس ، ويُقالُ لهُ : الجَعْديّ ، ويُقالُ لهُ : الحمارُ . وإنّما لُقّبَ بالحِمار ، قالوا لِصبْرِه في الحرب ، وكانَ شُجاعاً صاحِبَ دهاءٍ ومَكْرٍ . وكانتْ أيّامُهُ أيّام فتنٍ وَهَرْجٍ ومَرْجٍ . ولم تطل أيّامُه حتّى هَزَمَتْهُ الجُيوشُ العبّاسيّةُ وتبعتْهُ إلى بِلادِ مِصْر ، فقُتِلَ بقريةٍ اسمها ((بُوصير)) مِنْ قُرى الصّعيد وذلك سَنَةَ اثْنَتين وثلاثين ومائةٍ . وفي أيّامه خرجَ عَبْدُ الله بنُ مُعاوية بنِ عبدِ الله بنِ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ .

---

[1] تَنْبُع : تظهرُ .

[2] الطائل : الجدوى والفائدة .

شَرْحُ كَيْفِيَّةِ الحالِ في ذلكَ على سبيلِ الاختِصار

لما اضطربَ حبلُ بني أُميّة وبُويع مرْوانُ ثارَت الفِتَنُ بين النّاس ، واختلفتْ كَلِمَتُهم ، فكلٌّ يرى رأياً ويَذْهَبُ مذْهباً . وكانَ بالكُوفة رجُلٌ منْ ولد جعْفر الطيّار – عليه السّلام – اسمُهُ عبدُ الله بنُ مُعاوية بن عبد الله بن جعْفر بن أبي طالب ، وكانَ فاضلاً شاعراً فحدثتْهُ نفْسُهُ بالأمْر . ورأى أهْلُ الكُوفة اخْتلاف الأُمور بدمشْقَ واضطرابَ حبْلِ بني أُميّةَ ، فحضروا إلى هذا عبد الله وبايعوهُ ، واجْتمعوا حوْلَهُ خلائِقَ : فبرزَ إليهم أميرُ الكُوفةِ يومئذٍ فقاتلَهُمْ بمنْ مَعَهُ ، وتصابر [1] الفريقان مُدّةً ففي آخرِ الأمْرِ طلَبَ أهلُ الكوفةِ لأنْفسهم ولعبْد اللهِ بن مُعاوية بن عبد الله بن جعفر الأمانَ منْ أميرِ الكوفةِ ، ليتوجَّهوا أين شاؤوا منْ بلادِ الله . وكانَ أميرُ الكوفة ومَنْ مَعَهُ قد ملّوا القِتالَ فأعطاهُمْ الأمانَ ، فتوجّه عبْدُ اللهِ إلى المدائن [2] وعبر دجْلة ، وغلَبَ على حُلْوان [3] وما قاربَها . ثم توجّه إلى بلادِ العَجَمِ فغلب على تلك الجِبال وهَمَذان وأصفهانَ والرّيْ والْتَحقَ بهِ قومٌ منْ بني هاشمٍ وبقي على ذلك مُدّةً .

وكانَ أبو مُسْلم الخراسانيُّ قد قويتْ شوكتُهُ ، فسار إلى هذا عبد الله فقتلَهُ . ثُمَّ أظْهَرَ الدولة العبّاسيّة ، ثمّ ظهرتِ الدولةُ العبّاسيّة واشْتهرتْ دعْوتُها .

---

[1] تصابرَ الفريقان : صَمَدَ كُلٌّ منهما للآخر .

[2] المدائن : كانت عاصمةَ الفُرس ، فتحها العرب بعد معركة القادسيّة ، وتخلّفت عنها آثار منها إيوان كِسرى . وموقعها جنوبيّ بغداد .

[3] حُلْوان : يبدو أنها بُليدة في العراق غير تلك التي في مصر وتقع جنوبي القاهرة ، والدليل اجتيازها إلى مدن فارس المذكورة من همذان وأصفهان والرّيّ .

ذِكْرُ انتقالِ المُلْكِ مِنْ بني أميّة إلى بني العبّاسِ

لا بدَّ قَبْلَ الخَوْضِ في ذلك مِنْ مقدّمـةٍ ، يُشْرحُ فيها ابتداءُ أمرِ أبـى مُسْلمٍ الخراساني فإنّهُ رجُلُ الدَّولةِ وصاحبُ الدَّعْوةِ ، وعلى يدِهِ كانَ الفتْحُ .

شَرْحُ ابتداءِ أمْرِ أبي مُسْلِمٍ الخُراسانيِّ ونَسَبِهِ

أمّا نَسَبُهُ : ففيهِ اختلافٌ كثيرٌ لا فائدةَ في استقصاءِ القولِ فيـه ، فقيـلَ : هُـوَ حُرٌّ مِنْ ولَدِ بُزُرْ جُمْهر ، وإنّه ولِدَ بأصفهان ونشأ بالكوفةِ ، فـاتّصل بـإبراهيم الإمـام ابنِ محمّدِ بْنِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بـنِ العبّـاس ، فغيّر اسمه وكنّـاهُ بـأبي مُسْلم وثقّفـهُ وفقّههُ حتى كانَ مِنْهُ ما كان . وقيلَ : هو عبْدٌ ، تنقّلَ في الرقّ حتّى إبراهيمَ الإمـامِ ، فلما رآهُ أعجبَهُ سمْتُهُ وَعقْلُهُ ، فابتاعَهُ مِنْ مولاه وثقّفـه وفهّمـهُ ، وصـارَ يُرْسِلُهُ إلـى شيعتِهِ وأصحابِ دَعْوتِهِ بخُراسانَ وما زالَ على ذلك حتى كانَ مِنَ الأمْرِ ما كان .

وأمّا هُو : فإنه لمّا قويَتْ شوكَتُهُ ، ادّعـى أنّـهُ ابنُ سُليط بـنِ عبـدِ اللـه بـنِ العبّاس ثم تَرسّلَ أبو مُسْلم لإبراهيمَ الإمامِ إلى خُراسـان وَدعـا إليـه سِرّاً . ومـا زالَ على ذلك حتّى ظَهَرَتْ الدعوة وتمّ الأمْرُ .

مُقدّمة أُخرى قَبْلَ الخَوْضِ فيها

قالَ الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأيّامُ نُداولها بَيْنَ النّاس ﴾ [1] .

وَعَزّى بَعْضُ الحُكماءِ بَعضَ المُلوك عَنْ مملكةٍ خَرجَتْ عنْهُ فقال : لَوْ بَقِيَتْ لِغَيْرِكَ لَما وَصَلَتْ إليْكَ .

واعْلَم - علمتَ الخيْرَ - أنّ هذه دولةٌ مِنْ كِبارِ الدُّوَل ، ساستْ العالَمَ سياسةً ممزوجَةً بالدّينِ والمُلْكِ ، فكانَ أخيارُ الناس وصلحاؤُهم يطيعونها تديّناً ، والباقون يُطيعونَها رهبةً أو رغبةً ، ثمّ مكثَتْ فيها الخلافةُ والمُلْكُ حدُودَ ستمائةِ سنةٍ ، ثم

---

[1] سورة آل عمران ، الآية / ١٤٠ / .

طَرأتْ عليها دولٌ كدولةِ بني بُويْه [1] ، وكانتْ عظمَتُها كما علمت ، وفيها كبْشُهُمْ وفحْلُهُمْ عَضُدُ الدَوْلَة فناخسرو وكَدَوْلَة بني سلْجوق [2] وفيها مثْلُ طُغْرلبك.وكالدَوْلَة الخَوارزمِشاهية [3] وفيها مثْلُ علاءِ الدين ، وجريدةُ عسْكرِه مُشْتملةٌ على أربعمائةِ ألفِ مقاتلٍ.وكَدوْلةِ الفاطميّينَ بمصر ، وقد وَجّهوا عسْكرا صُحْبةَ عبدٍ من عبيدهم اسمهُ جوهر [4] لم يُرَ عَسْكرٌ أكْثفَ منْهُ،حتّى قال فيه شاعرُهُم وهو محمّد بنُ هانىء [5] المَغْرِبيُّ :

فلا عَسكَرٌ مِنْ قَبْلِ عَسكَرِ جَوْهَرٍ تخبُّ المَطايا فيهِ عَشْراً وتُوضعُ

(طويل)

وكَخوارج خرَجوا في أثنائِها بجموعٍ كثيرةٍ ، وحُشُودٍ عظيمةٍ . كلُّ ذلك ولَمْ يَزُلْ مُلْكُهُمْ ، ولم تَقوَ دولةٌ على إزالةِ مُلْكِهم ومَحْوِ أثرِهِمْ ، بل كان الملكُ مِنْ هؤلاءِ المذكورين يجمعُ ويحتشد ويجرُّ العَساكرَ العظيمة ، حتى يصل إلى بغداد ، فإذا وَصَلَ التمس الحُضُورَ بينَ يَدي الخَليفة ، فإذا حضرَ قبّلَ الأرْض بين يَدَيهِ ، وكان قُصارى ما يتمنّاهُ أنْ يُوليهُ الخليفةُ ويعقدَ لهُ لواءً ويَخْلَعَ عليه . فإذا فعل

---

[1] بنو بُويه : أسرةٌ فارسية حكمتْ في أصفهان وشيراز وكرمان وبغداد . أسّسها أبو شجاع بويه وأولادُهُ الثلاثة عماد الدولة وركن الدولة ومعزّ الدولة الذي دخل بغداد في عهد الخليفة المستكفي وخلعه سنة / ٣٣٤ / هـ . قضى على دولتهم طُغْرُلبك السلجوقي عام / ٤٤٧ / هـ .

[2] دولة بني سلجوق : هي الدولة التي قضت على البويهيين وخلفتهم في التنفّذ في بغداد/٤٤٧ - ٦٥٦/ هـ حين قضى عليها جنكيز خان وخلفاؤه ومنهم هوركو . تفرعت أسرة السلاجقة ما بين سورية والعراق وروميّة وخلفها الأتابكة .

[3] الخوارزمشاهيّة : دولة تنفذت على بخارى وسمرقند إلى أن غزاها جنكيز خان وتيمور لنك ، وتقع أراضيها اليوم في أوزبكستان من دويلات الاتحاد السوفياتي السابق . كان استمرارها / ١٠٩٧ - ١٢٣١ / م .

[4] جَوْهر : هو المعروف بجوهر الصقليّ فتح مصر للمعزّ الفاطمي ، وأنشأ مدينة القاهرة وبنى الأزهر عام / ٣٥٩ / هـ توفي عام / ٣٨١ / هـ .

[5] محمّد بن هانىء المغربيّ : أصله من الأندلس ولد بإشبيلية . لقب بمتنبي المغرب ، مدح المعزّ الفاطمي ، ومات مقتولاً في برقة عام / ٣٦٢ / هـ .

الخليفةُ ذلك قَبَّلَ الملكُ الأَرْضَ بَيْنَ يديـه ، ومشـى فـي ركابـه راجـلاً ، والغاشـية [1] تحتَ إبْطِهِ ، كما فعلَ مسعودٌ السُّلْطانُ معَ المُسْتَرشدِ فإنَّ المُسترشد وقعتْ بينهُ وبيـنَ مَسْعودٍ مُنابذةٌ أدّتْ إلى مُحاربـة ، فخـرجَ المُسْترشـد بعسْكر كثيـفٍ وصحبتـه جميـعُ أربابِ الدّولةِ ، فالتقى هو والسلطان مسْـعود [2] بظـاهر مراغـة فـاقْتتلوا سـاعةً ، ثـمّ انكشفَ الغبارُ وقد انهـزمَ أصْحـابُ المُسْترشـد ، واسْتولى عسْكرُ مسْـعود ، فـانجلى الغُبارُ والخليفةُ ثابتٌ على ظَهْرِ فرسه ، وفي يده المُصْحفُ وحواليه القـرّاءُ والقُضـاةُ والوُزراءُ لم يَنْهَزِمْ أحد منهم ، وإنّما انهـزمِ المقـاتلون . فلمـا نظـرَ السُّلطانُ مَسْعودٌ إليْهِمْ ، أرْسلَ مَنْ قـادَ دابّـةَ الخليفـةِ وأدْخلـهُ إلى خيمـةٍ قد نُصبتْ لـهُ وأخذَ أربـابَ دولته فَحَبَسَهُمْ في قلعةٍ قريبةٍ من تلك النواحي ، ثم غنموا جميع ما كـان فـي عسْكرِ الخليفة . وبعد أيّامٍ اجتمعَ السلطانُ بالخليفة وعاتبهُ على فعلـه ، ثـم تقـرّرَ بينهـم أمـرُ الصلح فاصطلحا ، وركبَ الخليفةُ إلـى مُخيـم عظيـمٍ ضربـهُ لأجلـه السُّلطانُ . فلمـا ركبَ الخليفةُ أخذَ السُّلطانُ مَسْعودٌ الغاشـية ومشـى فـي ركابـه ، ثـم جـرى مِنْ قَتْلِ المُسْترشدِ ما نذكرهُ بعدَ هذا .

فهذه الدولُ جميعُها طرأتْ على دولة بني العباس ، ولم تقو نفسُ أحدٍ على إزالةِ مُلكهم ومَحْوِ آثارهم . وكانتْ لهم في نفوس الناس منزلةٌ لا تدانيها منزلـةُ أحدٍ آخر من العالم ، ، حتى إنَّ السلطانَ ((هولاكو)) لما فتحَ بغداد ، وأراد قتل الخليفـةَ أبي أحمدَ عبدِ الله المستعصم – ألقوْا إلـى سـمْعه أنـه متـى قُتـل الخليفـةُ اختـلَّ نظـامُ العالمِ واحتَجَبَتِ الشَّمْسُ وامتنـعَ القَطْـرُ والنبـات . فاستشـعر لذلـك ، ثُـمّ سـألَ بعضَ العلماء في حقيقةِ الحال عن ذلك فذكرَ ذلك العالمُ لهُ الحقَّ في هذا ، وقال : إنّ علـيَّ ابنَ أبي طالبٍ كـانَ خيراً مـن هـذا الخليفـة بإجمـاع العـالم ، ثـم قُتـل ولـم تجـرِ هـذه المحذورات ، وكذلك الحُسَيْن . وكذلك أجدادُ هذا الخليفة ، قُتلـوا وجـرى عليهـم كلُّ مكروهٍ ، وما احتجبتِ الشمسُ ولا امتنعَ القطرُ فحينَ سمعَ زالَ ما كانَ قدْ حصَلَ في

---

[1] الغاشية : الزوّار والحاشية .

[2] مسعود : هو مسعود بن محمد السلجوقي خلع الخليفة العباسي المُسترشـد / ٥٢٩ / هـ وعبـث بالحكم في بغداد حتى تولى المقتفي / ٥٣٠ / هـ .

خاطرِهِ ، واعتذرَ ذلك العالِمُ عن هذا القول بأنَّ هيبَةَ السُّلْطان كانتْ عظيمةً وسَطْوَتُه مرهوبةً ، فما تجاسرتُ أن أقولَ بينَ يديه غيْرَ الحقِّ . فهذا كان اعتقادُ النّاسِ في بني العبّاس . وما قويتْ دَوْلَةٌ من الدول على إزالة مملكتِهِمْ ومحْوِ أثرِهِمْ سوى هذه الدولةِ القاهرة . نشَرَ اللهُ إحْسانَها وأعلى شأنَها .

فإن السلطانَ هولاكو لمّا فتحَ بغْداد وقتلَ الخليفة ، محا أثَر بني العبّاسِ كُلَّ المحو ، وغيَّرَ جميعَ قواعدِهِمْ . حتّى إن الذي كان يتلفّظ باسم بني العبّاس كانَ على خطرٍ منْ ذلك .

وَ ها هُنا مَوْضِعُ حِكايةٍ

حدّثني نَصْر المليسيِّ الحبشيِّ أحَدُ خُدّام السُّلطان – مدَّ الله معْدلتَهُ [1] ، وأعلى في الدارينِ دَرَجتَهُ – وكان قبل ذلك للخليفةِ المُستَعصم قال : لما مُلكتْ بغدادُ أخْرَجوني وأنا صغيرٌ في جملةِ الخَدَمِ ، فلازمْنا خدْمةَ الدَّرْكاه [2] أيّاماً . فلمّا بَعُدْنا منْ بغْداد أحْضَرَنا السُّلْطانُ هولاكو يوماً بين يديه ، وكانَ علينا زيُّ الخلافةِ ، فقال : أنتُمْ كُنتمْ قَبْلَ هذا للخليفةِ ، وأنتُم اليوم لي . فينبغي أن تخدموني خدمةً جيدةً بنصيحة وتُزيلوا من قلوبكم اسم الخليفةِ ، فذاك شيءٌ كان ومضى . وإن آثرتم تغييرَ هذا الزّيِ ، والدُّخولَ في زِيِّنا كان أصلَحَ . قال : قُلْنا : السَّمْعَ والطاعة . ثم غيَّرنا زينا ودَخلنا زِيَّهم .

شرحُ ابتداءِ الدولةِ العباسيّة

رُوِيَ أنَّ الرسولَ – صلواتُ الله عليه – كان يجري على لفظه الشريف ما معناهُ البِشارة بدولة هاشميّةٍ . فزَعم ناسٌ أنه قال : تكونُ لرجل منْ ولدي . وزَعَمَ ناسٌ أنه – عليه الصلاةُ والسّلام – قال لِعمِّه العبّاس – رضي الله عنه وسلَّمَ – : إنَّها تكونُ في وَلَدِكَ ، وأنه حينَ أتاه بابنِه عبد الله أذَّنَ في أُذنه وتفل في فيه ، وقالَ

---

[1] معْدلتُه : سلطانُ عدله .

[2] الدَّركاه : القصر أو السدّة السلطانية باللغة الفارسية .

((اللهمَّ فقِّهْهُ في الدين وعلِّمهُ التأويل)) ثمَّ دفعهُ إلى أبيه وقال له : خُذْ إليكَ أبا الأملاك . فمَنْ زعمَ هذا الزعم قالَ : إن الدولة العباسيَّةَ هي الدولةُ المُبشَّرُ بها ، وكانَتْ دولةُ بني أميَّة مكروهةً عند الناس ملْعونة مذمومة ، ثقيلة الوطأة مستهتِرة بالمعاصي والقبائح فكانَ الناسُ من أهلِ الأمصار ينتظرون هذه الدولة صباحَ مساء ، وكانَ محمَّدُ بنُ عليٍّ بن أبي طالبٍ - عليه السَّلام - وهو المعروفُ بابن الحنفيَّةِ ، قد اعتقد فيه أنَّهُ صاحب الدَّولة بعد قتل أخيه الحُسين - عليه السَّلام - ما عدا الإماميَّة ، فإنَّ اعتِقادَهُمْ إمامةُ عليٍّ بن الحُسين زين العابدين - عليه السَّلام - وإمامةُ بنيه واحداً بعد واحدٍ إلى القائم محمَّد بن الحَسن (عليه السَّلام) .

فلما ماتَ محمَّدُ بنُ الحنفية [1] - عليه السَّلام - أوْصى إلى ابنه أبي هاشمٍ عبْدِ الله . وكانَ أبو هاشمٍ من رجالِ أهل البيت - عليهم السَّلام - فاتَّفق أنَّهُ قصدَ دمشْقَ وافِداً على هشام بنِ عبدِ الملكِ ، فبرَّهُ هشامٌ ووصلَهُ ، ثُمَّ رأى من فصاحتِهِ ورياستِهِ وعِلْمِه ما حَسَدَهُ عليهِ وخافَ منْهُ ، فبعثَ إليه وقدْ رجع إلى المدينة مَنْ سمَّهُ في لبنٍ . فلمَّا عَلِمَ بذلك عَدَلَ إلى محمَّد بن عليِّ بنِ عبد الله بن العبَّاس ، وكانَ نازلاً بالحُميْمَة منْ أرضِ الشَّام ، فأعْلَمَهُ أنَّه ميِّتٌ وأوْصى إليه ، وكانَ صحبتَه جماعةٌ مِنَ الشِّيعة فسلَّمَهُمْ إليهِ وأوصاه فيهم ثمَّ ماتَ - رضي الله عنه - فتهوَّس مُحمَّد بن عبدِ الله بالخِلافة منذُ يومئذٍ ، وشرع في بثِّ الدَّعوة سِرّاً ، وما زالَ الأمرُ على ذلك حتَّى ماتَ وخلَّفَ أولادهُ . وهم جماعةٌ : منهم إبْراهيمُ الإمامُ ، والسَّفَّاحُ والمنْصور ، فقامَ إبراهيمُ الإمامُ بالأمْرِ بَعْدَ أبيه ، واستكثرَ منْ إرْسال الدُّعاةِ إلى الأطرافِ ، خُصوصاً إلى خُراسان فإنهم كانوا أشدَّ وثوقاً بأهْلِ خُراسان منْ غَيْرِهِم مِنْ أهلِ الأمصار .

---

[1] محمَّد بن الحنفيَّة : ابن علي بن أبي طالب وأخو الحسن والحسين ولكن أمَّه غير فاطمة الزهراء ، بل هي خولة بنتُ جعفر الحنفيَّة وإليها يُنسب . كان أسود اللون . تقيّاً ورعاً . دعا المختارُ الثقفيُّ إلى إمامته . حبَسه عبدُ الله بنُ الزبير ليكرهه على بيعته . توفي بالطائف / ٨١ / هـ .

أمّا أهلُ الحجاز . فقليلون . وأما أهـلُ الكوفـة والبصـرة ، فكـان أهـلُ البيتِ مَذْعوريـن لِمـا جَـرى مِنْهـم عـلى أميـر الـمؤمنين - عليـه السّلام - والحَسـن والحُسين - عليهما السّلام - من الخـذلان والغـدرِ ، وسـفك الدّم . وأمّـا أهـلُ الشّام ومصْر - فهواهم في بني أميّة ، وحبُّ بني أُميّة رسَخ في قلوبهم . فلم يبق لهـم مَـنْ يسكنون إليهِ مِنْ أهلِ الأمصارِ إلا أهلَ خُراسان .

وكان يُقالُ - إنّ الراياتِ السُّود الناصرة لأهل البيت تخـرجُ مـنْ خُراسـانَ . فأرْسَلَ إبْراهيمُ الإمامُ جماعةً منَ الدُّعاةِ إلـى خراسـانَ ، وكـاتب مشـايخها ودهاقينهـا فأجابوه وَدَعَوْا إليه سرّاً . وأرسلَ في آخرِ الأمْر أبا مسلم ، فمضى إلى هُناك وجَمَـعَ الجُموعَ . كلُّ ذلك والأمْرُ سرٌّ ، والدَّعوة مخفية لم تَظْهر بَعدُ .

فلمّا كانتْ أيامُ مروانَ الحِمار بنِ محمّد بن مروان - آخرِ خُلفاءِ بني أُميّة - كثُر الهَرْجُ والمَرْجُ ، ونما الشّرُّ وثارت الفِتنُ ، واضْطربَ حبْلُ بنـي أميّة ، واخْتلفتْ كَلِمَتهُمْ وقَتَلَ بعضهُم بعضاً - أظْهَر أبو مُسلم دعْوَةَ بني العبـاس ، واجْتَمَـعَ إليـه كـلُّ مـن لـه فـي ذلـك رأيٌ مِـنْ أهـلِ خُراسـان ، وجـرَّ عَسْكراً كثيفـا ليقـاتل بـه أمـيرَ خُراسان وهوَ نَصْرُ بنُ سيّار [1] . فلمّا بلَغ نصْرا حالُ أبـي مُسْلم وجُموعـه ، راعـهُ ذلك فكَتَبَ إلى مَرْوانَ الحِمار :

أرى بينَ الرَّمـادِ وَميضَ نــارٍ	ويوشِكُ أن يكونَ لَها ضِرامُ
فـإنْ لـم يَطْفِهـا عُقـلاءُ قـومٍ	يكـونُ وقـودهـا جثثٌ وهـامُ
فـإنَّ النـارَ بـالعُودَيْن تَذْكـى	وإنَّ الحربَ أوّلُها كَـــلامُ
فقلتُ مِنَ التعجُّبِ لَيتَ شعـري	أأيقـاظٌ أميّــةُ أمْ نيــامُ ؟

فكَتَبَ إليهِ مَروانُ : إنّ الحاضرَ يرى ما لا يرى الغـائبُ ، فاحْسِمْ أنْـتَ هـذا الداءَ الذي قد ظهر عِنْدَكَ . فقال نَصْرُ بنُ سيّار لأصحابهِ : أمّا صاحِبُكُمْ فقد أعْلَمَكُـمْ أنه لا نصرَ عنده . وتواترتِ الأخبارُ إلى مروان بهذا الأمر ، وحَبْلُه كلمّا جاءَ خبر

---

[1] نصرُ بن سيّار : أميرٌ داهية شجاع وُلّيَ على خراسان عام / ١٢٠ / هـ من قِبَل هشام بن عبد الملك فغزا وفتحَ وأقام بمَرْوَ ، وحين قويت الدعوةُ العباسيّةُ حذَّر مروان بن محمّد وأخذ يتنقّل في طلب النجدة ضدّ أبي مسلم قائد الدعوة العباسية . مات بساوة / ١٣١ / هـ .

يضطربُ ؛ وأمْرُه في كلّ يومٍ يضعفُ . ثم بلغهُ أن الذي تدعو الدعاةُ إليه هُو إبراهيمُ بنُ محمّد بنِ عليّ بن عبد الله بنِ عبّاس أخو السفّاح والمنْصورِ ، فأرسلَ إليه وقبضَ عليه ، وأحضرهُ إلى حرّان فحبسهُ فيها ، ثمّ سمّهُ في الحبْس فماتَ .

ثمَّ جرتْ بينَ أبي مسلم وبينَ نصر بن سيّار وغيره منْ أُمراء خراسانَ حُروبٌ ووقائعُ ، كانتْ الغلبةُ فيها للمُسَوّدة وهُمْ عسْكرُ أبي مُسْلم ، وإنّما سمّوا - المُسَودة لأنَّ الزّيَّ الذي اختاروهُ لبني العبّاس هو لونُ السّواد . فانظرْ إلى قُدْرةِ اللهِ تعالى وأنهُ إذا أرادَ أمْراً هيّأ أسبابهُ ، وإذا أرادَ أمْراً فلا مردَّ لأمرهِ .

لما قدّر اللهُ انتقالَ المُلْكِ إلى بني العبّاس هيّأ جميعَ الأسْباب - فكان إبراهيمُ الإمامُ ابنُ محمّد بنِ عليّ بن عبد الله بن العبّاس بالحجاز أو بالشام جالساً على مُصَلاهُ مَشْغولاً بنَفْسه وعبادتِه ومصالحِ عياله ، ليسَ عندهُ من الدُّنيا طائل ، وأهلُ خُراسانَ يُقاتلونَ عنهُ ويبذلونَ نُفوسهم وأمْوالهم دُونهُ ، وأكثرُهمْ لا يعرفهُ ولا يفرّقُ بينَ اسمهِ وشَخصهِ . وانظرْ إلى إبراهيمَ الإمام ، هو بتلك الحالة من الانقطاعِ بدارهِ واعتزالِ الدُّنيا وهو بالحجازِ أو بالشام ، ولهُ مثْلُ هذا العسْكرِ العظيم في خُراسان يَبذُلون نُفوسَهم دونهُ ، لا يُنْفِقُ عليهم مالاً ، ولا يُعطي أحَدهم دابّةً ولا سلاحاً . بَلْ هم يَجْبُون إليهِ الأمْوالَ ويحملونَ إليه الخراجَ في كلّ سنةٍ .

ولما قدّر اللهُ تعالى خِذْلانَ مرْوان ، وانقراضَ مُلكِ بني أُميّة ، وكانَ مرْوانُ خليفةً مُبايعاً ، ومَعَهُ الجنودُ والأموالُ والسّلاحُ ، والدُّنيا بأجْمَعها عنْدَهُ ، والنّاسُ يتفركونَ عنْهُ وأمرُهُ يضْعُف ، وحبلُه يضْطرب ، فما زالَ يضْمحلُّ حتّى هُزِمَ وقُتِل ، فتعالى الله ! ! .

ولمّا غلبَ أبو مُسلمٍ على خُراسان واستولى على كُورِها [1] وقويتْ شوكتُه سارَ إلى العراقِ بالجُنودِ . وكانَ لمّا قبضَ مرْوانُ على إبراهيمَ الإمامِ وحبسهُ بحرّان [2] وكانَ لَهُمْ بها شيعةٌ - منهم أبو سلمة حفْصُ بنُ سليمانَ الخلالُ . وكان منْ كبارِ

---

[1] كُورها : قُراها المسكونة ، جمع كُورَة : وهي البقعة المأهولة أو القرية .

[2] حرّان : مدينة قديمة تقع ما بين النهرين في تركيا اليوم ، نقل إليها مروان بن محمّد الأموي مقرّ إدارته في أواخرِ أيّام الدولة الأمويّة .

الشّيعةِ بالكوفةِ وصارَ بَعْدَ ذلكَ وزيراً للسفّاح ، ثم قتلَهُ السفّاح ، وسيردُ ذكْرُهُ عِنْدَ ذِكرِ الوُزراءِ . فأخْلى لهُم أبو سلَمةَ الخلالُ دارا بالكوفةِ ، وأمر لهمْ بها ، وتولّى خِدْمَتَهم بنفسهِ ، وكَتمَ أمْرَهُم ، واجتّمعتْ الشّيعةُ إليه ، وقَويتْ شوكَتُهم . فوصلَ أبو مسلم بالجنود مِنْ خُراسانَ إلى الكوفةِ . فدخلَ على بني العبّاس وقال : أيكم ابنُ الحارثية ؟ فقالَ لـه المنصور : هذا – وأشار إلى السفّاح وكانت أمّهُ حارثيّة – فسلّم أبو مسلم عليه بالخلافةِ [1] بين يديه إلى الجامع ، فصلّى وصَعد المنبرَ وأظهرَ الدّعْوةَ وخَطَبَ الناسَ وبُويعَ بالخِلافةِ . وذلك في سنةِ مائةٍ واثنتين وثلاثين ، وهذا أوّلُ دولَةِ بني العبّاسِ ، وآخِرِ دوْلةِ بني أُميّة .

ثم عَسكَرَ السفّاحُ ظاهرَ الكوفة ، ووفَدَ عليهِ الناسُ مِنَ الأمْصارِ يُبايعونَهُ . فلمّا اجْتَمعَ عِنْدَهُ النّاسُ وقَويتْ شوكَتُه ، نَدبَ رجُلاً مِنْ أقاربِه لقتالِ مرْوانِ الحمارِ ، فانْتَدبَ لِذلك عمُّهُ عَبْدَ الله بنَ عليٍّ وكانَ منْ رجالِ بني العبّاس ، فتوجّهَ عَبْدُ اللهِ بنُ عليٍّ إلى مرْوانَ فلَقِيَهُ بالزّاب [2] ، ومعَ مرْوانُ مائةٌ وعشرون ألف مُقاتلٍ ولا يكونُ معَ عَبدِ الله بنِ عليٍّ إلا الأقلُّ مِنْ ذلك فصنَعَ الله تعالى لعبد اللـه بنِ عليٍّ أنواعَ الصّنْع ، وخذلَ مرْوانَ كُلَّ الخِذْلانِ ، فانْظُرْ واعتَبِر ! .

شَرْحُ كَيْفيّةِ الوَقْعةِ بالزّابِ وخِذلانِ مَرْوانَ وانْهزامِهِ

لما التَقى على الزّابِ مَرْوانُ الحِمارُ وعَبْدُ اللهِ بنُ عليٍّ ، قالَ مَرْوانُ لبَعْضِ أصْحابِهِ إنْ غابَتْ شَمْسُ هذا النهار ولم يقاتلون [3] فالخِلافةُ فينا ، ونحْنُ نُسلّمُها في آخرِ الزمانِ إلى المسيح عليهِ السّلامُ ، وأمَرَ أصْحابَهُ بالكفّ عن القتالِ ، وقَصَدَ أنْ ينقضي النّهارُ ولا يقع قِتالٌ . ثم أرْسلَ إلى عبْدِ اللهِ بنِ عليٍّ يسألُهُ الموادَعةَ ، فقالَ

---

[1] فسلّم أبو مسلم عليه بالخلافة : تمام العبارة بعدها [وخرج السفّاح ومعه إخوتُه وعمومته وأقاربُه وأكابر الشيعة وأبو مسلم بين يديه إلى الجامع ، فصلّى ..] . انظر طبعة بيروت ص ١٤٦ ، وألما ص ١٧٢ ، ورحما ص ١٠٥ .

[2] الزّاب : اسمٌ لرافدين من روافد نهر دجلة . وقد جرت الموقعة بين مروان بن محمّد وعبد اللـه بن عليٍّ على الزاب الكبير ويلتقي بدجلة جنوب الموصل .

[3] يقاتلون : الصواب فيها : يقاتلونـا . انظر طبعة بيروت ص ١٤٦ ، وألما ص ١٧٣ ورحما ص ١٠٦ .

عَبْدُ اللهِ : كذبَ لا تزولُ الشمس حتى أوطئهُ الخيلَ إنْ شاءَ اللهُ تعالى .

فكانَ من الاتّفاقات الطريفة ، أنّ صهر مرْوان حمَل على قِطْعةٍ منْ عسْكرِ عَبْدِ الله بنِ عليٍّ فردّهُ مرْوانُ وشتَمهُ فلم يقْبل ، ونشبَ القِتال . فأمر عَبْدُ الله بنُ عليٍّ أصْحابهُ بالمناجزةِ [1] فجثوا على الركب وأشرعوا الرِّماح . ونادى عبدُ الله بنُ عليٍّ : يا ربُّ حتى متى نُقتلُ فيك ؟ ونادى : يا أهلَ خُراسان ، يالثارات إبراهيمَ الإمامِ ! واشتدّ القتالُ ، فصارَ مرْوانُ إذا أمر طائفةً منَ العسكرِ بشيء قالوا : قُلْ للطائفةِ الأخرى وبلغَ منْ أمرهِ أنهُ قال لصاحب شرْطته : انزلْ إلى الأرضِ ، فقال : لا واللهِ ، لا أُلقي نفسي في التهلكة . فقال لهُ مروانُ : لأفعلنّ بك ، وتهدّده . فقالَ : وددْتُ أنك تقدرُ على ذلك . ثم رأى مروانُ فترة أصحابهِ ومُناجزة أصْحاب عبد الله ابنِ عليٍّ فوضعَ مَروانُ ذهباً كثيراً قُدّامَ الناس ، وقالَ : أيُّها الناسُ : قاتلوا وهذا المال لكمْ فصارَ الناسُ يمدّون أيديهمْ إلى المال ، ويتناولون منْهُ شيئاً شيئاً ، فقالَ بعضُ الناسِ لمروانَ ، إنّ الناسَ قدّموا أيديهم إلى المال ، ولا نأمنُ أنهم يذهبونَ بهِ فأمر ابنَهُ أنْ يسيرَ في أواخرِ العسكرِ ، فمن وجد معه شيئاً من المال قتلهُ . فرجعَ ابنُهُ برايتهِ ليتعهّدَ ما قالَ فرأى الناسُ الرايةَ راجعةً ، فنادَوا : الهزيمةَ الهزيمةَ . فانهزمَ الناسُ ومروانُ أيضاً ، وعبروا دِجْلة ، فكانَ مَنْ غرقَ أكثرَ ممنْ قُتلَ وتلا عبدُ الله بنُ عليٍّ : ﴿ وإذْ فَرَقْنا بِكُمْ البحرَ فأنجيناكُمْ وأغرقنا آلَ فِرْعَونَ وأنتم تَنْظُرون ﴾ [2] ثم انتقلَ إلى عسكر مروان ، وغنم ما فيه ، وأقام به سبعةَ أيامٍ .

شَرحُ مَقْتلِ مروانَ الحمار [3]

ثُمَّ إنَّ مروان مضى منهزماً حتى وصلَ الموصل ، فقطعَ أهلها الجسرَ ومنعوهُ منَ العُبورِ ، فنادى أصحابُهُ ، يا أهلَ الموصل ، هذا أميرُ المؤمنين يريدُ العُبورَ . فناداهمْ أهلُ المَوصل ، كذَبتُمْ ، أميرُ المؤمنين لا يفرُّ . وسبّهُ أهلُ الموصل

---

[1] المناجزة : الهجومُ بالقتال . المقاتلة . [2] سورة البقرة ، الآية : /٥٠/ .

[3] انظر ((تاريخ الخلفاء)) لجلال الدين السيوطي . ص ٢٤٤ طبعة دار القلم العربي للاطلاع على سبب تلقيب مروان بالجعديّ ، وبالحمار .

وقالوا لهُ : الحمدُ للهِ الذي أزالَ سُلطانَكم وذهب بدولتِكم . الحمدُ لله الذي أتانا بأهلِ بيتِ نبيّنا . فلمّا سمعَ ذلك سار إلى بلدٍ وعبرَ دجْلة وأتى حرّان ، ثُمّ منها إلى دمشْقَ ثُمّ مِنها إلى مِصْرَ وتبِعَهُ عبدُ اللهِ بنُ عليٍّ ، ثم أرسل خلفهُ بعض أصحابِهِ فرآهُ بِقريةٍ مِنْ قُرى الصَّعيدِ اسمُها ((بُوصير)) فخرجَ إليهم ليلا مروانُ وقاتلَهُمْ ، فقالَ لِجُنْدِ بني العباس أميرُهُمْ : إنْ أصبحنا ورأوْا قلّتنا أهلكونا ولم ينجُ منا أحد ، فناجزوا القوم . وكسر جفْنَ [1] سيفِهِ ، وفعلَ أصحابهُ مثلَهُ ، وحملوا عليهم فانهزموا . وحملَ رجلٌ على مروان فطعنهُ وهو لا يعرفهُ فصرعهُ ، وصاح صائحٌ ، صُرِعَ أميرُ المؤمنين ! فابتدروه ، فسبقَ إليهِ رجلٌ منْ أهلِ الكُوفةِ فاحتزّ رأسهُ ، ثم نفضَ الرأسَ وقطَعَ لِسانهُ فأكلتْهُ هِرةٌ كانت هناك . ثم حملَ الرّأس إلى السفاحِ فوصلَ إليهِ وهو بالكوفةِ ، فلما رآهُ سَجدَ ، ثم رفع رأسهُ وقالَ : الحمدُ لله الذي أظهرني [2] عليك ، وأظفرني بكَ ، ولم يبقَ ثأري قبلك وتمثل [3] :

لَوْ يشربونَ دَمي لم يَرْوِ شارِبَهُمْ ... ولا دِماؤُهُمْ للغيظِ ترويني [4]

(بسيط)

ثم صفا المُلكُ للسفّاحِ .

وهي التي تسلمت الملك من الدولة الأمويةِ

واعلمْ أنَّ الدولةَ العباسيةَ كانتْ دولةً ذاتَ خُدعٍ ودهاءٍ وغدْرٍ ، وكانَ قِسْمُ التحيّلِ والمُخادعةِ فيها أوْفرَ من قسم القوةِ والشدّةِ ، خصوصاً في أواخرِها . فإنّ المتأخرين مِنهُمْ بطلوا قُوّةَ الشدّةِ والنّجْدةِ ، وركنوا إلى الحيل والخُدعِ وفي مثل ذلك يقولُ كُشاجِم [5] مُشيراً إلى موادعةِ أصحابِ السّيوفِ ، وعداوة أصحاب الأقلامِ ومُقاتلةِ بعضهم لبعضٍ :

---

[1] جفْنُ السيف : قِرابُهُ أو غمده . وكسْرُ الجفن كناية عن الاستمرار في القتال والمناجزة .

[2] أظْهرني : نصرَني .

[3] تمثّلَ : قال شعراً في المناسبة .

[4] معنى البيت : إنّ أعدائي من بني أميّة لم يكنْ ليشفيهم من حقدهم عليّ شافٍ حتى لوْ شربوا دمي ، كما أنّني لا أشتفي بدمائهم ، لشدّة غيظي منهم ، وحقدي عليهم .

[5] كُشاجِم : أبو الفتح محمودُ بن الحُسين ، كاتبٌ وشاعرٌ وأديبٌ مبدع ومتفنن فارسيُّ الأصل ولد في العراق وأقام في حلب ومدح الحمدانيين . توفي / ٣٥٠ / هـ .

هنيئاً لأصحابِ السُيوفِ بطالةً تقضَى بهــا أوقـاتُهُـمْ في التنعمِ
فَكَمْ فيهمْ من وادَعَ العيشَ لم يهجْ لحربٍ ولم يَنهدْ لِقِرْنٍ [1] مُصَمَمِ
يَروحُ ويغدو عـاقِـداً في نِجـادِهِ حُسـامـاً سَليمَ الحَدِّ لمْ يتثلمِ
ولكـنْ ذوو الأقـلامِ في كُلِّ ساعةٍ سُيوفُهُم ليستْ تجـفُ مـنَ الـدمِ

(طويل)

وفيها يقولُ بعضُ الشعراء ، حين قتلَ المُتوكلُ وزيرَهُ محمد بن عبدِ الملك الزيات :

يكـادُ القلبُ مِنْ جَزَعٍ يطيـرُ إذا مـا قيلَ : قَدْ قُتِلَ الوزيرُ
أ ميـرَ المؤمنينَ قتلتَ شخصـاً عليـهِ رَحاكُمْ كانتْ تدورُ [2]
فمهـلاً يـا بني العبّـاسِ مهلاً لَقَدْ كُوِيَتْ بِغَدْرِكُمُ الصُدُورُ

(وافر)

إلا أنّها كانتْ دولةً كثيرةَ المحاسنِ جمّةَ والمكارمِ . أسواقُ العُلومِ فيها قائمـةٌ وبضائعُ الآدابِ فيها نافقةٌ ، وشعائرُ الدين فيها معظّمـةٌ ، والخيراتُ فيها دارّةٌ [3] ، والدّنيا عامرةٌ ، والحُرُماتُ مرعيّةٌ ؛ والثغورُ محصّنةٌ ؛ ومـا زالت علـى ذلك حتى كانتْ أواخِرُها فانتشرَ الجبر [4] واضطرب الأمرُ ، وانتقلتِ الدولةُ . وسيَردِ ذلك في مَوضعهِ مَشْروحاً إنْ شاءَ اللهُ تعالى . وهذا أوانُ الشروعِ في ذكرِ خليفةٍ خليفةٍ .

أول خليفة ملكَ منهم : السفّاح

هوَ أبو العبّاس عبدُ الله بنُ محمد بنِ عليِّ بنِ عبد الله بـن العبـاسِ بـنِ عبدِ المطلبِ بُويعَ في سنةِ مائةٍ واثنتين وثلاثين .

---

[1] القِرْن : النِدّ المماثل . ينهدُ : يبرز متصدّياً .

[2] ..رحاكم كانتْ تدور : كناية عن خدمة الوزير للخليفة وإخلاصه في مهمته .

[3] دارّة : كثيرة الدَرّ أي الفوائد ، استعارة من درّ الضرع باللبن .

[4] الجَبْر : الإكراه والتعسّف ، الظُلم .

كانَ كريماً حليماً وَقوراً عاقلاً كامِلاً ، كثـيرَ الحياء حسـنَ الأخـلاقِ . ولمـا بُويعَ واستوسقَ [١] لهُ الأمرُ تتبّعَ بقايا بني أميةَ ورِجالهم ، فوضع السَّيفَ فيهم .

وفي بَعضِ أيّامه كان جالساً في مجلسِ الخِلافة ، وعندهُ سُليمانُ بنُ هشام بن عبد الملك وقد أكرمهُ السفاح ، فدخلَ عليه سديفٌ الشّاعرُ فأنشدهُ :

لا يغـرنـكَ مـا تـرى مِنْ رجـالٍ إنَّ تحتَ الضّلوعِ داءً دوياً [٢]
فضعْ السَّيفَ وارفعِ السَّوْطَ حتّى لا ترى فوقَ ظهرِها أموياً

(خفيف)

فالتفتَ سليمان وقال : قتلْتني يا شيخ ! ودخـلَ السـفّاحُ وأخـذ سُـليمان فقُتـل .

ودخـلَ عليـهِ شاعرٌ آخرُ وقد قدّم الطعام ، وعندهُ نحو سبعين رجلاً من بنــي أُميّـة . فأنشدَهُ :

أصبـحَ المُلـكُ ثـابتَ الآسـاسِ بالبَهاليلِ [٣] مِنْ بني العبّاسِ
طَلبوا وِتـرَ [٤] هـاشِمٍ فشفَوْها بعد مَيلٍ مـنَ الـزّمـانِ ويـاسِ
لاتُقيلـنْ عبدَ شمْسٍ عِثـــاراً واقْطعنْ كلَّ رَقْلة [٥] وغِراسِ
ذُلّـهـا أظْهـرَ التـوُددَ مِنهـــا وبِها مِنْكُمْ كحزْ المـوَاسي [٦]
ولقدْ غاظني وغاظَ سِوائي [٧] قُرْبُهُمْ مِنْ نمارقٍ وكراســـي
أنْـزلـوهــا بحيثُ أنْـزلَهـــا اللـــــــــهُ بدارِ الهَوانِ والإتعـــاسِ
واذكُروا مَصْرعَ الحُسيْنِ وَزيْدٍ وقتيلاً بِجانبِ المِهْـــــراسِ
والقتيـلَ الـذي بحـرّانَ أضْحـى ثاوياً بَيْنَ غُرْبةٍ وتنـــاسِ

(خفيف)

---

[١] استوسقَ : اجتمعَ وانقاد .

[٢] الداء الدويّ : الوبيل ، المعلّ للصحّة .

[٣] البهاليل : جمع بُهلول ، وهو السيّد الجامع لكلّ خير .

[٤] الوِتْر : الثأر . [٥] الرَّقْلة : النخلة الطويلة .

[٦] المواسي : جمع موسى وهو ما يحزّ به ويجرح .

[٧] سِوائي : غيري ، وأصلُها : سِواي .

فالتفتَ أحدُهُمْ إلى منْ بجانبهِ وقال : قتلنا العبدُ ! ثُمَّ أمر بهِمْ السفّاحُ فضُربوا بالسيوفِ حتى قُتلوا ، وبسط النُّطوعَ عليهم وجلس فوقهُم فأكل الطعام ، وهو يسمعُ أنين بعضِهِمْ ، حتّى ماتوا جميعاً .

وبالغ بنو العبّاسِ في استئصال شأفة بني أُميّةَ [1] ، حتّى نبشوا قبورَهُم بدمشق : فنبشوا قبرَ مُعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - فلم يجدوا فيهِ إلا خيْطاً مثلَ الهَباء ونبشوا قبرَ يزيدَ . فوجدوا فيهُ حُطاماً كأنّهُ الرّمادُ . ولمّا قتلَ رجالهم واستصفى أموالهم قالَ :

بنــي أميــةَ قــد أفنيتُ جَمْعَكُـمُ   فكيفَ لي مِنكُمْ بالأوّلِ الماضــي
يطيّبُ النفسَ أنَّ النارَ تجمعكــم   عُوِّضتُم مِنْ لظاها شرَّ مُعتــاضِ
مُنيتُم - لا أقالَ الله عثْرتَكُمْ -   بليثِ غابٍ إلى الأعداءِ نهّـــاضِ
إن كانَ غيظي لِفَوْتٍ منكم فلقدْ   رَضيــتُ مِنكم بما ربّي بهِ راضِ

(بسيط)

ثمَّ لم تطلْ مُدة السفّاح حتى ماتَ بالأنبار [2] ، في سنةِ مائةٍ وستٍ وثلاثين .

شرحُ حالِ الوزارة في أيّامهِ

لا بدَّ قبلَ الخوضِ في ذلك منْ تقديمِ كلماتٍ في هذا المعنى ، فأقولُ :

الوزيرُ وسيطٌ بينَ الملكِ ورعيّتهِ ، فيجبُ أن يكونَ في طبعهِ شطرٌ يُناسبُ طِباعَ المُلوكِ ، وشطْرٌ يُناسبُ طِباعَ العَوامِ ، ليُعاملَ كلّاً من الفريقين بما يُوجِبُ لهُ القبولَ والمحبّةَ . والأمانةُ والصدقُ رأسُ مالِه . قيل : إذا خانَ السفير بطلَ التّدبيرُ . وقيل : ليسَ لمكذوبٍ رأيٌ . والكفاءةُ والشهامةُ منْ مهمّاتِه ، والفطْنةُ والتيقّظُ والدّهاءُ والحزمُ منْ ضروريّاتـهِ . ولا يَسْتغني أن يكون مفضالاً مطْعاماً ، ليستميلَ بذلكَ الأعناقَ ، وليكونَ مَشْكوراً بكلِّ لسانٍ . والرّفقُ والأناةُ والتّثبتَ في الأمور ، والحِلْمُ والوقارُ والتمكّنُ ونفاذُ القول ، ممّا لا بدّ لهُ منهُ .

---

[1] استئصال الشأفة : الإزالة من الأصل حتّى الفروع .

[2] الأنبار : جنوب غرب العراق .

لما استوزرَ الناصرُ وزيرهُ مؤيدَ الدين محمّدَ بن برز القمّي خلعَ عليهِ خلعَ الوزارةِ ثمَّ جلسَ القمّي في منصبِ الوزارة والناسُ جميعاً بين يديه فبرزَ منْ حضرةِ الخليفةِ مكتوبٌ لطيفٌ في قدرِ الخنصر بخطِ يد الناصر ، فقرىءَ على الجمعِ فكانَ فيهِ .

((بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم . محمّد بنُ برز القمّي نائبُنا في البلاد والعبادِ ، فمن أطاعهُ فقدْ أطاعنا ، ومَن أطاعنا فقدْ أطاعَ الله ، ومن أطاعَ الله أدخلهُ الجنّة و من عصاهُ فقد عصانا ، ومن عصانا فقد عصى الله ، ومن عصى الله أدخلهُ النّارَ)) .

فَنَبُلَ [1] القمّي بهذا التوقيعِ في عيونِ الناسِ ، وجلّت مكانتُه ، وقامتْ له الهيبةُ في الصُدور .

والوزارةُ لم تمتهد قواعِدُها وتتقرّر قوانينها ، إلا في دولة بني عبّاسٍ . فأما قبل ذلك ، فلم تكنْ مقننةَ القواعِدِ ، ولا مقرّرة القوانينِ بل كان لكل واحدٍ من المُلوكِ أتباعٌ وحاشيةٌ ، فإذا حدثَ أمرٌ استشارَ بذوي الحجا [2] والآراءِ الصائبة ، فكلٌّ منهُمْ يُجرى مُجرى وزير . فلما ملكَ بنو العبّاس تقررت قوانينُ الوزارةِ وسمّي الوزيرُ وزيراً ، وكانَ قبلَ ذلكَ يُسمّى كاتباً أو مُشيراً .

قالَ أهلُ اللغةِ : الوزيرُ : الملْجأ والمُعتَصمُ . والوزيرُ . الثّقل فالوزيرُ إما مأخوذٌ منَ الوِزْر فيكون معناهُ أنْ يَحمِلَ الثّقل ، أو يكونُ مأخوذاً من الوزَرِ ، فيكون المعنى أنه يُرْجَع ويلجأ إلى رأيهِ وتدبيره . وكيف تقلّبتْ لفظةُ ((وزر)) كانت دالة على الملجأ والثّقل .

أوّلُ وزير وَزَرَ لأول خليفةٍ عباسيّ ، حفْصُ بنُ سليمان أبو سلمةَ الخلالُ . كان مولىً لبني الحارثِ بنِ كعبٍ . قيل في تلقيبه بالخلال ثلاثةُ أوجهٍ : أحدُها أنَّ منزله بالكوفةِ كان قريباً من محلّة الخلالين [3] . وكانَ يُجالسهم فنُسبَ إليهم ، كما

---

[1] نَبُلَ : بدا نبيلاً .

[2] الحجا : العقل .

[3] الخلالين : صانعي الخلّ وبائعيه .

نُسبَ الغزّالي إلى الغزّالين ، وكانَ يُجالسهم كثيراً . ورأيتُ في تسميةِ الغزّاليّ وَجْهاً آخر : قيلَ : كانَ منْ رأيهِ الصّدَقَةُ على النساء العجائز اللواتي يحْضُرن إلى دارِ الغزل ليبعن غزلهنّ ، فيرى ضعفهنّ وفقرهنّ ونزارة [١] مكسبهنّ ، فيرقُ لهنّ فيتصدّق عليهن كثيراً ، ويأمرُ بالصّدقة عليهن فنُسبَ إلى ذلك . وثانيها ، أنه كان له حوانيت يعملُ فيها الخلّ فنُسبَ إلى ذلك وثالثها أنها نسبةٌ إلى خلل السّيوف ، وهي أغمادها .

كان أبو سلمة من مياسير [٢] أهل الكوفة ، وكان ينفقُ ماله على رجال الدعوة وكانَ سبب وصلتهِ إلى بني العبّاس أنه كان صهْراً لبكير بن ماهان ، وكان بكير بنُ ماهانَ كاتباً خصيصاً بإبراهيم الإمام فلمّا أدركتهُ الوفاةُ قال لإبراهيم الإمام إن لي صهراً بالكوفةِ يُقالُ له أبو سلمة الخلالُ . قد جعلتُهُ عوضي في القيام بأمرِ دعوتكمْ . ثم ماتَ فكتبَ إبراهيمُ الإمامُ إلى أبي سلمةَ يُعلمهُ بذلك ويأمرهُ بما يريدُ منْ أمرِ الدعوةِ وقام أبو سلمةَ بأمرِ دعوتهم قياماً عظيماً فلما سبر [٣] أحوالَ بني العبّاسِ عزمَ على العُدولِ عنهُم إلى بني عليٍّ - عليه السّلام - فكاتبَ ثلاثةً من أعيانِهمْ : جعفرَ بن محمّد الصادق - عليهما السّلام - وعبد الله المَحْض بن حَسنِ بنِ حسنِ ابنِ عليٍّ بنِ أبي طالبِ - عليهم السّلامِ - وعُمرَ الأشرفَ بنَ زينِ العابدين - عليه السّلام - وأرسلَ الكُتُبَ مع رجلٍ من مواليهم ، وقالَ لهُ : اقصدْ أوّلاً جعفرَ بنَ محمّدٍ الصادقَ ، فإن أجابَ فأبْطِلْ الكِتابين الآخرين ، وإن لم يُجبْ فالقَ عبد الله المَحْضَ ، فإن أجابَ فأبْطِلْ كِتابَ عُمر ، وإن لم يُجبْ فالق عُمرَ ، فذهب الرسولُ إلى جعفر ابنِ محمّدٍ - عليه السّلام - أوّلاً ، ودفعَ إليه كتاب أبي سلمةَ فقال مالي ولأبي سلمة وهو شيعةٌ [٤] لغيري ؟ فقالَ لهُ الرسولُ : اقرأ الكتابَ فقال الصادقُ - عليه السّلام - لخادمِهِ : أدْنِ السّراجَ مني ، فأدناهُ ، فوضع الكتابَ على النار حتّى احترق فقالَ

---

[١] النّزارة : القِلّة ، النّزر : القليل .

[٢] مياسير : جمع ميسور وهو ذو الثراء واليسر ، الغنيّ .

[٣] سبرَ : اختبرَ . قاسَ بالمسبار . المِسْبار : مقياس الطبيب لعمق الجرح .

[٤] الشّيعة : التابعُ المُوالي . المؤيّد .

الرسولُ : ألا تجيبه ؟ قالَ : قـد رأيتَ الجـواب . ثـم مضـى الرسـولُ إلـى عبدِ اللـهِ المَحضِ ودفعَ إليهِ الكِتابَ فقرأهُ وقبلَهُ وركبَ في الحالِ إلى الصادق - عليـه السَّلام - وقالَ : هذا كتابُ أبي سلمةَ يدعوني فيه إلى الخلافة ، قد وصـل علـى يـد بعـضِ شيعتنا مـن أهلِ خراسـان فقـال لـه الصــادق - عليـه السَّلام - : ومتـى صـار أهـل خراسان شعيتَكَ ؟ أنتَ وجّهتَ إليهم أبـا مسـلم ؟ هـل تعـرفُ أحـداً منهـم باسـمهِ أو بصوتهِ ؟ فكيفَ يكونون شيعتكَ وأنتَ لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقالَ عبـدُ اللـه : كانَ هذا الكلامُ منكَ لشيءٍ ، فقالَ الصادق قد علم الله أني أُوجب النُّصحَ على نفسـي لِكُلِّ مُسلِمٍ فكيفَ أدّخرهُ عنكَ ؟ فلا تمنِّ نفسكَ الأباطيلَ ، فإن هذه الدولة ستتمُّ لهؤلاء وقد جاءني مثل الكتابِ الذي جاءكَ . فانصرف عبدُ الله غيرَ راضٍ . وأما عمر بـن زين العابدين ، فإنه ردَّ الكِتابَ وقالَ : أنا لاأعرفُ صاحبَهُ ، فأجيبَـهُ ، ثـم غلـبَ أبـو سلمةَ على رأيهِ وعَملتِ الدعوةُ عملها وبُويع السفّاح ونمَّ [1] الخبر إليه فحقدهـا علـى أبي سلمةَ وقتلهُ .

ذكرُ شيءٍ منْ سيرتهِ ومَقتَلِهِ

كانَ أبو سلمةَ سَمْحاً كريماً مِطْعاماً كثيراً ، مشغوفاً بـالتنوّق [2] فـي السِّلاحِ والدوابِّ ، فصيحاً عالِماً بالأخبارِ والأشعار والسِّيرِ والجدَلِ والتفسيرِ ، حاضرَ الحجّةِ ذا يسار وَمُروءةٍ ظاهرةٍ فلما بُويعَ السفّاحُ استوزرهُ وفـوّض الأمـورَ إليـهِ وسلّمَ إليـهِ الدَّواوينَ ولقّبَ وزيـرَ آلِ محمّد ، وفـي النفسِ أشياءُ . وخـافَ السـفّاحُ إنْ هُو قتَلَ وزيرَهُ أبا سلمةَ أنْ يستشعرَ أبو مُسلم ويتمرّ ، فتلطفَ لِذلك ، وكتبَ إلـى أبـي مُسلمٍ كتاباً يعلمه فيه بما عزمَ عليهِ أبو سلمةَ منْ نقلِ الدولةِ عنهم ، ويقولُ لـه : إنّنـي قد وهبتُ جُرْمه لكَ - وباطنُ الكتابِ يقتضي تصويبَ الـرأي فـي قتـلِ أبـي سلمةَ - وأرْسلَ الكِتابَ مع أخيهِ المنصورِ . فلمّا قرأ أبو مُسلم الكتابَ فطنَ لغرضِ السـفّاحِ . فأرسلَ قوماً منْ أهلِ خُراسان قتلوا أبا سلمةَ ، فقالَ الشاعرُ :

---

[1] نمّ : ظهرَ . [2] التنوّق : إجادة الاختيار ، التأنّق .

إنّ الـوزيرَ وزيرَ آلِ مُحمدٍ أوْدى [1] ، فمن يَشناكَ [2] كانَ وزيرا
إنّ السلامةَ قد تبينُ وربمـا كـان السرور بـمـا كَرِهتَ جديـــرا

(كامل)

واختلفوا فيمن وزرَ للسفّاح بعدهُ . فقِيلَ : أبو الجهْم . وقِيلَ : عبدُ الرحمن . فأما أبـو الجَهْم فَوزرَ للسفاح مدّةً ، فلما أفْضتْ الخلافةُ إلى المنصورِ كان في نفسه منه أمـورٌ فسمّـهُ في سَويقِ [3] اللّوْزِ فلما أحَسَّ بالسمِّ قام ليذْهبَ ، فقالَ له المنصورُ : إلى أيـن ؟ قالَ : إلى حيث بعثتني يا أميرَ المؤمنين .

وأمّا الصُّولي [4] فقالَ : إنّ السفّاح استوزرَ بعد أبي سلمةَ خالدَ بنَ برْمك .

ذِكرُ وزارةِ خالدِ بن بَرْمَك وشيءٍ منْ سيرتهِ

هذا خالد هو جدُّ البرامكة . وفي تلك الأيامِ نبغتِ الدولـةُ البرمكيّـةُ وامتدتْ إلى أن انقضتْ في أيام الرّشيد .

وكانَ خالدُ بنُ برمك منْ رجالِ الدولةِ العبّاسيّة فاضلاً جليلاً كريماً ، حازمـاً يقظاً استوزرهُ السفّاحُ وخفَّ على قلبهِ ، وكـانَ يُسمّى وزيـراً . وقيـلَ : إنَّ كـلَّ مـن استوزرهُ بعد أبي سلمةَ كانَ يتجنبُ أن يُسمّى : وزيراً ، تطيّراً ممّا جـرى علـى أبـي سلمةَ ولِقولِ من قالَ :

إنّ الوزيرَ وزيرَ آلِ مُمحمّدٍ أوْدى فمن يَشناكَ كانَ وزيرا

(كامل)

قالوا : فكانَ خالدُ بنُ برمكَ يعملُ عملَ الوزراء ولا يسمّى وزيراً .

---

[1] أودى : هلكَ .

[2] يَشنَاكَ : يبغضك . .

[3] السّويق : الدّقيق المسحوق سحقاً .

[4] الصُّولي : شاعر وأديب ومؤرّخ له كتاب ((الأوراق)) في أخبار آل عباس وأشعارهم . نـادمَ عدداً من خلفاء بني العباس كانت وفاته عام / ٣٣٤ / هـ .

كانَ خالدٌ عظيمَ المنزلةِ عندَ الخلفاء قيل : إنّ السفّاح قال له يومـاً : يـا خـالد ما رَضيتَ حتى استخدمتني ! ففزِعَ خـالدٌ وقال : كيف يا أمير المؤمنين وأنا عبدُك وخـادِمُك ؟ فضحك وقال : إن ((رَيْطةَ)) ابنتي تنامُ مـع ابنتكَ فـي مكـانٍ واحـدٍ ، فـأقومُ بالليل فأجدُهما قد سرحَ [1] الغطاءُ عنهما ، فأردّه عليهما فقبّلَ خالدٌ يـدَهُ وقـال : مَولىً يكتسبُ الأجْرَ في عبدِهِ وأمَتِهِ [2] .

وكثُرَ الوافدونَ على بابِ خالدِ بنِ بَرْمـك ، ومدحـهُ الشُعراء ، وانْتَجَعَـهُ [3] الناسُ وكانَ الوافدونَ قبلَ ذلك يُسمّون سُؤّالاً ، فقال خـالد : إنّـي أستقبحُ هـذا الاسم لمثلِ هـؤلاء وفيهم الأشـرافُ والأكـابرُ . فسمّاهمْ ، الـزوّار . وكـانَ خـالدٌ أوّلَ مـن سمّاهم بذلك . فقالَ لـه بعضُهم : واللـهِ مـا نـدري أيُّ أيـاديكَ عنْدَنـا أجـلُّ أصلتُنـا أم تسميتُنا ؟ إن أولَ مَنْ فعلَ ذلك المُساوِرُ بنُ النعمان ، في دَولةِ بني أُميّة .

ولما بنى المَنْصورُ مدينةَ بغداد . ((بغـداد)) عَظُمـتِ النفقـةُ عليـه ، فأشـارَ عليـه أبـو أيّوبٍ الموريـانيّ بهدمِ إيوان كِسرى [4] واسـتعمالِ أنقاضـه . فاستشـارَ المنْصورُ خالدَ بنَ برمك في ذلك فقالَ : لا تفعلْ يا أميرَ المؤمنين ، فإنه آيةُ الإسـلام . فإذا رآه الناسُ علموا أنّ مثلَ هذا البناء لا يُزيلهُ إلا أمـرٌ سـماويٌّ . وهـو مـع ذلـك مُصلّى عليٍّ بنِ أبي طالبٍ – عليه السّلام – والمُؤنة في نقضه أكثرُ منْ نفعه . فقـالَ له المنصور : أبيتَ يا خالدُ إلا مَيْلاً إلى العجميّة ! ثم أمر المنصـورُ بهدمه فهُدِمتْ منهُ ثُلْمةٌ [5] ، فبلغتِ النفقةُ عليّها أكثرَ ممّا حصل منْها . فأمسكَ المنصورُ عن هدمـهِ وقالَ : يا خالدُ : قدْ صِرنا إلى رأيكَ وتركنا هدمَ الإيوان ، قال يا أمير المؤمنين : أنا الآن أشيرُ بهدمهِ ، لئلا يتحدثُ الناسُ أنّكَ عجزت عن هدمِ ما بناهُ غيرُكَ . فـأعرضَ عنهُ وأمسكَ عن هدمهِ – كتبَ بعضُ الشُعراء إلى خـالدِ بـن بـرمـك في يـوم

---

[1] سرحَ : زالَ ، انكشفَ .

[2] الأمَة : الجارية المملوكة .

[3] انتجعهُ الناسُ : قصدُوه .

[4] إيوان كسرى : قصر كسرى بالمدائن ، وكانت عاصمة الفرس .

[5] الثلمة : الخَلل في الحائط . الفتحة في الجدار .

نوروز [١] – وقدْ أهدى الناسُ إلى خالدٍ هدايا فيها جاماتٌ [٢] منْ فضةٍ وذهبٍ

لَيتَ شعري أمالَنا منْكَ حظٌّ   يا هدايا الوزيرِ في النَّوْروزِ
ما على خالدِ بن برمكَ في الجو   دِ نوالٌ يُنيلُه بعزيزِ
ليتَ لي جامَ فِضَّةٍ من هدايا   هُ ، سوى ما بهِ الأميرُ مُجيزي

(خفيف)

فأمرَ لهُ بجميعِ ما كانَ حاضراً بينَ يديهِ من الجامات والأواني الفضيّة والذهبيّة فبلغتْ مالاً جليلاً .

ولما تولى المنْصورُ الخلافةَ أقرَّهُ على وزارته ، وأكرمهُ واستشارهُ .

انقضتْ وزارةُ السفّاح ، وبانقضائها انقضى الكلامُ على دولته .

ثُمَّ ملكَ بعدَ أخوهُ أبو جعْفر المنْصور

بُويعَ في سنةِ مائةٍ وستٍّ وثلاثين .

ذِكْرُ شيءٍ منْ سيرته ، وما وقعَ في أيّامه منَ الحوادث والوقائع .

كانَ المنصورُ منْ عُظماءِ الملوك وحزمائهم وعُقلائهم وعلمائهم ، وذوي الآراء الصائبةِ منهم والتدبيرات السديدةِ ، وقوراً شديدَ الوقار ، حسنَ الخُلُقِ في الخلوةِ ، من أشدِّ الناسِ احتمالاً لما يكون منْ عبثٍ أو مُزاحٍ ، فإذا لبس ثيابَهُ وخرجَ إلى المجلسِ العامِّ ، تغيرَ لونهُ واحمرَّتْ عيناهُ ، وانقلبتْ جميعُ أوْصافه . قالَ يوماً لبنيهِ : يا بنيَّ : إذا رأيتموني قد لبستُ ثيابي وخرجتُ إلى المجلسِ ، فلا يدنونْ أحدٌ منّي مخافةَ أن أُعرَّهُ [٣] بشيءٍ . قالوا : وكانَ المنصورُ يلبسُ الخشنَ وربمّا رقعَ قميصَهُ . وقيلَ ذلك لجعفربن محمّدٍ الصادقِ – عليهما السلامُ – فقالَ : الحمدُ للهِ الذي ابتلاهُ بفقرِ نفسهِ في مُلْكهِ . قالوا : ولم يكنْ يُرى في دار المنصورِ لهوٌ ولعبٌ أو ما يُشْبِهُ اللهوَ واللّعبَ .

---

[١] يوم النَّوْروز أو النَّيْروز : أشهر أعياد الفرس في أول الربيع .

[٢] الجامات : جمع جام ، وهو الكأس أو شبهه .

[٣] عرَّهُ : ساءهُ . آذاهُ

حدّثَ بعضُ مَواليه قالَ : كنتُ مرةً واقفاً على رأسه فسمع صوتاً عالياً ، فقالَ : انظر ما الصَّوت ؟ قالَ : فنظرتُ فإذا هو بعضُ خدمه يلعبُ بالطُّنبور [1] ، وحولَهُ جماعةٌ من جواريهِ يضحكنَ منهُ . قال : فأخبرتهُ الخبر ، فتنمّر وقالَ : وأيُّ شيءٍ يكونُ الطُّنبور ؟ قال : فوَصفتهُ لهُ ، فقال : وأنت ما يُدْريكَ بالطُّنبور ؟ قُلْتُ : يا أميرَ المؤمنين رأيتهُ بخراسانَ . فقام المنصورُ حتّى جاءَ إلى الخادمِ ، فلما بصرَ بهِ الجواري تفرّقْنَ فأمرَ فضُربَ رأسُ الخادمِ بالطُّنْبور حتّى تكسّر الطُّنبورُ ، ثُمَّ أخرَجَهُ فباعَهُ .

وكانَ المنصورُ منْ أشدِّ الناسِ شغفاً بابنه المهديّ ، فكان إذا جنى أحدٌ جنايةً أوْ أخذَ من أحدٍ مالاً ، جعلهُ في بيتِ المالِ مُفرداً وكتبَ عليهِ اسمَ صاحبهِ ، فلما أدركتهُ الوفاةُ قالَ لابنهِ المهديّ : يا بُنيُّ إنّي قد أفْرَدتُ كُلَّ شيءٍ أخذْتُهُ من النّاسِ على وجهِ الجنايةِ والمُصادرةِ ، وكتبتُ عليه أسْماءَ أصْحابه . فإذا وليتَ أنتَ فأعِدْهُ على أربابهِ ليدعوَ لكَ النّاسُ ويُحبّوكَ .

قالَ يزيدُ بنُ عمرَ بن هُبيرة [2] : ما رأيتُ رَجُلاً في حَرْبٍ أوْ سلمٍ أمكرَ ولا أنكرَ ولا أشدَّ تيقظاً منَ المنصورِ . لقدْ حاصرني تِسْعةَ شُهورٍ ومعي فُرسانُ العربِ ، فجهدنا كلَّ الجَهْدِ حتّى ننالَ منْ عَسكرهِ شيئاً فما قدرْنا لِشدّةِ ضبْطه لعَسكرهِ وكثْرةِ تيقُّظهِ . ولقدْ حصَرني وما في رأسي شَعْرةٌ بيضاءُ ، ثم انقضى ذلك وما في رأسي شعرة سوداء .

واعلمْ أنَّ المنصور هو الذي أصّلَ الدّولةَ ، وضَبَطَ المملكةَ ، ورتّبَ القَواعِدَ وأقامَ النّاموسَ ، واختْرعَ أشياءَ . فمنْ جُملةِ ما اخْترعَ : فرسُ النّوبةِ ، ولم يكنِ الملوكُ قبلهُ يعرفون ذلك ، وسببُ ذلك يأتي فيما بعد . ومنْ جُملةِ ما اخْترع : عمَلُ الخَيْشِ الكتّان في الصّيفِ ، ولم يكنِ الناسُ قبله يَعرِفون ذلك . وكانَ الأكاسرةُ يطيّنونَ كُلَّ يومٍ منْ أيّامِ الصّيفِ بيتاً يسكُنونهُ ، ثمَّ في الغدِ يُطيّنُ بيتٌ آخر .

---

[1] الطّنبور : آلة طربٍ ذاتُ عنقٍ طويلٍ ، تشبهُ العود المعروف .

[2] يزيد بن عمر بن هُبَيْرة : كانَ والياً على العراق لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة قتله السفّاحُ بواسط عام / ١٣٢ / هـ .

وكانَ المنصورُ مُبخَلاً يُضربُ بِشُحّهِ الأمثال . وقيلَ كانَ كريماً : وإنه لمّا حَجَّ أفْضلَ على أهلِ الحِجاز ، فكانَ يُسمّون عامه عامَ الخِصب . والصّحيحُ أنّهُ كانَ رجلاً حازماً يُعطي في مَوْضِعِ العطاءِ ، ويمْنَعُ في موضِعِ المنعِ . وكانَ المنعُ عليهِ أغلب .

وجرى في أيامهِ شيءٌ طَريفٌ : وهو أنّ قوماً منْ أهل خُراسانَ يقالُ لهم : الراوَنْديّة كانوا يقولونَ بتناسخِ الأرْواحِ ، ويزْعمون أنّ رُوحَ آدم انتقلتْ إلى فُلانٍ – رجلٍ مِنْ كبارِهم – وأنْ ربّهُمْ الذي يُطْعِمُهُمْ ويسقيهمْ هو المنصورُ وأنْ جبرائيلَ هُو فلانٌ – عن رجلٍ آخر – فلمّا ظَهَروا أتوا قصرَ المنصور فطافوا حولَهُ ، وقالوا : هذا قَصرُ ربِّنا . فأخذَ المنصورُ رؤساءَهم فحبس منهم مائتي رَجُلٍ ، فغضبَ الباقون واجتمعوا . وفتَحوا السُّجونَ وأخْرجوا أصحابَهم منها ، وقصَدوا المنصورَ وحاربوهُ . فخرجَ المنصورُ إليهم ماشياً ، ولم يكنْ في بابه في ذلك الوقت دابّةٌ ، فصارَ بَعْدَ ذلك اليوم تُرْبَطُ لهُ دابّةٌ في بابِ القَصرِ لا تزالُ واقفةً ، وصارتْ تلكَ سُنّةً للخلفاءِ بعدهُ وللمُلوكِ . فلما خرجَ المنصورُ أُتيَ بدابّةٍ فركبها وهو يُريدُهم حتّى تكاثروا عليه ، وكادوا يَقْتُلونهُ . وجاءَ مَعْنُ بنُ زائدةَ [1] وكانَ مُستَخْفياً منَ المنصور ، جاءَ متلثماً ، ووقفَ بينَ يدي المنصورِ والمنصورُ لا يعرفهُ فقاتلَ بين يديه قتالاً شديداً وأبلى بلاءً حَسناً . وكانَ المنصورُ راكباً على بغلةٍ ولِجامُها بيد حاجبه الرّبيعِ ، فأتى معْنٌ وقالَ : تَنَحَّ فأنا أحقُّ منكَ بهذا اللجامِ في هذا الوقتِ . فقالَ المنصورُ : صَدَق ، ادْفعِ اللِجامَ إليهِ فلَمْ يزلْ يُقاتلُ حتّى انكشفتْ الحالُ وظفر بالراوَنْديّة ، فقالَ لهُ المنصورُ : مَنْ أنت ؟ قال : طِلْبَتُك [2] يا أمير المؤمنين مَعْنُ بنُ زائدة . فقالَ قد آمَنكَ اللهُ على نفسِكَ وأهلِكَ ومالِكَ ، ومِثْلُك يُصْطنعَ [3] . وأحسن إليهِ وولاهُ اليمنَ . والمنصورُ هو الذي بنى مدينةَ بَغْداد .

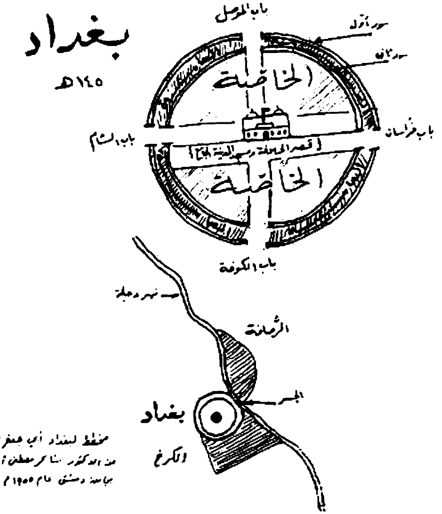
---

[1] معن بن زائدة : قائد شجاع كريم مشهور ، كان ولاؤه للأمويين فلما ظهر العبّاسيّون طلبوه وظلّ متخفياً حتى نصرَ المنصورَ العباسي في حربه مع الراوندية . ولي على اليمن ثم على سجستان حتى مقتله حوالي عام / ١٥٠ / هـ .

[2] طِلْبَتُكَ : مطلوبك للقبض عليه . [3] يُصطنع : يُقرّبُ ويُحْسَنُ إليه .

شَرْحُ كيفيّةِ الحالِ في بِناءِ بَغْدادَ

كـانَ الـمنصـورُ قـد بنـى فـي أوائـل دولَتِهم مـدينـةً بنـواحـي الكوفـة وسمّاها - ((الهاشميّة)) - ووقعتْ واقعةُ الرّاونديّة فيها ، فكَرِه سُكْناها لِذلك ، ولِمُجاورةِ أهلِ الكُوفةِ فإنّهُ كانَ لا يأمنهم على نفسه ، وكانوا قد أفسدوا جُنْدَهُ . فخرجَ بِنفسهِ يرتادُ



بغداد كما بناها أبو جعفر المنصور ، نقـلاً عن مذكّرات جـامعيـة للمحقق عـام / ١٩٥٥ / م ، ممّا رسمه الدكتور شاكر مصطفـى لطلابـه علـى سبورة قاعـة المحاضرات في كلية الآداب في الجامعة السورية بدمشق .

له موضعاً يسكنه ويبني فيهِ مدينةً لهُ ولعيالهِ ، ولأهله ولجُنده . فانْحدرَ إلى جرجرايا [1] وأصْعد إلى المَوصِل ، ثمّ أرْسل جماعةً من الحكماء ذوي اللبِّ والعقلِ وأمرَهُمْ بارتيادِ موْضعٍ ، فاختاروا له مدينَةَ التي تُسمّى : مدينة المنصور . وهي بالجانبِ الغربيّ قريبة منْ مشْهدِ مُوسى والجواد - عليهما السّلام - فحضر إلى هُناكَ واعتبرَ [2] المكانَ ليلاً ونهاراً فاستطابهُ ، وبنى بهِ المدينة .

ومنْ طريف ما اتّفقَ منْ ذلك ، أنّ راهباً منْ رُهبان الدير المعروف بديرِ الرُوم سألَ بعض أصحابِ المنصور : منْ يريدُ أن يبني في هذا الموضع مدينةً ؟ فقالَ له ذلك الرجل : أميرُ المؤمنينَ المنصورُ خليفةُ الناس . قال : ما اسمهُ ؟ قال : عبد الله . قالَ : فهل له اسم غيرُ هذا ؟ قال : اللهمّ لا ، إلا أن كُنيته أبو جعفر ، ولَقبَهُ المنصور . قال الراهبُ : فاذهبْ إليه وقلْ لهُ : لا يُتعبْ نفْسهُ في بناءِ هذه المدينة ، فإنّا نجدُ في كُتُبنا أن رجُلاً اسمُهُ مقْلاص يبني ها هنا مدينةً ويكونُ لها شأنٌ من الشأن ، وأنّ غيرهُ لا يتمكّنُ منْ ذلك . فجاءَ ذلك الرّجُلُ إلى المنصور وأخبرهُ بما قالَ الرّاهبُ فنزل المنصورُ عن دابّته وسجدَ طويلا ثمّ قالَ : أما واللهِ كانَ اسْمي مقْلاصاً وكانَ هذا اللقبُ قد غلب عليّ ثمّ ذهبَ عنّي .

وذاكَ أنّ لصّاً كانَ في صباي يُسمّى مقلاصاً وكان تُضربُ به الأمثالُ ، وكانتْ لنا عجوزٌ تُربيني ، فاتّفقَ أنْ صبيانَ المكْتبِ جاؤوا يوماً إليّ وقالوا لي : نحنُ اليومَ أضْيافكَ . ولم يكُنْ معي ما أُنْفقُهُ عليهمْ . وكانَ للْعجوزِ غزلٌ فأخذْتُهُ وبعتُهُ بما أنفقتهُ عليهم ، فلمّا علمتْ أني سرقتُ غزلَها سمّتْني مقْلاصاً . وغلب هذا اللقبُ عليّ ثُمّ ذهبَ عنّي . والآنَ عَرفتُ أني أبني هذه المدينة .

ونبّههُ بعضُ عُقلاءِ النّصارى على فضيلة مكانها فقال : يا أميرَ المؤمنين تكونُ على الصّراةِ بينَ دِجلةَ مع الفراتِ ، فإذا حاربكَ أحدٌ كانتْ دِجلةُ والفُراتُ خنادقَ لمدينتكَ ثمّ إنّ الميرة [3] تأتيكَ في دجلة منْ ديارِ بكر [4] تارةً ، ومنَ البحرِ

---

[1] جُرجرايا : موقع جنوبي بغداد على دجلة .

[2] اعتبرَ : فحصَ وتحرّى .

[3] الميرة : الطّعام والمونة المدّخرة .

[4] ديار بكْر : بلاد شرقيّ الأناضول وشماليّ دجلة .

والهندِ والصّينِ والبصرةِ ، وفي الفُرات من الرقّة والشامِ ، وتجيئك الميرة أيضاً من خُراسانَ وبلادِ العجمِ في شطٍّ تامرّا . وأنت يا أميرَ المؤمنين : بينَ أنهار ، لا يصلُ عدوُّكَ إليكَ إلا على جسرٍ أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر أو أخربتَ القنطرة ، لمْ يصلْ إليكَ عدوُّكَ . وأنتَ متوسّطٌ للبصرةِ والكوفةِ ، وواسطِ والموْصلِ والسّواد . وانتَ قريبٌ منَ البرِّ والبَحْرِ والجَبَلِ . فازدادَ المنصورُ جدًا وحرصاً على بنائها ، وكاتبَ الأطرافَ بإنفاذِ [1] الصنّاعِ والفعلة وأمر باختيارِ قوْمٍ منْ ذوي العدالةِ والعقْلِ والعِلْمِ والأمانةِ والمعرفةِ بالهندسةِ ليتولّوا قسمة المدينةِ وعملها ، وشرعَ فيها سنة خمسٍ وأربعين ومائةٍ .

وكانَ أبو حنيفة [2] - رضي الله عنه - صاحبُ المذهب يُعدُّ اللّبنَ والآجُرَّ وهو الذي اخترعَ عدّهُ بالقصبِ اختصاراً وجعلَ المنصورَ عرْضَ السّور منْ أساسه خمسينَ ذراعاً ، ومنْ أعلاهُ عشرينَ ذراعاً ، ووضعَ بيدِهِ أولَ لبنةٍ وقالَ : بسمِ اللهِ والحمد لله ((إن الأرضَ للهِ يُورِثُها منْ يشاءُ منْ عبادِهِ والعاقبةُ للمتّقين ..)) [3] ثمَّ قالَ : ابنوا فابتدأ بها سنة خمسٍ وأربعين ومائة ، وتممّها في سنة ستٍّ وأربعين ومائة ، وجعلَها مُدَوّرةً وجعلَ قصْرَهُ في وسطها لئلا يكون أحدٌ أقربَ إليه منَ الآخر . وبلغَ الخرجُ عليها أربعةَ ألفَ ألفٍ وثمانمائةٍ وثلاثةً وثلاثين درْهماً . ولما فرغتْ حاسبَ القُوّادَ بما كانَ حوّلَ عليهم لعمارتها ، فألزمهُمْ بالبواقي حتّى استوفى منْ بعضِهم ما اقتضاهُ الحسابُ خمسةَ عشَر درْهما .

أسماؤها : يُقالُ : بغداد ، وكانَ هُناكَ موْضعٍ يسمى : بغداد فسميّت المدينة باسمِهِ ويقال : بغذاذ بالذال المعجمة ، ويقال بَغدان بالنون ، ويقال : الزّوْراء وكان مَوْضِعُها يسمّى الزوراء قديماً ، وقيل : لأن قِبلتها غيْرُ مُستقيمة ، ويحتاج المُصلّي في مَسْجدِها الجامع أن يَنْحَرِفَ إلى جهةِ اليسار قليلاً . ويُقالُ : مدينةُ المنْصور .

---

[1] إنفاذ : إرْسال .

[2] أبو حنيفة : نعمان بن ثابت ، إمام المذهب الحنفي . كانت ولادته بالكوفة وقد درّس فيها وأفتى . استدعاه المنصور لتولي القضاء في بغداد فأبى فحبسه حتى مات عام / ١٥٠ / هـ .

[3] الآية ١٢٨ من سورة الأعراف .

ويقالُ : دارُ السّلام. وقيلَ : إنّها مدينةٌ مباركةٌ مسعودةٌ ، لم يمُتْ فيها خليفةٌ قطّ . فمدينةُ المنصورِ هي بَغْدادُ القديمةُ ، وهذه بغدادُ التي هي بالجانبِ الشّرقيّ ، استُجِدّتْ بَعْدَ ذلك .

وهو الذي فعلَ ببني الحسن ما فعل - أخذ مشايخ السادات منهم - وهمْ عبدُ اللهِ المحضُ بنُ الحَسنِ بنِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ - عليهم السلام - وكان شيخ الطالبيّين في عصره ، وبنيه وإخوته سادات بني الحسن - عليهم السلام - فحبَسهُم عندهُ وماتوا في حبسهِ .

رُوِيَ أنهُ خرج حاجبهُ فقالَ : من كان على البابِ من بني الحُسين فليدخلْ فدخلَ مشايخُ بني الحُسينْ - عليهم السلام - ثُمّ خرجَ فقالَ : من كان بالباب من بني الحَسَنِ فلْيَدْخُلْ . فدخلَ مشايخُ بني الحسنِ - عليهم السلام - فعدلَ بهم إلى مقصورةٍ ثم أدخل الحدّادينَ من بابٍ آخر فقيّدَهُمْ وحَمَلَهُمْ إلى العراقِ فحبسهُمْ حتّى ماتوا في حَبْسِهِ منَ الكوفةِ ، لا جزاهُ اللهُ خيْرا عنْ فِعلّه .

ومنْ طريفِ ما وقعَ في ذلك ، أنّ رجلا منْ بني الحسن - عليه السلامُ - جاءَ حتّى وقفَ على المنصورِ ، فقالَ : ما جاء بكَ ؟ قالَ : جئْتُ حتّى تحبسني عِندَ أهلي فإنّي لا أُريدُ الدُّنيا بَعْدَهُمْ ، فحبسهُ معهم . وكانَ ذلك الرجلُ عليّ بنَ حَسَنِ بنِ حَسَنِ بنِ الحَسَنَ بنِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ . وكان منهم مُحمّد بنْ إبراهيمَ بنِ الحَسَنِ ابنِ الحَسَنَ بنِ عليّ بنِ أبي طالبٍ . - عليهم السلام - وكان منْ أحسنِ الناس صُورةً ، وكانَ يُسمّى الديباجَ الأصفر لحُسْنه وجمالهِ فأحْضرهُ المنصورُ وقالَ لهُ : أنتَ الدّيباجُ الأصفرُ ؟ قالَ : كذا يقولون . قالَ : لأقتلنّكَ قِتْلةً لم أقتلها أحداً ، ثُمّ أمرَ به فبنى عليهِ أُسْطوانةً وهو حيٌّ ، فماتَ فيها .

ذِكْرُ السَّببِ في فِعْلِ المنصورِ
ما فعلَ ببني الحَسَنِ عليهم السلامُ

كانَ بنو هاشمِ الطالبيّون والعبّاسيّون قد اجتمعوا في ذيلِ [1] دولةِ بني أُميةَ وتذكروا حالَهُم وما هُمْ عليه من الاضطهاد ، وما قد آلَ إليه أمرُ بني أميّةَ منَ الاضطرابِ وميلِ الناسِ إليهم ومحبّتهم لأن تكون لهم دعوة ثم قالوا لا بدّ لنا من رئيس نُبايعُهُ . واتّفقوا على أن يدعوا الناس سرا ثم قالوا : لا بدّ لنا من رئيس نبايعه فاتفقوا على مبايعةِ ((النفس الزكيّةِ)) مُحمّد بن عبدِ اللهِ بن الحسنِ بنِ الحسنِ بن عليٌّ بن أبي طالبِ - عليهم السلام - وكانَ من سادات بني هاشمٍ ورجالهم ، فضلاً وشَرَفاً وعِلْماً . وكانَ هذا المجلِسُ قد حضره أعيان بني هاشم علويُهم وعباسيُّهم ، فحضرهُ منْ أعيانِ الطالبيِّين - الصّادقُ جعفرُ بنُ محمد - عليهما السلام - وعَبْدُ اللهِ بنُ الحسنِ بنِ الحَسَنِ بنِ عليٍّ بنِ أبي طالب ، وابناهُ محمّد ((النفس الزكيّةُ)) وإبراهيمُ قتيلُ باخمْرى [2] ، وجماعةٌ منْ الطالبيِّين . ومنْ أعيانِ العبّاسيِّين - السفّاحُ والمنصورُ ، وغيرُهما منْ آلِ العبّاس فاتّفق الجميعُ على مبايعة ((النفس الزكية)) إلا الإمامَ جعفرَ بنَ محمّدٍ الصادقِ ، فإنهُ قالَ لأبيه عبدِ اللهِ المَحْض : إنَّ ابنَكَ لا ينالُها - يعني الخِلافةَ - ولَنْ ينالَها إلا صاحبُ القَباءِ [3] الأصفر - يعني المنصورَ وكان على المنصورِ حينئذٍ قَباءٌ أصفرُ . قال المنصورُ فرتّبتُ العمالَ في نفسي منْ تِلكَ السّاعة . ثُمَّ اتّفقوا على مبايعةِ النفسِ الزكيّة فبايعوهُ ثم ضرب الدَّهرُ ضَربهُ ، وانتقلَ المُلْكُ إلى بني العبّاسِ كما تقدّمَ شرحهُ ، ثم انتقلَ منْ السفّاحِ إلى المنصورِ فلم يكنْ لهُ همّةٌ سوى طلب ((النفس الزكية)) ليقتلهُ أوْ ليخلَعَهُ . وأغْراهُ بذلك أنَّ الناسَ كانوا شديدي المَيْلِ إلى النفسِ الزكيّةِ ، وكانوا يعتقدون فيه الفضْلَ والشّرَفَ والرّياسةَ فطلَبَهُ المنصورُ منْ أبيهِ عبدِ اللهِ المحْضِ - وكانَ عبدُ اللهِ المَحْضُ منْ رجالِ بني هاشم وساداتِهمْ - فألزمَهُ المنصورُ بإحْضار ابنيه محمّد النفس الزكيّةِ

---

[1] ذَيْل الدولة : أواخر أيّامها

[2] باخمرى : قرية قريبة من الكوفة ، قتل فيها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن الطالبيّ .

[3] القَباء : الثوبُ يُرتدى فوق غيره من الثياب .

وإبراهيمَ ، فقالَ لا علْمَ لي بهما . وكانا قدْ تغيّبا خوْفاً منْهُ . فلمّا طوّل القول لأبيهما عبدِ الله قالَ : كم تطولُ !! واللهِ لو كانا تحْتَ قدميّ لما رفعْتهما عنْهما . سُبْحانَ الله ! آتيكَ بولدي لتقتلَهُما ! فقبضَ عليهِ وعلى أهلهِ منْ بني الحسنِ ، وكانَ من أمرهِمْ ما تقدَّمَ شرْحهُ - رضي الله عنهم وسلّم عليهم .

شَرحُ خُروجِ النَفسِ الزكيَةِ

هوَ مُحمّدُ بنُ عبدِ الله المَحْضِ بنِ الحسَنِ بنِ الحسنِ بنِ عليّ بنِ أبي طالبِ (عليهم السلام) . كانَ النفسُ الزكيّةُ منْ ساداتِ بني هاشمٍ ورجالِهمْ فضْلاً وشرَفاً وديناً وعلْماً وشجاعةً ، وفصاحةً ورياسةً وكرامةً ونُبْلاً . وكانَ في ابْتداءِ الأمرِ قدْ شيعَ بينَ الناسِ أنَهُ ((المهديُّ)) الذي بُشّرَ به ، وأثْبتَ أبوهُ هذا في نفوسِ طوائفَ منَ الناسِ وكانَ يُروى أنَّ الرسول - صلواتُ الله عليه وسلامهُ - قالَ : ((لوْ بقيَ منَ الدُنيا يومٌ لطوّلَ الله ذلك اليومَ ، حتّى يبعثَ فيه مهْديّنا أو قائمنا ، اسمُه كاسمي واسمُ أبيه كاسمِ أبي)) فأمّا الإماميّةُ : فيرْوون هذا الحديثَ خالياً ((منِ اسمِ أبيه كاسمِ أبي)) .

فكانَ عبدُ اللهِ المحضُ يقولُ للناسِ عنْ ابنه مُحمّدٍ : هذا هُو المَهْديُّ الذي بُشّرَ بهِ . هذا محمّدُ بنُ عبدِ الله . ثم ألقى اللهُ محبّتَهُ على الناسِ فمالوا إليه كافّةً ، ثُمَّ عَضَدَ ذلك أنّ أشرافَ بني هاشمٍ بايعوهُ ورشّحوهُ للأمرِ ، فقدّموهُ على نفوسِهِمْ فزادتْ رغبتهُ في طلبِ الأمرِ . وزادتْ رغبةُ الناسِ فيه ، وما زال متغرّباً منذُ أفضتْ الدولةُ إلى بني العبّاسِ خوفاً منْهُمْ على نفسه . فلمّا علم بما جرى لوالدهِ ولِقومِهِ ظهرَ بالمدينةِ وأظهرَ أمرهُ ، وتبعَهُ أعيانُ المدينةِ ، ولمْ يتخلفْ عنهُ إلا نفرٌ يسيرٌ ، ثم غلبَ على المدينةِ وعزلَ عنْها أميرَها منْ قبلِ المنصورِ ، ورتّبَ عليها عاملاً وقاضياً ، وكسرَ أبوابَ السُجونِ وأخرجَ منْ بها ، واستولى على المدينةِ . ومنذُ خرجَ محمّدُ بنُ عبدِ الله وفعلَ ما فعل بالمدينةِ توجّهَ رجلٌ يُقالُ لهُ : ((أوْسٌ العامريّ)) منَ المدينةِ إلى المنصورِ في تسعةِ أيّامٍ وقدِمَ ليلاً ، فوقفَ على أبوابِ المدينةِ فصاحَ حتّى عَلموا بهِ فأدخلوهُ فقالَ الربيعُ الحاجبُ : ما حاجتُكَ في هذه

الساعة وأميرُ المؤمنين نائم ؟ قـال لا بدَّ لـي منـهُ . فدخلَ الربيـعُ وأخبر المنصـورَ خبرَهُ وأدخلهُ إليه ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنين ، خرجَ محمدُ بنُ عبد الله بالمدينةِ وفعلَ وصنعَ . قالَ : أنتَ رأيتهُ ؟ قالَ : نعم وعاينتُهُ على منبرِ رسولِ الله - صلواتُ الله عليه وسلامهُ - وخاطبتُهُ . فأدْخَلَهُ المنصورُ بيْتًا ، ثُمَّ تواترت الأخبارُ عليـه بذلـك فأخرجهُ وقالَ لهُ : سَوفَ أفْعلُ معكَ وأصنعُ وأُغْنيكَ . في كم ليلةٍ وصلتَ من المدينةِ قالَ : في تسعِ ليالٍ ، فأعطاهُ تِسْعةَ آلافِ درْهم . ثمَّ قامَ المنصـورُ وقعـدَ ، وتراخـتِ المدّةُ حتى تكاتبا وتراسلا . فكتبَ كلُّ واحدٍ منهما إلى صاحبه كتاباً نادِراً معدوداً منْ محاسنِ الكُتُبِ ، احتجَّ فيهِ وذهبَ في الاحتجاجِ كلَّ مذهـبٍ . وفـي آخـرِ الأمـرِ نـدبَ ابنَ أخيهِ عيسى بنَ مُوسى لِقتالهِ ، فتوجّهَ إليه عيسى بنُ مُوسى فـي عسـكرٍ كثيـفٍ ، فالتقوا في موضعٍ قريبٍ من المدينةِ ، فكانت الغلبةُ لِعَسكرِ المنصورِ ، فقُتلَ محمدُ بنُ عبد الله وحُمِلَ رأسهُ إلى المنصورِ ، وذلك في سنةِ خمسٍ وأربعينَ ومائةٍ ، ثم خرجَ أخوهُ إبراهيمُ بنُ عبدِ الله قتيل ((باخمرى)) بالبصرة .

شرحُ كيفية الحالِ في ذلكَ على سبيلِ الاختصار

كانَ إبراهيمُ بنُ عبدِ الله في حال تغيّبه يحضُرُ إلى عسكرِ المنْصـورِ متخفيّـاً وربّما جلسَ علـى السِّماطِ ، وكـان المنصـورُ شديدَ الطلـبِ لـه . فخـرجَ مـنْ مدينـةِ المنصور ومضى إلى البصرةِ وأظهرَ أمْرَهُ ودعا إلى نفْسهِ ، فتبعَـهُ جماعـةٌ وكـثُرتْ جُموعهُ . فأرْسلَ المنصورُ ابنَ أخيهِ عيسى بنَ مُوسى بَعْدَ رُجوعـه مـنْ قَتْلِ النفـسِ الزكيّةِ ، فتَوجّهَ عيسى بنُ موسى إليهِ بخمسةَ عشرَ ألفَ مُقـاتلٍ ، فـالتقوا بقريـةٍ يُقـالُ لها : ((باخَمْرى)) قريبة من الكوفة فكانت الغلبةُ لعسكرِ المنصور ، وقُتِـلَ إبراهيـمُ في المعركةِ ، وذلك في سنةِ خمسٍ وأربعينَ ومائةٍ (رَحِمَهُ اللهُ تعالى) .

وكانتْ أيّامُ المنصورِ ذاتَ فُتوقٍ [1] وأحداثٍ ، فمِمّنْ خرجَ عليه ، عَمُّهُ عبدُ اللهِ بنُ عليٍّ وكانَ السفّاحُ أرْسَلَهُ إلى قتالِ مرْوانَ الحمارِ كما تقدّمَ شرْحُهُ ، ثُمَّ ماتَ

---

[1] الفُتوق : هنا ، المشاكل ، وأحدها الفَتْقُ ، وهو العصيان السياسيّ والخروج على طاعةِ الخليفـةِ أو الأميرِ .

السفّاحُ وتولّى المنصورُ الخلافةَ وعبدُ اللهِ بنُ عليٍّ بالشامِ ، فطمعَ في الخلافةِ وخطبَ الناسَ وقالَ إنَّ السفّاحَ ندبَ بني العبّاسِ لقتالِ مروانَ فلم ينتدبْ غيْري ، وإنّهُ قالَ لي : إنْ ظهرتَ عليهِ وكانتِ الغلبةُ لك ، فأنتَ وليُّ العهدِ بعْدي ، وشهدَ لهُ جماعةٌ بذلكَ ، فبايعَهُ الناسُ . ولما اتّصلَ الخبرُ بالمنصورِ أقامهُ ذلك وأقْعدَهُ ، فقالَ لهُ أبو مسلم الخراسانيّ : إنْ شئتَ جمعْتُ ثيابي في منْطقتي وخدمتُك ، وإنْ شئتَ لتيتُ خُراسانَ ، وأمْددتُكَ بالجُنودِ وإنْ شئتَ سرتُ إلى حرْبِ عبد اللهِ بنِ عليٍّ ، فأمرهُ بالمسيرِ إلى حربِ عبدِ اللهِ ، فسارَ أبو مسلم بعسْكرٍ كثيفٍ فتطاولَ الأمدُ بيْنهُما شهوراً . كانتْ في آخرِها الغلبةُ لعسكرِ أبي مُسْلم ، فهربَ عبدُ اللهِ بنُ عليٍّ إلى البصرةِ ونزلَ على أخيهِ سُليْمانَ بنِ عليٍّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عبّاسٍ ، فشفعَ سليمانُ فيهِ إلى المنْصورِ ، وطلبَ لهُ الأمانَ فأمنهُ المنْصورُ ، وكتبَ لهُ كِتاباً بليغاً التزمَ فيهِ بكلِّ شيءٍ . فلما جاءَ إليهِ حبسَهُ وماتَ في حبْسهِ ، فقيلَ : إنّهُ بنى لهُ بيتاً وجعلَ أساساتِهِ مِلْحاً ، ثُمَّ أجْرى الماءَ فيهِ فسقطَ البيتُ عليهِ فماتَ ، والمنْصورُ هو الذي قتلَ أبا مُسلِم الخُراسانيَّ .

شَرْحُ الحالِ في ذلك

كانَ في نفسِ المنصورِ قديماً حزازاتٌ [1] منْ أبي مُسْلم ، وكانَ بينهما تباغُضٌ . وقد كانَ المنصورُ أشارَ على أخيهِ السفّاحِ بقتلِهِ فامتنعَ السفّاحُ وقالَ : كيفَ يكونُ ذلك معَ حُسنِ بلائهِ في دَوْلتِنا ، فلما وليَ المنصورُ الخلافةَ أرْسلَ أبا مُسْلم إلى الشامِ لحربِ عمّهِ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ بنِ العبّاسِ كما تقدّمَ شرْحُهُ ، فلمّا ظفِرَ أبو مُسْلمٍ وغنِمَ جميعَ ما كانَ في عَسْكرِ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ ، وانهزمَ عبدُ اللهِ إلى البَصْرةِ ، أرسلَ المنصورُ بَعْضَ خَدَمِهِ ليحتاطَ على ما في العَسْكرِ منَ الأموالِ فغضِبَ أبو مُسْلِم وقالَ : أمينٌ على الدّماءِ خائِنٌ في الأموالِ ! وشتَمَ المنصورَ ، وكتبَ بعضُ أصحابِ الأخبارِ بذلكَ إلى المنصورِ وعزمَ أبو مسلمٍ على الخِلافِ وأنْ يتوجّهَ

---

[1] الحزازات : الأحقاد .

إلى خُراسانَ ولا يحضُرَ عِنْدَ المنصور ، فخافَ المنصورُ أن يتوجَّهَ أبو مسلم إلى خُراسان بهذهِ الصِّفةِ فتَفسُدَ عليهِ الأمورُ هناك .

وكانَ أبو مُسلم رَجُلاً مهيباً داهيةً شُجاعاً لبيباً جريئاً على الأمور ، فَطِناً عالِماً قَدْ سمعَ الحديثَ [1] وعلم أن من كل شيء . فكتبَ إليهِ المنصورُ يطيِّبُ نفْسَهُ ويُسَكِّنُهُ ويَعِدُهُ الجميلَ ، ويستدعي منه الحُضُور . فأجابَ بأنّي على الطاعة ، وأنّي متوجِّهٌ إلى خُراسانَ فإنْ أصلحتَ نَفْسَكَ كُنْتُ سامعاً مُطيعاً ، وإنْ أبَيْتَ إلا أنْ تُعطيَ نفْسَكَ سُؤْلَها كُنْتُ قد نظرتُ لِنفسي بالحالِ التي تُقارِنُها السّلامة ! فاشتدَّ خوفُ المنصورِ منهُ وحَنَقُهُ عليهِ ، وكتبَ إليهِ كتاباً معناه : إنَّكَ لستَ في نظرِنا بهذه الصّفةِ التي قَدْ وَسَمْتَ بها نَفْسَكَ ، وإنْ حُسْنَ بلائكَ في دَولَتِنا يُغْنِيك عنْ هذا القَول . واستدعى منهُ الحُضورَ وقالَ لِوجوهِ بني هاشمٍ : اكتُبوا أنتم أيضاً إليهِ فكَتَبُوا إليهِ يقبّحونَ عليهِ خِلافَ المنصورِ ومشاقّتَهُ ويُحسِّنون له الحُضُور عنْدَهُ والاعتذارَ إليه ، وأرْسَلَ المنصورُ الكُتُبَ على يدِ رجلٍ عاقلٍ منْ أصحابهِ ، وقالَ لهُ : امضِ إليهِ وحَدِّثْهُ ألينَ حديثٍ تُحدِّثُهُ أحداً ، فإنْ رَجَعَ فارجع بهِ حتى تقدم بهِ عليَّ ، وإنْ أصرَّ على المشاقّة [2] وصمّم على التوجّهِ ، وأيِسْتَ منهُ ولم يبقَ لكَ حيلةٌ ، فقُلْ لهُ : يقولُ لكَ فلان : لستَ منَ العباسِ وبَرِئْتَ من محمّدٍ إنْ مَضَيْتَ على هذهِ الحالِ ، ولم تَعُدْ أنْ يتولّى حربكَ غيري ، وعليَّ كذا وكذا إنْ لم أتولَّ أنا ذلك بنفسي . فمضى الرسولُ إليهِ وناولَهُ الكُتُبَ فقرأها ، والتفتَ إلى صديقٍ لهُ يُقالُ لهُ : مالكُ بنُ الهيثم وقالَ لهُ : ما الرأي ؟ قالَ : الرأيُ ألا ترجعَ إليه ، فإنكَ إنْ رجعتَ إليهِ قتلكَ ، وإنْ مضيتَ على طريقِكَ حتى تصلَ إلى الرَّيِّ [3] وهم جُندكَ فتقيمُ وتنظُرُ في أمرِكَ . فإنْ حَدَثَ لكَ حادثٌ ، كانتْ خُراسانُ منْ ورائِك . فعزمَ أبو مسلم على ذلك وقالَ للرسولِ : قُلْ لِصاحِبِكَ : إنّهُ ليس منْ رأيي الحضورُ عندَكَ ، وأنا متوجِّهٌ إلى

---

[1] قد سمع الحديث : والصواب فيما بعدها : [وعَلِمَ من كلِّ شيء] انظر طبعة بيروت ص ١٦٩ ، وألما ص ١٩٩ ورحما ص ١٢٣ .

[2] المشاقّة : المخالفة والخصومة .

[3] الرّي : مقاطعة جنوبي بحر قزوين وفيها مدينة باسمها .

خُراسان .فقالَ له الرسول : يا أبا مُسلم : أنتَ ما زلْتَ أمين آل محمّدٍ ، فأنْشدُكَ اللهَ ألا تَسِمَ نَفْسَكَ بسِمةِ العِصْيانِ والشّقاقِ . والرأيُ أنْ تحضُر عنْدَ أميرِ المؤمنين وتَعْتذِرَ إليهِ فلن ترى عِنْدَهُ إلا ما تُحِبُّ . فقال لهُ أبو مسلمٍ : متى كُنتَ تُخاطِبُني بمثْلِ هذا الخِطاب ؟ فقالَ الرجلُ : سبحانَ الله ! أنتَ دَعوتَنا إلى ولايةِ هؤلاءِ القومِ ونَصْرِهِمْ ، وقُلْتَ لنا من خالفهُمْ فاقتلوه . فلمّا دخلْنا معكَ فيما ندبتَنا إليه [1] ، رَجَعْتَ عنه وأنكرته علينا ! فقال أبو مُسلم : هو ما قلتَ لكَ ، ولسْتُ أرجِعُ . فقالَ لهُ : فليسَ عِنْدَكَ غيرُ هذا ؟ قال : نعم . فخلا به وأبلغهُ ما قالَ المنصورُ ، فوجم وأطرقَ ساعةً ثمّ قالَ : أرجِعُ وأعتذرُ إليهِ . ورجع . ثم سلّمَ عَسْكرهُ إلى بعضِ أصحابِهِ وقالَ لهُ : إن جاءكَ كتابي ، وهو مختومٌ بنصفِ خاتمي فهو كتابي : وإن كانَ مختوماً بكلّ الخاتمِ فاعلمْ أنهُ ليسَ ختمي . وأوْصاهُ بما أرادَ . ثمَّ سارَ إلى المنصورِ فلقيَهُ بالمدائنِ . فلما علمَ المنصورُ بوصُولِه أمر الناسَ جميعاً بتلقّيه ، فلما دخلَ عليهِ قبّلَ يدَهُ فأدناهُ منه وأكرمَهُ ، ثمّ أمرَهُ بأن يعودَ إلى خيْمتِه ويستريحَ ، ويدخلَ الحمّامَ ويعودَ منَ الغدِ . فمضى فلمّا أصبحَ أتاهُ رسولُ المنصورِ يسْتدعيه ، وقد أعدَّ المنصورُ جماعةً منْ أصحابِهِ خلْفَ السُّتورِ بأيديهم السّلاح فأوْصاهُمْ أنّهُ إذا ضربَ بإحدى يَديهِ على الأُخرى يخرُجونَ فيقتلون أبا مُسلم . فلمّا دخلَ أبو مُسلمٍ عليهِ قالَ لهُ : أخبِرني عنْ سيْفَيْنِ وَجَدْتَهُما في عسكرِ عبْدِ الله بنِ عليّ فقال أبو مُسلم : هذا أحدُهما – وكانَ في يدِهِ سيفٌ – فأخذهُ المنصورُ ووَضعهُ تحتَ مُصلاهُ ، ثمَّ شرعَ في توْبيخهِ وتقريعهِ على ذنبٍ ذنبٍ ، وأبو مُسْلمٍ يعتذرُ عن كلّ واحدٍ بعذرٍ . فعدّدَ عليهِ عدّةَ ذنوبٍ ، فقالَ أبو مسلم : يا أميرَ المؤمنين مِثْلي لا يُقالُ لهُ هذا ولا تُعَدَّدُ عليه مثلُ هذهِ الذنوبِ بعدما فَعلْتُ فاغتاظَ المنصورُ وقالَ أنتَ فعلْتَ ! واللهِ لو كانتْ مكانكَ أمةٌ سوداءُ [2] لفَعلَتْ ما فَعلْتَ ، وهلْ نلْتَ ما نِلْتَ إلا بنا وبدولتِنا ؟ فقالَ أبو مُسلمٍ : دَعْ هذا فقدْ أصبَحْتُ لا أخشى غيرَ اللهِ ، فضَربَ المنصورُ بيده على

[1] ندبتَنا إليهِ : دَعوتَنا إليهِ .

[2] أمَةٌ سوداء : جارية سوداء . كناية عن احتقاره لشأنه .

الأُخرى فخرجَ أولئكَ النّفَر وخبطوهُ بالسّيوف ، فصاحَ : استبْقني يا أمير المؤمنين لِعدوكَ ، فقالَ المنصورُ : وأيُّ عدوٍّ لي أعدى منْك ؟ ثُمَّ أمر به فلُفَّ في بساطٍ . ودخلَ عيسى بن موسى فقالَ : أينَ أبو مُسلم يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال المنصورُ : هو ذاك في البساطِ ، فقالَ : قتَلْتَهُ ؟ قال : نعمْ قال : { إنّا للهِ وإنا إليهِ راجعون } ، بعدَ بَلائِهِ وفِعلِه وأمانهِ ! وكانَ المنصورُ قد آمنهُ وكَفَلَ عيسى بنَ موسى على ذلك ، فقالَ لهُ المنصورُ : خلعَ اللهُ قلْبَكَ ! واللهِ ليْس لك على وجه الأرضِ عدوٌّ أعْدى منْهُ وهلْ كانَ لكُم مُلْكٌ في حياتهِ ؟ ثُمَّ أمر المنصورُ بمالٍ لِجُنْده فتفرّقوا ، وتصرّفَ المنصورُ في خُراسانَ . وذلك في سنةِ سبعٍ وثلاثين ومائةٍ .

وفي عقب قتْلِ أبي مُسلمٍ خرجَ رَجُلٌ اسمهُ سنباذُ بخُراسان يطْلُبُ بثأرِ أبي مُسلمٍ الخُراسانيّ .

شَرْحُ كيفيّةِ الحالِ في ذلك على سبيلِ الاختِصارِ

كانَ هذا سنْباذُ رَجُلاً مَجُوسيّاً منْ بعضِ قُرى نيْسابورَ [1] ، وكانَ منْ أصحابِ أبي مُسلمٍ وصنائعِهِ . فظهرَ غضباً لقتْل أبي مُسلمٍ ، وكثُرَ أشْياعهُ ، وأطاعهُ أكْثرُ أهلِ الجبالِ ، وغلبَ على كثيرٍ منْ بلادِ خُراسانَ . فلمّا بلغ المنصور خبرُهُ أرْسلَ إليهِ عشَرةَ آلافِ فارسٍ ، فالتقوا بينَ همذانَ والريِّ ، وكانَ هذا سنباذُ قدْ أفسَدَ في البِلادِ التي غلبَ عليها فساداً كثيراً وسبى الذّراري ، وأظْهر أنّهُ يُريدُ أن يمْضي إلى الحِجازِ ويَهْدِمَ الكعبةَ فلما التقى هو وعسكرُ المنصورِ ، كانَ سِنباذُ قد أخذَ معهُ عدّةً منَ النّساءِ المسلماتِ اللواتي قدْ سباهُنَّ وهُنَّ على جِمالٍ ، فأمرَ سنْباذُ بإخراجِ النساءِ المسبيّاتِ قُدّامَ عسكرِهِ فخرجَ النّساءُ حواسرَ [2] على الجمالِ ، وصحْنَ صيْحةً واحدةً وامحمّداهُ ! فنفرَتْ الجمالُ وكرّت راجعةً على عسكرِ سنباذ ففرّقتْهُمْ ، فتبعها

---

[1] نيْسابور : بلدة غربي خراسان وجنوبي مرْو ، وغربيّها مدينتا همذان والريّ .

[2] حواسر : ظاهرات الوجوه بلا حجاب .

عَسكرُ المنصورِ ودَخلوا خلْفَ الجمالِ فوضعوا فيهم السُّيوفَ وأبادوهم قتْلا . وكانَ عدّةُ القتلى نحواً منْ ستينَ ألفاً . وقد دلَّ الاستقراءُ على أنَّ من اخترع دولةً وأحْدثها لم يستَمْتعْ بها في أغلبِ الأحوالِ . قالَ صلواتُ اللهِ عليه : ((لا تتمنَّوا الدّولَ فتحْرَمُوها)) وكأنَّ المخترعَ للدولةِ يكونُ عنْدهُ من الدالّةِ [1] والتبسّط ما تأنفُ من احتمالهِ نفوسُ الملوكِ . فكلما زادَ تبسُّطه زادت الأنفةُ عنْدهُمْ حتّى يُوقعوا به . والمنصورُ خلعَ ابنَ أخيهِ عيسى بن موسى منْ ولايةِ العهدِ وجعلَها في ابنه محمّد المهديّ .

شَرْحُ كيفيّةِ الحالِ في ذلك

هُوَ عيسى بنُ موسى بنِ مُحمّدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبّاس أمير الكوفةِ وهو ابنُ أخي المنصورِ . كانَ عيسى بنُ موسى قدْ جَعلهُ إبراهيمُ الإمامُ وليَّ عهدٍ بَعْدَ المنصورِ ، وأخذَ لهُ البيْعةَ على الناسِ وحلّفهُم لهُ ، فلما كبر المهْديُّ بنُ المنصورِ شغفَ المنصورُ به شَغَفاً شديداً ، فأحبَّ أنْ يُبايعَ لهُ بالخلافةِ ، فخلعَ عيسى بنَ مُوسى وأشْهدَ عليهِ بالخلْعِ ، وبايعَ للمهديِّ وجعلَ عيسى بن موسى بعْدهُ .

شَرْحُ كَيفيّةِ خَلْعِ عيسى بنِ مُوسى

قد اختلفَ أربابُ السِّيَرِ في كيفيّةِ خلْعه . فقيلَ : إنَّ المنصور التمس منهُ ذلك وكانَ يُكْرِمُهُ ويُجلِسُهُ عَنْ يمينه ، ويُجلِسُ المهديَّ عنْ يساره . فلمّا فاوضَهُ المنصورُ في خَلْعِ نفسهِ قالَ : يا أميرَ المؤمنين : كيفَ أصنعُ بالأيمانِ [2] التي في رقبتي وفي رقابِ الناسِ بالعتاقِ والطلاقِ ؟ والحجِّ والصدقة ؟ ليْس إلى الخلْعِ سبيل . فتغيّرَ

---

[1] الدالّة : إظهار المكانة . التعالي .

[2] الأيمان : جمع يمين وهو القسمُ والعهْدُ .

المنصورُ عَلَيْهِ وباعَدَهُ بَعْضَ المُباعدةِ ، وصارَ يأْذَنُ للمهديِّ قَبْلَهُ ويُجْلِسُهُ دونَ المَهْديِّ ، وصارَ يتقصَّدُ أذاهُ فكانَ يكونُ عيسى بنُ موسى جالساً فيحفرُ الحائطَ الذي يليه ويَنْثُرُ التّرابَ على رأسِهِ فيقولُ لِبَنيه : تنحّوا ، ثم يقومُ هو فيصلّي ، والتّرابُ ينثرُ عليهِ ثمَّ يُؤْذَنُ له فيدخُلُ على المنصورِ والتّرابُ عليه لا ينْفُضُهُ فيقولُ له المنصورُ : يا عيسى ما يَدْخُلُ أحدٌ عليَّ بمثلِ ما تدْخُلُ أنتَ به من الغُبارِ والتّرابِ ، أفَكلُّ هذا منَ الشّارعِ فيقولُ عيسى : أَحْسَبُ ذلك يا أميرَ المؤمنين . ولا يَشْكو ! .

وقيلَ : بَلْ وَضَعَ المنصورُ الجندَ فصاروا يشْتُمون عيسى بنَ موسى إذا رأَوْهُ وينالونَ منه ، فلمّا شكا ذلك إلى المنصورِ قالَ لهُ يا ابنَ أخي : إنّي واللهِ أخافُهُم عليكَ وعلى نفْسي ، فإنهم قدْ أُشْرِبَتْ قُلوبُهُمْ حبَّ هذا الفتى - يعني المَهْديَّ - فلو قدَّمْتَهُ بينَ يديكَ ! فخلعَ عيسى نفسهُ وبايعَ المهديَّ . ولما رآهُ بعضُ أهلِ الكوفةِ وقد جعلَ المهديَّ قدّامَهُ في الخلافةِ ، وصارَ هو بَعْدَهُ قالَ : هذا الذي كانَ غداً فصارَ بَعْدَ غدٍ وقيلَ بل اشتراها المنْصورُ منْهُ بمالٍ مبلغُهُ أحدَ عشرَ ألفَ ألفِ درْهَم . وقيلَ بل أرْسَلَ إليهِ خالدَ بنَ برْمكَ فأخذَ معهُ جَماعةً منْ أهلِ المنصورِ نحوَ ثلاثينَ رَجُلاً ، ومضى إلى عيسى فخاطبَهُ في أنْ يَخْلَعَ نفْسهُ فأبى . فلمّا أبى قالَ خالدٌ لِلجماعةِ ، نَشْهَدُ عليهِ أنّهُ قدْ خلعَ نفسهُ ونحقنُ بذلكَ دمهُ ، ونسكّنُ الفتنةَ . فشهِدوا عليهِ بذلك فقامتْ البيِّنةُ به ، وأنْكر عيسى فلمْ يُلْتَفتْ إليه ، وتمّ خلْعُهُ وبُويعَ للمهديِّ . واللهُ أعلمُ أيُّ ذلك كانَ ، والمنْصورُ هو الذي بنى الرُّصافةَ لابنه المهديِّ .

شَرْحُ السَّبَبِ في بِنائِها

كانَ الجُنْدُ قد شَغبوا على المنصورِ ، فقال المنصورُ لِقُثَمِ بن العبّاسِ بنِ عُبيدِ اللهِ ابنِ العبّاسِ ما ترى التياثَ (١) الجند ؟ وإني خائفٌ أنْ تَجْتمع كلمَتُهُمْ ! فقالَ لهُ يا أميرَ المؤمنين الرَّأْيُ أن تُعبِّرَ ابنَكَ إلى الجانبِ الشرقيِّ وتُعبِّرَ معهُ قطعةً من العَسْكرِ وتبني له مدينةً فيصيرَ هو في مدينةٍ وعسكرٍ بالجانبِ الشرقيِّ ، وأنتَ في مدينةٍ وعَسْكرٍ بالغربيِّ . فإنْ رأيكَ حدَثٌ منْ أحدِ الجانبيْنِ استعنْتَ عليه بالجانبِ الآخرِ ،

(١) التياث الجند : شغبهم واحتجاجهم .

فقبلَ قولَهُ وبنى الرُّصافةَ . وتمّت الرُّصافةُ وصار الخلفاء بعد ذلك يدفنون موتاهُمْ بها وبَنوا بها التُّرَبَ الجَليلةَ وحَمَلوا إليها من الفرش العظيم والآلاتِ الجليلةِ ما يتجاوزُ الحصْرَ ووَقفوا عليها منَ النّواحي والأقرحةِ [1] والعقاراتِ جُمْلةً كثيرةً وكانتْ في أيّامِهِمْ حَرَماً إذا لجأَ إليها الخائفُ أمنَ .

وماتَ المنصورُ مُحرِماً بمكةَ سنةَ ثمانٍ وخمسين ومائة ؟ فكتمَ الرّبيعُ [2] أمْرَهُ لأجلِ البيْعةِ للمهديِّ . فيُقالُ إنه أجْلَسَهُ وسنَدَهُ وجعلَ على وجهه كلّةً خفيفةً ، يُرى وجْهُهُ منها ولا يُفْهمُ أمرُهُ . وأذِنَ لوجوه بني هاشمٍ ، فلمّا دخلوا ووقفوا بينَ يديهِ وهُمْ يَحْسَبون أنّهُ حيٌّ تقدّمَ الربيعُ إليه كأنه يُشاوِرُهُ ثُمَّ عادَ إليهِمْ ، وقال : أميرُ المؤمنينَ يأمرُكُم بتجديدِ البيْعةِ لِلْمَهْديِّ ، فبايعَ الناس طُرّاً [3] .

وقيلَ : إنَّ المهديَّ لما بلَغَهُ ذلكَ استخفَ بالرّبيعِ وقالَ : ما منعَتْكَ هيبةُ أميرِ المؤمنينَ منَ هذا الفعْلِ بهِ .

شرحُ حالِ الوزارةِ في أيّامهِ

لم تكنِ الوزارةُ في أيّامِه طائلةً ، لاستبْداده واستغْنائهِ برأْيه وكفاءته ، مع أنّهُ كانَ يشاورُ في الأمرِ دائماً . وإنّما كانتْ هيْبَتُهُ تصغُرُ لها هيْبةُ الوزارة ، وكانوا لا يزالون على وَجَلٍ منْهُ وخوْفٍ ، فلا يَظْهَر لهُمْ أُبهةٌ ولا رونَقٌ .

وزارةُ أبي أيّوبَ الموريانيّ لِلْمَنْصورِ

مُوْرِيانُ قريةٌ من قُرى الأهْواز [4] . كانَ المنصورُ قدْ اشْتَراهُ صبيًا قبْلَ

---

[1] الأقرحة : الآبار .

[2] الربيع : هو أبو الفضل الربيع بن يونس بن محمّد . وزر للمنصور حتى وفاته وقتله الخليفة الهادي بالسمّ عام /١٧٠/ هـ .

[3] طرّاً : جميعاً .

[4] الأهواز : مقاطعة جنوب غرب إيران ، وشمال الخليج العربيّ .

الخِلافةِ وثَقّفَهُ فاتفقَ أنهُ أرْسَلَهُ مرّةً إلى أخيهِ السفّاحِ وَهُوَ خليفةٌ ، وأرْسَلَ معَهُ هديّةً ، فلمّا رآهُ السفّاحُ أعْجَبَتْهُ هيئَتُهُ وفصاحَتُهُ وصَباحَتُهُ ، فقالَ لهُ : : يا غلامْ ، لِمَنْ أنتَ قالَ : لأخي أميرِ المؤمنين ، قالَ : بلْ أنتَ لي ، واحتَبَسَهُ عِنْدَهُ . وكتبَ إلى المنصور يُعلِمُهُ أنّهُ قدْ أخذَهُ وأعتَقَهُ . واختَصَّ بالسفّاحِ مُدّةَ خِلافته ، ثم نمتْ حالُهُ وتزايَدَتْ نِعَمُ الله عندهُ حتى قلّدَهُ المنصورُ وزارتَهُ . وكانَ لبيباً بصيراً بالأمورِ عاقِلاً فَطِناً ، ذكيّاً فاضِلاً ، كريماً غزيرَ المُروءة .

مَكْرُمَة

حَدّثَ ابنُ شُـبْرُمَةَ [1] قـالَ : زوّجْـتُ ابنـي علـى صـداقٍ مبلغـهُ ألفا درهـم ، فجعلتُ أُفكّرُ فيمن أستعينُ به على ذلك ، فأتيتُ أبا أيوب المُورِيانيَّ وزيـرَ المنصـور فذكرتُ لهُ ذلك ، فقال : قدْ أمرنا لكَ بهذا القدْر . فجزيتهُ خيْراً وقمْتُ لأخرُج فقال : لا تعْجَلنْ . اجْلسْ . ثم قال : إذا دفعْت المَهْر فما يحتاجُ ابنُـك إلى نفقـة ؟ ثـم قـال : أعطوه ألفي درهمٍ للنفقة . وذهبتُ لأقومَ ، فقال : لا تعْجـلنّ ، أفـلا يحتـاجُ إلى خـادمٍ أعْطوهُ ألفي درْهَم لخادمٍ ، فما زالَ يأمرُ لي في كلّ مرةٍ بألفين ، حتّى تكمّل مـا أمـر لي به خمْسين ألفَ درْهم .

ذِكْرُ القَبْضِ على أبي أيّوب سلَيْمانَ الموريانيّ

كانَ أبو أيّوبَ يحبُّ جمعَ المال ليتقرب به إلى المنصور إذا خافهُ ، فقـال لـهُ المنصورُ يوماً : ما ترى حال صالح ابني ؟ ليس لـهُ ضَيْعـةٌ ! فقـال أبـو أيّـوب : يـا أميرَ المؤمنين : بالأهواز مزارعُ عاطلةٌ تحتاجُ إلى ثلاثمائة ألف درْهم ، تعمْرُ بها ويقوم منها حاصلٌ جيّدٌ . فأطلقَ لهُ ثلاثمائة ألف درْهَم ، وأمرهُ بعمارتها لابنه صالح فأخذَ أبو أيوبَ المالَ ولم يعملْ في الضيعة شيئا ، وصـارَ فـي رأس كـلّ سنةٍ يحمـلُ عشرينَ ألـفَ درْهـمٍ ويقـولُ : هـذه حـاصلُ الضّيْعـة المُسْتجدة . فـانكتَم الحـالُ عـن المنصورِ مدّةً ، ثم إنّ أعداء أبي أيّوب وجدوا هذا طريقاً إلى السّعاية بـه ، فـأعلموا المنصورَ الحالَ ، فانْحدرَ بنفسِه إلـى هُنـاك ، فـأمرَ أبـو أيّـوب أن تبنـى بيـوتٌ علـى جانبِ الشطِّ ويُغْرسُ فيها كَرْمٌ ويخضر حواليْها . فلما فعلَ ذلك اجتازَ المنصـورُ بهـا

---

[1] ابنُ شُبْرُمة : الشُبْرُمة : واحدة الشُبْرُم وهو نبات مخدر . ولم نعثرْ على ترجمـةٍ لابـنِ شُبْرُمة هذا .

فقالَ لهُ أبو أيوب : هذه هيَ الضَّيْعةُ . فرأى المنصورُ العمارة والخضْرة فكاد الأمرُ يشتبهُ عليه ، فأعْلمَهُ أعْداءُ أبي أيوبَ صُورة الحالِ ، فركب بنفْسه وأخذ الأدلاء معهُ وطافَ الضَّيْعةَ فوجدها عاطلةً لا عمارةَ فيها ، فعرفَ القصّةَ وتنبّه على خيانةِ أبي أيوب فنكَبَهُ وقتَلهُ ، وقتلَ أقاربَهُ واستَصفى أموالَهُمْ . وقال ابنُ حُبيباتِ الشّاعرُ الكوفيّ في ذلك :

قدْ وَجدْنا المُلوكَ تحمدُ مَنْ أعْـ طَتْهُ طَوْعاً أزِمّةَ التَّدْبيرِ
فإذا ما رَأوا لهُ النَّهْيَ والأمْـرَ أتَـوْهُ مِنْ بـأسِهِمْ بنَكيرَ
شَرِبَ الكأسَ بَعْدَ حَفْصٍ سُليما نُ ودارتْ علَيهِ كفُّ المُديرِ
ونجا خـالدُ بنُ بَرمَكَ مِنْهـا إذ دَعَوْهُ مِنْ بعْدِها بالأميرِ
أسْـوأُ العـالمينَ حـالاً لَدَيْهِـمْ مَنْ تسمّـى بكاتبٍ أو وزيرِ
(خفيف)

وزارةُ الربيع بن يونس للمنصور

هو أبو الفضْلِ الربيعُ بنُ يُونس بن محمّد بنِ كيسانَ ، هُو أبو فرْوَة مولى عثمانَ ابنِ عفّان . كانَ يُقالُ : إنَ الربيعَ لقيطٌ ، ولذلك قالَ يوْما لرجلٍ كررَ الترحُمَ على أبيهِ في حضرةِ المنصورِ . كم تُكرّرُ ذكْر أبيكَ وتترحّمْ عليه ؟ فقال له الرجلُ : إنّكَ معذورٌ في ذلك لأنّكَ لم تذُقْ حلاوة الآباء . قالوا : والصّحيحُ أنّهُ ابنُ يُونسَ بن محمّدِ بنِ أبي فرْوَة * ، وبلغني أنّ علاءَ الدين عَطا مَلك بن الجُوَيْني [1] صاحبَ

---

* بدءاً من قوله أبي فروة ، وقع تصرّفٌ وإسقاطٌ من النص حتّى قوله : كان الربيع جليلاً نبيلاً .. قارن النص مع ألما ص ٢٠٩ ، ورحما ص ١٢٩ ، وطبعة بيروت ص ١٧٧ المحقق .

[1] الجُوَيني : هو علاءُ الدين عَطا ملك . مؤرّخ فارسي . ولاه هولاكو العراق وخوزستان . اهتمّ بالزراعة والإعمار وشجّع الأدباء والعلماء . وهو من معاصري محمد بن علي بن طباطبا ، مؤلف كتاب الفخري هذا .

الديوان كان ينتسبُ إلى الفضلِ بنِ الربيعِ . ولقد عجبتُ من الصاحب علاء الدين – مع نُبلِهِ واطلاعه على السِّيَرِ والتواريخ – كيف رضي أن ينتسب إلى الفضل بن الربيعِ ! فإنْ كان قد انتحلَ هذا النسب ، ففضيحةٌ ظاهرةٌ ، وإنْ كان حقًا فلقد كانَ العقْلُ الصحيحُ يقتضي سَتْرَهُ ، فإنه نسبٌ لا يوجدُ أرْذلُ منهُ .

فإن أبا فرْوة كان ساقطاً ، وكانَ عبْدا للحارثِ حفّار القبور بمكّة ، والحارثُ مولى عُثْمانَ بنِ عفّان ، فأبو فرْوةَ عَبْدُ عبْد عُثْمان ، وفي ذلك يقولُ الشاعر :

وإنّ وَلا [1] كيسانَ لِلحارثِ الذي ... وَلي زَمَناً حَفْرَ القُبُورِ بيثْرِبِ [2]

(طويل)

وأبو فروةَ خرج على عثمانَ يوْمَ الدّار [3] ، وكفاهُ بذلك عارا ! فانظرْ هلْ ترى نسباً أسقطَ أو أرْذلَ مِنْ هذا ؟ وأعجبُ من رأْيِ الصاحب علاء الدين في هذا خُلُوُّ حضرْتِه ممّن يَعْرفُ هذا القَدْر ، فينبّههُ عليه .

كانَ الرّبيعُ جليلاً نبيلاً منفّذاً للأمور ، مهيبا فصيحا ، كافيا حازما ، عاقلاً فَطِناً خبيراً بالحساب والأعمال ، حاذقا بأمور المُلْكِ ، بصيرا بما يأتي ويذرُ محباً لفِعْلِ الخيْرِ .

رُوِيَ أنّ المنصورَ أحْضر يوماً إنساناً ذُكر لهُ أنّهُ وثب على عامله ببعض النّواحي فقالَ المنصورُ ويحكَ ! أنتَ المتوثّبُ على فُلانٍ العامل ؟ واللهِ لأنْثُرنّ مِنْ لحْمِكَ أكثرَ ممّا يبقى منْهُ على عظْمِكَ ، وكان شيْخاً كبيراً ، فأنشد بصوتٍ ضعيفٍ .

أتروضُ عِرْسَك [4] بعد ما هَرِمَتْ ... ومِنَ العَناءِ رِياضةُ الهَرِمِ

(كامل)

فقال المنصورُ : يا ربيعُ . ما يقولُ ؟ فقال : يقولُ :

العَبْدُ عَبْدُكمُ والأمْرُ أمْرُكمْ ... فهل عذابُكَ عنّي اليومَ مَصْرُوفُ ؟

---

[1] وَلا : وَلاء : ، والولاء هو الطاعة والالتحاق .

[2] يثْرب : المدينة المنوّرة .

[3] يوم الدار : يوم حصار عثمان بن عفّان في داره حيث قتل عام / ٣٥ / هـ .

[4] عِرْسك : زوجتك . العِرْسُ : الزّوج من ذكر أو أنثى .

فقالَ : قَدْ عَفونا عَنْهُ ، فلينْصرف . ورأى المنصورُ يوماً في بستانه شُجيْرةً منْ شَجَرِ الخلاف [١] فلمْ يدْرِ ما هي ، فقال : يا ربيعُ ما هذه الشجرة ؟ فقال الربيعُ : إجماعٌ ووفاقٌ ، وكره أنْ يُقالَ : خلافٌ ، فاستعقله المنْصورُ واستحْسن قولَهُ .

ولم يزَل الربيعُ وزيراً للمنصور إلى أنْ ماتَ المنصورُ ، وقام الربيعُ بأخذ البيعةِ للمهديِّ على ما تقدَمَ وصفُهُ ، وهو آخرُ وزراء المنصور ، وقتلهُ الهادي ، وكانَ سببُ قتله أنَهُ أهدى جاريةً حسناء إلى المهديِّ بن المنصور ، فوهبها المهديُّ لابنه موسى الهادي فغلبَ حبُها عليه وأولدها أولاده فلما صار الهادي خليفة ، سعى إليه أعداءُ الربيع فناولَهُ الهادي قدَحاً فيه عسلٌ مسْمومٌ . فشربهُ فماتَ ليومِه ، وذلك في سنةِ سبعين ومائةٍ .

انقضتْ أيامُ المنصور ووزرائه .

ثُمَّ ملكَ بَعْدَهُ ابنهُ محمَّدٌ المَهْديُّ

هو أبو عبد الله محمَّدٌ المهديُّ بنُ أبي جعفر المنصور ، وقد مرَّ نسَبُهُ . بُويعَ له بالخلافةِ بمكة ، في سنةِ ثمانٍ وخمسين ومائة .

كانَ المَهديُّ شَهْماً فطناً كريماً شديدا على أهل الإلحاد والزَنْدقة . لا تأخذُهُ في إهلاكِهِمْ لومةُ لائم ، وكانتْ أيَامُهُ شبيهة بأيامِ أبيه في الفتوق والحوادثِ والخوارجِ وكان يجلسُ في كلِّ وقتٍ لردِّ المظالم .

رُوِيَ عنه : أنه كانَ إذا جلسَ للمظالم قالَ : أدخلوا عليَّ القُضاة ، فلو لم يكنْ ردّي للمظالِمِ إلا للحياءِ منهم لكفى ! .

وحُدِّثَ عَنْهُ : أنَهُ خرجَ متنزّهاً ومعهُ رجُلٌ منْ خواصِه اسمُهُ عمرُو ، فانقطعا في الصَيْدِ عنِ العَسكر فجاع المهديُّ ، فقالَ : هلْ من شيءٍ يؤكَلُ ؟ فقالَ له

---

[١] الخِلاف : شجرٌ يُشْبِهُ الصفصاف .

عمْرو : أرى كُوخاً ، فقصدوه فإذا فيه نبطيّ [١] وعندهُ مبقلةٌ [٢] ، فسلّموا عليه فردّ السّلامَ ، فقالوا : هلْ منْ طعامٍ ؟ فقال : عندي رُبيثاء [٣] ، وهو نوع من الصحناء – وعندي خبزُ شعيرٍ فقال المهديُّ : إن كان عندك زيتٌ فقد أكملت الضيافة ، قال : نعمْ ، وكرّاثٌ [٤] فأتاهُما بذلك فأكلا حتّى شبعا ، فقال المهديُّ لعمرو : قُلْ في هذا شعراً فقالَ :

إنَّ مَنْ يُطْعِمُ الرُبيثاء بالزَّيْتِ ... وخبزَ الشَّعيرِ بالكُرّاثِ

لجديرٌ بصفْعةٍ أو بثِنْتَيْنِ ... لِسوءِ الصنيعِ ، أو بثلاثِ

(خفيف)

فقالَ المهديُّ : بئْس ما قُلْتَ . إنّما كانَ ينبغي أنْ تقولَ :

لجديرٌ ببَدْرةٍ [٥] أو بثِنْتَيْنِ ... لِحُسْنِ الصنيعِ أوْ بثلاثِ

قال : ووافاهم العَسكرُ والخزائنُ والخدمُ ، فأمرَ للنبطيّ بثلاثِ بدرٍ وانصرفَ وفي أيّامهِ ظهرَ المقنّعُ بخُراسانَ .

شَرْحُ كَيفيّةِ الحالِ في ذلك

كانَ هذا المُقنّعُ رجُلاً أعورَ قصيراً منْ أهلِ مرْوٍ ، وكان قد عمل وجْهاً من ذهَبٍ وركّبه ، على وجْهِهِ لئلا يُرى وجْهُهُ ، وادّعى الإلهيةَ ، وكانَ يقولُ : إن اللهَ خلق آدم فتحوّلَ في صورته ، ثمّ في صورة نوحٍ ، وهكذا هلُمَّ جرّاً إلى أبي مُسْلِم الخُراسانيّ وسمّى نفسَهُ هاشِماً ، وكان يَقولُ بالتناسُخ . وبايعَهُ خلْقٌ من ضُلالِ الناسِ وكانوا يسجدون إلى ناحيتِهِ أينَ كانوا منَ البلاد ، وكانوا يقولون في الحرْبِ : يا هاشمُ أعِنّا واجتَمعَ إليه خلْقٌ كثيرٌ .

---

[١] النّبطيّ : رجلٌ من العجم يزرع الأرض .

[٢] المبقلة : مزرعة البقول وهي الخضار .

[٣] رُبيثاء : ضربٌ من صغار السّمك المملّح ، ومثلهُ الصّحناء .

[٤] الكُرّاث : نبتٌ نافذ الرائحة يشبه الثوم والبصل ، يؤكل بين المقبلات .

[٥] البَدْرة : صُرّة المال . الهدية الثمينة .

فأرسلَ المهديُّ إليه جيْشاً فاعتصم منهم بقلعةٍ هُناك ، وطاولُوهُ فضجرَ وضَجِرَ أصحابُهُ . فطلبَ أكثرُهم الأمانَ وبقي معهُ نفرٌ يسيرٌ وهو في القلعة مُحاصر فأضرمَ ناراً عظيمةً وأحرقَ جميعَ ما بالقلعة من دابّةٍ وثوْبٍ ومتاعٍ ، ثُمَّ جميعَ نسائِهِ [1] وأولادِهِ وقالَ لأصحابه : من أحبَّ منكُمْ الارتفاع معي إلى السماء فلْيُلْقِ نَفْسَهُ في هذه النار ، ثم ألقى فيها نفْسَهُ وأولادَهُ ونساءَهُ ، خوفاً أن يُظفر بجثّتهِ أو بحُرَمِهِ . فلما احترقوا فَتحتْ أبوابُ القلْعة ، فدخلها عسْكرُ المهديّ فوجدوها خاليةً خاويةً .

ولمّا وليَ المهديُّ الخلافةَ جدّد الكلامَ في خلْعِ عيسى بنِ موسى والبيعة لِولَدَيْه : مُوسى الهادي ، وهارون الرّشيد . وقد تقدّمَ شرحُ كيفيّة خلعه في أيّامِ المنصور ، وأنه قدّمَ المهديَّ عليهِ . فلمّا ولي المهديُّ أرادَ لبنيه ما أراد المنصورُ لهُ فطلبَ منْ عيسى بن موسى أن يَخلَعَ نفسه فأبى ، فأرْهبَهُ وأرغبه حتّى أجاب ، وأشْهَدَ عليهِ بالخلْعِ ، وبايعَ لولديهِ الهادي والرّشيد .

وكانَ المهديُّ ينظرُ في الدّقائقِ من الأمور ، وكذلك كانَ أبوهُ فتقدّمَ المهديُّ حين ولي بردَّ نسبِ آلِ زياد [2] بنِ أبيه إلى عُبيْد الثقفي ، وإسْقاطهمْ ، منْ ديوان قُريش . وبردَّ نَسبِ آلِ أبي بكْرة إلى ولاءِ رسول الله – صلوات الله عليه وسلامه– وكتبَ الكتبَ بِذلك ، فاعتَمَدَ ما رسمَ به ، ثم بعد ذلك ارتشى العمّالُ منْ بني زيادٍ وأعادوهم إلى ديوانِ قُريش . وغزا المَهْديّ الرومَ عِدّةَ دفعاتٍ وكانتْ لـه الغَلَبةُ . وماتَ المهدي بما سبذان ، واختُلِفَ في سببِ موْته .

فقيلَ : إنّهُ طردَ ظبياً في بعضِ مُتصيّداتهِ فدخلَ الظبيُ إلى باب خرْبةٍ ، فدخلَ فرسُ المهديُّ خلفهُ فدقّه بابُ الخرْبة ، فقطعَ ظَهْرَهُ فمات منْ ساعته . وقيلَ : إنْ بعضَ جواريه جعلَتْ سُمّاً في بعضِ المآكلِ لجاريةٍ أخرى ، فأكل المهديُّ منهُ

---

[1] ثم جميع نسائه : الصواب : [ثم جمعَ نساءَهُ] انظر طبعة بيروت ص ١٨٠ .

[2] زيادُ بن أبيهِ : كان من أنصار عليّ بن أبي طالبٍ ثم تحوّل إلى نصرةِ معاوية فولاه الكوفة والبصرة . وقد ألحقه معاوية بنسبهِ فادعاه لأبيه أبي سفيان ترغيباً له ، وظلّ مغمور النسب . توفي عام / ٥٣ / هـ .

وهو لا يعلمُ فماتَ . وذلك في سنة تسعٍ وستين ومائـةٍ . وقـال أبـو العتاهيـة يصـفُ جَواريهِ وقَدْ برزْنَ بَعْدَ موته وعليهِنَّ المسُوحُ :

رُحْنَ في الوَشْيِ وأَقْبلْنَ عليهِنَّ المُسُوحُ [1]
كلُّ نطّاحٍ منَ الدَّهـــرِ لـهُ يومٌ نَطوحُ
لَستَ بالباقي ولو عُمِّـرْتَ ما عُمِّرَ نُوحُ
فعلى نفسِكَ نُحْ إنْ كُنْتَ لا بُدَّ تنـوحُ

(رمل)

شرحُ حالِ الوِزارة في أيّامهِ

في أيّامهِ ظَهرَتْ أُبّهةُ الوزارة بسَبب كفاءة وزيره أبي عُبيد اللـه معاويـةَ بـنِ يَسار فإنّهُ جمعَ لهُ حاصِلَ المملَكَةِ ، ورتّبَ الديـوانَ ، وقـرَّر القواعدَ . وكـانَ كـاتبَ الدنيا وأوْحَدَ النّاسِ حذْقاً وعِلْماً وخبْرَةً . وهذا شرْحُ طرفٍ منْ حالهِ .

وَزارةُ أبي عُبيدِ اللهِ مُعاويةَ بنِ يَسارٍ لِلْمَهْديِّ

هُوَ منْ موالي الأشعريّين [2] . كانَ كاتبَ المَهْديِّ ونائبهُ قبْلَ الخلافة ، ضمّهُ المنْصورُ إليهِ ، وكانَ قدْ عزمَ أنْ يستوْزِرهُ ، لكنهُ آثرَ بهِ ابنهُ المهـديَّ ، فكـانَ غالبـاً على أمورِ المهديِّ لا يعصي لهُ قوْلاً ، وكانَ المنْصورُ لا يزالُ يُوصيـه فيـهِ ويـأمُرُهُ بامتثالِ [3] ما يشيرُ به ، فلمّا ماتَ المنصورُ وجلسَ المهـديُّ علـى سـريرِ الخلافـةِ ، فوّضَ إليهِ تدبيرَ المملكةِ وسلّمَ إليـه الدواويـن . وكـانَ مُقدَّمـاً فـي صناعتـه فـاخترَعَ أموراً : منْها أنهُ نقلَ الخَراجَ إلى المُقاسَمَة – وكانَ السُّلْطانُ يأخذُ عَن الغلاتِ خراجاً

---

[1] المُسوح : جمع مسْح . وهو كساءٌ من شعر خشنٍ يلبس في حال الحزن أو التنزهد .
[2] الأشعريّون : موالي أبي موسى الأشعري الصحابيّ وهو أحد الحكمين بين عليّ ومُعاوية .
[3] الامتثال : الطاعة .

فوّضَ إليهِ تدبيرَ المملكةِ وسلّمَ إليهِ الدواوينَ . وكانَ مقدّماً في صناعتهِ فاخترعَ أموراً : منها أنهُ نقلَ الخراجَ إلى المقاسمَة – وكانَ السّلطانُ يأخذُ عن الغلاتِ خراجاً مقرّراً ولا يقاسِمُ – فلمّا ولي أبو عبيدِ اللهِ الوزارةَ قرّرَ أمْرَ المقاسمةِ ، وجعلَ الخراجَ على النّخْلِ والشّجرِ ، واستمرَّ الحالُ في ذلك إلى يومنا ، وصنّفَ كتاباً في الخراجِ ، وذكرَ فيهِ أحكامَهُ الشرعيّةَ ودقائقهُ وقواعِدَهُ ، وهو أولُ من صنّفَ كتاباً في الخراجِ ، وتبعَهُ الناسُ بعدَ ذلك فصنّفوا كتُبَ الخراجِ ، وكانَ شديدَ التكبُّرِ والتجبُّرِ .

رُوِيَ أنّ الرّبيعَ لمّا قدِمَ من مكّةَ بعدموتِ المنصورِ ، وأخذَ البيْعةَ للمهديِّ حضرَ منْ ساعةٍ وصولهِ إلى بابِ أبي عُبيد الله ، فقالَ لهُ ابنُهُ الفضْلُ : يا أبي ، نبدأُ بهِ قبلَ أميرَ المؤمنين ، وقبْلَ منزِلنا ؟ قال : نعمْ يا بُنيّ ، هُوَ صاحبُ الرجلِ والغالبُ على أمرهِ.قالَ : فوصلَ الربيعُ إلى باب أبي عُبيْدِ الله الوزيرِ فوقفَ ساعةً حتّى خرجَ الحاجبُ ثم دخلَ فاستأذنَ له فأُذنَ لهُ . فلمّا دخلَ عليه لم يقمْ لهُ ؛ ثمّ سألَهُ عنْ مَسيرهِ وحالهِ فأخبرهُ وشرعَ الربيعُ يحدثُهُ بما جرى في مكّةَ منْ موتِ المنْصورِ واجتهادِهِ في أخذِ البيعةِ للْمَهْديِّ ، فسكّتَهُ وقالَ : قدْ بَلَغني الخبرُ فلا حاجةَ إلى إعادتهِ فاغتاظَ الربيعُ ثم قامَ فخرجَ ، وقالَ لابنهِ الفضْلِ : عليَّ كذا وكذا إنْ لم أبذلْ مالي وجاهي في مكروههِ وإزالةِ نعمْتهِ . ومضى الربيعُ إلى المهديِّ فاستحجبَهُ [1] واختصَّ بهِ كما كانَ معَ أبيهِ فشرعَ في إفساد حال أبي عُبيد الله الوزير بكلِّ وجْهٍ ، فلمْ يتّفِقْ لهُ ذلك . فخلا ببعضِ أعدائِه وقال لهُ : قد ترى ما فعلَ معك أبو عُبيدِ الله – وكانَ قد أساءَ إليهِ – وما فعلَ معي أيضاً فهلْ عنْدَكَ تدبيرٌ في أمرهِ ؟ قال الرجل لا واللهِ ما عندي حيلةٌ تنفذ عليهِ فإنّهُ أعفُّ الناس يداً ولساناً ، ومَذْهبُهُ مذْهبٌ مُستقيمٌ وحِذْقُهُ في صِناعتهِ ما عليهِ مزيدٌ وعقلُه وكفاءتهِ كما علمْتَ . ولكنّ ابنَهُ رديءُ الطريقةِ مذْمومُ السّيرةِ ، والقوْلُ يُسرِعُ إليه . فإن تهيّأ حيلةٌ منْ جهةِ ابنه فعسى ذلكَ فقبّلَهُ الربيعُ بينَ عينيه ، ولاحَ لهُ وَجْهُ الحيلةِ عليهِ ، فسعى بابنهِ [2] إلى المهديِّ

---

[1] استحْجبَهُ : جعلَهُ حاجبَهُ .

[2] سعى بهِ : وشى به .

أنواعاً من السّعايات وأخذ يرْميه بالزّنْدقة [١] . وكانَ المهديُّ شديدا على أهل الإلحادِ والزّنْدقة ، لا يزال يتطلعُ عليهمْ ويفتك بهمْ . فلمّا رسخ في ذهْن المهديّ زندقةُ ابنِ الوزيرِ استَدْعى به ، فسألهُ عنْ شيءٍ من القرْآن العزيزِ فلمْ يعْرفْ فقال لأبيه وكانَ حاضِراً : ألمْ تُخبِرْني أنّ ابنَك يحفظُ القرآن ؟ قال بلى يا أمير المؤمنين ولكنْ فارقني مذ مُدّةٍ فنسيهُ . فقال لهُ : قمْ فتقرّبْ إلى الله بدمه . فقامَ أبو عُبيدِ الله فعثر ووقع وارتعدَ ، فقال لهُ العبّاسُ بنُ مُحمّدٍ عمُّ المهْديّ : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ رأيتَ أن تُعفي الشيخَ من قتلِ ولَدِهِ ، ويتولّى ذلك غيْرُهُ . فأمرَ المهديُّ بعضَ منْ كانَ حاضِراً بقتْلِهِ فضربتْ عُنُقُه . واستمرَّ أبوهُ على حالِه من الخِدْمة إلا أنهُ ظهر عليهِ الانكِسارُ وتنمّرَ قلبُهُ [٢] ، وتنمّر قلبُ المهديِّ منْهُ . فدخل بعضَ الأيّام على المهديّ ليعرض عليهِ كُتُباً قد ورَدتْ منْ بعضِ الأطْرافِ ، فتقدّم المهديُّ بإخلاء المجْلس فخرج كلُّ منْ بهِ إلا الرّبيعَ ، فلم يعْرِضْ أبو عُبيد الله شيئاً من الكتب ، وطلبَ أن يخْرُجَ الربيعُ فقالَ لهُ المهديُّ : يا ربيعُ اخرُجْ . فتنحى الربيعُ قليلا ، فقال المهْديُّ : ألم آمرك بالخُروجِ ؟ قالَ : يا أمير المؤمنين ، كيف أخرجُ وأنْت وحْدك وليْس معكَ سِلاحٌ ؟ وعندك رجُلٌ منْ أهلِ الشّام اسمُهُ مُعاويةُ ، وقد قتلْتَ بالأمس ولَدَهُ ، وأوغرْتَ صدْرَهُ –على هذه الحال وأخْرُج ؟ ! فثبتَ هذا المعنى في نفس المهديّ إلا أنهُ قالَ : يا ربيعُ ، إنّي فكيفَ أدعُكَ معهُ أثقُ بأبي عُبيدِ الله في كلّ حال . وقالَ لأبي عبيدِ الله الوزيرِ : اعرضْ ما تُريدُ فليس دونَ الرّبيع سِرٌّ . ثم قال بعد ذلك المهديّ للربيع : إني أستحي منْ أبي عُبيد الله بسببِ قتلِ ولده فاحجبْه عنّي . فحُجِبَ عنْهُ ، وانقطعَ بدارِهِ ، واضمحلّ أمْرُهُ ، وتهيأ للربيع ما أرادهُ منْ إزالة نعْمَته وماتَ أبو عُبيدِ اللهِ مُعاويةُ بنُ يسارٍ في سنة سبعينَ ومائةٍ .

---

[١] الزندقة : الخروج على الدين .

[٢] تنمّرَ قلبُهُ : شُحِنَ بالحذر والكراهية .

وَزارةُ أبي عُبيدِ اللهِ يَعقوبَ بنِ داودِ للمَهْديّ

هو من الموالي . قالَ الصّولي [١] : كان داودُ أبوهُ وإخوتهُ كتّاباً لنصْـرِ بنِ سيّار أمير خراسانَ . كانَ يَعقوبُ بن داودَ يتشيّعُ ، وكانَ في ابتـداء أمْره مـائلاً إلـى بني عبدِ اللهِ بنِ الحسنِ ، وجرتْ لهُ خطوبٌ في ذلكَ . ثمّ إنّ المهديّ خافَ مـنْ بنـي الحَسَنِ أن يُحدثوا أمراً لا يُتداركُ ، فطلب رجُلا ممّن لهُ أُنسٌ ببنـي الحسـنِ ليسْتَعين بهِ على أمرهِمْ ، فدَلّهُ الربيعُ على يعقوبَ بن داود لصداقةٍ كانتْ بين الربيـعِ وبينـهُ ، وليتّفقا على إزالةِ دولةِ أبي عُبيدِ الله مُعاويةَ الوزيرِ . فاستَحْضرهُ المهديُّ وخاطَبهُ ، فرأى أكملَ الناسِ عقلاً وأفضَلهمْ سيرةً فشُغفَ بـه واسـتَخلَصهُ لنفسـه . ثـم اسـتوزرَهُ وفوّضَ الأمورَ إليهِ .

وقيلَ إنّ السببَ في وزارتهِ غيْرُ هذا . وهو أنّ يعقوب بن داود قـرّر لـلربيعِ مائةَ ألفِ دينارٍ إنْ حَصلَتْ له الوزارةُ ، فجعلَ الربيعُ يُثْني عليـه فـي الخلوات عِنْد المَهْـديّ فطلبَ المهديُّ أنْ يراه . فلمّا حضر بيْن يديْه رأى أكْمل الناس خلْقا وفضْلاً ثم قالَ لهُ : يـا أميرَ المؤمنيـن ، هـا هنـا أمـورٌ لا تنتهـي إلـى علْمـكَ ، فـإن ولّيتَني عرَضْنها عليك بَذلْتُ جهْدي في نصيحتكَ فقرّبَهُ وأدنَاهُ فصارَ يعرضُ عليهِ منَ المصالِحَ والمهمّاتِ والنصائحِ الجليلةَ ما لـم يكُنْ يُعْرضُ عليـه مـنْ قبْـل فاسـتَخصّه وكَتبَ كِتاباً بأنه أخوهُ في الله تعالى ، واستوْزرَهُ وفـوضَ إليـه الأمـور كُلّهـا وسلّمَ إليهِ الدواوينَ ،وقدّمهُ على جميعِ الناسِ حتّى قال بشّارُ [٢] يهجوهُ :

بنـي أميـةَ هُبّوا طـالَ نـومُكُــمُ ... إنّ الخليفـةَ يَعقوبُ بنُ داودِ
ضاعَتْ خِلافَتُكُمْ يا قومُ فالتَمِسوا ... خلافةَ اللهِ بَيْنَ النايِ والعُودِ [٣]

---

[١] الصّوليّ : صاحب ((الأوراق)) في التأريخ للعباسيين ، وقد سبقت ترجمته .

[٢] بَشّار : هو بشار بن بُرْد ، أبو مُعاذ ، شاعر فارسي الأصل . كان كفيفَ البصر غزلاً وهجّاءً وشى به الوزير يعقوب بن داود إلى المهديّ ، فقتلهُ بتهمة الزندقة ضربا بالسياط . عام / ١٦٨ / هـ .

[٣] وفي معظم الروايات : ((خليفة الله بين الزقّ والعود)) . الزقّ : وعاء الخمر .

وذلك لأنَّ المهديَّ اشتغلَ باللهوِ واللعب وسماعِ الأغاني ، وفوّض الأُمورَ إلى يعقوبَ بنِ داود . وكانَ أصْحابُ المهديِّ يشْربونَ عنْدهُ النبيذَ ، وقيل : ما كانَ هو يَشْربُ معه ، فنَهاهُ يعقوبُ بنُ داود عَنْ ذلك ووَعَظهُ . وقال أبْعدَ الصلَواتِ في المسْجدِ تَفْعَلُ هذا ؟ فلم يَلْتَفِتْ إليهِ . وفي ذلك يقولُ الشاعرُ للمهديِّ :

فدَعْ عَنْكَ يَعْقوبَ بنَ داودَ جانباً وأقْبِلْ على صَهْباءَ [١] طَيِّبَة النَّشْرِ [٢]

(طويل)

ثُمّ إن السُعاةَ ما زالوا يَسْعوْنَ بيعقوب بنِ داودَ إلى المهديِّ حتى نكَبَهُ ، وجعلهُ في ((المَطْبَقِ)) وَهُوَ حَبْس التّخليد [٣] . فلم يزلْ على ذلك مدّة أيّامِ المهديِّ حتّى أخرجَهُ الرّشيد .

شَرحُ السَّببِ في القَبْضِ عليهِ وكيفيّةِ ما جرى

حدّثَ يعقوبُ بن داودَ قالَ استدعاني المهديُّ يوماً فدخلْتُ عليه ، وهو في مجلسٍ في وَسَطِ بُسْتَانٍ ، ورؤوسُ الشجر مع أرضِ ذلك المجلس ، وقد امتَلأَتْ رؤوسُ الشّجرِ من الأزهارِ المتنوعة ، وقد فُرِش المجلسُ بفُرُشٍ مُورّدَةٍ ، وبين يديه جاريةٌ حَسْنَاءُ لم أرَ أحْسَنَ وَجْهاً مِنْها ، فقالَ لي : يعقوبُ . كيفَ ترى هذا المجلِسَ قُلْتُ : في غايةِ الحسنِ ، فهنأ اللهُ أميرَ المؤمنين قالَ : فهْوَ لكَ وجميعُ ما فيه ومائةُ ألفِ دِرْهَمٍ وهذه الجاريةُ ليتمَّ سُرورُك . فدعوْتُ له قالَ : ولي إليكَ حاجةٌ أريدُ أنْ تَضْمَنَ لي قضاءَها قلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، أنا عَبْدُكَ الطائعُ لجميعِ ما تأمُرُ بهِ ، فدفعَ إليَّ رَجُلاً علَوياً وقالَ : أُحبُ أنْ تكفيَني أمْرَهُ ، فإني خائفٌ أنْ يخْرُجَ عليَّ . قال : فقُلْتُ : السّمْعُ والطاعةُ قالَ : تحلفُ لي ؟ فحلفْتُ لهُ باللهِ أنْ أفْعلَ ما يريدُ .

---

[١] الصهباء : من ألقاب الخمرة ، لونها أصهب مائل إلى الحمرة .

[٢] النّشر : الرائحة المنتشرة .

[٣] حبس التخليد : السجن المؤبّد ، مدى الحياة .

ثُمَّ نَقَلَ جميعَ ما كانَ في المجلسِ إلى منزلي ، والجارية أيضاً فمنْ شدّةِ سُروري بالجارية جَعلتُها في موضعٍ قريبٍ منْ مَجلسي وليسَ بيني وبينها سوى سترٍ رقيقٍ . قالَ : وأدْخَلْتُ العلويَ إليَّ وخاطبْتُهُ ، فرأيْتُ أتمّ الناسِ عقْلاً ، فقال لي يا يعقوبُ تلقى الله بدمي ، وأنا ابنُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ وابنُ فاطمةَ - رضي الله عنهما - وليسَ لي إليكَ ذنْبٌ ؟ قال فقُلْتُ : لا والله ، خُذْ هذا المال وانْجُ بنفسكَ . قال : والجاريةُ تَسْمَعُ كُلَّ ذلكَ فأرسلتْ إلى المهديِّ دسيساً [1] أعلمهُ بالقصّة ، فأرْسلَ المهديُّ ، وشَحَنَ [2] الدُّروبَ بالرِّجالِ حتّى حصّلَ العلويَّ وجعلَهُ في بيتٍ قريبٍ منْ مَجْلسهِ ، ثُمَّ استَدْعاني فحضرْتُ ، فقال : يا يعقوبُ ، ما فعلتَ بالعلويّ ؟ قلتُ : قد أراحَ اللهُ منهُ أميرَ المؤمنين ، قالَ : ماتَ ؟ قلتُ : نعم ، قال : بالله ؟ قلتُ ، إي واللهِ ، قالَ : فضَعْ يدَكَ على رأسي واحلفْ به ، قالَ يعقوبُ : فوَضعْتُ يدي على رأسِهِ وحلَفْتُ بهِ ، فقالَ لِبعْضِ الخدَمِ . أخْرِجْ إلينا مَنْ في هذا البيت قال : فأخْرَجَ العلويُّ . فلما رأيتُهُ امتنعَ الكلامُ عليَّ وتَحيّرْتُ في أمْري ، فقالَ المَهْديُّ : يا يعقوبُ قد حَلَّ لي دَمُكَ ، احملوه إلى ((المَطْبَقِ)) قال يعقوبُ فدُلِّيتُ بحبلٍ في بئرٍ مُظْلِمةٍ لا أرى فيها الضَوْءَ ، وكانَ يأتيني في كلّ يومٍ ما أتَقَوّتُ به ، فمكثْتُ مُدّةً لا أدري كم هي ، وذهبَ بَصَري ففي بعضِ الأيّامِ دُلّي لي حبْلٌ وقيل : اصْعَدْ ، قد جاءَ الفَرَجُ . فصَعِدْتُ وقدْ طال شَعْري وأظافيري ، فأُدْخِلْتُ الحمّام وأصلحوا شأني وألبسوني ثياباً ، ثُمَّ قادوني إلى مجلسٍ فقيلَ لي سلم على أمير المؤمنين . فقلتُ : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وقيل لي : على أيِّ أُمراء المُسلمين سلّمْتَ ؟ قلتُ : على أميرِ المؤمنينَ المَهْدِيِّ ، فسَمِعْتُ قائلاً منْ صَدْرِ المجْلسِ يقولُ : رحِمَ اللهُ المهديَّ : ثم قيل لي : سلِّمْ على أميرِ المؤمنين ، فقلتُ السّلامُ عليكَ يا أميرَ المؤمنين فقيلَ لي : على أيِّ أُمراءِ المُؤْمنينَ سلّمْتَ ؟ فقُلْتُ : على أمير المؤمنين الهادي ، فَسَمِعْتُ قائلاً يقولُ منْ صدْرِ المَجْلسِ : رحم اللهُ الهادي . ثُمّ قيل لي سلِّمْ ، فسلَّمْتُ

---

[1] دسيساً : جاسوساً ، مُخبِراً سريّاً .

[2] شَحَنَ : مَلأَ .

فقيلَ لي : على من سَـلَّمْتَ ؟ قُلْتُ : علـى أمـير المؤمنيـنَ هـارونَ الرَّشـيد ، فقـالَ : وعليكَ السَّلامُ يا يعقوبُ ورحْمةُ اللهِ وبركاتُهُ ، أعْزِزْ عليَّ بما نالكَ فجعلْتُ المهْديَّ في حِلٍّ ودَعوْتُ للرَّشيدِ وشكرتُهُ على خلاصي . ثمَّ قال : ماذا تُريدُ يا يعقوبُ ؟ قُلْتُ يا أميرَ المؤمنين ، ما بقي فيَّ مُستَمَعٌ ولا بلاغ ، وأُريدُ المُجاورةَ بمكَّة ، فأمرَ لي بما يُصلحني . ثم تَوجَّهَ يعقوبُ إلى مكَّةَ وجاور بها ، ولمْ تطُلْ أيَّامُهُ حتَّى ماتَ هُناك سنةَ ستٍّ وثمانينَ ومائةٍ .

وزارةُ الفَيْضِ بنِ أبي صالحٍ لِلْمَهْدِيِّ

هو منْ أهل نيْسابورَ ، وكانوا نصارى ، فانتقلوا إلى بني العبَّاسِ وأسْلَمُوا . وتربَّى الفيضُ في الدولةِ العبَّاسيَّةِ وتأدَّبَ وبرع ، وكانَ سَخيًا مفْضالاً مُتخرِّقاً في مـالـهِ جَواداً عزيزَ النَّفسِ ، كبيرَ الهمَّـةِ كثـير الكِبْرِ والتِّيـه ، حتَّـى قـال فيـه بعْضُ الشُّعَراءِ :

أبا جَعْفَرٍ جئْناكَ نسألُ نائِلاً[1] فأعْوَزَنا منْ دُونِ نائِلِكَ البِشْـرُ
فما برِقَتْ بالوَعْدِ منكَ غَمامةٌ يُرَجَّى بِها مِنْ سَيْبِ نائِلِكَ القَطْرُ
فَلَوْ كُنْتَ تُعْطينا المُنى وزِيادةً لَنَغَّصَها مِنْكَ التجبُّرُ والكِبْـرُ

(طويل)

قالوا : كانَ يحيى بنُ خالدِ بنِ بَرْمَكَ إذا استَعْظَمَ أحدٌ كرَمَهُ وجودَهُ قال : لـو رَأيتُمُ الفيضَ لَصغُر عِنْدكُمْ أمْري . وفي الفيضِ يقولُ أبو الأسْوَدِ الحماني الشـاعر يمْدَحُهُ :

ولائِمةٍ لامتْكَ يـا فيضُ فـي النَّـدى فَقُلْتُ لَها : لَنْ يَقْدَحَ اللَّـوْمُ في البَحْـرِ
أرادَتْ لِتَثْني[2] الفيضَ عَنْ سُنَنِ النَّدى[3] ومَنْ ذا الذي يَثْني السَّحابَ عَنْ القَطْرِ ؟

---

[1] نائلاً : عطاءً .

(٢) تَثْني : تمنعُ وتكفُّ .

[3] سُنَنِ النَّدى : طرائق الكَرَم ومناهجه .

مـواقِـعُ جـودِ الفَيْضِ في كُـلِّ بَلْـــــدَةٍ

مـواقعُ مـاءِ المُزْنِ [1] في البَلَدِ القَفْــرِ

كـــأنَّ وُفُــودَ الفَيْضِ لَمَـا تَحمَّلـــــوا

إلى الفيضِ وافــوا عِنْدَهُ ليلـةَ القَــدْرِ

(طويل)

قـالـوا : كـان الفيضُ بنُ أبي صـالحٍ متوجِّهاً فـي بعْضِ الأيّـامِ إلـى بَعْضِ أغْراضِهِ فصادَفَهُ صديقٌ لهُ ، فسأله الفيضُ إلى أينَ يَذْهبُ ، فقال : إنَّ وكيـلَ السيدة أمِّ جَعْفَرَ زُبَيْدَةَ قَدْ حبَسَ فُلاناً على بَقِيَّةِ ضمانٍ ،مبلغُهـا مائـةُ ألـفِ دينـارٍ ، وفـلانٌ – يَعني المحبوسَ – صَدِيقي وَصديقُكَ أيضاً وأنا متوجِّهٌ إلى الوكيلِ المذكورِ لأشفعَ فيهِ فهل لكَ أن تَصِلَ جَناحي وتُساعدَني على هذه المكْرُمةِ ؟ فقـال الفيـضُ : إي واللـهِ . ثمَّ مَضى معـهُ فَحضَـرَ عِنْدَ وكيلِ أمِّ زُبيدةَ . وشَفَعا فـي الرَّجلِ المحْبوسِ ، فقـالَ الوكيلُ : الأمرُ في هذا إليها ، وما أستطيعُ أن أُفرِجَ عنهُ إلا بقولِها ، ولكنّي أُخاطِبُها وأُحَسِّنُ لَها الإفْراجَ عَنْهُ . ثُمَّ كتبَ إليها شيئًا ، فخرجَ الجوابُ أنّهُ لا بُـدَّ مـن استيفاءِ هذا المالِ ، ولا سبيلَ إلى قَبولِ شفاعةٍ في هذا البابِ فاعتذَرَ الوكيـلُ إليْهِمـا وأراهمـا الخطَّ ، فقالَ الرجلُ لِلفيضِ : قُمْ حتّى نمْضيَ فقدْ فعلْنا ما يجِبُ علينا ، فقالَ الفيضُ : لا واللهِ ، ما فَعلْنا ما يجِبُ علينا ، فكأنّنا ما جِئْنا هنا إلا لِنؤكِّدَ حبْـسَ صـاحبِنـا . قـالَ الرجلُ فما تَصنَعُ ؟ قالَ الفيضُ : حيثُ قد تعذرَ علينا خلاصُهُ منْ هذهِ الجهةِ ، نُؤدِّي عَنْهُ هذا المالَ مِن خاصتِنا ونُخْرِجُهُ أنْتَ نِصفُهُ ، وأنا نِصفُهُ . فأجابَ الرَّجُلُ إلى ذلك فقالا لِلْوكيلِ : كَمْ لكَ عَلَيْهِ ؟ قالَ : مائةَ ألفِ دينارٍ قالا : هِيَ علينا وهذا خطُنا بِهـا ، فادفعْ إلينا صاحِبَنا ، قال : هذا أيضاً لا أقدِرُ أن أفعله ، حتى أعلمها بالحالِ ، قـالا : فأعلمها . فكتبَ إليها الوكيلُ يخبرُها بما قالَ الفَيْضُ وبصورةِ الحالِ ، فخـرَجَ الخـادِمُ وقالَ : لا يكونُ الفيضُ أكرمَ مِنّا ، قَـدْ وهَبْنـاهُ المائـةَ الألـفِ فـادفعْ إليهِـمْ صـاحِبَهُمْ ، فأخذاهُ وخرجا . وكانَ الفيضُ قَدْ وُصِفَ للْمهْدِيِّ لمّا عزمَ على القبضِ على يعقوبَ

---

[1] المُزْن : السَّحاب الممطر .

ابنِ داودِ ، فلما قبضَ عليهِ أحْضر الفَيْـض واسْتوزرَهُ وفوّض الأمـورَ إليـهِ . ومـاتَ المهديُّ وهوَ وزيرُهُ ، فلمّا ولـي الهـادي لـمْ يسْتوزِرْهُ . وبقـي الفيضُ إلـى أوّلِ أيّـامِ الرّشيدِ ، ثمّ ماتَ ، وذلكَ في سنةِ ثلاثٍ وسبعينَ ومائةٍ .

انقضتْ أيّامُ المهديّ ووزرائِهِ
ثمَّ ملَكَ بَعدَهُ ابنُهُ مُوسى الهادي

بُويعَ لهُ بِالخِلافةِ في سنةِ تِسْعٍ وستّينَ ومائةٍ .

كانَ الهادي مُتيَقِّظاً غيوراً ، كريماً شَـهْماً أيّداً، شَـديدَ البطْـشِ جـريءَ القَلْـبِ مجتمعَ الحِسّ ، ذا إقدامٍ وعَزْمٍ وحَزْمٍ . حَـدّثَ عَبْدُ اللـهِ بـنُ مـالكٍ – وكـانَ يتولّـى شُرْطَةَ المَهْديّ – قالَ : كانَ المهديُّ يأمُرني بضرْبِ نُدماءِ الهـادي ومُغنّيـهِ وحَبْسِهِمْ صيانةً لهُ عَنْهُمْ ، فكُنْتُ أفعَلُ ما يأمرني بهِ المهـديُّ . وكـانَ الهـادي يُرْسِلُ إلـيَّ فـي التخفيـفِ عَنْهُـمْ فـلا أفعَلُ ، فلمّـا مـاتَ المهـديُّ وولـيَ الهـادي ، أيْقَنْـتُ بـالتلفِ ، فاسْتَحْضَرَني يوماً ، فدَخَلْتُ عليهِ وهو جالسٌ علـى كُرسـيٍّ – والسَّيْفُ والنِّطْـعُ بيـنَ يديهِ ، فسلَّمْتُ ، فقالَ : لا سلّمَ اللهُ عليكَ ، أتَذْكرُ يومَ بعثْـتُ إليـكَ فـي أمـرِ الحرّانـي وضربِهِ فلم تَقْبَلْ قوْلي ؟ وكذلكَ فعلْتَ في فُلانٍ – وعدّدَ نُدمـاءَهُ فلم تلتفتْ إلى قولي قُلْتُ : نَعَمْ ، أفتأذَنُ في ذِكْرِ الحُجّةِ ؟ قالَ : نعَمْ ، قُلْتُ : ناشدتُكَ اللهَ ، لو أنّكَ قلّدْتَني ما قلّدني المَهْديُّ ، وأمرْتَني بمـا أمَرَ ، فبعثَ إلـيَّ بعضُ بنيكَ بمـا يخـالفُ أمْرَكَ فاتّبعْتُ قولَهُ وتركْتُ قوْلَكَ ، أكانَ يَسرُّكَ ذلكَ ؟ قال : لا ، قُلْتُ : فكذ لـكَ أنـا لـكَ ، وكذلكَ كُنْتُ لأبيكَ . فاستَدناني فقبّلْتُ يدَهُ ، ثُمّ : أمرَ لي : بالخِلْعِ ، وقال : وليتكَ مـا كُنْتَ تَتَـولاهُ ، فـامضِ راشِداً . فمَضَيْتُ مفكّراً فـي أمـري وأمـرِهِ ، وقلتُ : حَدَثٌ يَشْرَبُ ، والقومُ الذين عَصَيْتُهُ في أمرِهِـمْ نُدمـاؤهُ ووزراؤهُ وكتّابـهُ وكـأني بهِمْ حيـنَ

يغلبُ الشرابُ عليهِ يغلبونَ على رأيه ويُحسّنون لهُ هلاكي ؟ قال : فإني لجالسٌ وعنْدي بنيّةٌ لي ، والكانونُ بينَ يديَّ ، وقُدّامي رُقاقٌ وكامِخٌ [1] ، وأنا أشطرهُ بالكامِخِ وأُسخّنه بالنارِ وآكُلُ وأُطعِمُ الصُّغيرةَ – وإذا بوقعِ حوافرِ الخيْلِ ، فظننتُ أنّ الدُّنيا قدْ زُلزِلَتْ ، فقُلْتُ : هذا ما كُنْتُ أخافهُ وإذا البابُ قدْ فُتِحَ ، وإذا الخدَمُ قد دخلوا والهادي في وسَطِهِمْ على دابّةٍ ، فلما رأيتهُ وثبْتُ فقبّلْتُ يَدَهُ ورِجْلَهُ وحافِرَ فرَسِهِ فقالَ لي : يا عبدَ اللهِ : إني فكّرْتُ في أمرِكَ فقلتُ : ربّما سبقَ إلى ذِهْنِكَ أنّي إذا شربْتُ وحَولي أعداؤكَ ، أزالوا حُسْنَ رأيي فيكَ فيُقلِقُكَ ذلك فصِرْتُ إلى مَنْزِلِكَ لأونسَكَ وأُعلِمَكَ أن ما كانَ عندي من الحقْدِ عليك قد زالَ جميعهُ . فهاتِ وأطعِمْني ممّا كُنْتَ تأكلُ ، لِتعلمَ أني قد تحرّمْتُ بطعامك ، فيزولَ خوفُك . فأدنَيْتُ إليه مِنْ ذلك الرقاقِ والكامِخِ فأكَلَ ، ثُمّ قالَ : هاتوا ما صحبْناه لِعبْدِ اللهِ فدخلَ أربعمائةِ بَغْلٍ مُوقَرةٍ دَراهِمَ وغيْرَها . فقالَ : هذهِ لكَ ، فاستَعِنْ بها على أمْرِك واحفَظْ هذه البغالَ عِنْدَكَ لعلّي أحتاجُ إليْها لِبعضِ أسفاري - ثمّ انصرفَ . ومِنْ كلامِهِ ما قالهُ لإبراهيمَ ابن مُسْلِم بنِ قتيبةَ ، وقدْ ماتَ لهُ ولَدٌ فجاء الهادي يُعزّيهِ وكانَ عنْدَهُ بمنزلةٍ عظيمةٍ ، فقالَ لهُ : ((يا إبراهيمُ ، سرّكَ ابنُك وهو عدُوٌّ وفِتْنةٌ ، وحَزَنَكَ وهو صلاةٌ ورحمةٌ ؟)) فقال إبراهيمُ يا أميرُ المؤمنينَ : ما بقيَ منّي جزءٌ فيهِ حُزنٌ إلا وقد امتلأ عَزاءً . وفي أيّامهِ خرَجَ صاحبُ فخّ [2] ، وهُوَ الحُسَيْنُ بنُ عليٍّ بنِ الحَسَنِ ابنِ الحَسَنِ بن عليٍّ ابنِ أبي طالبٍ (عليه السلام) .

شَرْحُ كيفيّةِ الوقعةِ بفَخّ

كانَ الحُسَيْنُ بنُ عليٍّ منْ رجالِ بني هاشمٍ وسادتِهِمْ وفُضَلائِهِمْ ، وكانَ قَدْ عَزَمَ على الخروجِ ، واتّفقَ مَعَهُ جماعةٌ من أعيانِ أهلِ بيته ، ثُمّ وقعَ منْ عامِلِ المدينةِ تهضّمٌ [3] لِبَعْضِ آلِ عليٍّ (عليه السلام) . فثارَ آلُ أبي طالبٍ بسببِ ذلك ،

---

[1] الرُّقاق : الخبز المنبسط الرقيق ، والواحدة منه الرُّقاقة . الكامخ : إدامٌ يؤتدم به أو هو المخلّل .

[1] فخّ : موقع بين مكّة والمدينة . [2] التهضّم : الظلم والجور .

واجتَمَعَ إليهم ناسٌ كثيرون ، وقصدوا دار الإمارة فتَحصَّن منْهُمْ عاملُها ، فكسَرُوا السُّجونَ وأخْرجُوا منْ بها . وبُويعَ الحُسَيْنُ بنُ عليٍّ - عليه السَّلام - ثمّ نما أمرُهُم ، فأرْسِلَ إليهم محمّدُ بنُ سليمان - وقالوا : سليمان بن المنصور - في عسْكرٍ فالتقوا بموضعٍ يُقالُ له فخٌّ بينَ مكّةَ والمدينةِ ، فاقْتتلوا قتالاً شديداً ، ثُمَّ قُتِلَ الحُسيْنُ بنُ عليٍّ- رضي اللهُ عنهُ - وحُمِلَ رأسُهُ إلى مُوسى الهادي ، فلمّا وُضِعَ الرأسُ بين يديهِ قالَ لِمَنْ أحْضرهُ : كأنكم قد جئتُمْ برأسِ طاغوتٍ من الطواغيتِ ! إنَّ أقلَّ ما أجزيكم بهِ حرْمانُكُمْ . ولم يُطْلِقْ لهم شيئاً .

وكانَ الحُسيْنُ بنُ عليٍّ - رضيَ اللهُ عنهُ - صاحبُ فخٍّ شُجاعاً كريماً . قَدِمَ على المهديِّ فأعطاهُ أربعينَ ألفَ دينارٍ ، ففرّقَها في الناسِ ببغْدادَ والكُوفةِ ، وخرجَ منَ الكُوفةِ لا يملكُ ما يلبَسهُ إلا فرْواً ما تحتَهُ قميصٌ (رضيَ اللهُ عنهُ وسلّمَ عليه).

ولم تطُلْ مُدّةَ الهادي ، فيُقالُ : إن أُمّهُ الخيزُران أمرتْ جواريها بقتْلِهِ ، فجَلسُوا على وَجْهِهِ حتّى ماتَ . وسببُ ذلك قد اختُلِفَ فيه ، فقيلَ . إنَّ الخَيْزُرانَ كانت متبسّطَةً [1] في دولةِ المهديِّ تأمرُ وتنهى ، وتشفعُ وتُبرِمُ وتنقُضُ ، والمواكِبُ تروحُ وتغدو إلى بابِها . فلمّا وَلِيَ الهادي وكان شديدَ الغَيْرَةِ كرِهَ ذلك ، وقالَ لها: ما هذه المواكِب التي يبلغني أنها تغدو وتروحُ إلى بابكِ ؟ أما لكِ مِغْزَلٌ يشغلُكِ ، أو مُصْحَفٌ يُذكِّرُكِ ، أو بيتٌ يَصونُكِ ؟ والله - وإلا أنا نفيٌّ منْ قرابة رسول الله - صلى الله عليهِ وسلّم - لئنْ بلَغني أنهُ وقفَ ببابكِ أحدُ قوّادي وخاصتي لأضربنَّ عُنُقَهُ ولأقبضنَّ مالَهُ . ثُمَّ قالَ لأصحابه : أيمّا خيرٌ ، أنا وأُمّي أم أنتم وأمّهاتكم ؟ قالوا : بَلْ أنتَ وأُمّكَ ، قالَ : فأيّكم يحبُّ أن يتحدّثَ الرّجالُ بخبرِ أُمّه فيقال : فعلتْ

---

[1] متبسّطة : متسلّطة ، مُتحكّمة .

أمُّ فلانٍ وَصنَعَتْ أُمُّ فُلانٍ ؟ قالوا : لا نُحبُّ ذلك ، قال : فما بالُكمْ تأتون أُمّي فتتحدّثونَ بحديثِها ؟ فلمّا سَمِعوا ذلك انْقطَعُوا عنها . ثُمَّ بَعَثَ لها طَعاماً مَسْموماً فلم تأكلْ مِنْهُ ، ثُمَّ قتَلَتْهُ .

وقيلَ : بلِ السَّبَبُ أنَّ الهادي عزَمَ على خلْعِ أخيهِ هارونَ الرَّشيدِ وأخذ البَيْعَةَ لابنهِ جَعْفَر ، فخافتْ الخَيْزُران على هارون - وكانت تُحبُّهُ - ففَعلَتْ بالهادي ما فَعلَتْ وماتَ الهادي في سنةِ سبعينَ ومائةٍ ، والليلةُ التي مات فيها هي ليلةٌ ماتَ فيها خليفةٌ وجلسَ خليفةٌ ، ووُلِدَ خليفةٌ ، وقد كانوا يحدّثون أنّهُ سيكونُ ليلةٌ كذلك . فالخليفةُ الذي ماتَ فيها هو الهادي ، والذي جلس فيها على سريرِ الخلافةِ هو الرَّشيدُ والذي وُلِدَ فيها هو المأمونُ .

شرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامِهِ

لما بُويعَ بالخِلافةِ استَوْزَرَ الرّبيعَ بنْ يُونسَ . وقَدْ سبقَ شرْحُ طرَفٍ منْ سيرتهِ ونَسَبِهِ . ثمّ استَوْزَرَ بعدهُ إبراهيم بن ذكوان الحرّاني .

وَزارةُ إبراهيمَ بنِ ذَكْوانَ الحرّانيِّ لِلْهادي

كانَ إبراهيمُ قد اتّصلَ بالهادي في أيّام حداثتِهِ [1] ، كانَ يَدْخُل إليه مع مُعَلِّمٍ كانَ يعلم الهادي ، فخفَّ إبراهيمُ على قلب الهادي وصار لا يصبرُ عنهُ ، ثُمَّ سعى به إلى المهديِّ فكرِهَ لابنه صُحْبَتَهُ ، فنهاه عنْهُ فما انتهى ، فتهدّدَهُ بالقتل ، والهادي لا يُباعِدُهُ فاشتدّتْ به السّعاياتُ إلى المهديِّ ، فأرْسلَ إلى ابنه الهادي أن أرسل إليَّ إبراهيمَ الحرّانيَّ وإلا خَلَعْتُكَ منَ الخِلافةِ ، فأرْسلَهُ إليه صحبةَ بعْضِ خدمه مرفَّهاً ، فوَصلَ إليهِ والمهديُّ يريدُ الركوبَ إلى الصَيْد ، فلمّا رآهُ قال : يا إبراهيمُ ، واللهِ لأقتلنَّكَ ، واللهِ لأقتلنَّكَ واللهِ لأقتلنَّكَ . ثم قال : احفظُوهُ حتّى أعودَ من الصَيْدِ . فأقبل على الدُّعاءِ والتضرُّعِ فاتّفقَ أنَّ المهديَّ أكلَ الطّعامَ المَسْمومَ كما تقدّم شرحُهُ فماتَ منْ ساعتِهِ ، وتخلّصَ الحرّانيّ وجلس الهادي على سرير الخلافة . ثم بعْدَ ذلك بِمُدَيْدَةٍ [2] استَوْزَرَ الحرّانيَّ ، ولم تَطُلِ الأيّامُ حتى ماتَ الهادي .

انْقَضَتْ أيّامُ الهادي وَوُزرائِهِ . ثُمَّ ملَكَ بعْدَهُ أخوهُ هارونُ الرّشيدُ .

خِلافةُ هارونَ الرّشيدِ

بُويِعَ بالخِلافةِ في سنةِ سبعينَ ومائةٍ .

كانَ الرشيدُ من أفاضلِ الخُلفاءِ وفصحائهِمْ ، وعلمائهِمْ وكرمائهِمْ . كانَ يحجُّ سنةً ويغزو سنةً ، كذلك مدّةَ خِلافتهِ إلا سنينَ قليلةً . قالوا : وكان يُصلّي في كلِّ يومٍ مائةَ رَكْعةٍ ، وحجَّ ماشياً ، ولم يحجَّ خليفةٌ ماشيا غيْرَهُ . وكان إذا حجَّ حجَّ معهُ مائةٌ

---

[1] أيام حداثتِهِ : أيّام صباه .

[2] مُدَيْدَة : مدّة قصيرة .

مـن الفُقهـاءِ وأبنـاؤهم ، وإذا لـم يحـجّ أحـجّ ثلاثمائـة رجـلٍ بالنفقـة السـابغة والكسْوة الظاهرةِ . وكانَ يتشبّهُ في أفعالهِ بالمنصور إلا في بذلِ المال ، فإنهُ خليفةٌ أسمحُ منـهُ بالمالِ وكان لا يضيعُ عِندَهُ إحْسانُ مُحْسنٍ ولا يؤخّر . وكان يُحبُّ الشّـعْر والشُّـعراء ويميلُ إلى أهلِ الأدبِ والفِقْهِ ، ويكرهُ المِراء فـي الديـنِ ، وكـان يحـبُّ المديـح ، ولا سيّما من شاعرٍ فصيحٍ ويجزلُ العطـاء عليه .

قـالَ الأصمعـيُّ : صنعَ الرّشيدُ طعاماً : وزَخْـرفَ [1] مجالسـهُ وأحْضـر أبـا العتـاهيـة [2] وقـالَ لَهُ : صِفْ لَنـا مـا نحـنُ فيـه مـنْ نعيـمِ هـذه الدُّنيـا . فقـال أبـو العتـاهيةَ :

عِشْ ما بَدَا لكَ سـالِماً   في ظِلّ شاهِقَةِ القصـــور

فقالَ الرشيدُ : أحسنتَ ، ثُمَّ ماذا ؟ فقالَ :

يُسْعى عليكَ بِما اشْتَهَيْـــتَ لدى الرَّواحِ أو البُكـــورِ

فقالَ : حَسَنٌ ، ثم ماذا ؟ فقالَ :

فـإذا النُّفُوسُ تَقَعْقَعَتْ [3]   في ظِلّ حَشْـرَجةِ [4] الصُّدُورِ

فهُنَـــاكَ تَعْلَمُ مُوقِنَاً   مـا كُنْتَ إلا فـي غُـــرورِ

(كامل)

فبكى الرَّشيدُ ، فقـالَ الفضـلُ بـنُ يحيـى : بَعَـثَ إليك أميرُ المؤمنيـن لِتسرهُ فحزَنْتَهُ ! فقال الرشيدُ : دَعْهُ فإنه رآنا في عمىً فكرهَ أن يزيدنا منْهُ .

وكانَ الرشيدُ يتواضعُ لِلْعُلماء ، قال أبـو مُعاويـةَ الضّريـرُ وكـانَ مـنْ عُلمـاءِ الناسِ : أكلْتُ مع الرَّشيدِ يوماً فصبَّ على يديَّ الماءَ رَجُلٌ ، فقالَ لي : يا أبا مُعاويةَ

---

[1] زَخْرَفَ : زيّنَ .

[2] أبـو العتاهية : هو إسماعيل بن القاسم . نشأ بالكوفة . كنى بـأبي العتاهية لميله إلـى المُجـونِ والتعتُّه وتزهد في آخر عمره . اتصل بالمهدي والهادي والرشيد . كانت وفاته عام / ٢١١ / هـ

[3] تَقَعْقَعتْ : اضطربتْ .

[4] الحَشْرَجة : صوتُ خروجِ الروح عند النزع .

أتدْري مَنْ صبَّ الماءَ على يَدِكَ ؟ فقُلْتُ : لا يا أميرَ المؤمنين ، قال : أنا ، فقُلْتُ : يا أميرَ المؤمنين أنتَ تفعلُ هذا إجلالاً للْعلمِ ؟ قال : نعم .

في أيّامهِ خرجَ يحيى بنُ عبدِ الله بن حسنِ بنِ حسنِ .

شَرْحُ كَيْفيةِ الحالِ في خُروجِ يحيى بنِ عبدِ اللهِ بن حَسَنِ بنَ حَسَنِ بن عليِّ بنِ أبي طالبٍ عليهِ السَلامُ

كانَ يحيى بنُ عبدِ اللهِ قد خافَ مما جرى على أخويْه : النَّفْس الزكيّة وإبراهيمَ قتيل باخمرى . فمضى إلى الدَّيلم [1] فاعتَقَدوا فيهِ استِحقاقَ الإمامةِ وبايعوه واجتمعَ إليهِ الناسُ منَ الأمْصارِ وقويَتْ شوْكتُهُ . فاغتمَّ الرشيدُ لِذلِكَ وندبَ إليهِ الفَضْلَ بنَ يحيى في خمسينَ ألفاً ، وولاهُ جُرْجانَ وطبرستانَ والرَّيَّ وغيرَ ذلك . فتوجَّهَ ابنُ يحيى بالجنودِ فلطفَ بيحيى بنِ عبدِ اللهِ وحذَّرهُ وخوَّفهُ ورغّبهُ ، فمالَ يحيى إلى الصُّلْحِ وطلبَ أماناً بخطِّ الرّشيدِ ، وأن يشْهدَ عليهِ فيهِ القُضاةُ والفُقهاءُ ، وجِلّةُ بني هاشمٍ ، فأجابهُ الرشيدُ إلى ذلك وسُرَّ بهِ ، وكتبَ له أماناً بليغاً بخطِّهِ ، وشَهِدَ عليهِ فيهِ القُضاةُ والفقهاءُ ومشايخ بني هاشم ، وسيّرَ الأمانَ معَ هدايا وتُحفٍ ، فقدِمَ يحيى معَ الفَضْلِ فلَقِيَهُ الرشيدُ في أوّلِ الأمر بكُلِّ ما أحبَّ ، ثم حبسهُ عندَهُ ، واستفتى الفقهاءَ في نقضِ اليمينِ ، فمنهم من أفتى بصحتهِ فحاجّهُ . ومنهم من أفتى ببطلانِهِ فأبطله ، ثم قتله بعدَ ظهورِ آيةٍ لهُ عظيمةٍ .

---

[1] الدَّيلم : أعاجم منطقة الريّ جنوب بحر قزوين .

شَرْحُ الآيةِ التي ظَهَرَتْ في قضيَةِ يحيى بنِ عبدِ الله

حضرَ رَجُلٌ من آلِ الزبيرِ بنِ العوّامِ عند الرشيد ، وسعى بيحيى ، وقال : إنه بعدَ الأمانِ فعلَ وصنعَ ودعا الناس إلى نفسه . فأحضرَهُ الرشيدُ منْ محبسه ، وجمعَ بينَهُ وبينَ الزُّبيريّ ، وسألهُ عن ذلك ، فأنكر واقعة الزبيريّ ، فقال له يحيى إن كنتَ صادِقاً فاحلفْ فقالَ الزبيريُّ : والله الطالبِ الغالبِ – وأرادَ أن يُتمّمَ اليمينَ – فقالَ لهُ يحيى : دعْ هذه اليمين ، فإن الله تعالى إذا مجّده العبدُ لم يُعَجِّلْ عقوبَتَهُ ولكن احلِفْ لهُ بيمينِ البراءةِ وهي يمينٌ عُظمى ، صُورتُها أن يقولَ عن نفسِهِ : بريءٌ منْ حَوْلِ اللهِ وقوّتِهِ ، ودَخلَ في حَوْلِ نفْسه وقوّتِها إن كانَ كذا وكذا . فلما سمع الزُّبيريُّ هذه اليمينَ ارتاعَ لها وقال : ما هذهِ اليمينُ الغريبةُ ؟ وامتَنَعَ من الحلفِ بها . فقالَ لهُ الرشيدُ : ما معنى امتناعك ؟ إنْ كنت صادقاً فيما تقولُ فما خوفُكَ من هذهِ اليمين ؟ فَحلَفَ بها ، فما خرَجَ من المجلسِ حتى ضُرِبَ برِجْلِهِ وماتَ

وقيلَ ما انقضى النهارُ حتّى ماتَ ، فحملوهُ إلى القبرِ وحطّوهُ فيه وأرادوا أنْ يطمّوا القبرَ بالتُّرابِ ، فكانوا كلّما جَعَلوا التُّراب فيه ذهبَ الترابُ ولا ينطمُّ القبرُ فعلموا أنّها آيةٌ سماويّةٌ ، فسَقّفُوا القبرَ وراحُوا . وإلى ذلك أشارَ أبو فراسٍ بن حمدانَ [1] في ميميّته بقولِهِ :

يا جاهِداً في مَساوِيهم يُكَتِّمُها   غَدْرُ الرُّشيدِ بيحيى كيف ينكتمُ ؟
ذاقَ الزُّبيريُّ [2] غِبَّ الحَنْثِ وانْكَشَفَتْ   عَن ابْنِ فاطِمَةَ [3] الأقوالُ والتُّهَمُ

---

[1] أبو فِراس بن حَمْدانَ : هو الحارث بن سعيد ، ابن عمّ سيف الدولة صاحب حلب . شاعر فارس أسرَهُ الرُّوم مرّتين فجاد بقصائدهِ المشهورة بالرّوميّات . قتل عام / ٣٥٧ / هـ قرب حمص
[2] قوله ذاق الزبيريُّ : إشارة إلى معجزة مصرع الزبيري لدى يمينه الكاذب .
[3] ابن فاطمة : هو يحيى بن عبد الله بن حسن العلويّ الذي خرجَ على الرّشيد .

ومع ظهورِ مثلِ هذه الآيةِ العظيمةِ قتلَ يحيى في الحَبْسِ شرَّ قِتْلَةٍ .

وكانت دولـةُ الرشيدِ من أحسنِ الدول ، وأكثرِها وقاراً ورونقاً وخيْـراً وأوسعِها رقعةَ مملكةٍ . جبى الرّشيدُ معظمَ الدنيا ، وكانَ أحدُ عمّاله صاحبَ مِصْر ولم يجتمعْ على بابِ خليفةٍ من العلماءِ والشُّعراءِ والفقهاءِ ، والقرّاءِ والقضاةِ والكتّابِ والندماءِ ما اجتمعَ على بـابِ الرشيدِ . وكـانَ يصلُ كلَّ واحدٍ منهم أجزلَ صلـةٍ ، ويرفعهُ إلى أعلى درجةٍ . وكانَ فاضلاً شاعراً ، راويـةً للأخبارِ والآثارِ والأشعارِ صحيحَ الذوقِ والتمييزِ ، مَهيباً عند الخاصّةِ والعامّةِ .

قبضَ على موسى بنِ جعفر – عليهما السّلام – وأحْضَرَهُ في قبّةٍ إلى بغداد فحَبَسَهُ بدارِ السنديِّ [١] بنِ شاهِكَ ، ثم قُتِلَ وأُظْهِر أنه ماتَ حتْفَ أنفِهِ [٢] .

---

[١] السنديّ بن شاهك : أحد موالي الخلافة من الفرس .

[٢] مات حتف أنفه : مات في أجلِهِ ، ولم يقتل قتلا .

شرحُ كيفيّةِ الحالِ في ذلك

كانَ بعضُ حسّادِ موسى بنِ جعفر من أقاربهِ قد وشى به إلى الرشيد ، وقالَ له : إنَّ الناسَ يحملون إلى موسى خُمْس أموالهم ، ويعتقِدون إمامتَه ، وإنه على عَزْمِ الخروجِ عليكَ ، وكثّرَ في القولِ ، فوقعَ ذلك عِنْدَ الرشيد بموقعٍ أهمّهُ وأقْلَقَهُ ، ثمَّ أعطى الواشي مالاً أحالهُ بهِ على البلادِ ، فلم يستَمْتِعْ بهِ ، وما وصلَ المالُ مِنَ البلادِ إلا وقد مَرِضَ مرضةً شديدةً وماتَ فيها .

وأمّا الرشيدُ : فإنهُ حجَّ في تلكَ السّنةَ ، فلمّا وَرَدَ المدينةَ قبضَ على موسى ابنِ جعفرَ - عليهما السّلامُ - وحمله في قُبَةٍ إلى بغْداد ، فحَبَسه عند السّنديِّ بنِ شاهَكَ وكانَ الرشيدُ بالرقّة فأمر بقتلهِ فقُتِلَ قتلاً خفياً ، ثم أدخلوا عليه جماعةً مِنَ العُدولِ [1] بالكوخِ ليُشاهدوه ، إظْهاراً أنهُ ماتَ حتْفَ أنفه (صلوات الله عليه وسَلامه) .

وماتَ الرّشيدُ بطُوس [2] ، وكانَ خرَجَ إلى خُراسانَ لمُحاربة رافعِ بنِ اللّيْثِ ابنِ نصْرِ بنِ سَيار [3] ، وكانَ هذا رافعٌ قد خرجَ وخلعَ الطاعةَ ، وتغلّبَ على سَمَرْقند [4] وقَتَلَ عامِلَها ، وملَكَها وقويَتْ شوكتَه ، فَخرَجَ الرشيدِ بنفْسه إليه ، فماتَ بطوسَ في سنةِ ثلاثٍ وتسعين ومائةٍ .

شرحُ حالِ الوزارة في أيّامِهِ

لما بُويع بالخلافةِ استوزرَ كاتبه قبلَ الخلافة يحيى بنَ خالد بن برْمَكَ ، وظهرتْ دولةُ بني بَرْمَكَ مذ حينئذٍ .؟

---

[1] العُدول : المشهود بعدلهم ونزاهتهم .

[2] طُوس : بلدة بخُراسان بين مرو ونيسابور .

[3] رافع بن الليث : حفيد نصر بن سيّار آخر ولاة الأمويين على خراسان . خرج على طاعة الرشيد وتغلب على سمرقند وقتل عاملها . ولم يستمّر أمره فقتل عام /١٩٥/ هـ .

[4] سمَرقَنْد : مدينة في أقصى الخلافة العبّاسية في بلاد ما وراء النهر . شرقيّ بُخارى . وبها قبر تيمورلنك .

شَرْح أحْوالِ الدَّولةِ البَرْمَكيَة وذِكْر مَبْدئها ومآلِها

كانوا قديماً على دينِ المجوسِ ، ثمّ أسلم مَـنْ أسلَمَ منهم وحسُنَ إسْلامُهُمْ ، وقد ذكَرنا وزارة جدّهـم خـالدِ بـنِ برمـك فـي أيـامِ المنْصـور ، ونذكـرُ هاهنـا وزارة الباقِينَ وقبلَ الخوضِ في ذلك ، فهذهِ كلماتٌ تعرفُ منها نبذة منْ أحوال هذه الدولة .

اعْلَمْ أنَّ هذهِ الدولةَ كانت غُرّة في جبْهة الدّهْر ، وتاجاً على مفرقِ العصْـرِ ضُرِبَتْ بمكارمهـا الأمثـالُ ، ومنحتْهـا أوفـر إسْـعادِها ، فكـانَ يحيـى وبنـوُه كـالنّجوم زاهرةً والبحورِ زاخرةً ، والسّيولِ دافعةً ، والغيوثِ مـاطرةً ، أسـواقُ الأدابِ عِنْدَهُمْ نافقةٌ ومراتبُ ذوي الحرماتِ عندهم عاليةٌ والدنيا فـي أيـامهم عـامرة وأبهـة المملكـة ظاهرةً ، وَهُمْ مَلْجأ اللّهفِ [1] ، وَمُعْتَصَمُ الطرّيدِ [2] ولَهُمْ يقولُ أبو نواس :

سَلامٌ على الدنيا إذا ما فُقِدْتُمْ بَنِي بَرْمَكٍ من رائِحينَ وغادِ

(طويل)

ذِكْرُ وَزارةِ يحيى بنِ خالدٍ للرّشيدِ

لما جلسَ الرشيدُ على سريرِ المَمْلكة ، استوزرَ يحيى بـنَ خـالد بـن بَرْمَـكَ ، وكانَ كاتبَهُ ونائبَهُ ووزيرَهُ قبلَ الخِلافةِ ، فنهـض يحيـى بـنُ خـالدِ بأعبـاء الدولـةِ أتـمَّ نُهوضٍ ، وسدَّ الثغورَ وتـدارك الخلَـلَ ، وجبـى الأمـوالَ وعمّـر الأطْـرافَ ، وأظهـرَ رَوْنَقَ الخِلافةِ ، وتصدّى لِمَهمّات المَمْلكـةِ ، وكـانَ كاتبـاً بليغـاً ، لبيبـاً أديبـاً سـديداً ، صائبَ الآراءِ حَسَنَ التدبيرِ ضابطاً لما تحتَ يدِه قَويّـاً علـى الأمـورِ ، جـواداً يُبـاري الريحَ كَرَماً وَجُوداً ، ممدّحاً بكلِّ لِسانٍ ، حليماً عفيفاً وقوراً مهيباً ، ولهُ يقولُ القائلُ :

لا تَراني مُصافحاً كَفَّ يحيى إنّني إنْ فَعلْتُ ضَيّعْتُ مالي
لو يمسُّ البخيلُ راحةَ يحيى لَسَخَتْ نفسُه ببذلِ النّوالِ

ومِنْ آراءِ يحيـى السّديدةِ ، مـا قالـه للهـادي وقد عـزم علـى أن يخلـع أخـاهُ هارونَ من الخلافةِ ويبايعَ لابنهِ جَعْفر بنِ الهادي - وكانَ يحيى كـاتبَ الرشـيدِ وَهُوَ يترجّى أن يتولّى هارونُ الخلافَةَ فيصيرَ هو وزيرَ الدولة - فخلا الهادي بيحيى

---

[1] اللّهف : الملهوف ، المضطر إلى العَوْن والمساعدة .
[2] الطّريد : الملاحق الخائف .

وَوَهَبَ له عشرين ألفَ دينارٍ وحادَثَهُ في خلْعِ هارونَ أخيه والمبايعة لجعفر ابنه ، فقالَ له يحيى : ((ياأميرَ المؤمنين ، إن فعلتَ حملتَ الناس على نكْثِ الأيمان[1] ونقضِ العهود ، وتجرّأ الناسُ على مثْلِ ذلك ولو تركْتَ أخاكَ هارون على ولايةِ العَهْدِ ، ثمّ بايعْتَ لِجَعْفَرٍ بَعْده ، كانَ ذلك أوكد في بيْعتِه ، فترِكَ الهادي الأمر مدة ثم غَلَبَ عليهِ حبُّ الوَلدِ ، فأحْضَر يحيى مرّةً ثانيةً وفاوَضَه في ذلك ، فقالَ لهُ يحيى : يا أميرَ المؤمنين ، لو حدَثَ بِكَ حادِثُ الموت ، وقد خلَعْتَ أخاك وبايعتَ لابنِكَ جعفَرٍ وهو صغيرٌ دونَ البلوغِ - أفترى كانتْ خلافَتُه تصحُّ ، وكانَ مشايخُ بني هاشِمٍ يَرْضَوْنَ ذلكَ ويُسلِّمونَ الخلافةَ إليه ؟ قال : لا ، قالَ يحيى : فدَعْ هذا الأمرَ حتى يأتِيَهُ عفْواً ، ولو لم يكنِ المهديُّ بايعَ لهارونَ لَوجبَ أن تبايعَ أنتَ له لِئلا تَخرُجَ الخِلافةُ من بني أبيكَ ، فصوَّبَ الهادي رأيهُ ، وكانَ الرشيدُ بعدَ ذلك يرى هذهِ من أعظمِ أيادي يحيى بنِ خالدٍ عندَهُ .

ومِنْ مكارِمِهِ : قِيلَ : إنَّ الرشيدَ لمّا نكب البرامكةَ واستأصلَ شأفتَهمْ ، حَرَّمَ على الشعراءِ أن يرثوهم ، وأمرَ بالمؤاخذةِ على ذلك ، فاجتازَ بعضُ الحرّاسِ ببعضِ الخَرِباتِ فرأى إنساناً واقفاً ، وفي يدِهِ رُقْعةٌ فيها شعْرٌ يتضمّنُ رثاءَ البرامكة ، وهو ينشد ويبكي فأخَذَهُ الحَرَسُ فأتِيَ بِهِ إلى الرّشيدِ وقصَّ عليهِ الصُّورة ، فاسْتَحْضَرَهُ الرشيدُ وسألهُ عن ذلك فاعترفَ بهِ ، فقالَ له الرشيدُ ، أما سمعتَ تحريمي لِرثائِهِمْ ؟ لأفعلنَّ بكَ ولأصنعَنَّ فقالَ : ياأميرَ المؤمنين ، إن أذِنْتَ لي في حكايةِ حالي حكيتُها ، ثُمّ بعد ذلك أنتَ ورأيكَ قالَ : قُلْ ، قال : إنّي كنتُ مِنْ أصغرِ كتّابِ يحيى بنِ خالدٍ وأرقِّهِمْ حالاً ، فقالَ لي يوماً : أريدُ أن تضيفني في دارِك يَوْماً ، فقلتُ : يامولانا أنا دون ذلك ، وداري لا تَصلُحُ لهذا ، قال : لا بدّ من ذلك ، قلتُ : فإنْ كانَ لا بدَّ فأمهِلْني مدةً حتّى أصلِح شأني ومنزلي ، ثُمّ بعْدَ ذلك أنت ورأيُك ، قال : كم أُمْهِلُكَ ؟ قلتُ : سنةً ، قالَ : كثير قلت فشهوراً ، قال : نعمْ فمضيتُ وشرعتُ في إصلاح المنزلِ وتهيئة أسبابِ الدعوةِ فلما تهيأتِ الأسباب أعلمتُ الوزيرَ بذلك ، فقال : نحنُ

[1] نكث الأيْمان : نقض البَيْعة ، وإخلاف اليمين والعهد .

غداً عندك ، فمضَيْتُ وتهيأتُ في الطعامِ والشراب وما يُحتاجُ إليه فحضر الوزيرُ في غدٍ ومعه ابناهُ جعفرُ والفضلُ وعِدّةَ يسيرةٌ منْ خواصِّ أتباعه ، فنزل عن دابّتِه ونزلَ ولداه جعفرٌ والفضلُ ، وقال : يافلانُ أنا جائعٌ فعجّلْ لي بشيء ، فقال لي الفضلُ ابنه : الوزيرُ يُحِبُّ الفراريجَ المشويّة فعجّلْ منها ما حضر ، فدخلتُ وأحضرتُ منها شيئاً فأكلَ الوزيرُ ومنْ معه ، ثم قامَ يتمشّى في الدارِ وقال : يافلان فرّجْنا في دارك ، فقلتُ يامولانا هذه هي داري ليس لي غيرُها ، قال : بل لك غيرُها قُلْتُ واللهِ ما أملكُ سواها ، فقال : هاتوا بنّاءً ، فلما حضرَ قال له : افتحْ في هذا الحائطِ باباً ، فمضى ليفتّح ، فقُلْتُ : يامولانا ، كيفَ يجوزُ أنْ يُفْتحَ بابٌ إلى بيوتِ الجيران ، واللهُ أوْصى بحفظِ الجارِ ؟ قال : لا بأسَ في ذلك ، ثمّ فتح البابُ ، فقام الوزيرُ وأبناؤه فدخلوا فيهِ وأنا معَهُمْ ، فخرجوا منْه إلى بستانٍ حسنٍ كثيرِ الأشجار ، والماءُ يتدفّقُ فيه ، وبهِ من المقاصيرِ والمساكن ما يروقُ كلَّ ناظرٍ ، وفيه من الآلاتِ والفُرُشِ والخدَمِ والجَواري كلُّ جميلٍ بديعٍ ، فقال : هذا المنزلُ وجميعُ ما فيهِ لك ، فقبّلْتُ يده ودعوْتُ له وتحقّقْتُ القصّة ، فإذا هو منْ يوم حادثني في معنى الدعوةِ قد أرسلَ واشترى الأملاكَ المجاورة لي وعمّرَها داراً حسنةً ، ونقلَ إليها منْ كلّ شيءٍ وأنا لا أعلمُ ، وكنتُ أرى العمارة فأحْسبُها لبعضِ الجيران ، فقال لابنه جعْفر : يابنيّ ، هذا منزلٌ وعيالٌ ، فالمادّةُ من أين تكونُ له ؟ قال جعفرٌ : قد أعطيتُهُ الضّيْعةَ الفُلانيّةَ بما فيها وسأكتُبُ له بذلك كتاباً ، فالتفتَ إلى ابنِه الفضل ، وقال له : يابني ، فمن الآنَ إلى أن يَدْخُلَ دَخْلُ هذهِ الضيعة ما الذي ينفقُ ؟ فقالَ الفضل : عليّ عشَرةُ آلافِ دينارٍ أحْمِلُها إليه ، فقالَ : فعَجّلا لهُ ما قلتما ، فكتب لي جعْفرٌ بالضّيعةِ وحمَلَ الفضلُ إليَّ المالَ فأثْريْتُ وارتفعتْ حالي ، وكسبتُ بعدَ ذلك معهُ مالاً طائلاً ، أنا أتقلبُ فيه إلى اليوم فوالله ياأميرَ المؤمنين ما أجدُ فرصةً أتمكّنُ فيها الثناءَ عليهِمْ والدّعاءَ لهم إلا انتهزتُها مكافأةً لهم على إحْسانهِمْ

ولَنْ أقدِرَ على مكافأتِهِمْ!فإن كنتَ قاتلي على ذلك فافعل مابدا لك . فرقّ الرشيدُ لذلك وأطلقه ، وأذِنَ لجميعِ الناسِ في رثائهم .

قيلَ :إنَّ هارونَ حجَّ ومعهُ يحيى بن خـالدِ بـنِ برمـكَ ، ومعـه ولَـداهُ الفضـلُ وجَعْفَرٌ فلمّا وَصَلوا إلى مدينةِ الرّسولِ - صلوات الله عليهِ - جلس الرشـيدُ ومعـهُ يحيى فأعْطَيا الناسَ ، وجلسَ الأمينُ ومعه الفضلُ بنُ يحيى فأعطيا النـاس ، وجلـسَ المأمون وَمَعَهُ جعفرٌ فأعطيا الناسَ ، فأعطوا في تلك السَنة ثـلاثَ أعطيـاتٍ ضُرِبَتْ بكثرتها الأمثال ، وكانوا يسمُونه عامَ الأُعطيات الثلاث ، وأثرى الناس بسبب ذلـك . وفي ذلك يقولُ الشّاعر :

أتـانـا بَـنـو الآمـالِ من آلِ بَرْمَكٍ فــياطـيـبَ أخـبـارٍ ويا حُسْنَ منظرِ
لهم رحلـةٌ فـي كلِّ عامٍ إلى العِدا وأُخرى إلى البـيتِ العتيق المُسَتّرِ
إذا نـزلوا بـطحاءَ مكّـةَ أشرقتْ بيحيى وبالفضل بـنِ يحيى وجعفرِ
فَتُظلمُ بغـدادُ وتجلو لَنـا الـدجى بـمـكّـةَ مـا تـمـحـو ثـلاثـةُ أقمرِ
فمـا خُلِقَتْ إلاّ لـجـودٍ أكـفُّـهـمْ وأقـدامُـهُـمْ إلاّ لأ عـوادِ مِـنْـبَـرِ
إذاراضَ يحيى الأمرَ ذلّتْ صِعابُهُ ونـاهـيـكَ مِـنْ راعٍ لَـهُ وَمُـدَبِّرِ

(طويل)

كانَ يحيى يقولُ : ماخـاطبني أحدٌ إلا هبتُـهُ حتّى يتكلمَ فـإذا تكلـم كـانَ بيـن اثنتيـن إمـا أن تزيـدَ هَيْبَتُـهُ ، أو تَضْمَحِلَّ . وكـانَ يقـول : المواعيـدُ شـباكُ الكـرام يصيدونَ بها محامِدَ الأحْرار.كانَ يحيى إذا ركـبَ يُعِدُّ صُرراً فـي كـلِّ صُرَّةٍ مائتـا دِرْهَمٍ يدفعها إلى المتعرّضينَ لهُ .

سيرةُ وَلَدِهِ الفَضْلِ بنِ يحيى

كان الفَضْلُ مـن كِرام الدنيـا وأجْـوادِ أهـل عصـره . وكـان قَد أرضعتْـه أمُّ هارونَ الرشيدِ ، وأرضعتْ أمُّهُ الرّشيدَ ، وفي ذلك يقولُ مروانُ بنُ أبي حفصةَ : [1]

---

[1] مروان بن أبي حفصة : شاعر عباسي فحل ، مجوّدٌ لشعره ، مدح الرشيد ومن قبله من الخلفاء العباسيين ، واشتهر مدحه لمعن بن زائدة الشيباني . توفي عام /١٨١/ هـ .

كـفـى لَكَ فـخـراً أنَّ أكْـرَم حُرَّةٍ غَذَتْـكَ بثـدي والـخليفةَ واحـدِ
لـقد زِنْتَ يحيى في المشَاهدِ كلّها كمازانَ يحيى خالداً في المشاهِدِ

(طويل)

ولاّه الرشيد خُراسان فخرج إليه أبو الهول الشّاعِرُ مادحاً . مُعْتذِراً مِنْ شِعرٍ كانَ هجاهُ بهِ ، فأنشدَهُ :

سَرى نَحْوَهُ مِنْ غَضْبَةِ الفَضْلِ عارِضٌ لَهُ لُجةٌ فيها البَـوارِقُ والـرَّعْـدُ
وكـيـفَ يـنـامُ الليـلَ مُلْقٍ فِـراشَـهُ على مَـدْرَجٍ يـعتـاده الأسـدُ الوَرْدُ
ومالي إلى الفَضْلِ بنِ يحيى بنِ خالـدٍ مِنَ الجُرْمِ ما يُخْشى على مِثْله الحِقْدُ
فَـجُدْ بـالـرِّضا لا أبتغي مِنْكَ غـيرَهُ وَرأيُـكَ فـيمـا كـنتَ عـوّدْتَـني بَعْدُ

(طويل)

فقال له الفضلُ : لا أحتملُ تفريقَك بين رضايَ وإحْساني ، وهُـمـا مـقرونان فإنْ أرَدْتَهما مَعاً وإلّا فَدَعْهُما معاً ، ثم وَصلهُ ورضي عنهُ .

حدَّث إسحاقُ بنُ إبراهيمَ المَوْصلي ، قـالَ : كنتُ قد ربيّتُ جاريـةً حسنةَ الوجْهِ وثقفتُها وعلّمتُها حتّى بَرعَتْ ، ثم أهديتُها إلى الفضـل بنِ يحيى ، فقـالَ لـي : ياإسحاقُ إن رسولَ صاحبِ مِصْر قد ورد إليَّ يسألني حاجةً أقترحُها عليه ، فدعْ هذه الجاريةُ عندَك فإنّني سأطلبُها وأعلمه أني أريدها ، فإنّهُ سوفَ يحضرُ إليك يُسـاوِمُك فيها ، فلا تأخذْ فيها أقلَّ مِنْ خمسينَ ألف دِينار ، قالَ إسحاقُ : فمضيتُ بالجاريةِ إلى منزلي ، فجاءَ إليّ رَسولُ صـاحبِ مِصْر وسألني عَنِ الجاريـة ، فأخْرَجْتُها إليـهِ ، فبَذَلَ فيها عَشَرةَ آلافِ دينار فامتنعتُ ، فصعد إلى عشرينَ ألف دينـار ، فـامتنعتُ ، فصعد إلى ثلاثينَ ألفاً ، فما ملكتُ نفسي حتى قُلْتُ له : بعتُك ، وسَلَّمْتُ الجاريـةَ إليـه وقَبَضْتُ مِنْهُ المـالَ ، ثم إنني أتيـتُ مـن الغـد إلـى الفضـلِ بـنِ يحيـى ، فقـال لـي : ياإسحاقُ : بِكَمْ بِعْتَ الجاريةَ ؟ قلتُ بثلاثين ألف دينارٍ ، قـال : ألـم أقلْ لـك لا تـأخذْ منه أقلَّ مِنْ خمسينَ ألفاً ؟ قلتُ : فداك أبي وأمي والله ما ملكتُ نفسـي منـذُ سمعْتُ لفظةَ ثلاثين ألفاً ! فتبسَّمَ ثُمَّ قالَ : إنَّ رسول صاحبِ الروم قد سـألني أيضـاً حاجـةً ، وسأقترحُ عليه هذه الجاريةَ وأدلُّهُ عليكَ ، فخُذْ جارِيَتك وانصرفْ إلـى منزلكَ ، فـإذا

ساوَمَكَ فيها فلا تأْخذْ منهُ أقلّ من خمسينَ ألف دينار فأخذْتُ الجارية وانصرفْتُ إلى منزلي ، فأتاني رسولُ صاحب الروم وسـاومني فـي الجاريـة فطلبـتْ خمسـينَ ألفـاً ، فقال : هذا كثيرٌ ولكن تأخذ منّي ثلاثين ألفا ، فوالله ما ملكتُ نفسي منذ سمعْت لفظـة ثلاثينَ ألفاً حتى قُلْتُ لَهُ : قد بِعتُـك ! ثم قبضـتُ المـال مِنـهُ وسـلّمتُ الجاريـة إليـه ، وَمَضَيْتُ مِنَ الغد إلى الفضلِ بنِ يحيـى ، فقـال : مـا صنعْتَ ؟ وبكَمْ بعْتَ الجاريـة ياإسحاقُ ؟ قُلْتُ : بثلاثينَ ألفاً ، قالَ : سبحانَ الله ! ما أوْصيتُك ألا تأخذ فيها أقلّ مِنْ خمسينَ ألفاً ، قلتُ : جُعِلتُ فِداكَ ! والله إنّي لما سمِعْتُ قولَهُ : ثلاثين ألفـاً استرْخَتْ جميعُ أعضائي ! فضحِكَ وقال : خُذْ جاريتَك واذهبْ إلـى منزلك ، ففـي غدٍ يجـيءُ إليك رَسُولُ صاحِبِ خراسان فقوّ نَفْسَكَ ، ولا تأخذْ منـهُ أقلّ مـنْ خمسيـن ألـفاً قـالَ إسحاق . فأخذتُ الجاريةَ ومضيتُ إلـى منزلي ، فجـاءني رسـولُ صـاحب خراسـان وساومني فيها ، فطلبتُ خمسينَ ألفاً ، فقال لي : هذا كثيرٌ ، ولكـن تـأخذ ثلاثيـن ألفـاً فقوّيْتُ نفسي وامتنَعْتُ فَصَعِدَ معـي إلى أربعيـنَ ألـفَ دينـار فكـاد عقْلي يذهـبُ مـنَ الفرحِ ولم أتمالك أن قلتُ لَهُ : بِعتُك . فأحْضر المالَ وأقبْضنيه وسلّمْتُ الجاريةَ إليهِ ومضيتُ مـنَ الغدِ إلـى الفضـلِ . فقـال لـي : ياإسـحاقُ ، بكَمْ بعْتَ الجاريـةَ ؟ قُلْتُ : بأربعينَ ألفاً ، واللهِ لما سَمِعتُها مِنهُ كادَ عقلي يذْهب ، وقـد حَصَـلَ عنْـدي - جُعِلْتُ فداك - مائةُ ألفِ دينارٍ ولـم يبـقَ لـي أملٌ ، فأحسَـنَ اللـهُ جـزاءكَ ، فـأمر بالجاريـةِ فأُخْرِجَتْ إليَّ ، وقال : ياإسْحاقُ : خُذْ جاريتَك وانصرفْ . قالَ إسْحاقُ : فقُلْتُ : هذهِ الجاريةُ واللهِ أعظمُ الناسِ بركةً فأعتقْتُها وتزوّجتُها فولدتْ لي أوْلادي .

قيلَ : إنّ محمّدَ بنَ إبراهيمَ الإمامِ بنِ محمّدِ بنِ عليّ بن عبدالله بن العبّاسِ ، حضرَ يوماً عند الفضلِ بنِ يحيى ومعهُ سفطٌ فيه جوْهَرٌ ، وقالَ لهُ : إنّ حـاصلي قد قصّرَ عمّا أحتاجُ إليه ، وقَدْ علاني دَيْنٌ مبلغُـهُ ألـفُ درْهـم ، وإنـي أسـتحي أنْ أُعلِمَ أحداً بذلكَ وآنفُ أنْ أسألَ أحداً من التجارِ أنْ يُقرضَني ذلك ، وإنْ كـانَ معـي رَهْنٌ يفي بالقيمةِ وأنتَ - أبقاكَ الله - لكَ تجارٌ يُعاملونكَ ، وأنا أسألُك أنْ تقترِضَ لي مِنْ أحدِهم هذا المبلغَ وتُعْطيَهُ هذا الرهنَ ، فقال لهُ الفضلُ : السمْعُ والطاعة ، ولكنْ نُجْحُ هذه الحاجة أن تقيمَ عندي هذا اليوم ، فأقامَ ثُمّ إن الفَضلَ أخذَ السّفطَ منْهُ وهْو مختومٌ

بختمِهِ ، وأرْسَلَ مَعَهُ ألفَ ألفَ درهم ، ونَفذَ الدراهمَ والسَّفط إلى منْزله ، وأخذَ خَطَ وكيلِهِ بِقَبْضِهِ، وأقامَ مُحمّدٌ في دارِ الفضل إلى آخرِ النهارِ ، ثم انصرف إلى دارِه ، فَوَجَدَ السفط ومَعَهُ ألفُ ألفِ درهمٍ فسُرَّ بذلكَ سُروراً عظيماً ، فلّما كانَ الغدُ بكَرَ إلى الفضلِ ليشكُرَه على ذلك فوجدَهُ قد بكَرَ إلى دار الرّشيد فمضى مُحمّدٌ إلى الرشيدِ ، فلّما عَلِمَ الفضلُ بِه خَرجَ من بابِ آخرَ ومضى إلى دارِ أبيه فمضى محمّد إليه وشَكَره على فعله ، وقالَ لهُ : إنّي بكرْتُ إليك لأشكُرك على إحْسانكَ ، فقالَ لَهُ الفَضلُ : إنّي فكّرْتُ في أمركَ فرأيْتُ أنَّ هذه الألفَ ألفِ التي حملتَها أمْسِ إليك لتقضي بها دَيْنَكَ ثم تحتاجُ فتقترِضُ ، فبعدَ قليل يعلوكَ مِثلُها ، فبكرتُ اليومَ إلى أميرِ المؤمنينَ وَعرضْتُ عليهِ حالك ، وأخذْتُ لك مائةَ ألفِ ألف درْهَمٍ أُخْرى ، ولمّا حضَرْتَ إلى أميرِ المؤمنينَ خرجْتُ أنا ببابِ آخر ، وكذلك فعلتُ لما حضرْتَ إلى بابِ أبي ، لأنّي ما كنتُ أوثِرُ أن ألقاكَ حتّى يُحْمل المالُ إلى منزلِكَ ، وقدْ حُمِلَ .

فقالَ له محمّدٌ : بأيِّ شيءٍ أُجازيكَ على هذا الإحْسانِ ؟ ما عندي شيء أجازيكَ به إلّا أني ألتزمُ بالأيمانِ المؤكدةِ وبالطلاقِ والعتاقِ والحجِّ ، أنّي ما أقِفُ على بابِ غيرِكَ ولا أسألُ سواكَ .

قالوا وحلَفَ محمدٌ أيماناً مؤكدةً وكتبَ بها خطَّهُ ، وأشهدَ بها عليه أنه لا يقفُ ببابٍ غيرِ بابِ الفضلِ بنِ يحيى ، فلما ذهبتْ دولةُ البرامكةِ وتولّى الفضلُ بنُ الربيعِ ، فلم يَفْعَلْ والتزمَ باليمين ، فلم يركبْ إلى أحدٍ ، ولم يقِفْ على بابِ أحدٍ حتّى ماتَ .

سيرةُ جَعْفَرِ بنِ يَحْيى البرمكيِّ

كانَ جعفرُ بنُ يحيى فصيحاً لبيباً ذكيّا فطناً ، كريماً حليماً ، وكانَ الرشيدُ يأنسُ بهِ أكثرَ منْ أُنْسِه بأخيهِ الفَضْلِ ؛ لسهولةِ أخلاقِ جعفرٍ ، وشراسةِ أخْلاقِ الفضْلِ . وقالَ الرشيدُ يوماً ليحيى : يا أبي ما بالُ الناسِ يسمّونَ الفضْلَ الوزيرَ الصغيرَ ولا يسمون جَعْفراً بذلِك ؟ فقال يحيى : إنَّ خِدمتَكَ ومنادمتَكَ يشغلانهِ عن ذلك . فَجُعِلَ إليه أمرُ دارِ الرشيدِ : فسُمِّي بالوزيرِ الصغيرِ أيضاً .

قال الرشيدُ يوماً ليحيى : قد أحببتُ أن أنقلَ ديوانَ الخاتم من الفضلِ إلى جعفرٍ وقد استحييتُ منْ مُكاتبته في هذا المعنى ، فاكتُبْ أنت إليه ، فكتب يحيى إلى الفضلِ : ((قدْ أمرَ أميرُ المؤمنين – أعلى اللهُ أمْرَهُ – أن تحوّلَ الخاتمَ منْ يمينِكَ إلى شمالِك ، فأجابهُ الفضلُ : ((قد سمعْتُ لما أمر أميرُ المؤمنين في أخي ، وما انتقلتْ عني نعمةٌ صارتْ إليهِ ولا غربتْ عني رتبةٌ طلعتْ عليه !)) فقال جعفرٌ : لله درُّ أخي ، ما أكيَسَ نفسَهُ وأظهرَ دلائل الفضلِ عليه ، وأقوى منّةَ العقل عندهُ ، وأوْسَعَ في البلاغة ذَرْعَهُ ! .

قيل : إنّ جعفرَ بنَ يحيى البرمكيّ جلسَ يوماً للشرب ، وأحبّ الخلوة ، فأحْضَرَ ندماءَهُ الذين يأنسُ بهم وجلس معهم ،وقد هُيِّء المجلسُ ولبسوا الثيابَ المصبّغةَ .(وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشرابِ واللهو ، لبسوا الثياب الحمرَ والصّفرَ والخضرَ) ثم أن جعفرَ بنَ يحيى تقدّم إلى الحاجبِ ألّا يأذن لأحدٍ منْ خلْقِ اللهِ تعالى سوى رجلٍ من النّدماءِ كانَ قد تأخّر عنهم ، اسمُه : عَبْدُالملك بنُ صالحٍ [1] ، ثم جلَسوا يشربون ودارت الكاساتُ وخفقت العيدانُ ، وكانَ رجلٌ من أقاربِ الخليفة يقال له : عبدُ الملكِ بنُ صالح ابنِ عليّ بن العباس ، كان شديد الوقار والدينِ والحِشْمةِ ، وكانَ الرشيدُ قد التمس منْهُ أن ينادمه ويَشْرَبَ معَهُ ، وبذلَ لهُ على ذلك أموالاً جليلةً فلم يفعلْ ، فاتّفق أنّ هذا عبدَالملك بن صالح حضر إلى باب جعْفرِ بنِ يحيى ليخاطِبَه في حوائجَ له ، فظنَّ الحاجبُ أنّه عبدُالملك بنُ صالح الذي تقدّم جعفرُ ابنُ يحيى بالإذْنِ له ، وألا يَدخلَ غيرُه ، فأذِنَ الحاجبُ لهُ ، فدخل عبدُالملك بنُ صالحٍ العبّاسي على جعفرِ بنِ يَحيى ، فلما رآهُ جعْفر كاد عقلُه يذْهَبُ من الحياء ، وفطن أن القضيةَ قد اشتبهتْ على الحاجبِ بطريق اشتباهِ الاسم ، وفطِنَ عبدُالملكِ بنُ صالحٍ أيضاً للقّصةِ ، وظهرَ لهُ الخجلُ في وجه جعفر بن يحيى فانبسط عبدُالملك وقال : لا بأسَ عليكُم ، أحِضروا لنا منْ هذه الثياب المصبغةَ شيئاً وأُحضر له

---

[1] عبدالملك بن صالح : اسمٌ لشاعر ماجن عاصر الرشيد وعاشره ومدحه ونادمَهُ ، واسم لأحد أبناء عمّ السفاح والمنصور العباسيين . كان خطيبا فصيحاً ، ولّاهُ الهادي إمرة الموصل . ثم ولاه الرشيد المدينة فمصر فدمشق ، ثم سجنه حتى أطلقه الأمين . توفي بالرقة عام /١٩٨/ .

قميصٌ مصبوغ ، فلبسه وَجَلس يُباسِطُ جعفر بن يحيى ويمازحه ، وقال : اسقونا مِنْ شرابِكُم فسقوه رطلاً ، وقال : ارفقوا بنا فليس لنا عادةٌ بهذا ثمّ باسَطهُمْ ومازَحهم ، ومازالَ حتّى انبسط جعفرُ بنُ يحيى وزال انقباضُه وَحياؤه ، ففرح جعفرٌ بذلك فرحاً شديداً ، وقال له : ما حاجتُك ؟ قالَ : جئتُ - أصلحكَ اللهُ - في ثلاث حوائجَ ، أريدُ أن تخاطبَ الخليفةَ فيها : أوّلُها : أنّ عليّ ديناً مبلغُه ألفُ درهم أُريدُ قضاءَهُ وثانيها ؟: أريدُ ولايةً لابني يَشْرُفُ بها قدْرُه ، وثالثُها : أن تُزوّج ولدي بابنة الخليفة فإنها بنتُ عمه ، وهو كفء لها ، فقال له جعفرُ بن يحيى - قد قضى الله هذه الحوائجَ الثلاثَ ، أما المالُ ، ففي هذه الساعة يُحْملُ إلى منزلك ، وأمّا الولايةُ ، فقد ولّيْتُ ابنك مِصْرَ ، وأمّا الزّواجُ ، فقد زوجتُه فلانةَ ابنة مولانا أمير المؤمنين على صَداقٍ مبلغهُ كذا وكذا ، فانصرِفْ في أمان الله ، فَراح عبدُالملك إلى منزله فرأى المالَ قد سبَقَهُ ، ولمّا كانَ مِنَ الغَدِ حضر جعفرٌ عندَ الرشيدِ وعرّفه ما جرى وأنه قد ولى ابنَهُ مِصْرَ وزوّجه ابنَتَهُ فعجِبَ الرشيدُ منْ ذلك وأمضى العقد والولايةَ ، فما خرجَ جعفرٌ مِنْ دارِ الرّشيدِ حتى كتبَ له التّقليد بمصر وأحْضرَ القضاةَ والشهود وعقَدَ العقْد .

وقيلَ : إنّ جَعْفَرَ بنَ يحيى كانَ بينه وبينَ صاحب مصْرَ عداوةٌ ووَحْشَةٌ ، وكانَ كلٌّ مِنْهما مُجانباً لِلآخر ، فزوّرَ بَعْضُ الناس كِتاباً عَنْ لسان جعْفر بنِ يحيى إلى صاحبِ مِصْر ، مَضمُونُه : أنّ حاملَ هذا الكتابِ منْ أخصِّ أصحابنا ، وقد آثرَ التفرُّجَ في الديارِ المِصْريّة ، فأريدُ أن تُحْسِن الالتفات إليهِ ، وبالغْ في الوصيّةِ ، ثم أخذ الكتابَ ومضى إلى مِصْرَ وَعَرَضَهُ على صاحبها ، فلما وقفَ عليه تعجّبَ منْهُ وفرِحَ بهِ ، إلا أنه حَصَلَ عِنْدَهُ ارتيابٌ وشكٌّ في هذا الكتاب ، فأكرمَ الرّجُلَ وأنزلهُ في دارٍ حسنة ، وأقامَ له ما يحتاجُ إليه ، وأخذ الكتابَ منْهُ وأرسلهُ إلى وَكيله ببغداد وقالَ لهُ : قدْ وَصَلَ شخصٌ مِنْ أصحابِ الوزير بهذا الكتاب ، وقد ارتبتُ به ، فأريدُ أن تتفحّص لي عن حقيقةِ الحالِ في ذلك ، وهلْ هذا خطُّ الوزيرِ أم لا ؟ وَأرْسَلَ كتابَ الوزيرِ صحبةَ مكتوبهِ إلى وَكيله فجاء الوكيلُ إلى وكيل الوزير وحدّثهُ بالقصّةِ وأراهُ الكِتابَ ، فأخَذه وكيلُ الوزيرِ ودخل إلى الوزيرِ وعرّفه الحالَ ، فلما

وقفَ جَعفَرُ بنُ يحيى على الكتابِ علمَ أنه مُزوّرٌ عليه وكانَ عندَهُ جماعةٌ من نُدمائهِ ونوّابهِ فرمى الكتابَ عليهم ، وقالَ لهم : أهذا خطّي ؟ فتأمّلوه وأنكروهُ كلّهم وقالوا هٰذا مزوّرٌ ، فعرّفهُمْ صورةَ الحال وأنّ الذي زوّر هذا الكتاب موجودٌ بمصرَ عندَ صاحبِها ، وأنه ينتظرُ عَوْدَ الجوابِ بتحقيق حالـه ، وقـالَ لهُمْ : مـا تـرَوْن ، وكيف ينبغي أن نفعلَ في هذا ؟ فقالَ بعضُهم : ينبغي أن يُقتَلَ هذا الرّجلُ حتى تنْحسم هذه المادّة ، ولا يرجعَ أحدٌ يتجرّأ على مثْل هذا الفعْل ، وقال آخر : ينبغي أن تُقْطَعَ يمينُه التي زوّرَ بها هذا الخطّ ، وقالَ آخر : ينبغي أن يوجع ضرباً ويُطلَق حالَ سبيله وكانَ أحْسنَهُمْ مَحضَراً مَنْ قالَ : ينبغي أن تكونَ عقوبتُهُ على هذا الفِعْلِ حِرْمانَه ، وأن يعرفَ صاحبُ مصْر بحاله ليحرمهُ فيكفيهِ من العقوبة أن قطعَ هذه المسافةَ البعيدةَ مِنْ بغداد إلى مِصْر ثم يرجع خائباً ، فلما فرَغوا مِنْ حديثِهمْ قالَ جعْفَرٌ : سُبْحانَ الله ! أليسَ فيكمْ رجلٌ رشيدٌ ؟ قد علمتمْ ما كان بيني وبين صاحبِ مِصْر مِنَ العداوةِ والمُجانبةِ ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منّا كانتْ تمنعُه عزّةُ النفس أن يفْتحَ بابَ الصُلْح ، فقَدْ قيّضَ اللهُ لنا رجُلاً فتحَ بيننا بابَ المُصالحةِ والمُكاتبةِ ، وأزالَ بيننا تلك العداوةَ ، فكيفَ يكونُ جزاؤه ما ذكرتُمْ من الإساءة ؟ ثُمَّ أخذَ القلَمَ وكتبَ على ظاهرِ الكتابِ إلى صاحبِ مِصْر : سُبْحانَ الله ! كيف حصلَ لك الشكُّ في خطّي ؟ هذا خَطُّ يدي ، والرَّجُلُ مِنْ أعزّ أصحابي ، وأريدُ أن تُحْسنَ إليه وتعيده إليّ سريعاً ، فإني مشتاقٌ إليهِ مُحتاجٌ إلى حُضورهِ ، فلمّا وصلَ الكتابُ وفي ظاهره خطُّ الوزيرِ إلى صاحبِ مِصْر كادَ يطيرُ مِنَ الفرحِ ، وأحْسنَ إلى الرجلِ غايةَ الإحْسانِ ووَصلَهُ بمالٍ كبيرٍ ، وتُحَفٍ جميلةٍ ، ثم إنَّ الرجلَ رجَعَ إلى بغدادَ وهو أحسنُ الناسِ حالاً ، فحضرَ إلى مجلسِ جعفرِ بن يحيى ، فلما دخلَ سلمَ عليهِ ووقَع يُقبّلُ الأرْضَ ويبكي ، فقال لَهُ جعْفَرٌ : مَنْ أنتَ ياأخي ؟ قالَ : يامولانا أنا عبدُك وصنيعتُك المزوّرُ الكذّابُ فعَرَفَهُ جعْفَرٌ وبشّ لَهُ وأجلَسهُ بينَ يديهِ وسألهُ عن حاله وقال لهُ : كمْ وصلَ إليك منْهُ فقالَ مائةُ ألفِ دينار ، فاستَقلّها جعفرٌ وقالَ : لازمْنا حتى نُضاعفها لكَ ، فلازمَهُ مُدّةً فكسبَ مَعَهُ مِثْلَها ، ومازالتْ دولةُ البرامكةِ في علوّ وارتفاعٍ وتزايدٍ ، حتى انحرفتْ عنهُم الدُّنيا .

أمارةٌ تدلُّ على انْحِرافِ دَوْلَتِهِمْ

حدَّثَ بَختيشوعُ [1] الطبيبُ قالَ : دخلتُ يوماً على الرشيدِ وهو جالسٌ في قصرِ الخُلْدِ مِنْ مدينةِ السّلامِ ، وكانَ البرامكةُ يسْكُنونَ بحذائِه مِنَ الجانبِ الآخرِ ، وبينَهُمْ وبينه عَرْضُ دجلةَ ، قالَ : فنظرَ الرّشيدُ فرأى اعتراكَ الخيولِ وازدحامَ الناسِ على بابِ يحيى بنِ خالدٍ ، فقال : جزى اللهُ يحيى خيْراً ! تصدّى للأمورِ وأراحني مِنَ الكدِّ ، ووفّر أوقاتي على اللّذة ، ثم دخلْتُ إليه بعد أوقاتٍ وقد شرع يتغيّرُ عليهم ، فنظرَ فرأى الخيولَ كما رآها تلك المرة فقالَ : استبَدَّ يحيى بالأمورِ دوني ، فالخلافةُ على الحقيقةِ له وليس لي منها إلّا اسمُها ؟ قالَ : فعلمْتُ أنّهُ سيَنْكبُهم ثمَّ نَكبَهُمْ عقيب ذلك .

شَرْحُ السَّبَبِ في نَكْبَةِ البرامكَةِ وكيفيّةِ الحالِ في ذلك

اختلفَ أصحابُ السِّيَرِ والتواريخِ في السَّبَبِ في ذلك ، فقيلَ : إنَّ الرشيدَ ما كانَ يصبرُ عَنْ أختِه عبّاسة ولا عَنْ جعفرَ بن يحيى ، فقالَ له : أزوّجُكها حتّى يحلَّ لكَ النظرُ إليها ، فكانا يجتمعانِ وهُما شابّانِ ، ثم يقومُ الرّشيدُ عنْهُما ويخلوانِ بأنفسهما ، حتّى علم الرّشيدُ فكانَ ذلك سببَ نكْبَةِ البرامكة .

وقيلَ : كانَ سببُ ذلك أن الرشيدَ كلّفَ جعفرَ بن يحيى قتْلَ رجلٍ من آلِ أبي طالبٍ ، فتحرَّجَ جعْفَرٌ مِن ذلك وأطلقَ الطالبيَّ ، وسُعِيَ إلى الرشيدِ بجعفرٍ ، فقالَ لَهُ ما فعلَ الطالبيُّ ؟ قالَ : هُوَ في الحبسِ ، قال الرشيدُ : بحياتي ؟ ! ففطن جعْفَرٌ فقالَ لا وَحياتِكَ ، ولكن أطلقتَه لأنّي علمتُ أنه ليْس عنْدَهُ مكروهٌ ، فقالَ الرشيدُ : نَعَمْ ما فعَلتَ ! فلما قامَ جَعْفَر قالَ الرّشيدُ : قتلَني اللهُ إنْ لم أقتُلْكَ ! ثُمَّ نكبَهُمْ .

---

[1] بخْتيشوع : جبرائيل بختيشوع طبيب سريانيّ للرشيد والأمين . اشتهر عدد من أسرته وأولاده وأحفاده بالطبّ والمنطق .

وقيلَ إنَّ أعداءَ البرامكةِ ، مثْلَ الفضلِ بن الربيع ، ما زالوا يسعون بهمْ إلى الرّشيدِ ويذكرونَ استبْدادهم بالمُلك ، واحْتجانهمْ [1] للأموالِ ، حتّى أوْغروا صدْرَه فأوقعَ بهمْ .

وقيلَ : إنّ جعْفراً والفضلَ ابني يحيى بن خالدٍ ، ظهر منْهما منَ الإدْلالِ ما لا تحتمِلُه نفوسُ الملوكِ ، فنَكبهُم لِذلك .

وقيلَ : إن يحيى بنَ خالدٍ رئي وهو بمكّةَ يطوفُ حوْلَ البيت ويقولُ : اللهُمَّ إن كانَ رضاكَ في أن تسلبَني نِعْمَتك عندي ، وتَسلبَني أهلي ومالي وولدي ، فاسلُبني إلا الفضلَ ولدي ، ثُمّ ولّى ، فلما مَشى قليلاً عاد وقال : ياربُ إنّه سمجٌ بمثلي أن يستثني عليكَ اللهم والفضلَ ، فنَكَبَهُمْ الرشيدُ بعد قليلٍ .

شَرْحُ مقتلِ جَعْفَرِ بنِ يحيى والقَبْضِ على أهْلِهِ

كان الرشيدُ قد حَجّ ، فلمّا عادَ مِن الحجّ سارَ مِنَ الحيرةِ إلى الأنبارِ في السُّفُنِ وركِبَ جعفرُ بنُ يحيى إلى الصّيدِ ، وجعل يَشْرَبُ تارةً ويلهو أُخْرى وتُحَفُ الرشيدِ وهَداياهُ تأتيهِ ، وعِنْدَهُ بَختيشوعُ الطبيبُ ، وأبو زكّارٍ الأعمى يُغنّيهِ ، فلمّا أظَلّ المساءُ دعا الرشيدُ مَسْروراً الخادِم – وكان مُبغِضاً لِجعْفر – وقالَ : اذْهَبْ فجِئني برأسِ جعْفَرٍ ولا تُراجِعْني ، فوافاهُ مسرورٌ بغيرِ إذْنٍ وهجم عليه وأبو زكّارٍ يُغنّيهِ :

فلا تَبْعدْ فكلُّ فتىً سيأتي   عليهِ الموتُ يطرُقُ أو يُغادي

(وافر)

فلما دَخلَ مسرورٌ قالَ له جَعْفرُ بن يحيى : لقد سَررتَني بمجيئِك ، وسُؤْتَني بدخولِكَ عليَّ بغيرِ إذْنٍ ! فقالَ : الذي جئتُ لهُ أعْظَمُ ! أجِبْ أميرَ المؤمنين إلى ما يُريدُ بكَ ، فوقَع على رِجلَيْه فقَبلَهُما ، وقالَ لهُ : عاوِدْ أميرَ المؤمنين فإنّ الشرابَ قد حملهُ على ذلكَ ، وقالَ : دَعْني أدْخُلْ داري فأوصي ، فقالَ الدّخول لا سبيل إليه

[1] احتجانُهم للأموال : إحرازهم لها من دون غيرهم ، احتكارهم للثروة .

وأما الوصيّةُ : فأوْصِ بما بدا لكَ . فأوْصى ، ثُمّ حمَلهُ إلى منزلِ الرّشيد وعدلَ بهِ إلى قبّةٍ وَضرَبَ عُنقَه وأتى برأسِهِ على تُرْس إلى الرشيدِ وببدنه في نطْعٍ ، ووجّه الرشيدُ فقبضَ على أبيهِ وإخْوتِه وأهلِه وأصحابه ، وحبسَهُم بالرقة واستأصل شأفتَهُمْ

ومِنْ طريفِ ما وقعَ في ذلك ، ما رواهُ العمرانيّ المُؤرّخُ قالَ : حدّث فلانٌ قالَ : دخلتُ الديوان فنظرتُ في بعضِ تذاكرِ النّواب ، فرأيتُ فيها أربعمائةِ ألفِ دينارٍ ثم خِلْعةٍ لِجعفر بنِ يحيى الوزيرِ ، ثمّ دَخلْت بعد أيّام فرأيتُ تحتَ ذلك عشَرةَ قراريطَ ثمنَ نِفطٍ وبواري لإحراقِ جثّةِ جعفرِ بن يحيى فعَجِبْتُ منْ ذلك .

ثم استوزر الرّشيدُ بعد البرامكةِ الفضلَ بن الرّبيعِ وكانَ حاجبهُ .

وزارةُ أبي العبّاسِ الفضْلِ بنِ الرّبيعِ

قَدْ مضى ذِكْرُ أبيهِ ، وأمّا الفضلُ فكانَ حاجِباً للمنصورِ والمهديّ والهادي والرشيدِ ، فلما نكبَ الرشيدُ البَرامكةَ استوزره بعْدهُمْ .

كانَ الفضلُ بنِ الربيعِ شهماً خبيرا بأحْوالِ الملوكِ وآدابهِمْ ، ولمّا ولي الوزارةَ تهوّسَ بالأدبِ ، وجَمَعَ إليه أهلَ العلْمِ ، فحصلَ منهُ ما أرادَ في مدّةٍ يسيرةٍ ، وكانَ أبو نُواس [1] مِنْ شعرائه المُنقطعين إليه ، فمن شعره في آل الربيعِ :

عبّاسُ عبّاسٌ إذا احْتدمَ الوَغى … والفَضْلُ فَضْلٌ والربيعُ رَبيعُ

(كامل)

وما زالَ الفضْلُ بنُ الربيعِ على وزارته إلى أن ماتَ الرشيدُ بطُوسٍ ، فجَمَعَ الفَضْلُ العسكرَ وما فيه ، ورَجَعَ إلى بَغْداد ، وسَيرِدُ باقي سيرتِه في أيّامِ الأمين .

انقضتْ أيّامُ الرّشيدِ .

---

[1] أبو نُواس : هو الحسنُ بن هانئ . اشتهر بشعرِ المجون والخمريّات . نادم الخلفاء العباسيين ووزراءهم في عصره ويقال إنّه ارتجع وتزهّد في آخر عمره . توفي عام /١٩٥/ هـ .

ثُمَّ ملكَ الأمينُ : محمّدُ بنُ زُبَيْدةَ

أمُّه أمُّ جعفرٍ ، زُبَيْدةُ بنتُ جَعْفر بن المَنْصور ، وليسَ في خُلفاءِ بني العبّاسِ من أُمُّه وأبوه هاشميّان سِواهُ ، كانَ الأمينُ كثيرَ اللهو واللّعب ، منقطعاً إلى ذلك مشتغلاً بهِ عن تدبير مملكتِهِ ، قالَ ابنُ الأثير المؤرخ الجزري : لم نجدْ للأمينِ شَيْئاً مِنْ سيرتِهِ نَستَحْسِنُه فنَذْكُرُه ، وقالَ غيرُه : كانَ الأمينُ فصيحاً بليغاً كريماً وفيه يقولُ بعضُ الشعراء يَمْدَحُه ، ويُعَرِّضُ بهجو المامونِ أخيه :

لَمْ تَلِدْهُ أَمَةٌ تَعْرِفُ في السُّوقِ التِّجارا
لا ولا ، حُدَّ ولا خا نَ ولا في الخِزْيِ جارا

(رمل)

يُعَرِّضُ بالمأمونِ ، لأن الرشيد كان قد حدَّهُ في خَمْرٍ .

كانَ الرَّشيدُ قد بايعَ للأمينِ بولايةِ العهدِ وللمأمونِ بَعْدَهُ ، وكَتَبَ الكُتُبَ بذلك وأشهدَ فيها الشُّهود ، وأرسَلَ نُسَخَها إلى الأمْصارِ ، فعُلِّقَتْ نسخةٌ مِنْ تلك النُّسخِ على الكعبةِ وأكّد ذلك بكلِّ ما إليه السَّبيل ، فلما ماتَ بطوسٍ كانَ المأمونُ في خُراسانَ ، ومعهُ جماعةٌ مِنْ أكابرِ القوّاد ، ووزيرُه الفضْلُ بنُ سهل وكانَ الأمينُ ببغدادَ ، وكان الفضلُ بنُ الربيع وزيرَ الرشيد مع الرَّشيد بطوس ، فلمّا ماتَ الرشيدُ جَمَعَ الفضْلُ جميعَ ما في العَسْكَرِ – وكان الرشيدُ قَدْ أوصى به للمأمون – وتوجَّهَ الفضلُ إلى بغدادَ فاستوْزَرَهُ الأمينُ ، ثم اشتغل باللهوِ واللعبِ ومُعاشرةِ المجّان ، فأشارَ الفضلُ بنُ سهلٍ وزيرُ المأمونِ على المأمونِ بإظْهارِ الوَرَعِ والدّينِ وحُسْنِ السِّيرةِ ، فأظهرَ المأمونُ حُسْنَ السيرةِ واستمال القوّادَ وأهلَ خُراسان ، وكان كلّما اعتمدَ الأمينُ حركةً ناقصةً ، اعتمد المأمونُ حركةً سديدةً ، ثم نشأت العداوةُ بينهما ، وحَسّنَ الفضلُ بنُ الرّبيعِ وغيرُه له أن يخلع أخاهُ المأمونَ مِنْ ولايةِ العهد ، ويبايعَ لابنِهِ مُوسى ، فخَلَعَهُ وبايعَ مُوسى ، وسمّاه الناطقَ بالحقِّ وبسببِ ذلك كانت الفِتْنةُ ببغدادَ بين الأمينِ والمأمونِ ، وكانَ في آخرِها قَتْلُ الأمينِ .

شَرْحُ الفِتْنَةِ بينَ الأمينِ والمأمونِ

كانَ الفضلُ بنُ الرَّبيعِ وزيرُ الأمين قد خلفَ المأمونَ لما فعلهُ عنْدَ موْتِ الرَّشيدِ بطوسٍ ، مِنْ إحضارِ جميعِ ما كانَ في عَسْكرِهِ إلى الأمينِ بعْدَ أنْ كانَ الرشيدُ قد أشهدَ بهِ للمأمونِ ، فخافَ الفضلُ بنُ الربيعِ منَ المأمونِ أنه إنْ ولي الخلافةَ كافأهُ على فِعْلِهِ فحسَّنَ للأمينِ خلْعَ المأمونِ والبيْعةَ لابنه موسى ، واتّفقَ مَعَ الفَضلِ جماعةٌ على ذلك ، فمالَ الأمينُ إلى أقوالهم ، ثمَّ إنه استشار عقلاءَ أصحابه فنهوه عن ذلك ، وحذَّروهُ عاقبةَ البغي ونكْثَ العُهودِ والمواثيقِ ، وقالوا له : لا تجرّىءِ القوّادَ على النكْثِ للأيمانِ وعلى الخلْعِ فيخلْعوك فلم يلْتفتْ إليهم ، ومالَ إلى رأيِ الفضلِ بنِ الربيعِ ، وشرَعَ في خدْعِ المأمون باستدعائِهِ إلى بغْداد فلمْ ينْخدِعْ ، وكتَبَ يعتذِرُ ، وترددتْ المُراسلاتُ والمُكاتباتُ بينهما حتى رقَّ المأمون ، وعَزمَ الإجابةَ إلى خلْعِ نفْسه ، ومبايعةِ موسى بنِ الأمين ، فخلا به وزيرُه الفضلُ بنُ سهْلٍ وشجَّعه على الامتناعِ وضمنَ له الخلافةَ ، وقالَ : هيَ في عهْدتي فامتنع المأمونُ ، ونهضَ الفضلُ بنُ سهْلٍ بأمْرِ المأمونِ واستمالَ لهُ الناسَ وضبَط له الثغورَ والأمورَ ، واشتدَّتِ العداوةُ بين الأخوَيْنِ : الأمينِ والمأمونِ ، وقُطِعتْ الدروبُ بينهما مِنْ بغْداد إلى خُراسان ، وفتِّشت الكتُبُ وصَعُبَ الأمْرُ ، وقطعَ الأمينُ خطبةَ المأمون في بغْداد وقبضَ على وكلائهِ ، وكذا فعلَ المأمونُ بخُراسان ، ونما الشرُّ بينهما وكانَ بقدْرِ ما عندَ المأمونِ من التيقّظِ والضبْطِ ، عندَ الأمينِ منَ الإهمالِ والتفريطِ [1] والغفول فممّا يُحكى من تفريطِ الأمينِ وجهْلِهِ ، أنه كانَ قد أرْسلَ إلى حربِ أخيهِ رجلاً مِنْ أصْحابِ أبيهِ يُقالُ له عليّ بنُ عيسى بنِ ماهان ، وأرسلَ معه خمسينَ ألفاً ، فيُقالُ : إنه مارُئيَ قبْلَ ذلك ببغدادَ عسكر أكثَفَ منْه ، وحمَلَ السّلاحَ الكثيرَ والأموالَ الوافرةَ وخرَجَ معهُ مشيعاً مودعاً ، وكانَ أولَ بعْثٍ بعثَه إلى أخيهِ فمضى عليُّ بنُ عيسى بن ماهانَ في ذلك العسْكرِ الكثيفِ ، وكانَ شيخاً منْ شُيوخِ الدولةِ جليلاً مهيباً ، فالتقى بطاهرِ بنِ الحُسيْنِ ظاهرَ الرَّي [2] ، وعَسْكرُ طاهر حدود أربعة ألف فارس ،

---

[1] التفريط : التضييع للمصلحة .

[2] الرّيّ : مدينة وإمارة جنوبي طبرستان وبحر قزوين .

فاقتتلوا قتالاً شديداً ، كانتِ الغَلَبةُ فيهِ لطاهرٍ ، وقُتلَ علـيُّ بنُ عيسـى وجـيء برأسـهِ إلى طاهرٍ فكَتَبَ طاهرٌ إلى المأمون كتاباً نُسختُهُ :

((أمّا بعدُ فهذا كتابي إلى أميرِ المؤمنينَ – أطـالَ اللـهُ بقـاءَهُ – ورأسُ علـيِّ ابنِ عيسى بين يدي ، وخاتَمُهُ في يدي ، وَجُنْدُه تحت أمري ، والسّلام)) .

وأرسلَ الكِتابَ على البريدِ ، فوَصَلَ إلـى المـأمون فـي ثلاثـة أيـام ، وبينهمـا مَسيرةُ مائتين وخمسينَ فرسخاً [1] ، ثم إنَّ نعيَ عليِّ بنِ عيسى وَرَدَ إلى الأمينِ وَهُوَ يصطادُ السَّمَكَ ، فقالَ للذي أخبَرهُ بذلكَ : دَعْني ، فإن كوثَـراً قـد اصطـادَ سمكتَيْنِ ، وأنا إلى الآنَ ما اصطدتُ شيئاً – وكانَ كَوثَرٌ خادماً له وكان يُحبُّهُ – ولقد كانتْ أمُّـهُ زُبيدة أسَدَ رأياً مِنْهُ فإنَّ عليَّ بنَ عيسى لما أرسَلَه الأمينُ إلى خُراسانَ بالجيْشِ حضرَ إلى بابِ زُبَيْدةَ ليُودِّعَها فقالَتْ لهُ : يا علـيُّ ، إنَّ أمـيرَ المؤمنيـن – وإنْ كـانَ ولـدي وإليهِ انتهتْ شَفَقَتي – فإنّي على عبدِالله – تعني المأمونَ – مُنعطِفةٌ مُشْفِقةٌ لما يَحْدُثُ عليهِ من مكروهٍ وأذى وإنّما ولدي مَلِكٌ نافَسَ أخاهُ في سُلطانه ، فاعرِفْ لِعبدِالله حقَّ ولادَتِه وأخوتِه ، ولا تَجبَهْهُ بالكلامِ فإنَّكَ لستَ نظيراً لهُ ولا تَقْتَسِرْهُ اقتسارَ العَبيدِ ، ولا تُوهِنْه بقيدٍ أو غُلٍّ ولا تَمنَعْ عنه جاريةً أو خادماً ، ولا تَعْنُفْ عليـهِ فـي السَّيْرِ ، ولا تُساوه في المسيرِ ، ولا تـركَبْ قبْلَهُ وخُذْ بركابهِ إذا ركبَ ، وإن شَتَمكَ فـاحتَملْ مِنْهُ ، ثُمَّ دفعتْ إليهِ قَيْداً مِنْ فِضّةٍ وقالتْ : إذا صارَ إليك فقيّدْهُ بهذا القيدِ . فقالَ لها سأفعلُ ما أمَرْتِ بهِ ، وكانَ النـاسُ يجزمـونَ بنُصـرةِ علـيّ بـنِ عيسـى استـعظاماً لَـهُ ولِعَسكرِه ، واستِصغاراً لِمَنْ يلتقيهِ مِنْ جند المأمونَ فقدَّرَ اللهُ خِلافَ ما جزموا بـهِ ، وكانَ مِنَ الأمْرِ ما كانَ .

وكانَتْ تلك الأيامُ أيّامَ فِتَنٍ وَحُروبٍ ، فمّما جـرى مِـنْ ذلـك :أن الحُسَـيْنَ بـنَ عليّ بنِ عيسى بنِ ماهان وكانَ أحدَ الأُمـراءِ شَـغَبَ علـى الأمينِ ، وخَلَعَهُ وحَبَسَـهُ وبايعَ للمأمونِ وتبعَهُ ناسٌ مِنَ العَسكرِ فاجتَمعَ ناسٌ آخرونَ وقالوا : إنْ كانَ الحُسين ابنُ علي بن عيسى يُريدُ أن يأخذ وَجْهاً عندَ المأمونِ بما فَعل ، فلنأخذنْ نحنُ وَجْهاً

---

[1] الفرسَخ : مقياسٌ فارسي للمسافة تقديره ثمانية آلاف متر .

عندَ خليفتِنا الأمينِ بفكِّه وتخليصِه ، وإجْلاسه على السّرير فاقتتل الفريقان فغلبَ أصحابُ الأمينِ فَدخلوا عليهِ محْبسَهُ وأخرجوهُ وأجْلسوهُ على سريرِ الخلافة ، وقاتلوا حُسَيْناً وغلبوا عليه وأحضروهُ أسيراً إلى الأمين ، فعاتبَهُ فاعتذر إليه وعفا عنه ، ثم خَلَعَ عليهِ وولاه العسكر وأمرهُ بمحاربةِ المأمونِ ، فخرَجَ وهرَب فأرسَل الأمينُ الجندَ خلفَهُ فلحِقوا بهِ وقتلوهُ وحَملوا رأسهُ إلى الأمينِ ، فما زال الشر ينْمي والاختلافُ يزيدُ ، حتى أرسلَ المأمونُ هرثمةَ وطاهِرَ بنَ الحُسين - وهُما من أعيانِ أمرائه - بعَسكرٍ كثيفٍ ، لِمحاصرةِ بغْداد ومُحاربةِ الأمينِ ، فحاصرا بغدادَ مدّةً ، وقاتلا بعساكرِهِما قتالاً شديداً ، وجَرتْ بيْن القبيلينِ وقائعُ كثيرةٌ كان في آخرها الغلبةُ لِعَسكر المأمونِ وقُتِلَ الأمينُ وحُمِلَ رأسهُ إلى أخيه المأمون بخُراسانَ ، وذلك في سنةِ ثمانٍ وتسعينَ ومائةٍ .

وأمّا حالُ الوزارةِ في أيّامِهِ ، فإنّهُ لمْ يستوزِرْ غيْرَ الفضلِ بن الرّبيع وزيرِ أبيه وقد سبَقَ شرْحُ طرَفٍ منْ سيرته عنْد ذكْرِ وزارته للرّشيد .

انقضت أيّامُ الأمين .

ثمَّ ملكَ بعدَهُ أخوهُ عبدُاللهِ المأمونُ

بُويِعَ لهُ البَيْعَةَ العامةَ ببغدادَ في سنةِ ثمانٍ وتسعين ومائةٍ وكانَ المأمونُ مِنْ أفْضلِ خلفائِهِمْ وعُلمائِهِمْ ، وحُكمائِهِمْ وحلمائهم وكان فطناً شديداً كريماً .

حُدّثَ عنهُ ، أنّهُ لما كانَ بدمشقَ أضاقَ إضاقةً شديدةً وقلّ المالُ عنْدَهُ فشكا ذلكَ إلى أخيهِ المعتصمِ - وكانَ لَهُ بيدِه أعمالٌ - فقالَ المعتصمُ : يا أميرَ المؤمنينَ ، كأنك بالمالِ قد وافاكَ بَعْدَ أسبوعٍ ، فوصَلَ في تلك الأيامِ مِنَ الأعمالِ التي كانَ المعتصمُ يتولاها ثلاثون ألفَ ألفِ ألفِ درهم (الألْف مكررة ثلاث مرات) فقالَ ليحيى بنِ أكْثَم : اخرُجْ بِنا لننظرَ إلى هذا المال ، فَخَرَجَ وخرجَ الناسُ وكانَ قدْ زُيِّنَ الجِمْلُ وَزُخْرِفَ فنظرَ المأمونُ مِنْه إلى شيءٍ حسنٍ كثيرٍ ، فاستعظم الناسُ ذلكَ واستَبْشَروا بِهِ ، فقالَ المأمونُ : إنّ انصرافنا إلى منازلنا بهذا المالِ وانصرافِ الناس خائبين لَؤمٌ فأمرَ كاتبَهُ أنْ يُوقِّع لِهذا بألفِ ألفٍ ، ولِذاك بمثلها ، ولآخر بأكثر منها ،

حتّى فرّقَ أربعةً وعشرينَ ألفَ ألفَ ألفَ درْهمٍ (والألْف مكررة ثلاث مرّاتٍ) ورجلُهُ في الرّكابِ ، ثمَّ حوّلَ الباقي على عارضِ الجيشِ برسْمِ مصالحِ الجُنْدِ ، واعلَمْ أنَّ المأمونَ كانَ منْ عُظماءِ الخُلفاءِ ، ومنْ عُقلاءِ الرِّجالِ ، ولهُ اختراعاتٌ كثيرةٌ في مَمْلكتهِ .

منْها : أنّهُ هو أوّلُ مَنْ فحصَ منْهُمْ عنْ عُلومِ الحِكْمةِ ، وحصّلَ كُتُبَها وأمرَ بنَقْلِها إلى العربيّةِ وشهّرها ، وحلَّ إقليدس (١) ، ونظرَ في علومِ الأوائلِ ، وتكلّمَ في الطّبِّ وقرّبَ أهْلَ الحِكْمةِ .

ومِنْ اختراعاتِه : مقاسمةُ أهلِ السّوادِ (٢) بالخُمُسَيْنِ ، وكانت المقاسمةُ المعهودةُ النّصْفَ .

ومنْ اختراعاتِهِ : إلزامُ الناسِ أنْ يقُولوا بخلْقِ القُرْآنِ ، وفي أيّامِه نشأتْ هذه المقالَةُ ونُوظِر (٣) فيها أحْمَدُ بنُ حنْبل (٤) وغيْرُه ، ولما ماتَ المأمونُ أوصى أخاه المُعْتَصِمَ بها ، فلما وليَ المعتصمُ تكلّمَ فيها وضربَ أحْمدَ بنَ حنْبلٍ ، وسيرِدُ خبَرُ ذلك في موْضعِهِ .

ومِنْ اختراعاتِهِ : نَقْلُ الدولةِ منْ بني العبّاسِ إلى بني عليٍّ - عليه السّلام - وتغييرُ الناسِ السّوادَ بلباسِ الخُضْرةِ ، وقالوا : هو لِباسُ أهلِ الجنّةِ .

شَرْحُ الحالِ في ذلك

كانَ المأمونُ قدْ فكّرَ في حالِ الخلافةِ بعْدَه ، وأرادَ أن يجْعلَها في رجلٍ يَصلُحُ لها لتبرأَ ذِمّتُه - كذا زعَمَ - فذكَرَ أنّهُ اعتبرَ أحوالَ أعيانِ البيتينِ : البيتِ

---

(١) إقليدس : عالم رياضيات وهندسة ، يوناني شهير ، عاش في القرن الثالث قبل الميلاد ، وعلّم في الإسكندرية . ترجمت كتبه في عهد المأمون .

(٢) السّواد : الريف العراقي ما بين النّهرين .

(٣) نُوظِر : جودل ونوقش من المجادلة والمناقشة .

(٤) أحمد بن حنْبل : أبو عبدالله ، أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ . ولد ببغداد عالم جليل ومحدّث له المسند في الحديث النبوي . دُعي إلى القول بخلق القرآن فلم يجب فاضطهد وحبس حتى زمن المتوكّل . كانت وفاته عام /٢٤١/ هـ .

العبّاسيّ ، والبيتِ العلويّ ، فلَمْ يرِ فيهما أصلحَ ولا أفْضلَ ، ولا أورَع ولا أديَن ، مِنْ عليٍّ بنِ موسى الرِّضا – عليهما السّلامُ – فعهدَ إليه ، وكتب بذلك كتابا بخطّه ، وألزمَ الرِّضا – عليهِ السّلامُ – بذلكَ ، فامتنع ثمّ أجاب ، ووضع خطّهُ في ظاهرِ كتابِ المأمونِ بما معناه : إني قد أجبتُ امتثالا للأمْرِ ، وإن كانَ الجفر والجامعة يدلانِ على ضدِّ ذلك ، وشهد عليهما بذلك الشّهود .

وكانَ الفضلُ بنُ سهلٍ وزيرُ المأمونِ هو القائمَ بهذا الأمر والمُحسّنَ لهُ ، فبايَعَ الناسُ لِعلي بنِ موسى مِنْ بَعْدِ المأمون ، وسُمّيَ الرِّضا من آل مُحمَّدٍ (صلواتُ اللهُ عليهِ) .

وأمَرَ المأمونُ الناسَ بخلْعِ لباسِ السَّوادِ ولبسِ الخضْرةِ ، وكانَ هذا في خُراسانَ فلمّا سمعَ العبّاسيّون ببغدادَ فِعْلَ المأمونِ ، مِنْ نقْلِ الخلافةِ عن البيتِ العبّاسي إلى البيت العلوي ، وتغييرِ لباس آبائه وأجدادهِ بلباس الخضْرة – أنْكروا ذلكَ وخلَعُوا المأمونَ مِنَ الخلافةِ غضَباً مِنْ فعلّه ، وبايعوا عمّهُ إبراهيمَ بنَ المَهْديّ وكانَ فاضلاً شاعراً ، فصيحاً أديباً ، مغنيا حاذقا ، وإليه أشار أبو فراس بن حمْدانَ في ميميّتهِ بقوله :

مِنْكم عُليَّةُ أمْ مِنْهُم وكانَ لَكُمْ شيخ المغنّين إبراهيمُ أمْ لَهُمْ ؟ [1]

(بسيط)

وكانَتْ تلكَ الأيامُ أيامَ فتنٍ وحُروبٍ ، فلمّا بلغ المأمونَ ذلك قام وقعد ، فقتَلَ الفَضْلَ بنَ سَهْلٍ ، وماتَ بَعْدُه عليُّ بنُ موسى من أكْلِ عنبٍ ، فقيلَ : إنّ المأمونَ لما

---

[1] البيت من قصيدةٍ يرثي بها أبو فراس لعذابات بني عليّ بن أبي طالب واضطهادهم على أيدي العباسيين ، ويعيّر العباسيين بالتفاتهم إلى العبث والغناء واللهو ، ويذكر اسم علية بنت المهدي وإبراهيم بن المهديّ على سبيل التعيير . وقد ورد البيت في ديوان أبي فراس بقوله :

منكم عُلَيّةُ أم منهم ؟ وكانَ لهم شيخُ المغنّين إبراهيمُ أم لَكُمُ

أمّا عُلَيّة فهي أخت إبراهيم بن المهديّ وكانت أديبة شاعرة تحسنُ صناعة الغناء ولقبها العبّاسة ، وهي أخت الرشيد . توفيت عام /٢١٠/ هـ .

رأى إنكار الناس ببغداد لما فعله ، من نقل الخلافة إلى بني علي ، وأنهم نسبوا ذلك إلى الفضل بن سهل ، ورأى الفتنة قائمة – دسّ جماعة على الفضل بن سهل فقتلوه في الحمام ، ثم أخذهم وقدّمهم ليضرب أعناقهم ، فقالوا له : أنت أمرتنا بذلك ثمّ تقتلنا ! فقال لهم : أنا أقتلكم بإقراركم ، وأما ما ادّعيتموه عليّ من أنّي أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بيّنة . ثم ضرب أعناقهم وحمل رؤوسهم إلى الحسن بن سهل ، وكتب يعزّيه ويُوليه مكانهُ وانضمّ إلى ذلك أمورٌ أُخرى سنذكرها عند ذكر وزارة الفضل . ثمّ دسّ إلى عليّ بن موسى الرّضا – عليه السلام – سمّاً في عنب – وكان يحبُّ العنب – فأكلَ منهُ واستكثر فمات منْ ساعته ، ثم كتب إلى بني العبّاس ببغداد يقولُ لهم : إنّ الذي أنكرتموه منْ أمر عليّ بن موسى قدْ زال ، وإنّ الرجل مات ، فأجابوه أغلظ جواب ، وكانَ الفضلُ بنْ سهل قد استولى على المأمون ، ومتّ أمتانا[1] كثيرةً بقيامهِ في أمره ، واجتهاده في أخذ الخلافةِ لهُ ، فكان قد قطع الأخبار عنهُ ومتى علمَ أنّ أحداً قد دخلَ عليهِ أو أعلمهُ بخبر سعى في مكروهه ، فامتنع الناسُ من كلامِ المأمونِ فانطوتِ الأخبارُ عنه ، فلما ثارتْ الفتنةُ ببغداد وخلع المأمونُ ، وبُويع إبراهيمُ بنُ المهديّ وأنكرَ العباسيّون على المأمونِ فعلَه كتم الفضلُ بنُ سهلٍ عَنِ المأمونِ مدّةً ، فدخلَ عليهِ عليُّ بنُ موسى الرّضا – عليهما السّلامُ – وقال له : ياأميرَ المؤمنين : إنّ الناسَ ببغداد قدْ أنكروا عليك مُبايعتي بولاية العهد ، وتغيير لباسِ السّوادِ ، وقدْ خلعوكَ ، وبايعوا عمّكَ إبراهيم بنَ المهديّ ، وأحضر إليه جماعةً من القوّادِ ليخبروه بذلك ، فلما سألهمْ المأمونُ أمسكوا وقالوا : نخافُ من الفضل ، فإنْ كنتَ تؤمننا منْ شرّه أخبرْناك ، فأمّنهم وكتب لهمْ خطّهُ ، فأخبروهُ بصورة الحال وعرّفوهُ خيانةَ الفضلِ وتعميةَ الأُمورِ عليْه ، وسترهُ الأخبار عنهُ ، وقالوا لهُ : الرأيُ أن تسيرَ بنفسِك إلى بغداد وتستدرِكَ أمْرَكَ ، وإلا خرجت الخلافةُ منْ يدكَ ، فكانَ بعْدَ هذا بقليل قتْلُ الفضل ، وموْتُ الرّضا على ما تقدّم شرْحُهُ .

---

[1] متّ أمتانا : قطع برأيه وتصرّف .

ثُمَّ جَدَّ المأمونُ في المسيرِ إلى بَغْداد ، فوصلَها وقَدْ هرَب إبْراهيمُ بن المهديِّ والفَضْلُ بنُ الربيعِ ، فلمّا دَخلَ البَلَدَ تلقّاهُ العبّاسيون وكلّموهُ في تـرك لبـاس الخُضْـرةِ والعَوْدِ إلى السّواد واجتمَعتْ بهِ زينبُ بنتُ سُليْمان بنِ عليٍّ بن عبدالله بنِ العبّاس – وكانت في طبقةِ المنصورِ ، وكانَ بنو العبّاس يُعظّمونها ، وإليها يُنْسَبُ الزينبيّـون – فقالَتْ له : ياأميرَ المؤمنين : ما الذي دعاك إلى نَقْلِ الخلافة منْ بيتك إلى بيتِ عليٍّ قالَ : ياعمّةُ : إني رأيْتُ عليّاً حينَ ولـيَ الخلافـةَ أحسـنَ إلـى بنـي العبّاس ، فولّـى عَبْدَالله البصْرةَ ، وعُبَيْدَالله اليَمَنَ ، وقُثَم سمرقنْد[1] ، وما رأيتُ أحداً مِـنْ أهلِ بَيْتـي حينَ افْضى الأمْرُ إليهمْ ، كافؤوه على فعلِه في ولده ، فأحببتُ أن أُكافئَهُ على إحسانِهِ فقالَتْ لهُ : ياأميرَ المؤمنينَ : إنّك على برِّ بني عليٍّ والأمرُ فيـكَ ، أقدرُ منْـكَ علـى برِّهمْ والأمرُ فيهِمْ ، ثمّ سَألَتْهُ تغييرَ لباسِ الخضرةِ فأجابَها إلـى ذلـك ، وأمَـرَ النـاسَ بتغييرِهِ والعَوْدِ إلى لباسِ السّوادِ ، ثُمّ إنّ المأمون عفا عَنْ عمّه إبراهيمَ بنِ المهـديّ ، ولم يُؤاخِذْهُ ، وأحْسَنَ إليهِ وصارَ منْ ندمائه ، وكذلك فعَلَ مَـعَ الفضْـل بـنِ الرُّبيـع ، وكانَ حليماً ، كانَ يقولُ : لو عرفَ الناس حبّي للعفو لتقرّبوا إليَّ بالذُّنوب .

فـي أيامـهِ خـرجَ محمّـدُ بـنُ جعفـرِ الصـادقِ عليهمـا السّلام بمكّـةَ ، وبُويِـعَ بالخلافةِ وسمّوه أميرَ المؤمنين ، وكان بعضُ أهله قد حسّن لهُ ذلـك حيـن رأى كثْـرةَ الاختلافِ ببغدادَ ، وما بِها من الفِتَنِ ، وخـروج الخَـوارجِ ، وكـان محمّـدُ بـنُ جعْفـرٍ شَيْخاً مِن شُيوخِ آل أبي طالبِ يُقرَأُ عليهِ العلْمُ ، وكـان رَوى عـن أبيـه عليـه السّلامُ عِلماً جَمّاً ، فمكثَ بمكّةَ مُدّةً ، وكانَ الغـالبَ علـى أمْره ابنُـهُ وبعْضُ بنـي عمـه فلَمْ تُحْمَد سيرتُهما ، وأرسلَ المأمونُ إليهِمْ عَسْكراً فكانَتْ الغَلَبَةُ لهُ ، وظَفـر بـه المـأمونُ وعفَا عَنْهُ .

وفي أيّامه خرَجَ أبو السّرايا وقَوِيتْ شوْكَتُه ، ودَعا إلى بَعْضِ أهلِ البيتِ ، فقاتَلَهُ الحَسَنُ بنُ سَهْلٍ فكانَتْ الغَلَبـةُ للْجَيْش المـأمونيّ وقُتِلَ أبـو السّـرايا ، ثُمّ صَفـا المُلْكُ بعدَ ذلكَ لِلْمأمونِ وسَكَنَت الفِتَنُ ، وقَامَ المأمونُ بأعباءِ الخلافةِ وتَدْبيرِ المملكةِ

[1] قُثَم : هو ابن العبّاس بن عبدالمطّلب ولّاه علي بن أبي طالب على المدينة واستمر فيها إلـى أن قُتِلَ عليٌّ فخرج إلى سمرقند واستشهد بها عام /٥٧/ هـ .

قيامَ حُزَماءِ المُلوكِ وفُضَلائِهِمْ ، وفي آخرِها خرَجَ إلى الثَّغْرِ بطَرْسوس [1] فماتَ بِهِ وذلك في سنةِ ثماني عشْرَةَ ومائتيْنِ ، وفيه يقولُ بعْضُ الشُّعراء :

ما رَأَيْنا النُّجومَ أغْنَتْ عَنِ المأْ — مُونِ في ظِلِّ مُلْكِهِ المَحْروسِ
غادَرُوهُ بِعَرْصَتَيْ طَرْسوس — مِثْلما غادَرُوا أباهُ بطوسِ

(خفيف)

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيامِهِ

أوّلُ وُزرائِه بَنو سَهْلٍ ، وكانتْ دَولتُهم في جبهةِ الدَّهْرِ غُرّة ، وفي مَفْرِقِ العَصْرِ دُرّةً ، وكانَتْ مُخْتَصِرةَ الدولةِ البرمكيّةِ ، وَهُمْ صنائعُ البرامكة [2] ، فالوزيرُ الأوّلُ للمأمون مِنْهُم الفَضْلُ بنُ سَهْل .

وزارةُ ذي الرِّياستَيْنِ الفضْلِ بنِ سَهْلٍ لِلْمأمونِ

سُمِّيَ ذا الرِّياستَيْنِ لِجَمْعِهِ بينَ السَّيفِ والقلمِ ، قالوا : كانَ الفضْلُ بنُ سَهْلٍ من أولادِ مُلوكِ الفُرْسِ المَجوسِ ، وكانَ قَهْرماناً ليحيى بنِ خالدٍ ، وكانَ أبوهُ سَهْلٌ مجوسيّاً فأسْلَم في أيّامِ الرَّشيدِ ، قالوا : لمّا رأى الفضلُ بنُ سهلٍ نجابةَ المأمونِ في صِباهُ ونظرَ في طالعِهِ وكانَ خبيراً بعلمِ النُّجومِ فدَلّتْهُ النجومُ على أنّهُ يصيرُ خليفةً لزِمَ ناحيتَهُ وخَدَمَه ودبّرَ أمورَهُ ، حتّى أفْضَتْ الخلافةُ إليهِ فاستوْزرَهُ .

كانَ الفَضْلُ سخيّاً كَريماً ، يُجاري البرامكةَ في جُودِهِ ، شديدَ العُقوبةِ سَهْلَ الانعِطافِ ، حليماً بليغاً عالِماً بآدابِ المُلوك ، بصيراً بالحيل جيّدَ الحَدْسِ مُحَصّلاً للأمْوالِ وكانَ يُقالُ لَهُ الوزيرُ الأميرُ .

كانَ مُسْلِمُ بنُ الوَليدِ [3] الشاعرُ نديماً لِلْفَضْلِ بنِ سَهْلٍ قَبْلَ وِزارتِه ، وكانَ قَدْ

---

[1] طَرْسوس : بلدة كانت من ثغور الروم ، وموقعها اليوم في تركيا شمال غربي أنطاكية ، فتحها المأمون وفيها دُفن عام /٢١٨/ هـ .

[2] صنائع البرامكة : تابعوهم المقرّبون منهم .

[3] مُسلم بن الوليد : ولد بالكوفة ولقّبَ بصريع الغواني ، مدَح هارون الرشيد والبرامكة ولزم الفضل بن سهل ونادمه وحين آلت إليه الوزارة ، ولّاه بريد جُرجان ، توفي مسلم عام /٢٠٨/ هـ

أنشدَهُ قولَهُ :

وقــائــلٍ لَيسَتْ لَــهُ هِمّةٌ   كَلا ، ولكنْ ليس لي مالُ
لا جِـدَةٌ يـنهضُ عزْمي بِها   والـنّاسُ سُـؤّالٌ وبُخّالُ
فاصبِرْ على الدَّهرِ إلى دولةٍ   يَرفَعُ فيها حالَكَ الـحالُ

(سريع)

فلمّا علَتْ حالُ الفضلِ وتولّى الوزارة ، قصدَهُ مُسلِمُ بنُ الوليد ، فلمّا رآهُ سُرَّ بهِ قالَ لَهُ : هذهِ الدولةُ التي يرْفَعُ فيها حالَك الحالُ ، وأمرَ لـه بثلاثينَ ألْفَ دِرْهـمٍ ، وولّاه بريدَ جُرْجان ، فاستفادَ منْ ثَمَّ مالاً طـائلا ، قـالوا : كـانتْ همّـةُ ذي الرّياسـتينِ عاليةً جِداً مِنْ قبلِ أنْ يَعظُمَ أمْرُهُ ، قالَ لَهُ مُؤدّبُ المأمونِ يوماً في أيّامِ الرّشـيدِ : إنّ المأمونَ لجميلُ الرأيِ فيكَ ، وإنّي لا أستَبْعِدُ أن يحصُلَ لكَ منْ جهتِه ألفُ ألفِ دِرْهمٍ فاغتاظَ الفضلُ مِنْ ذلك وقالَ لَهُ : ألكَ عليَّ حِقْدٌ ؟ ألي إليكَ إساءةٌ ؟ فقال لَهُ المـؤدّبُ لا واللهِ ، ما قلتُ هذا إلا محبّةً لَكَ ، فقالَ : أتقـولُ لـي إنّـكَ تُحصّلُ معـهُ ألـفَ ألـفِ دِرْهمٍ ؟ والله ما صحبتُه لِأكْتَسِبَ مِنْه مـالاً قلّ أو جـلّ [1] ، ولكـنْ صحبتُـه ليمضـي حُكْمُ خاتمي هذا في الشرقِ والغرْبِ ، قالَ : فوالله ما طالَتْ المدّةُ حتّى بلـغَ مـا أمّـلَ وقُتِلَ الفضلُ بنُ سَهْلٍ على الصّورةِ التي تَقدّمَ شرْحُها ، وذلك في سنة اثنتَين ومائتَينِ وفيهِ يقولُ الشّاعر :

لِفضلِ بنِ سَهلٍ يَدٌ   يُقصِّرُ عنْها المَثَلْ
فبـاطِنُـهـا لـلنّدى   وظـاهِـرُها لِلقُبَلْ
وبَسْطَتُها لِلغِنى   وَسَطْوَتُـها لِلأجَلْ [2]

(متقارب)

---

[1] جلّ : هنا ، كثُرَ ، ضد قلّ .

[2] الأجَل : هنا ، المَوْت .

وزارةُ أخيهِ الحَسَنِ بنِ سَهْلٍ لِلمأمونِ

استوزرَه المأمونُ بعد أخيهِ الفضلِ ومالَ إليهِ ، وتلافاهُ جبْرا لمُصابه بقَتْلِ أخيهِ وتزوَّج ابنتَهُ بوران ، وانحدرَ في أهلهِ وأصحابهِ وعساكرِهِ وأمرائهِ إلى فم الصلح بواسِطٍ [1] فقامَ الحَسَنُ بنُ سهْل في إنزالهم قياماً عظيماً ، وبذَلَ من الأمْوالِ ونَثَرَ من الدُّررِ ما يفوتُ حدَّ الكثْرةِ ، حتّى إنّه عملَ بطاطيخ منَ عنْبر وجعلَ في وَسَطِ كلِّ واحدةٍ منها رقعةً بضيْعةٍ من ضياعه ونثرها ، فمنْ وقعتْ في يده بطيِّخةٌ منها فتحها وتسلّم الضيعةَ التي فيها وكانتْ دعوة عظيمةً تتجاوزُ حدَّ التجمل والكثْرةِ حتّى إنَّ المأمونَ نَسبهُ في ذلك إلى السَّرَف ، وقالوا جُملةُ ما أخْرِجَ على دَعْوةِ فمِ الصُّلحِ خمسونَ ألفَ ألفِ دِرْهم .

كان الحسنُ بنُ سهلٍ قد فَرَشَ للمأمون حصيراً منْسوجاً من الذَّهبِ ونَثَرَ عليهِ ألفَ لؤلؤةٍ منْ كِبارِ اللؤلؤ ، فلمّا رآه المأمونُ قالَ : قاتَلَ اللهُ أبا نواسٍ ! كأنه شاهدَ مَجْلِسنا هذا حيثُ يقولُ :

كأنَّ صُغْرى وكُبْرى مِن فَقاقِعِها حَصْباءُ درٍّ على أرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

(بسيط)

قالوا : قَدِمَ رَجُلٌ إلى بابِ الحَسَنِ بن سهلٍ يلتمسُ صِلَتَهُ وعارِفَته [2] فاشْتغَلَ عَنْهُ مُدَيدةً فكتب إليهِ :

المالُ والعقلُ ممّا يُستعانُ بهِ على المَقامِ بأبوابِ السَّلاطينِ
وَأنتَ تَعلَمُ أنّي مِنْهُما عُطُلٌ [3] إذا تأمّلتني ياابنَ الدَّهاقينِ [4]
أما تدلُّكَ أثوابي على عَدَمي [5] والوَجْهُ أنّي رئيسٌ في المجانينِ
واللهُ يعلمُ ما للملكِ من رَجُلٍ سِواكَ يَصْلُحُ للدّنيا وللدّينِ

(بسيط)

---

[1] واسط : مدينة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي جنوبيَّ الكوفة وشماليَّ البصرة ، أضحتْ من قواعد العراق قبل أن تبنى بغداد على يد المنصور .

[2] عارِفَته : عطاءه وإحْسانه ، العارفة : المعروف . [3] عُطُل : خالٍ .

[4] الدهاقين : جمع دهقان وهو المختار أو الزعيم أو العمدة باللغة الفارسية .

[5] العدم : الفقر والإفلاس .

فأمرَ له بعشرةِ آلافِ درْهمٍ ووقعَ في رُقْعتِه :

أعْجَلتنا فأتاكَ عاجِلُ برِّنا ... قِلّاً ولَوْ أنظرْتَنا لم يَقْلِلِ
فَخُذِ القليلَ وكُنْ كأنّكَ لم تَسَلْ ... ونكونُ نحنُ كأنّنا لم نُسألِ

(كامل)

وكانَ الحسنُ بنُ سَهْلٍ أعظمَ الناسِ منزلةً عندَ المأمونِ ، وكانَ المأمونُ شديدَ المحبَةِ لمفاوضتِه ، فكانَ إذا حضرَ عِندَه طاولَهُ في الحَديثِ ، وكلّما أرادَ الانصرافَ منَعهُ فانقطعَ زمانُ الحسنِ بذلك وثَقُلتْ الملازمةُ ، فصارَ يتراخى عنِ الحضورِ بمجلسِ المأمونِ ويَستخلفُ أحدَ كتّابِه كـأحمدَ بنِ أبي خالدٍ وأحْمدَ بنِ أبي يوسُفَ وغيرِهما ، ثم عَرَضتْ له سوداءُ [1] كانَ أصلُها جزَعَه على أخيه ، فانْقَطَعَ بدارِهِ ليتطبَّبَ واحتجبَ عن الناسِ إلا أنّه بقيَ أعلى الخلقِ مكانةً ، واستوزر المأمونُ أحمدَ ابنَ أبي خالدٍ ، فكانَ أحمدُ في كلِّ وقتٍ يقصدُ خدْمةَ الحسنِ بنِ سهلٍ ، وإذا حضرَ الحَسنُ دارَ المأمونِ كانَ أعلى الناسِ مكانةً ، ولما انقطعَ الحسنُ بنُ سهلٍ بمنزلِهِ هجاهُ بعضُ الشّعراءِ بقولِهِ :

تولّتْ [2] دَولَـةُ الحَسنِ بنِ سَهْلٍ ... ولم أبْلُلْ [3] لَهاتي مِنْ نَداها
فلا تجزَعْ على ما فاتَ مِنْها ... وأبكى اللهُ عَيْنَيْ مَنْ بكاها

(وافر)

وماتَ الحسنُ بنُ سهلٍ في سنةِ ستٍّ وثلاثين ومائتين في أيّامِ المتوكّلِ .

وزارةُ أحمدَ بنِ أبي خالدٍ الأحْوَلِ للمأمونِ

هُوَ مِنَ الموالي ، كانَ أحمدُ جليلَ القدرِ من عُقلاءِ الرجالِ ، وكانَ كاتباً سديداً فصيحاً لبيباً ، بصيراً بالأمورِ ، قالَ له المأمونُ : إنّ الحسنَ بنَ سهلٍ قد لزِمَ منزلَهُ ، وإنّني أُريدُ أن أستوْزِرَك ، فتنصّلَ [4] أحمدُ من الوزارةِ ، وقالَ : يا أميرَ

---

[1] السّوداء : هُنا ، الحزن والكآبة الملازمان كمرضٍ .

[2] تولّتْ : ذهبتْ . [3] لم أبْلُل لهاتي : لم أرطّبْ حلقي ، كناية عن عدم الفائدة .

[4] تنصّلَ : استعفى وحاول الخلاص .

المؤمنينَ ، أعفِني مِن التسمّي بالوزارةِ ، وطالبْني بالواجب فيها ، واجعلْ بيني وبين العامّة منزلةً يرجوني لها صديقي ، ويخافُني لها عدوّي ، فما بعدَ الغايات إلا الآفات فاستحْسَنَ المأمونُ جوابَهُ وقال لا بدَّ مِنْ ذلك ، واستوْزَرَهُ .

كانَ المأمونُ لما ولّى طاهرَ بنَ الحُسين خُراسانَ ، استشارَ فيه أحمدَ بنَ أبي خالدٍ فصوّبَ أحمدُ الرأيَ في تَوليةِ طاهرٍ ، فقالَ المأمونُ لأحمدَ : إنّي أخافُ أن يغدُرَ ويخلعَ ويفارقَ الطاعةَ ، فقالَ أحمدُ : الدّرْكُ في ذلك عليَّ ، فولّاهُ المأمونُ ، فلمّا كانَ بعد مدةٍ أنكرَ المأمونُ عليهِ أموراً ، وكتبَ إليهِ يتهدّدُه فيه ، فكتبَ طاهرٌ جواباً أغلظَ فيهِ للمأمونِ ثمَّ قطَعَ اسمَه من الخُطبة ثلاثَ جمعٍ ، فبلغَ ذلك المأمونَ ، فقالَ لأحمدَ بنِ أبي خالدٍ ، أنتَ الذي أشارَ بتوليةِ طاهرٍ وضمنْتَ ما يصدرُ منهُ ، وقد ترى ما صَدرَ منهُ مِنْ قَطعِ الخطبةِ ومُفارقةِ الطاعةِ ، فواللهِ لئن لم تتلطف لهذا الأمرِ وتُصلِحْهُ كما أفسدتَهُ ، ضَرَبْتُ عُنُقَك ! فقال أحمَدُ : ياأمير المؤمنين طبْ نَفْساً فبعدَ أيّامٍ يأتيكَ البريدُ بهلاكِهِ ، ثمَّ إنَّ أحْمدَ بن خالدٍ أهدى لطاهرٍ هدايا فيها كوامخُ مسمومة ، وكانَ طاهرٌ يُحبُّ الكامَخَ [1] ، فأكل منها فماتَ مِنْ ساعته ، وقيل : إن أحمدَ بنَ أبي خالدٍ لما تولّى طاهرٌ خُراسانَ حَسَبَ هذا الحِساب ، فوهبَهُ خادماً وناولهُ سُمّاً ، وقالَ لهُ : متى قَطَعَ خُطْبَةَ المأمونِ فاجْعلْ لهُ هذا السمَّ في بعض ما يحبُّ مِنَ المآكِلِ ، فلما قطعَ طاهرٌ خطبةَ المأمونِ جعل الخادِمُ له السمَّ في كامخٍ ، فأكلَ مِنْهُ فماتَ في ساعتِهِ ، ووصلَ الخبرُ على البريدِ بموته إلى المأمونِ بعد أيامٍ فكانَ ذلك مما عظُمَ بهِ أمرُ أحمدَ بنِ أبي خالدٍ .

وماتَ أحمدُ حتْفَ أنفهِ سنةَ عشْرٍ ومائتين .

---

[1] الكامَخ : هو المخلّل المشهّي للطعام ، أو هو دقيق وملح ولبن يُنشّف في الشمس كإدام يؤتدم بهِ وتسمية العامّة : شنكليش .

وَزارةُ أحمدَ بنِ يُوسُفَ بنِ القاسِمِ لِلمأمونِ

كانَ مِنَ الموالي ، وكانَ كاتباً فاضلا ، أديباً شاعراً ، فطناً بصيراً بأدواتِ المُلكِ وآدابِ السّلاطينِ ، قالوا لما ماتَ أحمدُ بنُ أبي خالدٍ استشارَ المأمونُ الحسَنَ ابنَ سَهْلٍ فيمن يُوليِّه الوزارةَ ، فأشارَ عليهِ بأحمد بنِ يوسُف ، وأبي عباد بنِ يحيى ، وقالَ : هُما أعرفُ الناسِ بطبعِ أميرِ المؤمنين ، فقالَ لهُ : اخترْ أحدَهما ، فاختارَ لهُ أحمدَ بنَ يوسف ففوّضَ المأمونُ إليه وزارتَهُ ، استشارَ المأمونُ أحمد بن يوسُفَ في رجلٍ ، فوصفه أحمدُ بنُ يوسُفَ وذكرَ محاسنَهُ ، فقالَ لهُ المأمونُ يا أحمدُ ، لقد مدحتَهُ على سوءِ رأيكَ فيهِ ومعاداتِه لكَ ! فقال أحمدُ : لأنّي لك كما قالَ الشّاعِر :

كفى ثَمناً بِما أسْدَيْتَ [1] أنّي ... صدقتُكَ في الصّديقِ وفي عِدائي
وأنّي حينَ تندُبني [2] لِأمرٍ ... يكونُ هَواكَ أغلبَ مِنْ هوائي [3]

(وافر)

ولَهُ أشعارٌ حَسَنَةٌ فمنْها :

قلبي يُحبُّكِ يامُنى ... قلبي وَيُبْغِضُ مَنْ يُحِبُّكْ
لأكونَ فَرداً في هَوا ... كِ فليتَ شِعْري كيفَ قَلبُكْ؟!

(كامل)

وأهدى يومَ نوروز إلى المأمونِ هديَةً قيمتُها ألفُ ألفِ درْهمٍ ، وكتبَ معها :

على العَبْدِ حقٌّ فهو لا بدَّ فاعِلُهْ ... وإنْ عَظُم المولى وَجلّتْ فَواضِلُهْ
ألمْ تَرنا نُهْدي إلى الله مالَهُ ... وإنْ كانَ عَنْهُ ذا غنىً فهوَ قابِلُهْ

(طويل)

فقالَ المأمونُ : عاقلٌ أهدى حسَناً ، وكانَ سببَ موتِه أنهُ دخلَ يوماً إلى المأمونِ والمأمونُ يتبخّرُ ، فأخرجَ المأمونُ المجْمرةَ منْ تحتِه وقالَ : اجعلوها تحتَ أحمدَ - تكرمةً لَهُ - فنقلَ أعداؤه إلى المأمونِ أنه قالَ : ما هذا البُخْلُ بالبخورِ ؟ هلّا

---

[1] أسديْتَ : قدّمتَ من فضلٍ .

[2] تندبُني للأمرِ : تختارني لَهُ وتكلّفني به .

[3] هوائي : المقصودُ هنا رَغْبتي واختياري ، عاطفتي : والأصلُ فيها : الهوى .

أمرَ لي ببخورٍ مُستأنفٍ [1] ؟ فاغتاظَ المأمونُ لذلك ، وقالَ : ينسبني إلى البخلِ وقد علم أنَّ نفقتي في كلِّ يومٍ ستةَ آلافِ دينار ! وإنمّا أردْتُ أكْرامهُ بما كان تحتَ ثيابي ثم دَخلَ عليهِ وهو يتبخّر مرةً أُخْرى فقالَ المأمونُ ، اجعلوا تحتَهُ في مجمرةٍ قطعَ عَنْبرٍ وضُمّوا عليهِ شيئاً يمنعُ البُخارَ أن يَخْرج ، ففعلوا ذلك به ، فصبر عليه حتى غَلَبَهُ الأمرُ فصاحَ : الموتَ الموتَ ، فكشفوا عنهُ وقد غُشِيَ عليهِ فانصرفَ إلى منزلِهِ ، فمكثَ فيهِ شهوراً عليلاً مِنْ ضيقِ النَّفس حتّى ماتَ بهذه العلّة ، وقيل : بل ماتَ كمداً لبادِرةٍ بدرتْ منه ، فاطّرحهُ [2] المأمونُ لأجلها .

وَزارةُ أبي عُباد ثابتِ بنِ يحيى بنِ يسارٍ الرازيِّ للمأمون

كان أبو عباد كاتباً حاذقاً بالحسابِ ، سريعَ الحركاتِ أهوجَ مُحمّقاً ، قالوا : كانَ المأمونُ ينشد إذا رآهُ مقبلاً قولَ دِعْبلٍ [3] فيه :

وكأنّهُ مِنْ دَيْرِ هِرْقِلَ مُفْلَتٌ حَرِبٌ يَجرُّ سَلاسِلَ الأقْيادِ

(كامل)

قيلَ للمأمونِ : إنَّ دِعْبلاً الشاعرَ هجاك ، فقال : من أقدمَ على هجاءِ أبي عباد كيفَ لا يَهْجوني ؟ ومعنى هذا الكلامِ : منْ أقدَمَ على هجاءِ أبي عباد مَعَ هَوَجِهِ وَجنونهِ وحدّتهِ ، كيفَ لا يُقْدِمُ على هجائي مَعَ حلمي ومحبّتي للصفْحِ ؟!.

وكان أبو عبادٍ شديدَ الحَدّةِ سريعَ الغضب ، ربمّا اغتاظَ مِنْ بعضِ مَنْ يكونُ بينَ يديه ، فرماهُ بِدواتِه أو شَتَمَهُ فأفحشَ ، فدَخلَ إليه الغالبيّ الشاعِرُ وأنشَدَهُ :

لمّا أنَخْنا بالوزيرِ ركابَنا مُستَعصِمين بجودِهِ أعْطانا
ثُبِّتَتْ رَحا مُلْكِ الإمامِ [4] بثابتٍ وَأفاضَ فينا العَدْلَ والإحْسانا
يَقْري [5] الوُفودَ طلاقةً وسماحةً والناكِثينَ [6] مهنداً وَسِنانا

---

[1] مُستأنفٌ : جديدٌ ومُضاف .

[2] اطّرحهُ : نَبَذَهُ وأقصاه .

[3] دِعْبل : ولد بالكوفة وأقام ببغداد ، كان هجّاءً خبيث اللسان ، تعصب للعلويين فأغضب عليه الخلفاء والأمراء فعاش حياته شريداً طريداً توفي عام /٢٤٦/ هـ .

[4] ثبتَ رحا المُلك : استقرَّ الحُكْم . [5] يقري : يقدّم القِرى ، وهو طعام الضيف .

[6] الناكثين : الغادرين ، غير الأوفياء بالعهد .

مَــنْ لــم يـزلْ للناسِ غيثاً مُمْرِعاً   مُتَخَرِقاً [1] في جُودِهِ مِعْــوانا

(كامل)

فلّما وَصَلَ إلى قوله : في جودِه ، وقف وأُرْتِــجَ عليـه ، وصــارَ يكـرِّر ، فــي جودِهِ في جودِهِ ، مراراً حتى ضَجِرَ أبو عُباد ، وغَلَبَتْ عليه السَّوْداءُ فقال : ياشيخ . قل صَفَعانا وَخَلَّصْنا ، فضحِكَ جميعُ من كـانَ بـالمجلس ، وذَهَب غيظـهُ هـو أيضــاً فَضَحِكَ معَ الناس وأتمَّ الغالبيُّ قافيتَهُ بقوله معوّانا ، ثمّ وَصَلَهُ .

وزارةُ أبي عبدِاللهِ محمّد يزدادَ بنِ سُوَيْدٍ لِلْمأمونِ
وهو آخِرُ وزرائِهِ

هُمْ مِنْ خُراسانَ ، كانوا مَجوساً ثم أسلموا ، واتّصلوا بالخلفاء ، وسُـوَيْدٌ أوّلُ من أسلمَ منهم ، وكانَ قد ماتَ أبوهُ وهوَ صغيرٌ ، فاسلمَتْه أمّهُ إلى بعضِ كتّابِ العَجَمِ فنفذَ نفاذاً محموداً ، وتعلَّمَ آدابــاً كثـيرةً مـن آدابِ الفُرسِ ، ثـم واظـبَ علـى مُلازمـةِ الديوانِ بِمرْوٍ [2] ، وحضرَ صاحبُ الديوانِ في يـوم مَطـيرٍ ، وتخلـفَ جميـعُ الكتّـابِ والنّوابِ عن الحضورِ ، وكانَ سُوَيْدٌ جدُّ محمّد حاضراً ، فاحتاج صاحبُ الديوانِ إلى عـملِ حسْبــةٍ فلم يكنْ عندَهُ بالديوانِ أحدٌ ، فتولّـى هـو عَمَلَهـا بنفسـه ، وشـرَعَ فيهـا فكتَبَ بعضَها ، ثم غلبه نُعاسٌ ، وحانتْ منه التفاتةٌ فرأى سُوَيداً فسلَّـم الحسْبةَ إليـهِ ، وقالَ لَهُ : احتَفِظْ بها حتى أنتبه ، ثم نامَ صاحبُ الديوانِ فتصفَّح سُويدٌ الحسْبةَ وتمّمَها وبيَّضَها في نُسْخةٍ حسنةٍ بخطٍ مليحٍ وضَبْطٍ صحيحٍ ، وانتبه صاحبُ الديـوانِ وطَلَـبَ منه الحِسْبَةَ فدفَعها إليه فوجَدَها مفروغاً منها على أتمِّ قـاعدةٍ وأحسَـنِ وجـه ، فقـالَ : ياصبيُّ : مـن عَـمِلَ هذه الحِسْبةَ ؟ قال : أنا . قال : أفتُحْسِنُ الكتابـةَ ؟ قـالَ : نَعـمْ . فأمرَهُ بلزومِ سُدّتِهِ [3] التي كان فيها حسابهُ وأصولُ أعمالِه ، وما يجبُ أن يحتفظَ بـهِ وقرّر لهُ معيشةً ، وتنقّلَ في الخدَماتِ حتى حصَـلَ أمـوالاً جليلـةً وارتفـعَ قـدْرُهُ ، ثـم

---

[1] المتخرّق : المبالغ في العطاء . السخيّ جدّاً .

[2] مَرْو : عاصمة خراسان ومن أشهر مدنها . حولها واحةٌ غنيّة . احتلّها أبو مُسلم الخُراساني في دعوته للعباسيّين .

[3] أمره بلزومِ سُدّته : استبقاه في خدمته . والسُدّة : كرسيّ الحكم .

تأدّبَ محمّد وبرع في كلِّ شيءٍ فاستوزره المأمونُ وفوّض إليه جميع الأمور ، كان محمّدٌ شاعِراً فصيحاً ، فمن شعْرِهِ :

لـقـد فَتنـتْ بِمقْـلتِها فَتونُ ... وخانَتْ في الهوى مَنْ لا يَخونُ
وتــزعُـمُ أنّنـي أهـوى سِواهـا ... فكيفَ ومـا تـخطّتْـها العُيونُ
أيـا مَـنْ حبُّهـا فـي القلبِ منّي ... مكانُ الروحِ مُستتِرٌ كَميـنُ
ويـا مَـنْ تـدّعي أنـي خَـؤونٌ ... وهـذا فـي هَـواهـا لا يَكونُ
خُـذي عَهْدي على عَيْني وَطَرْفي ... وحسبُـكِ ضـامنـاً أنـي أمينُ

(وافر)

وماتَ المأمونُ وهو وَزيرُهُ .

انقضتْ أيامُ المأمونِ ووزرائه .

ثمَّ ملكَ بعدَهُ أخوهُ المُعْتَصِمُ أبو إسْحاقَ محمّدٌ

بُويِعَ يومَ وفاةِ المأمونِ ، وقد تقدّم ذكْرُ السَّنةِ ، كانَ المعتصمُ سديد الرأي شديدَ المِنّةِ ، يحملُ ألفَ رطلٍ ويمشي بها خطواتٍ ، وكان موصوفاً بالشجاعة ، وَسُمّيَ : المثمّن مِنْ أحدَ عشَرَ وَجْهاً : هو الولدُ الثامنُ مِنْ العبّاس ، والثامنُ من الخلفاء ، وتولّى الخلافة وعمره ثماني عشرة سنة [1] ، وكانتْ خلافته ثماني سنينَ وثمانية أشهر ، وتوفي وله ثمان وأربعون سنة ، وولد في شعْبان وهو الشّهرُ الثامن وخلّف ثمانية ذكور ، وثماني بنات وغزا ثماني غزوات ، وخلّفَ ثمانيةَ آلافِ ألف درهم .

كانتْ أيامُ المعتصمِ أيّامَ فتوحٍ وحُروبٍ ، وهو الذي فتح عمّوريةَ .

[1] قولُه وعمُره ثماني عشرة سنة : زَعْمٌ غيرُ صحيح . ويردُّهُ أن خلافة المعتصم استمرّت ثماني سنوات وثمانية أشهر وقد تُوفّي عن عمر ثماني وأربعين سنة .

شرح الحال في ذلك

كانَ السببُ في غزوِ المعتصمِ عمّوريةَ ، أنّ ملكَ الرومِ خرجَ إلى بلادِ المسلمين فنهبَ حصناً مِنْ حُصونِهم يقالُ له زِبطْرةُ ، وقتلَ مَنْ به من الرجالِ وسبى الذرّيةَ والنساءَ فيُقالُ : إنه كانَ في جُملةِ السّبْيِ امرأةٌ هاشميّةٌ ، فسُمعتْ وهي تقولُ : وامُعتَصِماه ! فبلغَ المعتصمَ ما فعلَهُ ملكُ الرومِ بالمسلمين فاستعظمه وكَثُر عليهِ ، وبَلَغَهُ ما قالتِ الهاشميّةُ فقالَ وهُوَ في مجلسه : لبّيْكِ لبّيْكِ ! ونهضَ مِنْ ساعتِهِ وصاحَ في قصْرِهِ : الرّحيلَ الرحيلَ ! ثم ركبَ دابّتَهُ وسمطَ [1] خلفَهُ شكالاً [2] وسكّةَ حديدٍ وحقيبةً بها زادُهُ ، ثمّ برز وأمر العساكر بالتبريز ، وتجهّز تجهّزاً لم يتجهّزْ بمثلِه خليفةٌ ، فلما اجتمعَتْ عساكرُهُ وفرغ مِنْ تجهيزِهِ وعزم على المسير ، أحضرَ القضاةَ والشّهود ، فأشْهَدَهُمْ أنه وقفَ أملاكَهُ وأموالَه على ثلاثةِ أثلاثٍ ، ثلثٌ للهِ تعالى وثلثٌ لولدِهِ وأقاربِهِ ، وثلثٌ لمواليه ، ثمّ سارَ فظفر ببعضِ أهلِ الرومِ فسألَهُ عَنْ أحْصَنِ مُدُنِهم وأعظمِها وأعزّها عِنْدَهُمْ ، فقالَ له الرّومي : إن عمّوريةَ هي عينُ بلادِهم ، فتوجّهَ المُعتصمُ إليها ، وجمع عساكِرهُ عليها ، وحاصرها ثم فتحها ودخلَ إليها وقَتَلَ فيها وفي بلادهم ، وسبى وأسر وبالغ في ذلك حتى هدم عمّوريةَ وعفّى آثارَها ، وأخذَ باباً مِنْ أبوابِها - وهو بابُ حديدٍ عظيمُ الحجْمِ - فأحضره إلى بَغْداد وهوَ الآنَ على أحدِ أبوابِ الخلافةِ يُسمّى بابَ العامّةِ ، وكانَ قد صحِبَه أبو تمّامٍ الطائيّ [3] فمدَحَهُ بقصيدتهِ البائيّةِ التي أولها :

السّيفُ أصدقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ ... في حدِّهِ الحَدُّ بينَ الجِدِّ واللّعِبِ

(بسيط)

وفيها يقولُ للمعتصِمِ :

---

[1] سمّط خلفَهُ : ضمّ إليه .

[2] شكالاً : حبْلاً .

[3] أبو تمّام الطائي : هو حبيب بن أوس الطائي من أشهر شعراء العصر العباسيّ ، ولد بقرية جاسم من أعمال حوران وكثرت أسفاره حتى قرّبه المعتصم ولزمه ومدحه بأشهر قصائده وهي البائية . له كتاب ((الحماسة)) وهو مجموعة أشعار اختارها . توفي عام /٢٣١/ هـ .

خليفةَ اللهِ جازى اللهُ سعيكَ عَنْ جُرثومةِ الدينِ والإسلامِ والحَسَبِ
بَصُرتَ بالراحةِ الكُبرى فلَمْ ترَها تُـنال إلا عـلى جسـرٍ مِنَ التَّعبِ

ومِنْ جُملتِها ما يشيرُ به إلى مبالغة المُعتَصم في قتالهم واستئصاله إيّاهُمْ :

لم تطلعِ الشَّمسُ مِنْهُمْ يومَ ذاكَ على بانٍ بأهلٍ ولم تَغْرُبْ على عَزَبِ

ومِنْ جُملتها ما يدلُّ على شدة ما كان عندهُ من الحقْد عليهِمْ وهو قولُه :

ما رَبْـعُ ميَّـةَ معْمُوراً يُطيفُ بهِ غَيْلانُ أبهى رُباً مِنْ رَبْعِك الخرِبِ [1]
ولا الخدودُ وإن أُدمينَ مِنْ خَجَلٍ أشـهى إلى ناظِري مِنْ خدِّكِ التَّرِبِ [2]

وكانتْ وقعةُ عمّوريةَ في سنة ثلاث وعشرينَ ومائتين .

والمُعتَصِمُ هو الذي بنى سُرَّ مَنْ رأى .

شَرْحُ السَّبَبِ في بناءِ سامُرّا وكَيْفِيّةِ الحالِ في ذلك

كانتْ بغدادُ دارَ المُلْكِ ، بها سريرُ الخلافة مِنْ بعدِ المَنْصور ، إلا أنّ هارونَ الرّشيدَ أحبَّ الرقّة بالشأم فأقـامَ بها ، ومـع ذلـك فكـانت الرقـة كـالمتنزّه ، وقصـورُهُ وخزائنُه ونِساؤه وأولادهِ ببغدادَ بقصْرِ الخُلْد ، ومن وليَ بعدهُ من الخلفاء كان سريرُ ملكهم ببغدادَ .

فلَما كانتْ أيامُ المعتصِمِ خافَ مَـنْ بهـا مـنَ العَسْكر ولـم يثِـقْ بهـمْ ، فقـالَ : اطلبُوا لي مَوْضِعاً أخْرُجُ إليهِ وأبني فيه مدينةً وأُعسكِرُ بهِ ، فإنْ رابنـي مـنْ عساكِرِ بَغْدادَ حادِثٌ كُنْتُ بِنجْوَةٍ ، وكنتُ قـادِراً علـى أن آتيهـم فـي البـرّ وفـي المـاء ، فوقَـعَ اختيارُه على سامُرّا فبنَاها وخَرجَ إليْها .

وقيلَ : إنّ المُعْتَصِمَ استَكْثَرَ منَ المماليك ، فضـاقتْ بهـمْ بغـدادُ وتـأذّى بهـم النّاسُ وزاحموهم في دورِهِمْ ، وتعرّضوا للنِّساءِ ، فكان في كلّ يومٍ ربما قُتل مِنْهُم

---

[1] قولُه ما ربْع ميّة : ميّة اسم محبوبة الشاعر غيْلان ، وغيلان هـو الشـاعر ذو الرمّـة ، عـاصر جريراً والفرزدق وأكثر من ذكر مية في شعره ، كان تردده على الكوفة والبصرة ، توفي حوالي /١١٧/ هـ .

[2] التَّرِب : المعفّر بالتراب .

جماعةٌ فركبَ المعتصمُ يوماً فلقِيَهُ رجلٌ شيخٌ ، فقال للْمعتصم : ياأبا إسْحاقَ : فـأرادَ الجندُ ضربَهُ فمَنعَهم المعتصمُ ، وقال لهُ مـالك ياشيخ ؟ فقـال : لا جـزاك اللـهُ خـيراً عَنِ الجِوار ! جاورتَنا مدّة فرأيناكَ شرّ جار ، جئتنا بهـؤلاء العُلوجِ [1] مـنْ غلْمـانِك الأتراكِ فأسكنْتَهُمْ بَيْنَنا فأيْتَمْتَ بِهِمْ صبيْاننا ، وأرْمَلْتَ نسـاءَنا ، واللـه لنقـاتلنّكَ بِسـهامِ السَّحَرِ – يعني الدُّعاء –والمُعتَصِمُ يَسْمَعُ ذلك ، فدَخَلَ منزلَـهُ ولـم يُـرَ راكبـاً إلا فـي يومٍ مثلِ ذلك اليومِ ، فركبَ وصلّى بالناسِ العيد ، وسارَ إلى موْضعِ سـامرّا فبناهـا ، وكانَ ذلك في سنةِ إحدى وعشرينَ ومائتين .

ولمّا مرضَ المعتصمُ مرْضتَه التـي مـاتَ فيهـا نـزلَ فـي سـفينةٍ ومعـهُ زُنـام الزّامرُ [2] وكانَ أوْحَدَ وقتِه فجعل يجتازُ على قُصورِهِ وبَساتينه بشاطئ دجْلَةَ ويقـولُ لزُنام : ازْمُرْ :

يـا مَـنْـزِلاً لَـمْ تَـبْلَ أطلالُهُ	حـاشا لِأطـلالِكَ أنْ تَبْلى
لـم أبـكِ أطـلالَكَ لـكنّـني	بَكَيْتُ عيشي فيكَ إذْ ولّى
والعيْشُ أحلى ما بكاهُ الفتى	لا بدَّ لِلْمَحزونِ أنْ يسلّى

(سريع)

ولما احتُضِرَ جعَلَ يقولُ : ذهبتِ الحيَل : ليست حيلةٌ ! ثُمّ مـات . وذلـك فـي سنةِ سبعٍ وعشرينَ ومائتَينِ .

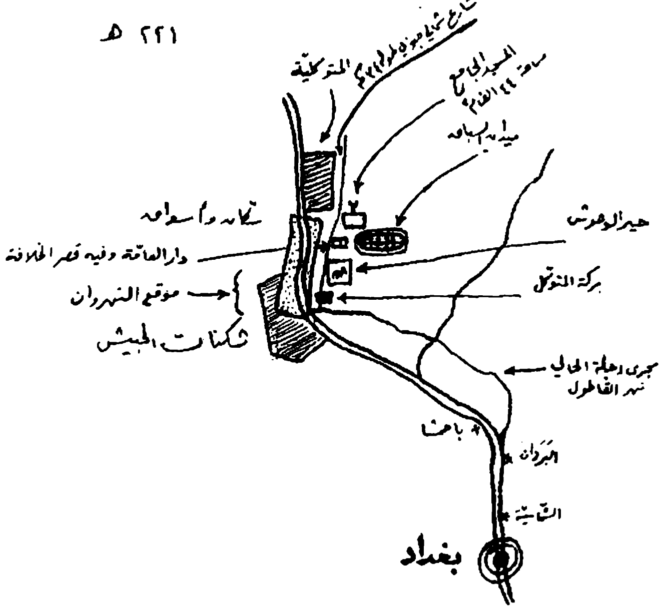
---

[1] العُلوج : الأغراب ، مطعونو النسب .

[2] زُنام الزامر : أوّل من اشتهر باستعمال الناي ، كان مطرب الرشيد والمعتصم والواثق ، تُوفـي حوالي عام /٢٣٥/ هـ .

سامرّاء

٢٢١ هـ



مخطط سامرّاء المتوكل نقلاً عن الدكتور
شاكر مصطفى استاذ التاريخ جامعة دمشق
عام ١٩٥٥م .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامِهِ

أوّلُ وزرائه كاتِبُه قبلَ الخلافةِ الفَضْلُ بنُ مروانَ ، كانَ من البَرَدانِ [1] ، وكانَ عامياً لا عِلْمَ عِنْدَهُ ولا معْرِفة ، وكان ردئ السِّيرةِ جهولاً بالأمورِ ، وفيهِ يقولُ بعضُ شعراءِ عَصْرِهِ :

تَفَرْعَنْتَ [2] يافضلُ بنَ مَرْوانَ فاعتَبِرْ ... فقَبْلَكَ كان الفَضْلُ والفَضْلُ والفَضْلُ

ثـلاثـةُ أمــلاكٍ [3] مَـضَـوْا لِسَبِيلِهِمْ ... أبــادَهُــمُ الـتـقـيـيدُ والأَسْرُ والقَتْلُ

(طويل)

والثلاثة هُم الفضلُ بنُ يحيى بن خالد ، والفضلُ بنُ سهلٍ ، والفَضْلُ بنُ الربيعِ وكانَ الفَضْلُ بنُ مروانَ قد تمكّنَ من المعتصِمِ وَحَسدهُ الناس على منزلتهِ عِنْدَهُ ، ثم نكبَهُ وأخذَ جميعَ أموالهِ وعفَّ عَنْ نفسه ، فبقى مدّةً ينتَقلُ في الخِدْماتِ حتّى ماتَ في أيّامِ المُستَعِينِ .

وزارةُ أحْمَدَ بنِ عمّار بنِ شاذي لِلْمُعْتَصِمِ

ثُمَّ وَزَرَ لَهُ أحمدُ بنُ عمّارٍ ، كانَ رجُلاً مُوسِراً مِنْ أهلِ المذارِ فانتَقَل إلى البَصْرةِ واشترى بها أمْلاكاً وكَثُرَ مالُهُ ، وكانَ طحّاناً ، ثم أصْعَدَ إلى بَغْداد واتّسَعَ بها حاله فقالوا كانَ يُخرِجُ في الصَّدَقةِ كلَّ يوم مائةَ دينارٍ ، وكانَ الفضلُ بنُ مروانَ قد وَصَفَهُ بالأمانةِ عِنْدَ المُعتَصِمِ ، فلما نَكَبَ الفضلَ لم يَقَعْ نظرُ المُعتَصِم على غيرِ أحمدَ بنِ عمّارٍ فاستوزَرَهُ ، وكانَ جاهِلاً بآدابِ الوزارةِ ، وفيه يقولُ بعضُ شعراءِ عَصْرِهِ :

سُبْحانَ ربّي الخالِقِ البـاري ... صِرْتَ وَزيراً ياابنَ عَمّارِ

وكُنْـتَ طـحّــانـاً عـلى بَغْلةٍ ... بِـغَــيْــرِ دُكّانٍ ولا دارِ

---

[1] البَرَدان : قرية شمالي بغداد على الشاطئ الشرقيّ من دجلة ، ينقل إليها السَّبي ، وهي دار النخاسة بالفارسيّة .

[2] تفرعَنْتَ : تشبَّهتَ بفرعون مصر في كفره وظلمه .

[3] الأملاك : هنا ، الملوك .

كَفَرتُ بالمِقْدارِ [1] إنْ لم تَكُنْ قَدْ جُزْتَ في ذا كُلَّ مِقْدارِ

(سريع)

فمكث مدّةً في وزارةِ المُعتَصِم ، حتّى ورد كِتابٌ مِنْ بعْضِ العمّال يذكرُ فيه خِصْبَ الناحيةِ وكثرةَ الكَلأ ، فسألَ المعتصمُ أحمد بنَ عمّار عَنِ الكلأ فلم يدْرِ ما يقول فدَعا محمّدَ بنَ عبدِالملكِ الزيّات ، وكانَ أحد خواصّه وأتباعه فسألهُ عن الكلأ ، فقالَ : أوّلُ النباتِ يُسمّى بَقْلاً ، فإذا طالَ قليلاً فهو كالكَلأ ، فإذا يبس وجفّ فهو الحَشيشُ فقالَ المُعتَصِمُ لأحمدَ بنِ عمّارٍ : انظُرْ أنتَ الدَّواوينَ وهذا يعْرِضُ عليَّ الكُتُبَ ، ثم استوزَرَهُ ، وصَرفَ ابنَ عمّارٍ صرْفا جميلاً .

وزارةُ محمّدِ بنِ عبدِالملكِ الزيّاتِ للمُعتَصِم

كانَ أبوهُ تاجِراً في أيّامِ المأمونِ مُوسرا ، ونَشأ محمّد فتأدّبَ وقرأ وفهِمَ ، وكانَ ذكيّاً فبرَعَ في كُلِّ شيءٍ حتّى صارَ نادِرةَ وقتِهِ عقْلاً وفهْماً ، وذكاءً وكتابةً ، وشِعْراً وأدَباً وخِبْرةً بآدابِ الرِّياسةِ ، وقواعد المُلوكِ ، حتّى كانتْ أيّامُ المُعتَصِمِ فاستوْزَرَهُ على ما تَقدّمَ شَرْحُهُ ، فنَهَضَ بأعباء الوزارةِ نُهوضاً لم يكنْ لمن تقدّمَهُ مِنْ أضرابِهِ ، وكانَ جبّاراً مُتكبِّراً ، فظّاً غليظَ القَلْبِ ، خشِنَ الجانبِ مُبغضاً إلى الخلقِ ، وماتَ المعتصِمُ وهُوَ وزيرُه وكانَ المعتصمُ قد أمرَ لابنِهِ الواثقِ بمالٍ ، وأحالَ بهِ على ابن الزيّاتِ فمنعَهُ ، وأشارَ على المعتصمِ ألا يُعْطيه شيئاً ، فقبلَ المُعتَصِم قولَهُ ورَجَعَ فيما كانَ أمرَ بهِ للواثِقِ مِنْ ذلك فكتبَ بخطّه كتاباً بالحجِّ والعِتْقِ والصّدَقةِ أنه إنْ ولي الخِلافةَ ليقتُلَنَّ ابنَ الزيّاتِ شرَّ قِتْلةٍ .

فلّما ماتَ المعتصمُ وجلسَ الواثِقُ على سريرِ الخلافةِ ذكرَ حديثَ ابنِ الزيات فأرادَ أنْ يُعاجِلَه فخافَ ألّا يجِدَ مِثْلَهُ ، فقالَ للحاجبِ : أدخل إلي عشرةً مِنَ الكُتّابِ فلما دَخلوا عليهِ اختَبَرهُمْ فما كانَ فيهِمْ مَنْ أرْضاهُ ، فقالَ للحاجبِ : أدخل مِنَ المِلكِ

[1] المقدار الأولى : عنى بها القضاء والقدر . المقدار الثانية : المنْزلة والمكانة كالوظيفة والمركز الرسميّ .

محتاجٌ إليه ، محمّد بنَ الزيات ، فأدخلهُ ، فوقف بين يديه خائفا ، فقال للخادم : أحضرْ إليَّ المكتوب الفلانيَّ ، فأحضر لهُ الكتاب الذي كان كتب وحلف فيه ليقتلنَّ ابن الزيات فدفعهُ إلى ابنِ الزيّات وقال : اقرأهُ ، فلما قرأهُ ، قال : ياأمير المؤمني أنا عبْدٌ إنْ عاقبتَه فأنت حاكمٌ فيه ، وإنْ كفرت عنْ يمينك واستبقيتهُ كان أشبه بك . فقالَ الواثقُ : والله ما أبقيتكَ إلّا خوفاً منْ خلوّ الدولة منْ مثلك ! وسأكفرُ عنْ يميني ، فإنّي أجدُ عن المالِ عوضاً ولا أجد عنْ مثلك عوضاً ، ثم كفّر عن يمينه واستوزرهُ وفوّضَ الأمور إليه ، وكانَ ابنُ الزيّاتِ شاعرا مُجيدا فمِنْ شعره يرثي المعتصِمَ ويمدحُ الواثقَ :

قد قلتُ إذْ غيّبوكَ واصطفقتْ	عليكَ أيْدٍ بالماءِ والطينِ
اذْهَبْ فنِعْمَ المُعينُ أنْتَ على	الدّنيا ونِعْمَ المعينُ للدينِ
لا يجبرُ اللهُ أمّةً فقدتْ	مثلك إلّا بمثلِ هارونِ [1]

(منسرح)

ثم إنّ محمّد بنَ عبدالملك الزيّات مكث في وزارةِ الواثق مدّة خلافته ، لمْ يستوزرْ غيرهُ حتّى ماتَ الواثقُ ، وولي أخوه المتوكّل فقبَض عليْه وقتلهُ .

قيلَ : إنّ ابنَ الزيّاتِ عملَ تنوراً منْ حديد ومساميرُهُ إلى داخل ، ليعذّب به مَنْ يريدُ عذابَهُ ، فكانَ هُو أوّلَ مَنْ جُعِلَ فيه ، وقيلَ لهُ : ذقْ ما كنت تريدُ أنْ تذيقَ الناسَ !.

انقضتْ أيّامُ المعتصِمِ ووزرائه .

ثمَّ ملَكَ بَعْدَه هارونُ الواثقُ بُويعَ سنةَ سبعٍ وَعِشْرينَ ومائتينِ

كانَ الواثقُ منْ أفاضلِ خُلفائهمْ ، وكان فاضلاً لبيباً ، فطناً فصيحاً شاعراً وكان يتشبّهُ بالمأمونِ في حركاته وسكناته ، ولما ولي الخلافة أحْسن إلى بني عمّه الطالبيّين [2] وبرّهُمْ ولم يقعْ في أيّامه من الفتوح الكبار والحوادث المشهورة ما يؤثرْ

---

[1] هارون : هو الخليفة الواثق ، بويع بعد وفاة المعتصم /٢٢٧/ هـ .

[2] الطالبيّين : عنى بهم آل عليّ بن أبي طالب .

وماتَ الواثقُ في سنةِ ثلاثٍ وثلاثين ومائتينِ .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامِهِ

لم يَستوزرِ الواثقُ سوى محمّد بنِ عبدالملكِ الزيّات وزيرِ أبيه ، وَقَدْ سَبَقَ طَرَفٌ مِنْ حالِهِ وماتَ الواثقُ وَهُوَ وزيرُهُ .

انْقَضَتْ أيّامُ الواثق .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ أخوهُ جَعْفَرٌ المتوكِّلُ

كانَ المتوكِّلُ شديدَ الانْحِرافِ عَنْ آلِ عليٍّ – عليه السّلامُ – وفعلَ مِنْ حَرْثِ قبرِ الحُسَيْنِ – عليهِ السّلامُ – ما فَعَل ، وأبى اللهُ إلّا أن يُتِمَّ نورَهُ ، وقالَ مَنْ يعتذِرُ لَهُ : إنه كانَ كأخيهِ وكالمأمونِ في المَيْلِ إلى بني عليٍّ – عليهِ السّلامُ – وإنّما كانَ حَوْلَه جَماعةٌ مُنْحرِفون عَنْ أهلِ البيت – عليهِمُ السّلامُ – فكانُوا دائما يحْمِلونهُ على الوقيعةِ فيهِمْ والأوّلُ أصَحُّ ، ولا ريبَ أنه كان شديدَ الانْحرافِ عن هذه الطائفةِ ، ولذلك قَتَلَهُ ابنُهُ غيْرَةً وَحَمِيَّةً .

شَرْحُ مَقْتَلِهِ على سبيلِ الاخْتِصارِ

كانتْ بينَهُ وبينَ ابنِهِ المُنْتَصِرِ مبايَنَةٌ ، وكانَ كُلٌّ مِنْهُما يكْرَهُ الآخر وَيُؤْذيهِ ، فاتّفَقَ المنتصِرُ مَعَ جماعةٍ مِنَ الأمراءِ على قتْله وقَتْلِ الفتْحِ بن خاقانَ [1] ، وكانَ أكبرَ أمرائِهِ وأفضَلَهُمْ ، فهجَموا عليهِ وَهُوَ يشْربُ ، فخبطوه بالسّيفِ فقتلوه وقتلوا الفتْحَ مَعَهُ وأشاعوا أن الفتْحَ قَتَلَهُ فقتلناهُ به ، وجلسَ ابنه على السّريرِ بعْدَهُ . وذلك في سنةِ سبعٍ وأربعينَ ومائتينِ .

---

[1] الفتح بن خاقان : أبو محمّد ، جدّه أحمد بن غرطوج فارسي الأصل . أديب وشاعر فصيح ، أخاه الخليفة المتوكل ، وقُتِلَ في مجلسهِ عام /٢٤٧/ هـ .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامِهِ

لما بُويعَ بالخلافةِ استَوْزَرَ محَمدَ بن عبدالملك الزيّاتَ أيّاماً ، ثُمّ نَكبَهُ وقَبضَ عليه وقَتَلَهُ كما تقدَمَ شرحُهُ ، ثم استكتب [1] رجلا مِنْ كُتّابه يُقالُ لَهُ : أبو الوزيرِ ، مِنْ غيرِ أنْ يُسمّيَهُ بالوَزارةِ فكتب له مُدَيْدَة يسيرة ، ثم نكبَهُ وأخذ منهُ مائتي ألفِ دينارٍ ،واستوزرَ الجُرْجَرابي .

وَزارةُ أبي جَعْفرٍ مُحَمّدِ بنِ الفَضْلِ الجَرْجَرابي لِلْمتَوكّلِ

كانَ شيخاً ظريفاً ، حَسَنَ الأدبِ ، عالماً بالغِناءِ مُشْتَهِراً بهِ ، فخفَّ على قَلْبِ المتوكّلِ فاستَوْزَرَهُ مُدَيْدَةً ، ثم كَثُرتِ السّعاياتُ بهِ ، فعَزَلَهُ المتوكّلُ ، وقال : قد ضَجِرتُ مِنَ المشايخِ ، أُريدُ حَدَثاً أستَوْزِرُه ، فأُشيرَ عَلَيْهِ بعُبَيْدِاللهِ بنِ يحيى بنِ خاقانَ .

وَزارةُ عُبَيْدِاللهِ بنِ يَحْيى بنِ خاقانَ

كانَ عُبَيْدُ اللهِ حَسَنَ الخطِّ ، ولهُ معرفةٌ بالحسابِ والاستيفاءِ [2] ، إلا أنّه كان مُخَلِّطاً [3] ، وكانَ مَجْدُوداً [4] ، فكانَتْ سَعادَتُه تغطي عُيوبَهُ ، وكان كريماً حَسَنَ الأخْلاقِ .

وكانَ كَرَمُهُ أيْضاً يَسْتُر كثيراً مِنْ عُيوبِهِ ، وكان فيه تَعفُّفٌ ، قيلَ : إنْ صاحبَ مِصْرَ حَمَلَ إليهِ مائتي ألفِ دينارٍ وثلاثين سَفَطاً من الثّيابِ المصريّةِ ، فلَمّا أُحْضِرَتْ بَيْنَ يديه ، قالَ لوكيلِ صاحب مصر : لا واللهِ ! لا أقْبَلُها ولا أُثْقِلُ عليهِ

---

[1] استكتبهُ : اتّخذه كاتِباً ، جعلَه كاتِباً عندَه .

[2] الاستيفاء : الجِباية وجمع الأموال .

[3] المخلّط : شِبهُ المجنون أو الأحمق .

[4] المجدود : صاحب الجَدّ أو الحظّ .

بذلك ، ثمَّ فتحَ الأسفاطِ وأخذَ منها منديلاً لطيفاً وضعَهُ تحتَ فخذه ، وأمرَ بالمالِ فحُمِلَ إلى خزانةِ الديوانِ وصُحِّحَ بها ، وأخذَ به ذوراً لصاحب مصر .

وكانتْ سيرةُ عُبَيْدِالله هيّنةً ، والجندُ يُحبّونَهُ ، فلمّا جرتْ مَقتلةٌ عندَ قتلِ المتوكّلِ خافَ عُبَيْدُالله فاجتمعَ الجُنْدُ على بابهِ وقالوا لهُ : أنتَ أحسنْتَ إلينا في حالِ وزارتِكَ وأقلُّ ما يجبُ لكَ علينا أن نحتفظَ بكَ ونحرُسَكَ في مثلِ هذه الفتنة .

انقضتْ أيّامُ المتوكّلِ ووزرائه .

ثُمَّ ملكَ بعْدَهُ ابنُه مُحمّد المُنْتَصِرُ

بُويعَ في صبيحةِ الليلةِ التي قُتلَ أبوهُ بها ، كانَ المُنْتصِرُ شهْماً فاتِكاً سفّاكاً للدّمِ ولمّا قتلَ أباهُ تحدّثَ الناسُ بأنهُ لا يطولُ له العمرُ بعْدَهُ ، وشبّهوه بشيرويْه [1] بنِ كِسْرى حينَ قتلَ أباهُ ، ولمْ يستمتِعْ بالمُلْكِ بعْدَهُ ، قالوا لما قتَلَ المُنْتَصرُ أباهُ وبُويعَ لَهُ بالخِلافةِ جلسَ على بساطٍ لم يرَ النّاسُ مثلَهُ ، وعليْهِ كِتابةٌ عجيبةٌ بالفارسيّةِ ، فنظرَ إليها المنتصرُ واستَحْسَنَها ، وقالَ لِمَنْ حضرَ : هلْ تعْرِفونَ معنَاها ؟ فأحْجموا وقالوا لا نَعرِفُ فاستَحْضَرَ رَجُلاً عجَميّاً غريباً وأمرهُ بقراءتِها ، فأحْجَمَ الرّجُلُ ، فقالَ له المُنْتَصِرُ : قُلْ وما عليكَ بأسٌ ، فليسَ لكَ ذنْبٌ ، فقالَ الرجلُ : على هذه البساط مكتوبٌ ، أنا شيرَويه بنُ كِسْرى ، قتَلْتُ أبي فلم أتمتّعْ بالمُلكِ بعْده إلا ستّةَ أشْهرٍ فتطيرَ المُنْتَصِرُ من ذلك ، ونهضَ منْ مَجلسه مُغْضَباً ، فلم تتمّ ستّةَ أشْهُرٍ حتّى ماتَ ، وذلكَ في سنةِ ثمانٍ وأربعينَ ومائتينِ .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامِهِ

لما بُويعَ بالخلافةِ استوْزَرَ كاتِبَهُ أحْمَدَ بنَ الخَصيبِ .

---

[1] شيرَوَيْه : هو ابن كِسْرى أبرويز : ملك فارسيٌّ حبس أباه واغتاله واعتلى العرش مكانَهُ ، ومات بالطاعون بعد ستة أشهر عام /٦٢٨/ م .

وَزارةُ أحْمدَ بنِ الخَصيبِ لِلْمُنْتَصِر

كانَ أحـمدُ مُقصِّراً في صِناعَتِه ، مطْعوناً عليه في عقْله ، وكانتْ فيه مُروءَةٌ وحدَّةٌ [1] وطيشٌ ، فمَنْ احتَمَلَهُ بلغَ منْهُ ما أراد ، فعَرضَ لهُ رجلٌ من أربابِ الحوائجِ وألحَّ عليه حتّى ضايقَهُ ، وضَغطَ رِجْلَـه بالرِّكـاب ، فـاحتَدَّ أحمـدُ وأخـرجَ رِجْلَـهُ مِـنَ الرِّكابِ ورَكلَهُ بها في صدْرِه ، فقالَ فيهِ بعضُ الشّعراء :

قُلْ للخليفةِ يـاابنَ عمِّ محمّد		أشْكلْ وَزيـرَك إنـهُ ركّالٌ [2]
قَدْ نالَ مِنَ أعْراضِنا بِلِسانِهِ		ولِرِجلِهِ عِنْد الصُّدورِ مَجالٌ

(كامل)

وماتَ المنتصرُ وأحمدُ بنُ الخَصيب وزيرُهُ .

انقضتْ أيّامُ المُنْتَصِر .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ المُسْتَعينُ وَهُوَ أحْمدُ بنِ المُعْتَصِمِ

لما ماتَ المنتصرُ اجتمعَ الأمراءُ وأكابرُ المماليكِ ، وقالوا : متى ولّينـا أحـداً مِنَ وَلَدِ المتوكلِ طالبنَا بدمِهِ وأهلَكَنا ، فأجْمعوا على مُبايعة المُستَعينِ وقالوا هُـوَ ابـنُ مَوْلانا المُعْتَصِمِ فإذا ما بايعْناه لم تَخْرُجِ الخلافةُ من وَلَدِ المُعتَصِم ، فبايعوهُ فـي سـنةِ ثمانٍ وأربعينَ ومائتينِ وكانتْ تلكَ أيّام فِتَنٍ وحُروبٍ وخُروجِ خوارِجَ ، فممّـن خَـرَجَ فيها قتيلُ شاهي أبو الحُسَيْنِ يحيى بنُ عُمَرَ بن يحيى بنِ الحُسينِ بنِ زيدِ بنِ عليٍّ بـنِ الحُسَيْن بنِ عليٍّ بنَ أبي طالبٍ (عليهمُ السّلامُ) .

شَرْحُ الحالِ في ذلِكَ

كانَ يحيى بنُ عُمر قتيلُ شاهي [3] ، قَدم مِنْ خُراسـانَ فـي أيّـامِ المتوكّـلِ ، وَهُوَ في ضائقةٍ وعليهِ دَيْنٌ ، فكلّمَ بَعْضَ أكابرِ أصْحابِ المُتوكّلِ في ذلكَ ، فأغلظَ لَهُ

---

[1] الحِدّة : في الطبع ؛ شدّة العصبيّة والنزق .

[2] أُشكل : اربطْ بالشّكالِ ، أي بالحبل ، ركّال : رفّاس .

[3] شاهي : قريةٌ قريبة من الكوفة كما ذُكر .

وَحَبَسَهُ بِسامُرّا ، ثُمّ كفلَهُ أهلُهُ فأُطْلِقَ ، وانحدر إلى بغدادَ فأقامَ بها مدّةً على حالٍ غيرِ مُرضيةٍ مِنَ الفقْرِ ، وكانَ - رضي اللهُ عنْهُ - دَيِناً خيّراً أعمالاً حسَنَ السِّيرة ، فرَجَعَ إلى سامُرّا مَرّةً ثانيةً ، وَكَلّمَ بَعْضَ أمراءِ المتوكّلِ في حالِهِ ، فأغْلَظَ لَهُ وقالَ ، لأيِّ حالٍ يُعْطى مِثْلُك ؟ فرَجَعَ إلى بغْدادَ وانحدر منْها إلى الكوفةِ ، ودعا النّاسَ إلى الرضا من آل محمدٍ ، فتبِعه ناسٌ مِنْ أهلِ الكوفةِ من ذَوي البصائرِ في التشيّعِ ، وناسٌ مِنَ الأعْرابِ وَوَثَبَ في الكوفةِ وأخذَ ما في بَيْتِ المالِ ففرّقَهُ على أصحابِهِ ، وأخرَجَ من في السّجونِ ، وطَرَدَ عن الكوفةِ عاملَها وكثُرَتْ جمُوعُه فأرْسَلَ إليه أميرُ بَغْدادَ - وهو محمّدُ بنُ عبدِالله بنِ طاهرٍ - عَسكراً فالتقوا بشاهي وهي قريةٌ قريبةٌ مِنَ الكُوفَةِ - وكانَتْ الغَلَبةُ لِعَسكرِ ابنِ طاهرٍ ، وانْكَشَفَ الغُبارُ ويحيى بنُ عُمر قتيلٌ فَحُمِلَ رأسُهُ إلى محمّد بنِ عبدالله بن طاهرٍ ببغدادَ ، فجلس محمّدُ بنُ عبداللهِ بنِ طاهرٍ للهناءِ بذلك ؛ فَدَخَلَ عليه الناسُ أفواجاً يهنئونَهُ ، وفي جملتِهِمْ رجلٌ مِنْ وَلَدِ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ - عليهم السلام - فقالَ لهُ أيّها الأميرُ : إنّكَ لَتُهَنّأُ بقتلِ رَجُلٍ لو كانَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآله وسلّم حيّاً لعُزّيَ به ، فاطْرَقَ محمّدُ بنُ عبدِ اللهِ ساعةً ، ثم نَهَضَ وَصَرَفَ النّاسَ ، ورثاهُ الشّعَراء ، فممّنْ رثاه ابنُ الروميّ [(1)] بجيميّتِهِ التي أولُها :

أمامكَ فانظرْ أيّ نَهْجَيْكَ تَنْهَجُ　　طريقانِ شتّى : مستقيمٌ وأعْوَجُ

ومِنْها :

سَلامٌ وَرَيْحانٌ وَرَوْحٌ وَرَحْمَةٌ　　عَلَيْكَ ومَمْدودٌ مِنَ الظِلّ سَجْسَجُ [(2)]

ولا بَرِحَ القاعُ الذي أنتَ جارُهُ　　يَسرِفُ عليهِ الأُقْحُوانُ المُفلَّجُ [(3)]

[(1)] ابن الروميّ : أبو الحسن ، عليّ بن العبّاس بن جُرَيْجٍ ، ولد ونشأ وتخرّج ببغداد ، أبدع في شعره وأفحش في هجائِهِ كان قليل النُّقلة والسفر ، كثير التشاؤم ، دسّ له السمّ القاسمُ بنُ عُبَيْد اللهِ وزيرُ المعتضد فتوفي عام /٢٨٣/ هـ .

[(2)] سَجْسَج : مبسوط ، رحب .

[(3)] المُفلّج : المتباعد في تُوَيْجاتِهِ كالأسنان المتباعدة ، وُصِف بِهِ الأُقْحُوان وهو زهر بريّ أبيض مفلّج التُّويجات .

وهي قصيدةٌ شاعِرةٌ ، تَناولَ فيها بني العبّاسُ بأشياءَ تركْناها تحرُّجاً ، وكانَتْ وقعةُ شاهي في سنةِ خمْسينَ ومائتين ، وخَرَجَ عليه غيْرُهُ من الطالبيِّين ، فكانَتْ الغَلَبَةُ في جميعِ تلكَ الحروب لهُ .

واعلمْ أنّ المُستَعينَ كان مُستَضعَفاً في رأيه وعقْلِهِ ، وكانَتْ أيّامُهُ كثيرةَ الفِتَنِ ودَوْلَتُه شديدةَ الاضْطِرابِ ، ولمْ يكنْ فيهِ منَ الخصالِ المحمودة إلّا أنّهُ كانَ كريماً وَهوباً وخُلِعَ في سنةِ اثنتينِ وخَمْسينَ ومائتين ، ثُمّ قُتِلَ بَعْدَ ذلك .

شَرْحُ حالِ الوَزارةِ في أيّامِهِ

لما وَلِي المُستَعينُ أقرّ أحْمَدَ بنَ الخصيبِ على وزارته شهْرَيْنِ ، ثُمّ استَوْزَرَ بَعْدَهُ أبا صالحٍ عبدَاللهِ بن محمّدِ بنِ يزدادَ .

وَزارةُ أبي صالحِ بنِ محمّدِ بنِ يَزْدادَ

كانَ عِنْدَهُ أدَبٌ وفَضْلٌ ، وكانَتْ توقيعاتُهُ وأجوبتُهُ منْ أحْسنِ التوقيعاتِ والأجوبةِ .

ومن توقيعاتهِ إلى رَجلٍ : ((ليسَ عليك بأسٌ ما لم يكنْ منْكَ بأسٌ)) .

قالوا : ولمّا تولّى أبو صالحِ بنُ يزداد الوزارةَ للمُستَعين ، ضبطَ الأموالَ ، فصَعُبَ ذلك على أمراءِ الدولةِ - وكانَ قد ضيّقَ عليهمْ - فتهدّدوه بالقتلِ فهربَ ، ثم اختلفتِ الأحْوالُ ، واستَكْتبَ المستعينُ تارةً محمّدَ بن الفضْلِ الجرجرانيّ ، وشُجاعَ ابنَ القاسِم لكنْ لم يتَسمَّ أحدٌ منهم بالوَزارةِ ، ولم تطُلْ تلك الأيامُ ، وكانَتْ ذاتَ فِتَنٍ وحروبٍ واختلافٍ كثيرٍ .

انقَضَتْ أيّامُ المستعين ووُزرائه .

ثُمّ ملَكَ بعدَهُ المعتزُّ باللهِ

هُوَ أبو عبدِ اللهِ بن محمّدِ بنِ المتوكّلِ ، بُويعَ بالخِلافةِ سنةَ اثنتينِ وخمسينَ ومائتينِ عقيبَ خَلْعِ المُستَعين ، وكانَ المعتزُّ جميلَ الشّخْصِ حسَنَ الصُّورةِ ، ولم يكُنْ بسيرتِه ورأيِهِ وعقْلِه بأسٌ ، إلّا أنّ الأتراكَ كانوا قد استَولوا مُنذ قتْلِ المتوكّلِ

على المَمْلَكةِ واستَضْعَفوا الخُلفاء ، فكانَ الخليفةُ في يَدِهمْ كالأسير ، إنْ شـاؤوا أبقَوهُ وإنْ شاؤوا خلعوهُ ، وإنْ شاؤوا قَتلوه .

لمّا جَلسَ المعتزُّ على سريرِ الخلافة ، قعـد خواصُّـه وأحْضَروا المنجّميـنَ ، وقالوا لَهُمْ انظُرُوا كَمْ يعيشُ ؟ وكم يبقى في الخلافةِ ؟ وكان بالمجلسِ بعضُ الظُرفاء فقالَ : أنا أعْرَفُ مِنْ هؤلاءِ بمقدارِ عُمْرِه وخلافته ، فقالوا لهُ : فكم تقولُ إنّـه يعيشُ وكم يَملك ؟ قالَ : مَهْما أرادَ الأتْراكُ ، فلم يبْقَ في المجلسِ إلّا مَنْ ضَحكَ .

وفي أيّام المُعتَزّ ظهرَ يَعْقوبُ بنُ الليثِ الصفّارُ [١] ، واستَوْلى عَلى فـارسٍ ، وجَمَعَ جموعاً كثيرةً ، ولم يَقْدِرِ المعتزُّ على مُقاومتِهِ ، ثُمّ إن الأتراك ثـارُوا بـالمعتزِّ وطَلَبُوا مِنْهُ مالاً فاعتَذَرَ إليْهِمْ ، وقَالَ : ليس في الخزائنِ شيءٌ ، فـاتفقوا علـى خَلْعِـهِ وقَتْلِهِ ، فَحَضروا إلى بابِهِ وأرْسلوا إليْه وقالوا لَهُ : اخرُجْ إلينا ، فـاعتَذَرَ بأنـه شَـرِبَ دواءً ، فَهَجَموا عليهِ وضَرَبـوهُ بالدَبـابيسِ ، وخرقـوا قَميصَـه وأقـاموهُ فـي الشَّمْسِ ، فكانَ يرفَعُ رِجْلاً ويَضَعُ أُخْرى لِشدّةَ الحَرّ ، وكانَ بَعْضُهُمْ يَلْطِمُهُ وَهُوَ يتّقي بيدِهِ ، ثُمّ جَعَلوهُ في بيتٍ ، وسَدّوا بابَه حتّى ماتَ بَعْدَ أنْ أشهدوا عَلَيْـه أنّـهُ خَلَـعَ نفْسَـهُ ، وَذاكَ في سَنَةِ خمسٍ وخمسينَ ومائتَينِ .

شرح حال الوزارة في أيامه

أوّلَ وزارتِه أبو الفضْلِ جَعْفَرُ بنُ محمودِ الإسكافي .

وَزارةُ الإسْكافيّ لِلمُعْتَزّ

لم يكنْ لَهُ عِلْـمٌ ولا أدبٌ ، لكنّـه كـان يستميلُ القلوبَ بـالمواهب والعطايـا ، وكان المعتزُّ يكرهُه ، وكانوا ينسبونه إلى التشيّع ، ومالَ إليه بعضُ الأتراكِ وكرهَـهُ البعضُ الآخَرُ وثارَتْ بسببه فتنةٌ ، فعَزلَهُ المعتزُّ .

---

[١] يعقوب بن الليث الصفّار : أبو يوسف ، لُقّبَ بالصفّار لأنـه كـان يعمـل بـالصُفْر (النحـاس) ، تطوّعَ بادئَ الأمرِ لقتالِ الشُراة ، فانتصر عليهم ، وغلـب علـى سجِسْتان واسـتولى علـى فـارس ، واقتحم نيسابور في خراسان ، طمع ببغداد فزحف إليها بجيشهِ في خلافة المُعتمد ، ودارت حـربٌ طاحنة لم يظفر فيها بطائل وعاد إلى سجستان وتوفي فيها عام /٢٦٥/ هـ .

وَزارةُ أبي موسى عيسى بن فرخانَ شاهَ لِلْمُعتَزِّ

كان كريماً ، قِيلَ عنْهُ : إنّه كان قبل الوزارةِ يتولّى بعض الدواوين فعُزِلَ عَنْهُ وَلَهُ بهِ استحقاق مبلغه ألفُ دينار ، فتلطّف بالذي تولّى بعْده حتّى كتب لهُ وأحالَهُ بذلك على بعض النوّابِ ، فلمّا حصل المال كتب ذلك النائبُ إلى عيسى بن فرخان شاه يُعلِمُهُ أن المالَ قدْ حصل ، ويستأذنهُ في حمْله إليه - وكان صديقاً لهُ - فكتَب إليهِ ، إنّ فُلاناً الشاعرَ لازمني مدّةً ، وما حصل لهُ منْ جهتي شيءٌ ، فادْفعْ هذا المالَ إليه ، فدَفعَ المالَ إلى الشاعر فأخذهُ وانصرفَا ، وجرتْ بسببه أيْضاً فتنةٌ بين الأتراكِ فعَزَلَهُ المعتزُّ .

وَزارةُ أبي جَعْفرٍ أحْمَدَ بنِ إسْرائيلَ الأنْباريِّ لِلْمُعتَزِّ

كانَ أحدَ الكُتّابِ الحُذّاقِ الأذْكياءِ ، قالُوا : كان يحْفظُ وُجوهَ المالِ جميعها دَخْلاً وخرْجاً على ذهْنِهِ ، وقالوا : إنّهُ ضاعتْ مرّةً حِسْبَةٌ منَ الديْوانِ فأوْرَدَها منْ خاطِرِهِ فلمّا وُجدتِ الحِسْبَةُ كانتْ كما قالَ منْ غيْرِ زيادةٍ ولا نقيصةٍ ، ثم إنّ الأتْراكَ وثَبوا على أحْمَدَ بنِ إسرائيلَ فأخذوهُ وضربُوهُ واستَصفوا أمْوالهُ ، وشفع فيه المعتزُّ وأُمُّه إلى مُتَقدم الأتْراكِ - وهُوَ صالحُ بنُ وصيفٍ - فلَمْ يلْتفِتْ إليهما وحَبَسَهُ ، وضرَبه بعد ذلك في أيامِ المُهتدي حتّى ماتَ .

ولمّا فعلَ صالحُ بنُ وصيفٍ بأحمدَ بن إسرائيلَ ما فعل ، استحْضر جعفرَ بنَ محمودٍ الإسكافي واستوزرَهُ ثانيةً - وقد سبقَ ذكْرُه - ولمّا تولى الوزارةَ في المرّةِ الثانيةِ قالَ بعضُ الشُعراءِ :

يا نفسُ لا تُولَعي بتَفْنيدِ [1] وعلّلي القَلْبَ بالمواعيدِ
وانتظري قد رأيتِ ما ساقهُ الـلــهُ إلى جَعْفَرِ بنِ مَحْمودِ

(منسرح)

انقضَتْ أيّامُ المعتزِّ ووُزرائهِ .

---

[1] التفنيد : التكذيب .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ المُهْتَدِي باللهِ

هُوَ أبو عَبْدِاللهِ مُحَمَّدُ بنُ الواثـقِ ، كـان المُهـتـدي مـن أحسـن الخلفـاء مَذْهبـاً وأجملِهِمْ طريقةً وسيرةً ، وأظهرِهُم وَرَعاً ، وأكثرهم عبـادةً ، كـان يتشـبّهُ بعُمـرَ بـنِ عبدِالعزيزِ ، ويقولُ : إنّي أستحي أنْ يكون في بني أُميّةَ مِثْلُـهُ ، ولا يكـون مِثْلُـه فـي بني العبّاسِ ، وكانَ يَجلِسُ للمظالمِ فيحكمُ حكمـاً يرتضيـهِ النـاسُ ، وكـان يتقلّـل فـي مأكوله وملْبوسهِ .

حدّثَ بعضُ الهاشميّينِ قال : كُنْتُ عند المهتدي في بعـضِ ليـالي رمضـانَ ، فقُمْتُ لِأنصرفَ ، فأمرني بالجلوسِ فجلستُ ، حتّى صلّى المهتدي بنـا المَغْرب ، ثمّ أمرَ بإحْضـارِ الطّعامِ فأُحْضرَ طبقُ خِلافٍ [1] وعليه رُغْفانٌ ، وفي إنــاء ملـحٌ ، وفـي إناء خَلٌّ ، فأكلَ وأكلْتُ أكلاً مُقْصِراً ظنّاً منّي أنه يُحْضرُ طعامٌ أجودُ منْ ذلك ، فلمّـا رأى أكلي كذلكَ قال : أما كُنْتَ صـائماً ؟ قلْتُ : بلى ، قالَ : أفلسْتَ تريدُ الصومَ غـداً قلتُ : وكيفَ لا وهو شهرُ رمضانَ ! فقال : كلْ واستوفِ عشاءك فليسَ هاهنــا غيْرُ ما ترى ، فعَجِبْتُ وقلْتُ : لِمَ يـاأميرَ المؤمنين ، وقد أسـبغ اللـهُ عليـك نعمـهُ ووسـع رزقَهُ ؟ فقالَ : إنّ الأمر كما تقولُ والحمدُ لله ، ولكنّي كرهْتُ أن يكون في بني أميّـةَ مثلُ عُمَرَ بنِ عبدِ العزيـزِ وألا يكونَ في بني العبّاسِ مِثْلُه .

وكانَ المهتدي قد اطّرَحَ [2] الملاهي وحرّمَ الغناءَ والشراب ، ومنع أصْحابَـهُ مِنَ الظلمِ والتعدّي .

في أيّامِ المُهْتَدي خَرَجَ صاحبُ الزّنْجِ ، وسيَرِدُ خبَرُه في أيّام المُعتَمد إنْ شاء اللهُ تعالى .

كانَ المهتدي قتَلَ بَعْضُ الموالي ، فشــغب عليـه الأتْراكُ وهـاجُوا ، وأخَذوه أسيراً وعذبوه لِيخلَعَ نفْسَه فلمْ يفْعَل ، فخلعوهُ هُمْ ومات،وذلك في سنة ست وخمسينَ ومائتين .

---

[1] الخِلاف : صنف من الصفصاف ، ولعلّه أراد القشّ .

[2] اطّرحَ : ترك .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامِهِ

لمّا بُويِعَ بالخلافةِ أقرَّ جعْفَر بنَ محمودِ الإسكافيَّ على وزارتـه ، ثـم عزَلَـهُ واستَوْزَرَ سُليمان بنَ وهْب .

وَزارةُ سُلَيْمانَ بنِ وَهْب بنِ سعيدٍ لِلْمُهْتَدي

هُمْ مِنْ قريـةٍ مِـنَ أعمـالِ واسـطٍ ، وكـانتْ لهـم كِفايـةٌ ، وكـانوا نصـارى ثـمَّ أسلَموا وخَدَموا في الدّواوينِ حتّى آلتْ بهِم الحالُ إلى ما آلتْ .

كانَ أبو أيّوبَ سُليمانُ بـنُ وهْـبٍ أحـد كُتّـابِ الدُّنيـا ورؤسـائها فضْـلاً وأدبـاً وكِتابةً في الدُّرْجِ والدّستورِ ، وأحدَ عقلاءِ العالَمِ وذوي الرأيِ منْهُم .

حَدَّثَ ابنُهُ عبيدُاللهِ قالَ : حدّثني أبي قال : كان مبدأ سعادتي أنّـي كُنْـتُ وأنـا صبيٌّ بينَ يدي محمّدِ بنِ يزدادَ وزيرِ المأمون ، وكنّا جماعةً من الصّبيانِ بيْنَ يدَيْهِ ، إذا راحَ في الليلِ إلى دارِهِ وباتَ واحـدٌ منّـا فـي دارِ المـأمون بالنَّوْبـةِ ، لمهـم عسـاهُ يعرُضُ فـي الليـلِ قالَ : فكانَتْ ليلـةُ نوبتـي ، فخـرَجَ خـادمٌ وقـال : هاهنـا أحدٌ مـن نوّابِ محمّدِ بنِ يزدادَ ؟ فقالَ الحاجبُ له : نعمْ ، هاهُوَ ذا ، فـأدخلني إلـى المـأمونِ ، فقال لي : اعملْ نسخةً في المعنى الفلاني ، ووسّعْ بينَ سُطورِها وأحْضرِهـا لـأصلِحَ منها ما أريدُ إصلاحَهُ ، قالَ : فخرَجْتُ سريعاً وكتبتُ الكتاب بغيْرِ نسـخةٍ ، وبيّضتُـهُ وأحضرتُه إليهِ ، فلما رآني قال : كتَبْتَ النُّسخةَ ؟ قُلْتُ : بـلْ كتبـتُ الكتـابَ ، فقـالَ : بيّضتَـهُ ؟ قلـتُ : نعـمْ ، فـزادَ فـي نظـرِه إلـيَّ كـالمُتعجِّبِ منــي ، فلمّـا قـرأهُ تبيّنْـتُ الاستِحْسانَ على وجهِهِ ، ورفعَ رأسَهُ إليَّ وقالَ : ما أحْسنَ ما كتبْتَ ياصبيُّ ! ولكـنْ أريدُ أن تقدّم هذا السطر وتؤخّر هذا السطر ، وخطَّ عليهِمـا بقلمـه ، فـأخذتُ الكتـابَ وخرَجْتُ وجلَسْتُ ناحيـةً ثـم مَحَوْتُ السّطرين وعملـتُ مـا أراد ، وجئتـهُ بالكتـابِ ، وكانَ قد ظنَّ أنيَ أبْطِلُه وأكْتُبُ غيرَهُ ، فلما قرأهُ لمْ يَعْرِفْ موْضعَ المحْوِ فاستحْسَنَهُ وقالَ : ياصبيُّ : لا أدْري مِن أيِّ شيءٍ أعْجبُ ـ! أمِنْ جَوْدَةِ محْوِك أم مِـنْ سُرْعةِ فهْمِك ، أمْ مِنْ حُسْنِ خطِّك ، أمْ مِنْ سُرعتك ! باركَ اللهُ فيك ! فقبّلتُ يدَهُ وخرَجْتُ ،

وكان ذلك أولَ علوّ منزلتي ، وصار المأمونُ لا يجري مُهمٌ إلا قال : هاتوا سُليْمان ابنَ وَهب ، ولما جرتْ لَهُ هذه القضيّةُ كتب إليه بعْضُ الشُعراء :

أبـوكَ كلفَكَ الشَّأوَ البعيدَ كَما ... قِـدْماً تَكلّفهُ وَهْبٌ أبو حَسَنِ

فَلَسْتَ تُحْمَدُ إنْ أدْركْتَ غايَتَهُ ... ولَسْتَ تُعْذَرُ مسبوقاً فلا تَهُنِ

(بسيط)

حدَّثَ أحْمَدُ بنُ المدبر قال : كنّا في حبْسِ الواثقِ أنا وسليمانُ بنُ وهْبٍ وأحْمَدُ بنُ إسرائيلَ ، مُطالَبين بالأموال ، فقال لنا سُليمانُ بنُ وهْبٍ يوما : قد رأيتُ في المنامِ كأنّ قائلاً يقولُ لي : يموتُ الواثقُ بعْد شهْرٍ ، فاستغاث أحْمدُ بنُ إسرائيلَ وقالَ لَهُ : واللهِ لا تزالُ حتّى تُسفكَ دماؤنا ! وخافَ أشدَّ خوفٍ أنْ يشيعَ هذا الحديثُ عنّا ، قالَ ابنُ المدبر : فعددْتُ من ذلك اليوم ثلاثينَ يوما ، فلمّا كان يومُ ثلاثينَ قالَ لي أحْمَدُ بنُ إسرائيلَ : أيْنَ مِصْداقُ القولِ وصحّةُ المنام ؟ وكان قدْ حصر التاريخَ وحَسَبَ ونحنُ لا نعْلم ، فقالَ لَهُ سُليْمانُ بنُ وهْبٍ : الرؤيا تصْدُقُ وتكذِبُ ، فلما كانَتِ العِشاءُ الآخِرةُ إذْ طُرِقَ علينا البابُ طرْقاً شديداً وصائحٌ يصيح : البشارةَ البشارةَ ، ماتَ الواثقُ ، فاخرجوا أينَ شئتُمْ ، فضحكَ أحْمَدُ بنُ إسرائيل وقال : قوموا فقدْ تحقّقتِ الرؤيا وجاءَ الفرجُ فقالَ سُليْمانُ بنُ وهْبٍ : كيفَ نقدرُ أن نمشي مشاةً ومنازلُنا بعيدةٌ ، ولكن نبعثُ فنُحْضِرُ دوابَّ نركبُها ، فاغتاظ أحْمدُ بنُ إسرائيلَ وقويتِ السوداءُ عليهِ ، وكانَ شكِسَ الأخلاقِ وقالَ لهُ : ويْحكَ ياسليمانُ ! تنتظرُ مجيءَ فرسِكَ حتّى يتولّى خليفةٌ آخرُ فيقالُ لهُ : في الحبسِ جماعةٌ من الكتّابِ ، فيقول : يتركونَ على حالِهم حتى ننظر في أمورهمْ ، فنلْبثُ في الحُبوس زيادةً على هذا ، ويكونُ سببُ ذلكَ توجُّهكَ راكباً إلى منْزلك ياقاعلُ ياصانع ! فضحكْنا وخرجنا مُشاةً في الليلِ ، واجمعَ رأيُنا على أنْ نستتر عنْد بعْض أصْحابنا حتّى تتحقّقَ الأخبارُ فواللهِ لقدْ رأيْنا في طريقِنا رجُليْن يقولُ أحدُهما للآخر : إنّ هذا الخليفةَ الجديدَ قد عَرَفَ أحوالَ المحبّسين مِنَ الكتّابِ وأصحاب الجرائم فقالَ : لا يُفْرَجُ عن أحدٍ حتّى أنظرَ في حالِهِ ، فتخفّينا إلى أن أمّننا اللهُ تعالى في أسْرَعِ وقتٍ ولَهُ الحمدُ ، ومِنْ شِعْرِهِ :

نـوائِبُ الـدَّهـرِ أدَّبَتْني وإنَّـمـا يُـوعَـظُ الأديـبُ
قـدْ ذُقْتُ حُلْواً وذُقْتُ مُرّاً كَذاكَ عَيْشُ الفتى ضُروبُ [1]
مـا مـرَّ بُؤسٌ ولا نَعيمٌ إلّا ولي مِـنْـهُـما نَصيبُ

(منسرح)

وكانتْ بنو وهْبٍ منْ رُؤساء النَّاس وحذَّاقِهمْ ، وفُضلائهمْ وكُرمائهمْ ، وكانتْ دَولَتُهم ناضرةً ، وأيَّامُهُم مشرقةً ، والأدبُ في أيَّامهِمْ قائم المواسم ، والكرمُ واضح المعالِم وخُلِعَ المهتدي ووزيرُهُ .

انقضتْ أيام المهتدي بالله ووُزرائه .

ثُمَّ ملَكَ بَعْدَهُ المُعْتَمِدُ على اللهِ

هُوَ أبو العبّاس أحْمَدُ بنُ المتوكِّل ، بُويِع سنةَ ستٍّ وخمسين ومائتين ، كانَ المُعْتَمِدُ مُسْتَضْعَفاً ، وكانَ أخوهُ المُوفَّقُ طلحةُ النّاصرُ هو الغالب على أمورِهِ ، وكانتْ دولةُ المُعْتَمد دولةً عجيبةَ الوضْعِ : كان هُو وأخوهُ الموفَّق طلْحةُ كالشريكينِ في الخِلافة للمُعتَمد الخُطْبةُ والسكَّةُ [2] والتسمّي بإمْرَة المؤمنين ، ولأخيه طلْحةَ الأمرُ والنهيُ ، وقَوْدُ العساكرِ ومُحاربَةُ الأعداءِ ، ومُرابطةُ الثُّغور ، وترتيبُ الوُزراءِ والأمراءِ ، وكان المُعْتَمدُ مشغولا عن ذلك بلذّاته ، وفي تلك الأيّام كانتْ وقائعُ صاحبِ الزَّنْجِ .

شَرْحُ حالِ صاحِبِ الزنْجِ ونَسَبِهِ
ومآلُ أمرُهُ عليْهِ

ظهرَ في تلكَ الأيامِ رَجُلٌ يُقالُ لهُ : عليُّ بنُ محمّد بنِ عيسى بنِ زيدِ بنِ عليِّ بنِ الحُسيْنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ (عليهم السلام) . فأمّا نسبُهُ : فليسَ عند النّسابين بصحيحٍ ، وهم يعدّونَهُ منَ الأدْعياء . وأمّا حالُه : فإنَّهُ كان رجُلاً فاضلاً

---

[1] ضُروبٌ : أشكالٌ وأنواع .

[2] السّكَّة : ضرب العملة كالدرهم والدينار .

فصيحاً بليغاً لبيباً ، استمالَ قُلوبَ العَبيدِ من الزَّنجِ بالبَصْرةِ ونواحيها ، فـاْجتمَع إليـه مِنْهُم خَلْقٌ كثيرون وناسٌ آخَرون مِنْ غيْرِهمْ ، وعظُمَ شأْنُهُ وقويتْ شوْكتُه وكانَ فـي مَبدأ حالهِ فقيراً لا يملِكُ سوى ثلاثةِ أسْيافٍ ، حتّى إنّـهُ أُهدِي لَـهُ فَرسٌ فلـم يكنْ لـه لِجام ولاسَرْجٌ يركَبُه بهما فركبَهُ بحَبْلٍ . فـاتّفقتْ لَـهُ حُروبٌ وغزواتٌ نصـرَ فيهـا فَـأثْرى [1] بسَببِها وعَظُـمَ حالـهُ ونهبـه وانبثَ عسْكَرُ السّودانُ فـي البـلادِ العراقيـةِ والبَحْرَيْنِ وَهَجَر ، ونَهَدَ [2] إليه الموفّقُ طَلْحةُ بعسـاكِرَ كثيفـةٍ ، فالْتقيـا بيـنَ البصْـرةِ وَواسطٍ ودامَتْ الحربُ بيْنهما سِنين كثيـرةً وبنوا مدائِنَ هُناكَ وأقام كُلٌّ مِنَ الفريقيـنِ يُرابطُ لِلْفريقِ الآخَرِ ، وفي آخِرِ الأمْرِ كانتْ الغلبةُ للجيشِ العبّاسـي ، فأبـادوهُم قتْـلاً وأسْراً ؛ وقُتِلَ صاحبُ الزَّنجِ وانتهبتْ مَدينتُه ، وكانَ قَدْ بناها وسمّاها ((المختـارة))

وحُمِلَ رأسُه إلى بَغْدادَ ، وكانَ يوماً مَشْهوداً .

وقيل : إنْ عددَ القتلى في تلكَ الوقائعِ كان ألفَي ألفٍ وخمسـمائة ألـفِ إنسـانٍ وماتَ المُعتَمِدُ سنةَ تِسْعٍ وسبعينَ وَمائتَين .

شَرْحُ حالِ الوَزارةِ في أيّامِهِ

قَدْ تقدّم أنْ أخاهُ الموفّقَ كـانَ هُـو المُسْتولي علـى الخِلافـة ، فكـان يَعـزِلُ الوزراءَ وَيُوَلّيهِمْ .

وَزارةُ أبي الحَسَنِ عُبَيْد اللهِ بنِ يحيى بنِ خاقانَ لِلْمُعْتَمِد

لما ولي الخلافةَ المُعتَمِـدُ اتّفقت الآراءُ علـى عُبَيْداللـه بـنِ خاقـانَ ، فـأُحْضِر واستُوزِرَ علـى كُرهٍ شديدٍ منْـهُ ، وتَقَصٍّ وتنصُّـل ، وكـانَ عُبَيْدُ اللـهِ خبيراً بـأحْوالِ الرّعايا ، والأعمالِ ضابطاً لِلأمْوالِ ، وقَدْ تقدَّم ذكْرُه في خِلافةِ المتوكّل .

---

[1] أثرى : آل إلى الثراء والغنى . اغتنى .

[2] نَهَدَ إليهِ : برزَ وتصدّى .

وَزارةُ الحَسَنِ بن مَخْلَد لِلْمُعْتَمِد

وَزَرَ لَهُ لمَّا ماتَ عُبيدُالله بنُ يحيى ، استَوْزَرَ المُعتَمدُ الحسن بن مخْلد [1] ، وكانَ كاتباً لأخيهِ المُوفَّقِ ، فاجتَمعَتْ لـه وزارةُ المُعتَمِد ، وكِتابةُ الموفَق ، كانَ الحَسَنُ بنُ مَخْلدٍ منْ دير قُنّي ، ويُقالُ : إنَ أباه كانَ معبرانياً ، فخرج منَ ابنهِ ما خرَجَ ، وكانَ الحَسَنُ أحدَ كتّابِ الدُنيا ، قالوا : كانَ لهُ دفْترٌ صغيرٌ يعمله بيده ، فيهِ أصولُ أموالِ المَمالك ومَحْمولاتِها بتواريخها ، فلا يَنامُ كُلَّ ليلةٍ حتّى يقرأهُ ، ويتحقَّقَ ما فيهِ ، بحيثُ لو سُئِلَ الغدَ عنْ شيءِ كانَ منْهُ ، أجابَ منْ خاطرهِ بغيرِ توقفٍ ولا مُراجَعةِ دستورٍ ، قالَ الحَسَنُ بنُ مَخْلد : كُنْتُ مرةً واقفاً بينَ يدي الموفَقِ بنِ المتوكّلِ فرأيتُه يلمسُ ثَوْبَهُ بيدهِ ، وقال لي : يا حسَنُ ، قد أعْجبَني هذا الثوبُ ، كم عندنا في الخزائنِ منهُ . فأخرجتُ في الحالِ من خُفّي دُستوراً فيه جُمَلُ ما في الخزائنِ منَ الأمتِعةِ والثيابِ مُفصّلَةً ، فوجدْتُ فيها منْ جنْس ذلك الثوبِ ستّةَ آلافِ ثوبٍ ، فقال لي : ياحَسَنُ ، نحن عُراةٌ ، اكتبْ إلى البلادِ في استعمالِ ثلاثينَ ألفَ ثوبٍ منْ جِنْسِهِ وحَملها في أسرعِ مدّة .

ثُمَّ عَزَلَهُ المُعتَمِد واستوزرَ سليمانَ بْن وهْبٍ ، وقد سبقَ وصفُ طرفٍ منْ حالِهِ وشرَعَتْ منْ تلك الأيام دولةُ بني وَهْب تتبعُ .

وَزارةُ أبي الصَّقْرِ إسماعيلَ بنِ بُلْبُل

استَوْزَرَهُ الموفّقُ لِأخيه المُعتَمد . وكان أبو الصقر كريماً مطْعاماً مُتجمّلاً ، بَلَغَ مِنَ الوزارةِ مَبلغاً عظيماً ، وَجُمِعَ لهُ السيفُ والقَلَمُ ، فَنَظرَ في أمرِ العساكرِ أيْضاً وسُمّي الوزيرَ الشَّكورَ ، كانَ في صباهُ على طريقةٍ غيرِ مُرضيةٍ ، فبلغَ ما بلغَ ، ومَدَحَهُ الشّعراءُ كالبحتريّ ، وابن الروميّ ، وغيرهما ، وهجوْهُ ، وكانَ أبو الصقْرِ يَنْتَسِبُ إلى بني شَيْبانَ ورأيتُ نسَبَهُ مرفوعاً إلى شَيْبانَ بخطّ بعضِ النسّابِ ، وقوم

---

[1] الحَسَن بن مَخْلَد : جاء في الأعلام للزركلي ما خلاصته أنه وزيرٌ من الكتّاب ، له علمٌ بالأدب استوزره المعتمد سنة /٢٦٣/ هـ ثم عزلَهُ وأعاده وعزله سنة /٢٦٥/ هـ . طلبه أحمد بن طولون إلى مصر فحمل إليه فحبسه بأنطاكية فمات فيها /٢٦٩/ هـ .

غمزوهُ وقالوا : هُو دعيٌ وكانَ ابنُ الروميّ قد مدحَهُ بقصيدة نونيّة طويلة أوّلُها :

أجْنَت لكَ الوَصْلَ أغْصانٌ وكُثْبانُ فيهِنّ نوعانِ : تُفّاحٌ ورُمّانُ
غُصـونُ بـانٍ عليها الدّهرَ فاكِهَةٌ وما الفَواكِهُ ممّا يَحمِلُ البانُ

(بسيط)

فسمّى النّاسُ هذه القصيدة : دار البطّيـخ لكَثْرة ما فيهَا منْ ذكْر الفواكـه .

وكانَ المَوْضعُ الذي تُباعُ فيه الفواكه يُسمّى : دار البطّيخ ، ومنْ جُمْلَة هذه القصيدة :

قالوا : أبو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبانَ قُلْتُ لهمُ كلّا لَعَمْري ولكنْ مِنهُ شَيْبانُ
كَـمْ مِـنْ أبٍ قَـدْ عَـلا بـابنٍ لَهُ شَرَفاً كَما عَلا بِرسولِ اللهِ عَدْنانُ

فلمّا سمع أبو الصقّر قولهُ ، ((قالوا : أبـو الصقـر من شـيبان ، قلتُ لهم : كلّا)) ظَنّ أنّ ابنَ الروميّ قد هجاهُ بِها باطلا ، وأنّهُ عرّض بأنه دعيٌّ ، واشتَبه على أبي صقر الأمْـرُ فاستكتم ظنّـهُ وأعْرض عنـه ، وتوصّـل ابنُ الرومـي إلـى إفهامـه صورةَ الحال ، فلم يقْبَل في ذلك قولَ قائل . وقيل لـهُ : ياسُبْحان اللـه ـ! فـانظر إلـى البيتِ الثّاني وَحُسْنِ معناهُ ، فإنّهُ معنى مُختَرعٌ ، ما مُدح أحدٌ بمثْله قبْلك ، فلـم يُصـْغِ وَجَزَم بأنّ ابنَ الروميّ هَجاهُ وأفْحش في هجائه ، فممّا هَجاهُ به قولُهُ :

عَجِبَ النّاسُ مِن أبي الصَّقْرِ إذْ وُلّيَ بعد الإجـارَةِ الدِّيوانا
إنّ لِـلْحَـظّ كِـيمِيـاءَ إذا مـا مسّ كَلْباً أصـارَهُ إنْـسانا

(خفيف)

وقولُهُ :

مَـهْلاً أبـا الصَّقْرِ فَكَمْ طائرٍ خَرّ صَريعاً بَعْدَ تَحليقِ
زُوِّجْتَ نُعْمى لم تَكنْ كُفْأَها فَـصانَها اللهُ بِتَطْليقِ
لا قُـدِّسَتْ نُعْمى تَسَرْبَلْتَها كَمْ حُجّةٍ فيها لِزِنْديقِ

(سريع)

مـا بـالُ فَـرْخٍ أبوه بلبل رُبَعٌ [1] يُكْنـى أبـا الصَّـقْـرِ يا أهلَ الدواوينِ
عـرّوهُ مـن كُنْيَةٍ ليست تليقُ بهِ يدعى أبا الصَّقْرِ مَنْ كان ابنَ شاهينِ

(بسيط)

---

[1] الرُّبَع : الفرخ الصغير ، أو الصغير من كُلّ دابّة .

وقبَض عليه المُعتَمد وحبَسهُ وعاقبهُ ، ثمّ قتلَهُ في محبسه واصطفى أموالَهُ .

واعلمْ أنّ هؤلاءِ وزراءُ المعتمد كالحسـن بـنِ مَخلَد ، وسليمان بن وهْب ، وأبي الصقْرِ بن بلبل ، تولّوا الوزارةَ وعُزلوا مراراً مرتَين وثلاثةً .

وَزارةُ أحمدَ بنِ صالحِ بنِ شيرزادَ القُطْرُبُلي لِلْمُعتَمِد

استوْزَرهُ الموفّقُ لأخيه المعتمد ، وكانَ أحمدُ كاتباً بليغاً ، فاضلاً عارفاً بما يلزَمُ مثِلَهُ معْرفتَه ، مُجيداً في النّظمِ والنثرِ ، وصفَ أحْمدُ امرأةً كاتبةً ، فقـال : كأن خطّها حُسْنُ صُورتِها ، وكأنّ مدادَها سوادُ شعْرِها ، وكأن قرْطاسها أديمُ وجْهِها ، وكأنّ قلَمها بعضُ أناملها ، ومَكثَ أحمدُ بنُ شيرزادَ في وزارته نحواً منْ شـهْرٍ ، ثم مَرِضَ وماتَ وذلك في سنةِ ستٍّ وستّينَ ومائتين .

وَزارةُ عُبَيْدِاللهِ بنِ سُليمانَ بنِ وَهْبٍ لِلْمُعتَمِد

كان عُبيدُ الله بنُ سليمان منْ كبار الوزراء ومشايخ الكتّاب ، وكـان بارعاً في صِناعتِه ، حاذقاً ماهراً ، لبيباً جليلاً ، ماتتْ للمعتضد جاريـةٌ كـان يحبّهـا فجَزِع عليْهـا فقال لَهُ عُبيدُاللهِ بنُ سليمانَ : مثلُك يـاأمير المؤمنيـن تَهونُ المصـائبُ عليْـه ، لأنك تَجِدُ من كلِّ مفقودٍ عِوضاً ، ولا يجدُ أحدٌ منْكَ عوضـاً ، وكـأن الشّاعر عنـاك بقولِه :

يُبكى علَيْنا ولا نبكي على أحَدٍ　　　لَنَحْنُ أغْلَظُ أكباداً مِنَ الإبِلِ

(بسيط)

وفي عُبَيْدِ اللهِ بنِ سليمانَ يقولُ الشّاعرُ :

إذا أبو قاسمٍ جادَتْ يداهُ لَنـا　　　لَمْ يُحْمَدِ الأجْوَدانِ : البَحْرُ والمَطَرُ
وإنْ مَضى رأيُهُ أوحَدُّ عَزْمَتِـهِ　　　تأخّرَ الماضِيانِ : السّيفُ والقَدَرُ
وإنْ أضاءَتْ لنا أضواءُ غُرّتِهِ　　　تضاءَلَ النيّرانِ : الشّمسُ والقَمَرُ
مَنْ لم يَبِتْ حَذِراً مِنْ حد صَوْلَتِه[1]　　　لم يدرِ ما المُزْعِجانِ:الخَوفُ والحَذَرُ

---

[1] من صولته : سقطت من الطبعة عز كلمة (حدّ) . انظر الشطر في طبعة بيروت ص /٢٥٥/ وفي ألما ص /٣٠١/ وفي رحما ص /١٨٨/ .

يَنـالُ بالظَّنِّ ما يَعْيا العِيانُ لَـهُ   والشّاهـدانِ عَـليـه : العَيْنُ والأَثَرُ
(بسيط)

وماتَ عُبَيْدُاللهِ في سنة ثمانٍ وثمانين ومائتينِ .

انْقَضَتْ أيّامُ المُعتَمِدِ ووُزرائه .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ المُعْتَضِد ابنُ أخيهِ

هُوَ أبو العبّاس أحْمَدُ بنُ الموفّق طلْحة بن المتوكّل ، بُويع سنة تسع وسبعين ومائتينِ ، كانَ المعتضدُ شهماً عاقلاً فاضلا ، حُمدتْ سيرتُهُ ، ولي والدُّنيا خرابٌ والثغور مُهْمَلَةٌ ، فقامَ قياماً مُرضياً حتّى عمرتْ مملكتُه ، وكثُرتْ الأمْوال ، وَضُبِطَتِ الثُّغورُ ، وكانَ قويَّ السياسة شديدا على أهْل الفساد حاسما لمواد أطماع عَساكرِه عن أذى الرعيّة ، مُحْسِناً إلى بني عمّه مِنْ آل أبي طالب ، وكانتْ أيّامُهُ أيّام فُتوقٍ وخوارجَ كثيرين ، منْهُمْ عمرُو بن الليثِ الصفّار ، كان قدْ عظم شأنه وفَخُم ، واستولى على أكثر بلاد العَجم ، وكان يقولُ : لو شئْتُ أنْ أعقدَ على نهر بلْخٍ جسْراً منْ ذَهَبٍ لَفَعَلْتُ وكان مَطْبخُهُ يحملُ على ستّمائة جمل ، فآلتْ عاقبتُه إلى القيدِ والأسْرِ والذلِّ ، فقامَ المُعْتَضِدُ في إصْلاح المتشعّب من مملكته ، والعدْلِ في رعيّتِهِ ، حتّى ماتَ وفي الخزائنِ بضعةَ عشر ألف ألف دينار (الألْف مكرّرة مرتين) وماتَ سنة تسعٍ وثمانينَ ومائتينِ .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيامه

أقرَّ عُبَيْدَ الله بنَ سُلَيْمانَ على وزارته ، وقد مضى نبذةٌ منْ أخْباره ، فلمّا ماتَ عُبَيْدُ اللهِ عَزَمَ المُعْتَضِدُ على أنْ يسْتأصل شأفة أولاده ويسْتصفي أمْوالهُم ، فَحَضَرَ القاسم بنِ عُبَيْدِ اللهِ واستَعانَ بِبَدْرِ المُعْتَضديِّ ، وكتب خطّاً بألفي ألف دينار فاستَوْزَرَهُ المُعْتَضِد.

وَزارةُ القاسِمِ بنِ عُبَيْدِاللهِ بنِ سُلَيمانَ بنِ وَهْبٍ

كانَ القاسِمُ بنُ عُبيدِالله مِنْ دُهاةِ العالمِ ومِنْ أفـاضِلِ الـوُزراء ، وكـانَ شَـهْماً فاضِلاً لبيباً مُحَصِّلاً ، كريماً مهيباً جبّاراً ، وكان يُطْعَنُ في دينه ، وهو الذي قتَلَ ابنَ الروميِّ بالسمِّ ، وكانَ ابنُ الروميّ مُنقطعاً إليهم يمْدَحُهُمْ ، وكانوا يُقصّرون فـي حقّـهِ في بعضِ الأوقاتِ فَهجاهُمْ ، وكان هجّاءً ، وفي بني وَهْبٍ يقول ابنُ المعتزّ :

لِآلِ سُلَيمانَ بـنِ وَهْبٍ صَنائِعٌ ... لَـدَيَّ وَمَعْـروفٌ إلـيَّ تَـقَـدَّمـا

هُمُ ذَلّلوا لي الدَّهْرَ بَعْدَ شِماسِه ... وَهُمْ غسلوا مِنْ ثوبِ وَالدِيَ الدَّما

(طويل)

وماتَ المُعتَضِدُ وهو وزيرُهُ .

انْقَضَتْ أيّامُ المُعتَضِدِ ووُزرائِه .

ثُمَّ ملكَ بَعْدَهُ ابنُهُ المُكْتَفي باللهِ

هو أبو محمّدٍ عليُّ بنُ المُعتَضِد ، بُويعَ في سنةِ تسعٍ وثمانين ومائتين .

كانَ المُكْتَفي مِنْ أفـاضِلِ الخُلفـاء ، هُو الـذي بنـى المسْجدَ الجـامع بالرَّحْبَـةِ ببَغْداد وفي أيّامِ المُكْتفي ظَهرَ القَرامطةُ ، وهُمْ قومٌ من الخـوارجِ ، خرجـوا وقطعـوا الدَّرْبَ على الحاجِّ واستأصلوا شأفَتَهُمْ ، وقتلوا فيهم مَقْتَلةً عظيمــةً ، وسـرّح المكتفـي إليْهِمْ جُيوشاً كثيرةً فأوقعَ بِهِمْ ، وقَتَلَ بعضَ زُعمائهمْ .

والمُكْتفي هُو الذي بَنى التّاجَ بالدّارِ الشاطئيّة ببغْداد ، وكـانتْ وفـاةُ المُكْتفـي سنةَ خمسٍ وتِسْعينَ وَمائتَين .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامِهِ

لما ماتَ المُعْتَضِد كانَ المُكْتفي بالرقّة ، فقامَ الوزيرُ القاسمُ بنُ عُبَيْد الله بأخْذ البيْعةِ لِلْمُكْتفي القيام المَرْضي ، وكَتب إليه يُعلّمه ذلكَ ، ووجّه إليه بالبُرْدة والقضيب[1] فجاءَ المُكْتفي إلى بغْدادَ وأقرّه على الوزارة ولقّبه ألقاباً ، وجلّ أمرُ القاسمِ في أيّامِ المكتفي وَعظُمَ شأنُهُ ، فلمّا أدْركَتْهُ الوفاةُ أشار على المكتفي بالعبّاسِ بنِ الحَسَنِ فاستَوْزَرَهُ .

---

[1] البُرْدة والقضيب : زيّ الخلافة المتوارث من أوّل عهدها . ويقال إن البردة هي كساء أهداه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى كعب بن زهير حصل عليه الخلفاء وتوارثوه إلى آخر عهد الخلافة ، وآل أخيراً إلى متاحف استانبول . والقضيب : عصا ترمز إلى السلطة توارثها الخلفاء كشأن البردة .

وزارةُ العبّاس بن الحَسَن

قال الصُّوليّ [١] : منْ أعْجبِ ما شاهدتُ منْ تقلُّبِ الدّنيا وتصاريفِ الأمورِ أنّني رأيتُ العبّاسَ بنَ الحسن في أول الأربعاء قبل أن يموتَ الوزيرُ القاسمُ بنُ عبيدِ اللهِ وقدْ حضرَ إلى دارهِ وقبّل يدَ ولدهِ ، ثمّ في آخرِ اليومِ المذكورِ مات القاسمُ وخلعَ المكتفي على العباسِ بن الحسنِ واستوزرهُ ، فجاء ولد الوزير القاسم بن عبيد فقبّل يدهُ .

كانَ العباسُ بنُ الحسنِ ذا دهاء ومكر وأدبٍ وافرٍ . وكان ضعيفاً في الحسابِ ولم تكنْ سيرتُهُ محمودةً . وكانَ عاكفا على لذّاته والأمور مُهْمَلَةٌ ، وكانَ يقولُ لنوّابهِ بالأعمال : أنا أُوقّعُ إليْكُمْ وأنتم افعلوا ما فيه المصلحةُ . ولم تزلْ الأمورُ تَضْطربُ في أيّامهِ حتّى وثبَ عليهِ الحُسيْنُ بنُ حمْدان وجماعةٌ من الجُند فقتلوه ، وذلكَ في أيّامِ المُقْتَدِرِ . انقضتْ أيامُ المُكتفي ووزرائه .

ثمّ ملكَ بَعْدَهُ المُقْتَدِرُ باللهِ

هُوَ أبو الفَضْلِ جعْفَرُ بنُ المُعتَضِد ، بُويعَ لهُ بالخلافةِ في سنةَ خمسٍ وتسعين ومائتينِ وَعُمْرُهُ ثلاث عشرةَ سنةً .

وكانَ المقتدرُ سمْحاً كثيرَ الإنفاق ، ردّ رسومَ الخلافةِ من التجمُّل وسعةِ الإداراتِ والمَعاشِ ، وكثْرةِ الخُلَعِ والصِّلاتِ . كان في داره أحد عشر ألف خادمٍ منَ الرُّومِ والسُّودان ، وكانتْ خزانةُ الجوْهر في أيّامه مُتْرعةً بالجواهرِ النفيسةِ ، فمنْ جُمْلتها : الفصُّ الياقوتُ الذي اشتراهُ الرّشيدُ بثلاثمائة ألف دينارٍ ، والدرّةُ اليتيمةُ التي كانَ وزْنها ثلاثةَ مثاقيلَ ، إلى غيرِ ذلك منَ الجواهرِ النفيسةِ ، ففرّقهُ جميعَهُ وأتلفهُ في أيْسرِ مدّةٍ وفي أيّامهِ قُتِلَ الحلاجُ .

---

[١] الصُّولي : أبو بكر الصوليّ له كتاب ((الأوراق)) في أخبار آل عباس وأشعارهم ، وقد استعان بأقواله ابنُ طباطبا مراراً وسبقت ترجمته .

شَرْحُ الحالِ في ذلك

كانَ الحلاجُ - واسمُهُ الحُسَيْنُ بنُ منْصورٍ ، ويُكنى : أبا المغيثِ - أصلُهُ مجوسيٌّ من أهل فارس . ونشأ بواسطٍ [١] وقيلَ : بتُسْتَر [٢] ، وخالط الصوفيَّةَ وتَتَلْمَذَ لسهلٍ التُستريِّ ، ثمَّ قدمَ بغدادَ ولقي أبا القاسم الجُنَيْد [٣] وكانَ الحلاجُ يلبسُ الصوفَ والمُسوح [٤] تارةً ، والثِّياب المصبَغة تارةً ، والعمامة الكبيرة والدرّاعة تارةً والقباءَ وزيَّ الجُنْد تارةً . وطاف بالبلاد ثمَّ قدمَ في آخر الأمر بغْداد وبنى بها داراً واختلفتْ آراءُ الناسِ واعتقاداتُهم فيه ، وظهر منهُ تخْليطٌ ، وتنقّل منْ مذهبٍ إلى مذهبٍ ، واستغْوى العامّةَ بمخاريقَ [٥] كان يعتَملها ، منْها : أنه كان يحفر في بعضِ قوارعِ الطُّرقاتِ موْضعاً ويضعُ فيه زقّاً [٦] فيه ماءٌ ، ثمَّ يحفر في موضعٍ آخر ويَضَعُ فيه طعاماً ، ثم يمرُّ بذلكَ الموْضع ومعهُ أصْحابُه فيحتاجون هُناك إلى ماء يشْربونهُ ويتوضؤون به ، فيأتي هو إلى ذلك الموْضعِ الذي قدْ حفرهُ وينبُشُ فيه بعُكازٍ ، فيخرجُ الماءُ فيشربونَ ويتوضؤون ثم يفْعل كذلك في الموضع الآخر عنْد جُوعِهِمْ فيَخرجُ الطّعامُ منْ بطْنِ الأرْضِ ، يُوهمُهُمْ أنَّ ذلك منْ كراماتِ الأوْلياء . وكذلك كان يصنَعُ بالفواكهِ ، يدّخرها ويحفظُها ، ويُخرجُها في غير وقتها . فشُغفَ الناسُ به ، وتكلَّمَ بكلام الصوفيَّة ؛ وكانَ يخلطُهُ بما لايجوز ذكْرُهُ من الحلول [٧] المَحْضِ ، وله أشعارٌ ، فمنها :

---

[١] واسط : مدينة بين الكوفة والبصرة ، بناها الحجاج بن يوسف الثقفي وغدت من حواضر العراق .

[٢] تستَر : مدينة في خوزستان شمالي الأهواز . اسمُها بالإيرانية شوشتر .

[٣] أبو القاسم الجُنيد : هو الجُنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي ، صوفي عالم بالدين ، ضبط التصوف بالقرآن والسنّة ، له ((دواء الأرواح)) وجملة مواعظ . توفي / ٢٩٧ / هـ .

[٤] المُسوح : أخشن الملابس من ثياب الرهبان والزهّاد .

[٥] المخاريق : هنا ، خوارق الأفعال .

[٦] الزّق : وعاء من جلد للماء أو الخمرة .

[٧] الحلول : معتقد لبعض الصوفية يقول بحلول الخالق في ذات المخلوق أو بحلول الروح ذاتها في جسدٍ بعد جسد .

حبيبي غيرُ منســوبٍ	إلى شــيءٍ منَ الحَيْــفِ [1]
سَقاني مِثْلَما يَشْـرَ	بُ فِعْلَ الضَّيْفِ بالضَّيْفِ
فلمّــا دارتِ الكــاسُ	دَعا بالنِّطْعِ [2] والسَّيْفِ
كَذا مَنْ يَشْرَبُ الراحَ	مـعَ التنّينِ فـي الصَّيْـفِ

(هزج)

وكثُرَ شغفُ الناسِ بـه ومَيْلهم إليـه ، وكـانَ يقولُ لأصحابـه : أنْتُمْ مُوسى وعيسى ومحمد وآدم ، انتقلتْ أرواحهم إليكمْ . فلما نما هذا الفسادُ منـهُ تقدّم المُقْتَدِرُ إلى وزيرهِ حامد بنِ العبّاس بإحضاره ومُناظرته ، فأحضرَهُ الوزيرُ وجمع لهُ القُضـاةَ والأئمةَ ، ونُوظر فاعترفَ بأشياءَ أوْجبتْ قتْلَهُ ؛ فضُرِب ألفَ سوْط على أنْ يموتَ فما ماتَ ، فقُطعتْ يداهُ ورجلاه وحُزَّ رأسهُ وأحْرقتْ جثّتهُ ، وقال لأصحابه عنْدَ قتْله لا يهولنكمْ هذا فإني أعودُ إليكم بعدَ شهرٍ ، قالوا : وأنْشد قبْلَ قتْله :

طَلَبْتُ المُسْتَقرَّ بكُلِّ أرْضٍ	فَلَمْ أرَ لي بأرضٍ مُسْتَقَرّاً
أطَعْتُ مَطامِعي فاسْتَعْبدتني	ولـو أني قَنِعْتُ لكنتُ حـرّاً

(وافر)

وذلك في سـنة تسعٍ وثلاثمائـة ، وقبْرُهُ ببغداد بالجـانب الغربيّ قريـبٌ مـن مشْهدِ معروفٍ الكرْخيّ [3] (رضي الله عنه) .

وفي تلك الأيّام اقْتَلَعَ القرامطةُ الحجر الأسْوَد ، ومكثَ فـي أيديهـم أكْثر مـنْ عشرين سنةً ، حتّى رُدَّ على يدِ الشّريفِ يحيى بـنِ الحُسَيْن بـن أحْمد بـن عمر بـنِ يحْيى بنِ الحسين بنِ زيد بن عليّ بـن الحُسـيْن بـن علـيّ بـن أبـي طـالب (عليهم السلام) .

---

[1] الحَيْف : الظلم والجور .

[2] النّطع : بساط من جلد تلفُّ به جثة المقتول بالسّيف .

[3] معروف الكرخيّ : هو معروف بن فيروز الكرخي ولد ونشأ فـي الكرخ من بغداد ، اشتهـر بالصـلاح وقصده الناس للتّبرك به وفي جملتهم أحمد بن حنبل . توفي سنة / ٢٠٠ / هـ

واعلمْ أنّ دولةَ المُقْتَدر كانتْ دولةَ ذات تَخْليطٍ كثيرٍ ، لصغر سنّه ولاستيلاء أُمّه ونسائهِ وخَدَمه عليهِ . فكانتْ دولتهُ تدورُ أمورُها على تدبير النساء والخدم وهو مشغولٌ بلذّته ، فخَرِبتْ الدُّنيا في أيّامه . وخلتْ بيوتُ الأموال . واختلفتْ الكلمةُ . فَخُلِعَ ثمّ أُعيدَ . ثم قُتِلَ . وفي تلك الأيّام نبعت الدّولةُ الفاطميّةُ بالمغرب .

شرحُ حالِ الدَّولةِ العَلَويّة وابتدائِها وانتهائِها على سبيلِ الاختصار

هذه دولةٌ اتّسعتْ أكنافُ مملكتها وطالتْ مُدّتها ، فكان ابتداؤها حين ظهر المَهْديُّ بالمغربِ في سنةِ ستٍّ وتسعين ومائتين . وانتهاؤها في سنةِ سبعٍ وستّين وخَمْسمائةٍ وكادتْ هذه الدولةُ أنْ تملك مُلْكا عامًا ، وأن تدين الأُممُ لها . وإليها أشار الرَّضيُّ الموسَوي [١] - قدّس اللهُ روحه - بقوله :

ما مُقامي على الهَوانِ وعِنْدي   مِقْوَلٌ قاطِعٌ وأَنْفٌ حَمِيُّ
وإباءٌ محلِّقٌ بي عَنِ الضَّيْمِ   كما زاغَ طائِرٌ وَحْشِيُّ
أحْمِلُ الضَّيْمَ في بلادِ الأعادي   وبمصرَ الخليفةُ العَلَوِيُّ
مَنْ أبوهُ أبي ، ومَولاهُ مَولا   يَ إذا ضامَني البَعيدُ القَصِيُّ
لفَّ عِرْقي بِعِرقِهِ سيّدا النا   سِ جَميعاً : مُحَمّدٌ وعَليُّ
إنّ ذُلّي بذلكَ الجَوِّ عِزٌّ   وأوامي [٢] بِذلكَ الرَّبْعِ رِيُّ

(خفيف)

---

[١] الرضي الموسوي : هو الشاعر المعروف بالشريف الرضيّ . أبو الحسن محمّد بن الحسن ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب . شعره كثير وجيّد . وينسب إليه جمع كلام علي بن أبي طالب في كتاب عنوانه ((نهج البلاغة)) . تولى نقابة الطالبيين عن أبيه وكانت وفاته / ٤٠٦ / هـ .

[٢] الأوام : شدّة الظمأ .

شَرْحُ ابتداءِ هذه الدَّوْلَةِ

أوَّلُ خُلفائِهِمْ المهديُّ باللهِ ، وهو أبو محمّدٍ عُبيدُاللـه بـنُ أحمـد بـن إسـماعيلِ الثالثِ ابن أحمد بنِ إسماعيلَ الثّـاني ، بـن محمّـد بـنِ إسـماعيلَ الأعْـرج بـنِ جعْفـر الصّادِقِ (عليهم السلام) ، وقـد رُوِيَ نسبُهم علـى صـورةٍ أُخْـرى ، وفيـه اختـلافٌ كثيرٌ ، والصحيحُ أنهم علويّون إسماعيليّون صحيحو الاتصال ، وهذه الصـورةُ التـي أوردتُها هاهنا هي المعوّل عليها وبها خطوطُ مشايخِ النسّابين .

وكان المهديُّ مِنْ رجال بني هاشمٍ في عصْرِهِ ، قيل : إنّـه وُلـد ببغـداد سـنةَ ستّين ومـائتين ، وقيـلَ : وُلِـد بسَـلَمْيَةَ [1] ، ثـمّ وصـل إلـى مصْـر فـي زيّ التجّـار ، وأظهر أمْرَهُ بالمَغْرب ودَعا النّـاسَ إلـى نفسـه ، فمـالوا إليـه وتبعـهُ خلْـقٌ كثـيرون ، وسلّموا عليهِ بالخلافة وقويَتْ شوْكَتُه وعظُم حاله ، ثم انفصل إلى أرض القيْروان [2] وبنى مدينةً سمّاها المهديّة واستقرّ بها ، وملَكَ إفريقيّة وبلادَ المغرب وتلك النواحـي جميعَها ، ثمّ ملكَ الإسكندرية وجبى خراجَها وخـراجَ بعـضِ الصّعيـد ، وتوفّـي سـنةَ اثنتين وعشرين وثلاثمائةٍ ، ثم تسلّم الخلافة منه واحدٌ بعدَ واحدٍ ، حتّى انتهتْ النّوبـةُ إلى العاضِدِ آخرِ خلفائِهم ، وهو أبو مُحمّدٍ عبدُالله بنُ الأميرِ يُوسُف بن الحافظ لديـنِ الله .

شرح انتهائها

بُويعَ العاضد في سنةِ خمسٍ وخمسين وخمْسمائةٍ وهـو طفْـلٌ ، فقـامَ بـأمرِ دولته الأمراءُ والوزراءُ ، حتّى توجّه أسدُ الدين شيركُوهُ عَمُّ صلاحِ الدينِ يوسُفَ بـنُ أيوب إلى مصر لِما ظهرَ مِن اختلال أحوال الدولة لِصغـرِ الخليفـة ، واختـلاف آراءِ وزرائِهِ وأمرائه وسارَ صلاحُ الدينِ مع عمّه أسد الدينِ شيركوه كارها ، فلم تَطُلْ مُدّةَ أسدِ الدين شيركوه فماتَ [3] ، فاستولى صلاحُ الدينِ على المملكة ، واستوْزرَهُ

---

[1] السَّلَميّة : بلدة قرب حماة في سوريّة . إليها ينتسبُ عُبيد الله مؤسس السلالة الفاطمية .

[2] القيروان : مدينة في تونس أنشأها الفاتح الإسلامي عُقبة بن نافع سنة / ٥٠ / هـ .

[3] كانت وفاة شيركوهُ عام / ٥٦٤ / هـ .

العاضِدُ وخلعَ عليهِ خلعَ الوزارة في سنةِ أربعٍ وستين وخمسمائة وتمكن صلاح الدين من الدولـة وقـدمِ عليـه أهلـه ، فأقطعهم الإقطاعات السنية ، وأزال أيدي أصحاب العاضدِ وتفرّدَ بالحكم . ومرض العاضدُ وتطاولتْ أمراضهُ ، ثم ماتَ فـي سنةَ سبعٍ وستين وخمسمائة ﴿وأحْجَم الناسُ [١] فيمن يدعى له بالخلافة على المنابرِ ، فلما كانَ يَوْمُ الجمعة صَعِدَ رجلٌ أعجميٌّ إلى المنبرِ وخطب وذكرَ الخليفةَ المستضيءَ [٢] فلم يُنْكِر أحدٌ عليهِ واستَمرّ الحالُ في مصْر بالخطبة للعباسيّين ، وانقرضتْ دولـةُ الفاطميّين منها ، واستقل صلاحُ الدين يُوسُفُ بنُ أيّوب بملك مصرَ منْ غَيْر مُنازعٍ ، وَحَبَسَ مَنْ كانَ تَخلّفَ من أقاربِ العاضد ، وقبضَ علـى الخزائن والأموال ، ومنْ جُملتِها الجبل الياقوت ، وزنه ستّةَ عشَرَ مثقالا . قالَ ابنُ الأثير المُؤرّخ : أنا رأيتـه وَوَزَنْتُه ومن جملتها نصاب زمرد طوله أربعُ أصابع ، في عرض عقد ، ووجدوا طبلاً بالقرب منْ موضعِ العاضِد ، فظنّـوه عُملَ للعب ، فسخروا من العاضد ، فألقاه أحدُهم من يدِه فكسره وإذا الطبل قد عمل لأجل القُولَنْج [٣] فندموا على كسْرِهِ وكانَ ذلك في أيام الخليفةِ المُستضيء منْ بني العبّاس فوردتْ البشائرُ إليه بفتحِ مِصْرَ وبإقامةِ الخُطْبَةِ لَهُ بها ، فأظهرَ السُرورَ ببغدادَ وهنّأه الشُعراءُ وأرسل المُستضيء تقليدَ السّلطَنةِ إلى صلاحِ الدّين بالتّفويْضِ والتّحكيم . فسُبحانَ مَنْ يُؤتي المُلْكَ مَنْ يَشاءُ وَيَنْزِعُ المُلْكَ ممّن يشاءُ ! .

رَجَعْنا إلى تتمةِ خِلافةِ المُقتدِر

وَخُلِعَ المقتدرُ ؛ وبُويعَ عبدُ الله بنُ المعتزّ فَكَثَ يوْما واحداً في الخلافة ، ثم استَظْهرَ المقتدرُ عليهِ فأخذهُ وقتلهُ ولم يعدّ عبدُ اللهِ بنُ المعتزّ في الخلفاء لقِصَر الزمان الذي تولّى فيهِ ، وَجَرَتْ بينَ المُقتدِرِ وبيْنَ مُؤنِس المظفّر أمير الجُيوش منافرةٌ أدّتْ إلى حرْبٍ قُتِلَ فيها المقتدر وقُطِعَ رأسُهُ ، وحُمِلَ إلى ما بين يدي مُؤنِس المظفّر ومكثت جُثّته مرميّةً على قارعة الطّريق ، وذلك في سنة عشرينَ وثلاثمائة .

---

[١] أحجمَ الناسُ : تردّدوا وامتنعوا .

[٢] المستضيء : الخليفة العباسي ، امتدتْ خلافته من / ٥٥٥ / هـ إلى / ٥٥٦ / .

[٣] القُولنج : مرض المفاصل كما عرف في ذلك الزمان .

شرح حال الوزارة في أيامه

لما جلسَ المقتدرُ على سريرِ الخلافة أقرُّ العباس بن الحسنِ وزير أخيه المكتفي على وزارته ، فلمّا قُتلَ العبّاسُ بنُ الحسيْن وجرت الفتْنةُ بيـن المُقتـدر وبين عبد اللهِ بنِ المعتزّ واستظهرَ المُقتدرُ ، أحْضر ابنَ الفُراتِ واستوْزرهُ .

وزارةُ ابنِ الفُراتِ

قالَ الصوليّ [1] : هُمْ من ((صريفين)) منْ أعمالِ دُجيْل [2] ، قـالَ : وبنو الفُراتِ منْ أجلِّ الناسِ فضْلاً وكرماً ، ونُبْلاً ووفاءٍ ومُروءة . وكان هذا أبو الحسنِ عليُّ بنُ الفُراتِ من أجلِّ الناس وأعْظمهمْ كرماً وجُودا . وكانتْ أيّامهُ مواسم للناسِ وكانَ المُقتدرُ لمّا جرَت لهُ الفِتنةُ وخُلع ، وبُويع ابنُ المعتزّ ثمّ استظْهر المُقتـدرُ عليهِ واستقرّت الخلافـةُ للْمُقتَدرِ ، وأرْسَل إلى أبـي الحسـن علـيّ بـن الفُـرات فـأحضرهُ واستوْزرهُ وخلع عله . فنهضَ بتسكينِ الفتنةِ أحْسن نهْضٍ ودبّر الدوْلةَ في يومٍ واحدٍ وقرّر القواعد ، واستمالَ الناسَ ، ولم يبتْ تلك الليلةَ إلا والأمورُ مسـتقيمةٌ للمقتـدر ، وأحوالُ دولته قدْ تمهّدتْ وفي ذلك يقولُ بعضُ شُعراء الدّولة المقتدريّة :

ودبّرتَ في ساعةٍ دَوْلةً ... تميلُ بغَيْرِكَ في أشْهُرِ

(متقارب)

وتولى ابنُ الفراتِ الوزارةَ ثلاثَ دفْعات للْمُقتدر ، قالوا : كـانَ إذا ولـي ابنُ الفُراتِ الوزارةَ يَغْلو الشّمْعُ والثّلْجُ والكـاغد ، لكثْرةِ استعماله لذلـك ، لأنّـه مـا كـانَ يشْربُ أحد كائناً من كان في داره في الفصول الثلاثـة إلا المـاء المثلـوج ، ولا كـانَ أحدٌ يخرجُ من عنْدِهِ بعدَ المغْربِ إلا وبين يديه شمْعةٌ كبيرةٌ نقيّـةٌ . صغيراً كـانَ أو كبيراً . وكانَ في داره حُجْرةٌ معروفةٌ بحُجْـرة الكـاغِد ، كلّ من دخـلَ واحتـاجَ إلـى شيءٍ من الكاغِدِ أخذَ حاجتَه منْها .

---

[1] الصّولـيّ : مـؤرخ صـاحب كتـاب ((الأوراق)) فـي أخبـار آل عبـاس وأشـعارهم . وسـبقت الترجمة له .

[2] دُجيل : منطقة في الأهواز باسمها نهر دُجيْل .

حُدِّث عنهُ أنّه قالَ : ما رأيتُ أحدا من أربابِ الحوائج إلا كان اهتمامي بالإحسانِ إليهِ أشدَّ من اهتمامه قالَ : وكان قبلَ الوزارة يجعل لجلسائه وندمائه مخادَّ [1] يتكئونَ عليها ، فلما ولي الوزارة لم يحضر الفراشون للندماء والجُلساء تلكَ المخادَ ، فأنكرَ ذلك عليهم وأمرَ بإحضار المخادِّ ، وقالَ : لا يراني اللهُ يرتفعُ شأني بحطِّ منزلةِ أصحابي . ولمّا جرتْ فتنةُ ابن المعتزّ واستظهر المقتدرُ واستوزر أبا الحسنِ بنَ الفرات أُحضِرتْ إلى ابنِ الفرات [2] رقاعٌ منْ جماعة أربابِ الدولة تنطقُ بميلهمْ إلى ابنِ المعتزّ وانحِرافِهِمْ عن المقتدر ، فأشار عليه بعضُ الحاضرين بأن يفتحها ويطالعها ، ليُعرفَ بها العدوُّ من الصديق ، فأمر ابنُ الفرات بإحضار الكانونِ وفيه نارٌ ، فلما أُحضرَ جعل تلك الرقاع فيه بمحْضر من النّاس ، ولم يقفْ على شيءٍ منها ، وقالَ للحاضرين : هذهِ رقاعُ أربابِ الدولة ، فلوْ وقفنا عليها تغيرتْ نياتنا لَهُمْ ونياتهم لنا فإن عاقبناهم أهلكنا رجال الدولة ، وكانَ في ذلك أتمُّ الوهْنِ على المملكةِ ، وإن تركناهُمْ كنا قدْ تركناهم ونياتهم متغيِّرةٌ ، وكذلك نياتنا فلا ننتفع . وما زالَ ابنُ الفراتِ ينتقلُ في الوزارةِ إلى المرّة الثالثة فقُبِضَ عليه وقُتل وذلك في سنةِ اثنتي عَشْرَةَ وثلاثمائة .

وَزارةُ الخاقانيِّ

هُوَ أبو عليٍّ مُحمّدُ بنُ عُبيدِ الله بن يحيى خاقانَ لمّا قبضَ المُقتدرُ على ابنِ الفُراتِ في المرّةِ الأولى أحضرهُ – وكان خائفاً من ابن الفُرات – فطيّبَ قلبَهُ واستوزرهُ وخلعَ عليهِ خِلَعَ الوَزارةِ .

كانَ الخاقانيُّ سيّءَ السيرةِ والتّدبير ، كثيرِ التّوليةِ والعزلِ . قيلَ : إنّهُ ولّى في يومٍ واحدٍ تِسْعةَ عشَرَ ناظِراً لِلكوفةِ ، وأخَذَ منْ كلِّ واحدٍ رِشْوةً فانحدر واحدٌ واحدٌ حتّى اجتمعوا جميعهم في بعضِ الطريق ، فقالوا كيف نصنعُ ؟ فقالَ أحدُهم : إنْ أرَدْتُمْ النَّصَفَةَ [3] فينبغي أنْ ينْحدِرَ إلى الكوفةِ آخرُنا عهْدا بالوزيرِ فهوَ الذي

---

[1] مخادّ : جمع مِخَدّة ، وهي الحشيّة المعروفة للاتّكاء .

[2] رقاع : جمع رُقعة ، وهي الورقة المكتوبة أو شبهها .

[3] النَّصفة : للعدل والإنصاف .

ولايتهُ صحيحـــةٌ لأنهُ لم يأتِ بَعْدَهُ أحدٌ . فاتّفقوا على ذلك ، فتوجهَ الرّجلُ الذي جاءَ في الآخرِ نحوَ الكوفةِ ، وعادَ الباقون إلى الوزير ففرّقهُمْ في عدّة أعمال . وهجاهُ الشعراءُ فمما قِيلَ فيه :

لِلدواوينِ مُذْ وَليتَ عَويـــلُ ... ولِمالِ الخَراجِ سُقْمٌ طَويـــلُ
يتلقـى الخطـوبَ حينَ أَلَمّتْ ... مِنْكَ رأيٌ غثٌ وَعَقْلٌ ضَئيلُ
إنْ سَمِنْتُمْ منَ الخيانةِ والجَوْ ... رِ فللإرْتفـــاعِ جِسْمٌ نَحيـــلُ

(خفيف)

ومما قيلَ فيه :

وزيرٌ لا يملُّ منَ الرَّقاعَـةْ ... يُولّي ثُمَّ يَعْزِلُ بَعْدَ ساعَــةْ
وَيُدني مَنْ تَعَجّلَ مِنْهُ مالٌ ... ويُبْعِدُ مَنْ تَوَسّلَ بِالشّفاعَةْ

(وافر)

وقبضَ المقتدرُ عليهِ وحبسهُ ، واستوزرَ عليَّ بنَ عيسى بنِ الجرّاحِ .

وزارةُ عليِّ بنِ عيسى لِلْمُقْتَدرِ

كانَ عليُّ بنُ عيسى شيخاً منْ شيوخِ الكُتّابِ ، فاضلاً ديِّناً ، ورعاً مُتزهِّداً مُتورِّعاً قالَ الصُّوليُّ : ولا أعلمُ أنّهُ وزرَ لبني العبّاسِ وزيرٌ يُشْبهُ عليَّ بن عيسى ، في زُهْدِهِ وعِفّتِهِ وحفظهِ للقرآنِ وعِلْمه بمعانيه ، وكتابتِه وحسابه ، وصدقاتِهِ ومبرّاتِهِ قالوا كان دخلُ عليِّ بن عيسى من ضياعِه في كلِّ سنةٍ نيفاً وثمانين ألف دينار ، ينفقُ نصفَها على الفُقراءِ والضعفاءِ . ونصفَها على نفسه وعلى عيالِه وأصْحابِهِ ونهضَ بأمورِ الوزارةِ وضبطَ الدواوينَ والأعْمالَ ، وقرّرَ القواعد ، وكانتْ أيامُه أحْسنَ أيامِ وزير . قالوا : ما كان يعاب على ابن عيسى بشيء أكثر من قولهم : إنّه كان ينظرُ كثيراً في جُزْئياتِ الأُمورِ ، فربّما شغلتهُ عن الكُلّيّاتِ . ولمّا ولي الوزارةَ فشَتْ صَدَقاتهُ ومبرّاتهُ ، ووقفَ وقوفاً كثيرةً منْ ضياعِ السُلْطانِ وأفْردَ لها ديواناً سمّاهُ ديوانَ البرِّ [1] ، جعَلَ حاصلَه لإصْلاحِ الثُّغورِ [2] ولِلْحرمينِ الشّريفينِ : وكانَ

---

[1] البرّ : الصدقة أو الإحسان والعوْن .

[2] الثّغور : جمع ثغر ، وهو موطن المواجهة مع العدوّ على حدود الدولة .

يجلسُ لردِّ المظالم منَ الفجرِ إلى العصرِ واقتصر على أقلِّ الطّعام وأخشن الملبوسِ وولي الوزارة للمُقتدرِ مراراً ، كانَ هو وأبو الحسنِ عليُّ بنُ الفُرات يتناوبان الوزارة مرّةً هذا ومرّةً ذاك .

وزارةُ حامد بن العبّاس

كانَ حامدٌ يتولّى دائما أعمالَ السّواد ، ولم يكنْ لهُ خبرةٌ بأعمالِ الحضرةِ . وكانَ كريماً مفضالاً ، جميلَ الحاشية رئيساً في نفسهِ ، غزير المُروءة ، قاسي القلبِ في استخراجِ المالِ . قليلَ التّثبتِ ، سريع الطّيْش والحدّةِ ، إلا أنَّ كرمهُ كان يغطّي على ذلك .

حُدِّث عنْهُ أنّهُ دخلَ مرّةً إلى دارِ المقتدر . فطلبَ منهُ بعضُ خواصّ الخليفةِ شعيراً لدوابّه ، فأخذَ الدواةَ ووقّعَ لهُ بمائةَ كُرّ [1] فقالَ لهُ آخرُ منَ الخواصِّ : أنا أيضاً محتاجٌ إلى عليقٍ لدوابي ، فوقّع بمائة كُرّ ، وما زالَ يطْلبُ منهُ واحدٌ واحدٌ منْ خواصِّ الخليفةِ وهوَ يُوقّعُ ، حتّى فرّقَ ألفَ كُرٍّ في ساعةٍ واحدة . ولمّا عرفَ المقتدرُ قلّةَ فهْمِ حامدٍ وقلّةَ خبرتِهِ بأمورِ الوزارة ، أخْرجَ عليهِ عليَّ بنَ عيسى بنِ الجرّاحِ منَ الحبْسِ ، وضمّهُ إليهِ وجعلهُ كالنائب له ، فكان عليُّ بنُ عيسى لخبرتهِ هو الأصل ، فكُلُّ ما يعقِدُهُ ينْعقِدُ ، وكلُّ ما يحُلُّهُ ينْحَلُّ ، وكانَ اسمُ الوزارةِ لحامدٍ وحقيقتُها لعليِّ بنِ عيسى ، حتّى قالَ بعضُ الشّعراء :

قُلْ لابنِ عيسى قولةً	يَرْضى بها ابنُ مُجاهِدِ
أنْتَ الوزيرُ وإنّما	سَخِروا بلِحْيةِ حامِدِ
جَعَلُوهُ عِنْدكَ سِتْرَةً	لِصلاحِ أمْرٍ فاسِدِ
مَهْما شَكَكْتَ فَقُلْ لَهُ :	كَمْ واحداً في واحدٍ ؟

(كامل)

---

[1] الكُرّ : من المكاييل التي كانت معروفة ، يساوي أربعين إرْدبّاً ، والإرْدبُ أربعة وعشرون صاعاً ، والصّاع بمقدار كأسٍ كبيرةٍ .

وكانَ حامدٌ يلْبَسُ السّوادُ ويجلسُ في دستِ الوزارة [١] وعليُّ بنُ عيسى يَجلِسُ بينَ يديهِ كالنائبِ ، وليْسَ عليهِ سوادٌ ولا شيءٌ منْ زيِّ الوزارةِ ، إلا أنّهُ هُوَ الوزيرُ على الحقيقةِ فقالَ بعضُ الشُّعراء :

أعْجَبُ منْ كُلّ ما رأينا　　　أنّ وزيرينِ في بلادِ
هذا سَوادٌ [٢] بلا وزيرٍ　　　وذا وزيرٌ بلا سَوادِ

(منسرح)

ثم عُزِل حامدٌ ، واستوزرَ المقتدرُ بعده عليَّ بن الفرات ، وسلمه إليه فقتله سُراً .

وزارةُ أبي القاسم عُبيدِ اللهِ بنِ مُحمّدِ بنِ عُبيدِ اللهِ ابنِ يحيى بنِ خاقانَ

لَمْ تَطُلْ أيّامهُ ، ولم تكُنْ له سيرةٌ تؤثَر وتُسطرْ ، واختلّت الأمور عليهِ فصُودِرَ وعُزِلَ . ثم توفيَ في سنةِ اثْنتي عشرة وثلاثمائةِ .

وزارةُ أبي العبّاسِ أحْمَدَ بنِ عُبيدِ اللهِ بنِ أحْمَد ابنِ الخصيبِ للْمُقْتَدِرِ

كانَ صالِحَ الأدبِ جيّدَ العقْلِ مليحَ الخطِّ بليغاً ، يُذاكرُ بجميلِ الأخْبارِ والأشْعارِ كانَ السّببُ في ولايتهِ أمْراً عجيباً . وهو أنّ أبا العبّاسِ المذكورَ كانَ

---

[١] الدّست : صدر المجلس أو الديوان ، والكلمة فارسيّة .

[٢] السّواد : هو الزيّ الرسمي لذوي المناصب العباسيين .

يُلاطِفُ أصحابَ المُقْتَدِرِ ويَتَودَّدُ إليهم ويُهاديهمْ ، وكانَ يحبُّونَهُ ويتعصبّـونَ لـهُ دائِمـاً ويَصفونهُ عِنْدَ المُقْتَدِرِ فاتّفَقَ أنْ حَصَلَ فتْقٌ [1] من الفُتوقِ ببعضِ الجهـاتِ فجهَّزَ المقتدرُ جَيْشاً وأرسَلَهُ صحبةَ بَعْضِ أمرائِهِ إلى تلك الجهـةِ ، ثُمَّ كـانَ المُقْتَدِرُ شَـديدَ التطلّعِ إلى أخْبارِ هذا الجيشِ ، فأرْسَلَ ابنُ الخصيبِ طيوراً صحبةَ بعْضِ ثقاتـهِ مـع الجَيْشِ ، وقالَ لِصاحبِهِ : سرِّحْ كُلَّ يومٍ طيوراً وعليها الأخبار ساعةً فساعةً ، فكانتْ تَرِدُ الأخبـارُ علـى الطّيـورِ إلـى أحمدَ بـنِ عُبيـدِ اللـهِ بـنِ الخصيـب فيَعْرِضُها علـى المُقْتَدِرِساعةً بعد ساعة حتى إن المقتدر لم يفته من أمر الجيش شيء فتعجب المقتـدر منْ ذلك وقالَ : من أينَ يعلمُ أحمدُ بنُ الخصيبِ أخبارَ هذا الجيش ؟ فعرفَ الصُّـورةَ وقيلَ لهُ : مَنْ تَسْمو همّتهُ إلى مثلِ هذا وليسَ لهُ تعلّـقٌ بهـذه القضيّـةِ ، فكَيْـفَ يكـونُ جِدُّهُ واجتِهادُه إذا صارَ وزيراً ؟ فاستوزرهُ .

قالوا : وكانَ أبو العبّاسِ أحمدُ بنُ عُبيدِ اللهِ بن الخَصيبِ عفيفاً مُتورِّعـاً عَـنْ مالِ السُّلْطانِ والرعيّـةِ ، مُجانبـاً للخيانـةِ ، مُحافِظـاً علـى الأمانـةِ . ثمَّ ضعُـفَ أمـرُهُ وانحَرفَتْ عنْـهُ السيّدةُ أمُّ المُقْتَدِرِ –وكانَ كاتبَها قبْلَ الوزارة – فعُزِلَ وقُبِضَتْ أمْوالُهُ [2] وذلك في سنةِ أربعَ عَشْرَةَ وثلاثمائة .

وزارةُ أبي عليٍّ مُحمّدِ بنِ عليٍّ بنِ مُقْلَةَ لِلْمُقْتَدِرِ

هُوَ صاحبُ الخطِّ الحَسَنِ المَشْـهورِ ، الـذي تُضْـرَبُ بِحُسْنه الأمْثـالُ . وهـوَ أوّلُ مَنْ استَخْرَجَ هذا الخَطَّ ونَقَلَهُ مِنَ الوَضْعِ الكوفيِّ إلى هذا الوضْـعِ ، وتبعَـهُ بَعْدَهُ ابنُ البوّابِ [3] . كانَ في ابتداءِ أمرهِ يخدمُ في بعضِ الدّواويـن فـي كلِّ شَـهرٍ بستّةِ دنانيرَ ثُمَّ إنّهُ تعلّقَ بأبي الحَسَنِ بنِ الفُراتِ الوزير واختَـصَّ بـه ، وكـانَ ابـنُ الفُـراتِ كالبحرِ سَماحاً وجوداً ، فرفعَ منْ قَدرِهِ وأعلى منْ شأنِهِ ، فمكـثَ بيـنَ يديـهِ يعـرضُ عليهِ رقاعاً في مهماتِ الناسِ، وينتفعُ بسببِ ذلك ، وكانَ ابنُ الفراتِ يأمرُ بالتحصيلِ

---

[1] الفتْق : هنا ، العصيان والخروج على الطاعة . التمرُّد .

[2] قُبِضَتْ أموالُهُ : صُودِرتْ مصادرةً .

[3] ابنُ البواب : عليّ بن هلال البغداديّ ، أبدع في الخطّ العربيّ بعد ابن مقلة وكـان مـن ابتداعـه الخط الريحانيّ والمحقّق . توفي حوالي / ٤٢٢ / هـ .

منْ هذهِ الجهةِ إيثاراً لنفعهِ ، فما زالَ على ذلك حتى علتْ حالهُ وكثرَ مالُه ، ولمّا ولي ابنُ الفراتِ الوزارةَ الثانيةَ تمكنَ ابنُ مقلة في دولتِهِ ، ونبعت حالُه وعرضَ جاهُه ، ثم إنَّ الشيطانَ نزغَ بينهُ وبينَ أبي الحسنِ عليّ بن الفرات فاستوحشَ كلٌّ منهما منْ صاحبِهِ ، فكفرَ ابنُ مقلةَ إحسانَ ابنِ الفراتِ ، ودخلَ في جملةِ أعدائهِ والسّعاة عليهِ ، حتّى جرتِ النكبةُ على ابنِ الفراتِ ، فلمّا رجعَ ابنُ الفراتِ إلى الوزارةِ قبضَ عليهِ وصادرهُ على مائةِ ألفِ دينارٍ أدّتها عنْه زوجتهُ ، وكانتْ ذاتَ مالٍ طائلٍ ، وكانتْ لابنِ مقلةَ يدٌ طُولى في الكتابةِ والإنشاءِ ، وكانتْ توقيعاتُه غيرَ مذمومةٍ في فنّها ، ولهُ شعرٌ فمنهُ :

جرّبني الدّهرُ على صرْفِهِ[1] فَلَمْ أخرْ [2] عِنْدَ التّصاريفِ
ألِفْتُ يوْمَيْهِ [3] ويا رُبّما يُؤلَفُ شيءٌ غيرُ مألوفِ

(سريع)

حدّثَ أبو عبدِ اللهِ أحمدُ بنُ إسماعيل المعروف بزنْجيّ كاتبُ ابنِ الفُراتِ قالَ لما نُكِبَ ابنُ مُقلةَ وحُبسَ لم أدخل إليهِ في محبسه ، ولا كاتبْتُهُ ولا توجعْتُ له ، على ما بيني وبينه منَ المودةِ والصّداقةِ ، خوْفاً من ابنِ الفُراتِ . فلمّا طالتْ به المحنةُ كتبَ إليّ رُقْعةً فيها :

ترى حَرُمَتْ[4]كتْبُ الأخلاءِ بيْنَهمْ أبِنْ لي ، أم القِرطاسُ [5] أصبَحَ غالياً؟
فما كانَ لو ساءَلْتنا كيْفَ حالُنا وقَدْ دَهمَتْنا نكبَةٌ هيَ ما هيا؟
صديقُكَ مَنْ راعاكَ في كُلِّ شِدّةٍ وكُلٌّ تراهُ في الرّخاءِ مُراعيا
فَهَبْكَ عَدُوّي لا صديقي فإنني رأيتُ الأعادي يرْحمونَ الأعاديا

(طويل)

---

[1] صَرْفُ الدّهر وصروفه وتصاريفه : أحداثه ومصائبه .

[2] لم أخرْ : لم أُخيَّرْ بل أُجبِرتُ إجباراً .

[3] يوميْه : قصدَ بها يوم البؤس ويوم النعيم .

[4] حَرُمتْ : أصبحتْ من المحرّمات .

[5] القِرطاس : ورقُ الكتابة .

ومنْ شعْرِه ما كَتبَ به إلى ولدِه وقدْ مرض :

لقَاكَ ربُّكَ صِحَةً وَسَلامَةً ... ووقاكَ بي مِنْ طارِقِ الأدْواءِ
ذُكِرَتْ شَكاتُكَ لي وكأسي في يدي ... فَمزجتُها دمعي مكانَ الماءِ

ومن شعره : (كامل)

لستُ ذا ذِلّةٍ إذا عضّني الدَّهْرُ ... ولا شامِخاً إذا واتاني
أنا نارٌ في مُرتَقى نَفَسِ الحا ... سِدِ ، ماءٌ جارٍ مَعَ الإخْوانِ

(خفيف)

استوْزَرَهُ المُقْتَدِرُ وخَلَعَ عليه خلع الوزارة في سنةِ ستّ عشرة ، واستقلّ بأعباءِ الوزارةِ أمراً ونهياً ، وبذلَ فيها ما مبلغُهُ خمسُمائةَ ألف دينارٍ ، ثمّ عُزِلَ وقُبِضَ عليْهِ ثم أُعيدَ . وما زالَ تتقلّبُ بهِ الأحْوالُ حتى استوْزرَهُ الرّاضي ، ثمّ جرَتْ خُطُوبٌ أوْجَبَتْ أنّ الرّاضي حَبَسَهُ بداره وضيّقَ عليه ، وسعى به أعداؤه إلى الرّاضي ، وخوفوه من غائلته فقطع يده اليمنى ومكثَ في الحبْس مُدّة مقْطوع اليدِ ، وكانَ يَنوحُ على يدِهِ ويقولُ : يدٌ كتبتْ بها كذا وكذا مُصْحَفاً ، وكذا وكذا حديثاً مِنْ أحاديثِ الرّسولِ – صلى الله عليهِ وآله وسلّم ووقّعتْ إلى شرْقِ الأرْضِ وغرْبها تقطعُ كما تُقطعُ أيْدي اللُّصوص ؟ .

ومن شعرهِ يشيرُ إلى قطْعِ يدهِ .

ما مللتُ الحياةَ لكنْ تَوثَّقْتُ بأيْماتِهم فبانَتْ يَميني
ثُمَّ أحْسَنْتُ ما استَطَعْتُ بجهدي ... حِفْظَ أرواحِهِمْ فما حفِظوني
ليسَ بَعْدَ اليمينِ لَذّةُ عَيْشٍ ... يا حياتي بانتْ يَميني [1] فبيني

وفي ذلكَ يقولُ بعضُ الشُّعراء : (خفيف)

لئِنْ قطَعوا إحدى يَدَيْهِ مخافةً ... لأقْلامِهِ لا للسُّيوفِ الصَّوارم
فما قطعوا رَأْياً إذا ما أجالَهُ ... رأيْتَ الرّدى بين اللُّها [2] والغَلاصِمِ [3]

(طويل)

---

[1] بانت يمينُهُ : قُطِعَتْ يدُهُ اليمنى . بانَ : اغترب وبعد .

[2] اللُّها : جمع لَهاة ، وهي لُحَيْمة معترضة في الحلق تعرف بلسان المزمار .

[3] الغَلاصم : ما بين الرأس والعنق من لحم الرقبة .

ولما قطع الراضي يدَ ابنِ مُقلة كتب باليسارِ مثلما كان يكتبُ باليمين ، ثم شدَّ على يدِهِ المقطوعة قلماً وكتب بها ، فلم يفرّق بين خطّه قبْلَ قطْعها وبعدهُ .

ومِنَ الاتفاقاتِ العجيبة أنّهُ تولى الوزارة ثلاث دفعاتٍ ، وسافر ثلاث دفعاتٍ ودُفِنَ ثلاثَ دفعاتٍ : دُفِنَ بدارِ الخليفة لما قُتِل ، بها وذلك بعْد قطْعِ يده بِمُدَيْدَةٍ[1] ثم سألَ أهْلُهُ تسليمهُ إليهم فدفنوه ، ثمّ طلبتْه زوْجتهُ فنبشتّهُ ودفنتْهُ بدارِها .

وزارةُ أبي القاسم سُليمانَ بن الحَسنِ بنِ مُخلدٍ للمُقتَدِرِ

لم يكن لهُ سيرةٌ تُؤثّرُ وتُرْوى ، ولم يكنْ من ذوي اللبِّ ، وإنما نالَ ما نالَ بالجدِّ والبَخْت .

قيلَ : إنهُ دخلَ مرّةً على القاسم بن عُبيدِ الله وزيرِ المُعتضد والمُكْتفي ، فرَحّبَ به الوزيرُ ، وأقبلَ عليه بوجهه وأكرمهُ إكراماً خارجاً عن العادة لأمثالِه ، فسُئلَ الوزيرُ عَنْ سببِ ذلك فقال : رأيتُ في منامي كأنّ على رأسي قلنْسُوة وقدْ أخذَها هذا وجعَلَها على رأسه ، ولا بدّ أن هذا الفتى يلي الوزارة ، فكانَ كما قالَ : ولم تُحْمَدْ سيرتُهُ في وزارته .

وكانَ المُقْتَدِرُ لمّا عزلَ ابنَ مُقْلة استشار عليَّ بنَ عيسى بنَ الجرّاحِ فيمن يستَوْزِرُهُ فأشارَ عليه بهذا ، فاستوْزَرَهُ في سنة ثماني عشرة وثلاثمائة ، ثم قبض عليه واستوزر الكلوذاني .

وزارةُ أبي القاسمِ عُبيدِ اللهِ بنِ محمّدٍ الكَلُوذانيِّ لِلمُقتَدِرِ

لم تطلْ أيّامُهُ ، ولم يتمكّنْ ممّا أراد ، وكثُرتْ المُصادرات في أيّامِه ، وشَغِبَ الجندُ عليهِ وشتَموهُ ورَجَموهُ وهو في السَّفينة ، فحلف أنه لا يدْخل بعد ذلك في الوزارة وانقطَعَ بدارِهِ وأغلَقَ بابهُ ، فكانتْ وزارتُهُ مُدّة شهْرين .

---

[1] مُدَيْدة : مدّة قصيرة .

وزارةُ الحُسَيْنِ بنِ القاسِمِ بنِ عُبيدِ اللهِ
ابنِ سُلَيْمانَ بنِ وَهْبٍ لِلْمُقْتَدِرِ

كانَ يُقالُ لَهُ أبو الجمال ، قيلَ : إنه أعْرَقُ الناسِ في الوزارة ، وهو وزيرُ المُقْتَدرِ وأبوهُ القاسِمُ وزيرُ المُعْتَضِد والمكتفي ، وجَدُّهُ عُبيدُ الله وزيرُ المُعتضِد ، وأبو جدِّهِ سُلَيْمانُ بنُ وَهْبٍ وزيرُ المهتدي ، وفي ذلك يقولُ الشاعرُ لهُ :

يا وزيرَ ابنَ وزيرِ ابـــــنِ وزيرِ ابنِ وزيرِ
نَسَقاً كـــالدُّرِ إذْ نُـــــظِّمَ في عِقْدِ النّحورِ

(رمَل)

لم يكنْ الحسينُ بنُ القاسم بارعاً في صناعتهِ ، ولا شُكرتْ سيرتُهُ في وَزارتهِ ولم تَطُلْ لهُ المدّةُ حتّى عجز واختلّت الأحوالُ عليه . مدحهُ عُبيد الله بنُ عبيدِ الله بن طاهر بقولِهِ :

إنْ أكُنْ مُهْدِياً لك الشِّعْرَ إنّي — لابنُ بيتٍ تُهْدى لَهُ الأشْعـــارُ
غيرَ أنّي أراكَ مِنْ أهلِ بَيْـتٍ — ما على المرءِ أن يَسُودُوهُ عارُ

(خفيف)

وهجاهُ جَحْظَةُ بقولهِ :

إذا كانَ الوزيرُ أبا الجمـالِ — ومُحتَسِبُ البلادِ الدّانيالـــي
فَعَدِّ عنِ البلادِ فعَنْ قليـــلٍ — ترى الأيّامَ في صُوَرِ الليالـي
تقضّتْ بهجةُ الدنيا وولّتْ — وآذنَ كـلُّ شيءٍ بارتِحـــالِ

(وافر)

ولما ظهرَ للمقتدرِ نَقْصُهُ وعَجْزُه قبض عليه وصادرهُ . ثم بقي إلى أيّام الراضي وأُبْعِدَ عن العراق ، فلمّا تولّى ابنُ مقلة الوزارة تقدّم بقتله ، وأرسل إليهِ مَنْ قَطَعَ رأسَهُ وحَمِلَ رأسُهُ إلى دارِ الخلافة في سَفَطٍ ، فجُعل السَفطُ في الخِزانةِ ، وكانت لهُمْ عادةٌ بمثْلِ ذلك . فحدث أنه لمّا وقعت الفِتْنةُ ببغْداد في أيّام المتّقي أُخْرِجَ مِنَ الخِزانةِ سَفَطٌ فيهِ يدٌ مقطوعةٌ ورأسٌ مَقْطوعٌ ، وعلى اليد رُقْعةٌ ملصقة عليها

مكتوبٌ : هذه اليدُ يدُ أبي عليٍّ بنِ مُقْلةَ ، وهذا الرأسُ رأسُ الحُسَيْنِ بنِ القاسمِ وهذهِ اليدُ هي التي وقَعتْ بقطْعِ هذا الرأسِ ، فَعجبَ الناسُ منْ ذلكَ .

وزارةُ أبي الفَضْلِ جعفرِ بنِ الفراتِ

لم تَطُلْ أيّامُهُ ، ولم تكنْ لهُ سيرةٌ مأثورةٌ وقُتِلَ المقتدرُ وهُو وزيرُهُ ، فاستترَ .

انقضتْ أيامُ المقتدرِ ووُزرائهِ .

ثُمَّ مَلَكَ بَعدَهُ أخوهُ القاهِرِ

هُوَ أبو منْصورٍ مُحمَّدٌ المُعتَضد ، بُويعَ سنةَ عشرينَ وثلاثمائة .

وكانَ مهيباً مقداماً على سَفْك الدِّماء ، أهْوَجَ مُحِباً لجمعِ الأموالِ ، رديءَ السياسةِ صادَرَ جماعةً من أمّهاتِ أولادِ المُقْتَدر ، وصادرَ أمَّ المقتدر فعلّقها برِجْلٍ واحدةٍ مُنَكَّسةَ الرأسِ ، وعذّبها بصُنوفٍ عظيمةٍ منَ الضَّرْبِ والإهانةِ ، واستَخْرَجَ مِنْها مائة وثلاثين ألفَ دينارٍ ، وبقيتْ بعد ذلك أياماً قليلةً ، وماتتْ حُزْناً على ولدِها وممّا جرى عليها منَ العذابِ .

وفي سنةِ اثنتينِ وعشرينَ وثلاثمائة خُلِعَ القاهِرُ .

وكانَ سببُ ذلك : أنْ وزيرَهُ ابنَ مُقْلةَ كان قد استتر خوْفاً منْهُ فكانَ يُفْسِدُ عليهِ قلوبَ الجُنْدِ ويحذِّرُهُمْ منْهُ وَحَسَّنَ لهم أنْ هجموا عليهِ وخلعوه وسَمَلوه حتّى سالَتْ عيناه على خدّيهِ ، ثم حُبِسَ في دارِ السلطنة ، ومكثَ في الحبْسِ مدة ثم أُخْرِجَ منهُ عندَ تقلُّبِ الأحوالِ ، وكانَ مرّةً يحبس ومرة يُفْرَجُ عنه ، فخَرَجَ يوماً ووقفَ بجامعِ المنصورِ يطلُبُ الصَّدقةَ من الناس ، وقصد بذلك التَّشْنيع [1] على المُستَكْفي ، فرآهُ بعضُ الهاشميين فَمنَعهُ من ذلك وأعطاهُ خمسمائةِ دِرْهَمٍ . ولم يجرِ في أيّامهِ منَ الحوادثِ المشهورةِ ما يُؤثَر .

---

(1) التَّشْنيع : الإساءة والذمّ .

شَرحُ حالِ الوزارةِ في أيّامه

استَوزَرَ ابنَ مُقْلَةَ وزيرَ أخيه ، وهي الوزارةُ الثانيةُ ، وقد تقدّمَ شرْحُ طرفٍ من سيرتِهِ فلا حاجةَ إلى إعادته . ثم استَوزر محمّدَ بن القاسم بنِ عُبيد اللهِ بنِ سُليمانَ بنِ وَهْبٍ ، ولم يتمكنْ منَ الوزارةِ ولا طالتْ أيّامهُ ، ثم قبَض عليه ونكبَه ، واتفق أن عرض له قولنج فمات بعقب ذلك . انقضت أيام القاهر ووزرائه .

في تلك الأيام نبعت الدَولةُ البُويْهيّة .

شَرْحُ حالِ دَولةِ آلِ بُويهِ وابتدائِها وانتهائِها

أمّا نسبُهم فيرتفعُ من بويهِ إلى واحدٍ واحدٍ منْ ملوك الفُرْس حتّى يتّصل بيهوذا بن يَعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليل – عليهِ السلامُ – وكذلك إلى آدمَ أبي البَشَر ، وليْسوا مِنَ الدَّيْلَم ، وإنّما سُمّوا بالدَيْلم ، لأنهم سكَنوا بلادَ الدَيْلَم [١] .

أما ابتداؤُها : فإنّها دولةٌ نبغتْ بما لم يكنْ في حساب الناسِ ، ولم يخطر بعضُهُ ببالِ أحدٍ ، فدوّختْ الأممَ وأذلّتْ العالم واستولت على الخلافة ، فعزلت الخلفاء وولّتهم ، واستوزرت الوزراءَ وصرفتْهم ، وانقادتْ لأحكامها أمورُ بلادَ العجم وأمورُ العراقِ ، وأطاعتْهم رجالُ الدولة بالاتّفاقِ . هذا بعدَ الضيقِ والفقْر ، والذلّ والمَسْكنة ومُعاناةِ الحاجةِ والاضْطهادِ ، فإنّ جَدَّهُمْ أبا شُجاع بُويْه وأباهُ وجدّهُ ، كانوا كآحادِ الرعيّةِ الفُقراء ببلادِ الدَيْلَم ، وكان بُويه صيّادَ السَّمَك ، وقدْ كانَ مُعِزُّ الدولةِ بعْدَ تملكه البلادَ يَعترفُ بنعمةِ اللهِ تعالى ، ويقولُ : كُنتُ أحتَطبُ الحطبَ على رأسي .

فكانَ من مبدأ دولتهم ما حدّث به شهْريارُ بنُ رُستُمْ الدَيْلميّ قالَ : كانَ أبو شجاعٍ بُويهِ في مبدأ أمرهِ صديقاً لي ، فدخلتُ عليهِ يوماً وقد ماتتْ زوجتهُ أمُّ أولادهِ الثلاثة الذين تملكوا البلادَ ، وهم : عمادُ الدولةِ أبو الحسَن عليّ ، وركْنُ الدولةِ أبو عليٍّ الحسنُ ومُعِزُّ الدولةِ أبو الحُسَيْنِ أحمدُ – وقد اشتدَّ حُزْنُ أبي شُجاعٍ بُويه على زوجتهِ فعزيتهُ وسكّنتُ قلقَهُ ، ونقلته إلى منزلي وأحضرتُ له طعاما وجمعتُ إليهِ

---

[١] الدَيْلَم : منطقة جبليّة في إقليم جيلان جنوبيّ بحر قزوين .

أولادهُ الثلاثة فبينمـا هُم عندي إذ مرّ بالبـاب شـخصٌ يقول : المنجّمُ المعزّمُ مفسّرُ المنامات ، كاتب الرُّقى [١] والطّلسمات .. فاستدعاهُ أبـو شـجاع بُويـه وقـال لـهُ : قدْ رأيتُ البارحةَ رؤيا ففسّرها لي ، ثم قصّ عليه الرؤيا ، فقال المنجّم ، هذا منامٌ عظيمٌ لا أُفسّرهُ إلا بِخُلْعَةٍ وفرَسٍ ؛ فقـالَ لـه بُويـه : واللـه مـا أملكُ إلا الثيـاب التـي علـى جسدي ، وإن أعطيتُكَ إياها بقِيتُ عُرياناً ، قـال المنجّمُ : فعشـرة دنـانيرَ ، فقـالَ لـه بويه : واللهِ ما أملكُ دينـارينِ فكيفَ عشرة ؟ ثم إنّـهُ أعطـاهُ شيئا يسيراً ، فقـال المنجّم : اعلم أنه يكونُ لك ثلاثةُ أولادٍ يملكون الأرض ومنْ عليها ويعلو ذكرُهم فـي الآفاق ، ويولد لهم جماعةُ ملوك ، فقالَ له بُويه : أما تستحي ؟ أتسخرُ بنا ؟ أنا رجلٌ فقيرٌ مضطر ، وأولادي هؤلاء فقراءُ مساكينُ فمنْ أينَ هم والمُلْك ؟ فقال لهُ المنجّم : فأخبرني عن وقتِ ولادةِ واحدٍ واحدٍ مِنْ أولادك فأخبرهُ بويه بذلك ، فجعل ينظرُ فـي اصْطِرلابه [٢] وتقاويمهِ ، ثُمَّ نهض المنجّم وقبّل يدَ عمـادِ الدّولـة أبـي الحسنِ علـيٍّ وقالَ : هذا واللهِ الذي يملكُ البلادَ ، ثمَّ يملكُ هذا منْ بعدهِ وقبض على يد أخيـهِ أبـي عليٍّ الحسنِ ، فاغتـاظَ منـهُ أبـو شـجاعٍ بُويـه وقـال لأولادهِ : اصفعـوهُ فقـد أفـرطَ بالسخريةِ بنا ، فصفعوهُ ونحنُ نضحك منهُ ، فقال المنجّـم : لا بـأس بهـذا إذا ذكرتُـم لي هذا الحال عندَ ولايتِكُمْ ، فأعطاهُ أبو شجاع عشرَة دراهم وانصرفَ .

وأما ترقّي أولادِ أبي شجاعٍ بُويه : فـإنهم دخلـوا فـي زيِّ الأجنـادِ وانضـافوا إلى العساكرِ ، وما زالوا ينتقلون في خدمة ملوك العجم منْ واحدٍ إلـى واحـدٍ ، ومـنْ حالٍ إلى حالٍ ، حتّى ارتفعَ حالُ عمادِ الدّولة وتولّى الكرخ [٣] – ولاهُ إيـاهُ مرداويـجُ [٤] – ثمَّ تنقلَ منها إلى غيرها ، حتّى تملك قطعـةً مـنْ أعمـال فـارس ، ثـمَّ عرَضَـتْ مملكتهُ حتى كتب إلى الراضي الخليفـةِ يسألهُ أن يُقاطعه على أعمالِ فارس فـي كـلِّ سنة بعدَ النفقات والإطلاقات بما يحمله إلى دار الخلافة ، وهو ثمانمائة ألف ألف

---

[١] الرُّقى : التعاويذ والمسطورات يتقى بها من حسدٍ أو مرض،ومثلها الطلسمات لأنها مما لا يفهم

[٢] الاصْطرلاب : آلة فلكية قديمة لقياس ارتفاع الكواكب .

[٣] الكرْخ : حي قديم في ظاهر بغداد ، والصواب هُنا : الكرْج وهو من أقاليم القفقاس على البحـر الأسود وحدود ما بين تركيا وروسيا اليوم ، منطقة جورجيا .

[٤] مرْداويـج : هو مرداويج بـنْ زيـار مؤسّس دولـة حكمَتْ طبرستان ما بين قزويـن والـرّيّ وجُرجان.خلفَهُ أخوه وشمكير ثم قابوس بن وشمكير ، وتبعت دولتهم الغزنويين حتى قضى عليهـا ملكشاه السلجوقي.اغتيل مرداويج عام /٣٢٣/ هـ .

درهم ، على أن يبعث الخليفةُ إليه بخلعة السلطنة والمنشور . فبعث الراضي إليه بذلك على يد رسول أرسله إليه وأوصاهُ ألا يُسلِّمَ الخِلْعةَ [1] والمنشور إليهِ حتى يَقْبِضَ مِنْهُ المالَ ، فلمّا وصلَ الرسولُ إليه غالطَهُ وأخذ الخلْعة منْهُ فلبسها ، والمنشورَ فقرأهُ على رؤوسِ الأشهادِ ، وقَوِيَتْ نفسهُ بذلك ووعد الرّسول بالمالِ ودافعَهُ مدّةً ، فماتَ الرسولُ عندهُ ، وتقلبت الأحوالُ بالخلافة فكسر المال واستبدّ بالأمرِ . وكانَ عِمادُ الدولةِ أوّلَ مُلوكِهِمْ ، ثُمّ ملك منْهُمْ واحدٌ بعْد واحد حتى انقضتْ دَوْلَتَهُمْ .

وأما انتهاؤها ففي آخرِ أمْرِها ضَعُفَ حالُها ، وما زال يتزايدُ ضعفُها حتى انْتَهَتْ نَوْبَةُ المُلْكِ إلى عِزّ الدولة بنِ جلال الدولةِ أبي طاهرٍ ، فجرى بيْنَهُ وبين كاليجار حروبٌ أفْضَتْ إلى أنّهُ هرَبَ منْهُ وأقامَ بشيرازَ وماتَ في سنة إحدى وأرْبَعينَ وأربعمائةٍ وعليه انقرضَ مُلْكُهُم .

ثُمَّ ملكَ بَعْدَ القاهرِ ابنُ أخيهِ الراضي باللهِ

هُوَ أبو العبّاسِ محمّدُ بنُ المقتدرِ بنِ المُعْتَضِدِ . بُويِعَ في سنةِ اثنتينِ وعشرينَ وثلاثمائةٍ .

كانَ شاعراً فصيحاً لبيباً ختَمَ الخلفاء في أشياءَ ، منها : أنّهُ آخرُ خليفةٍ دُوِّنَ لَهُ شِعْرٌ ، وآخرُ خليفةٍ انفردَ بتَدْبيرِ المُلْك ، وآخِرُ خليفةٍ خَطَب على منبرٍ يومَ الجُمُعَة وآخِرُ خليفةٍ جالسَ الندماءَ ووصلَ إليه العُلماءُ ، وآخرُ خليفةٍ كانتْ مراتِبُهُ وجوائزُهُ وَخَدَمُهُ وحُجّابُهُ تجري على قواعد الخلفاءِ المُتقدّمين .

وفي أيّامه سنةَ اثنتين وعشرينَ وثلاثمائة عظمَ أمر مرداويج بأصبهان ، وهو رجلٌ خرجَ بتلك النواحي ، وقيلَ : إنهُ يريدُ أن يأخذَ بغْدادَ وينقل الدولةَ إلى الفُرْسِ ويُبْطِلُ دولةَ العربِ ، فوَرَدَ الخبرُ في أيّامِ الراضي بأن غلْمان مرداويج اتّفقوا عليهِ فقتلوهُ .

[1] الخِلعة : بكسر الخاء ، الثوب . وبضمّ الخاء : الهديّة من المال .

وفي أيّامِ الراضي ارتفعَ أمرُ أبي الحسن عليّ بنِ بُويه .

وفي أيّامِ الراضي ضَعُفَ أمرُ الخلافة العبّاسيّة ، فكانتْ فارسُ في يدِ عليّ ابنِ بُويهِ والريُّ وأصفهانُ والجبلُ في يدِ أخيه الحسَنِ بن بويه ، والمَوْصلُ وديارُ بكرٍ وديارُ ربيعة ومُضرَ في أيدي بني حمْدانٍ ومصرُ والشامُ في يد مُحمّد بنِ طُغْج ، ثُمَّ أيدي الفاطميّين والأندلسُ في يدِ عبد الرحمن بن محمّدٍ الأمويّ ، وخراسانُ والبلادُ الشرقيّة في يدِ نصْر بنِ أحْمَدَ الساماني . وكانتْ وفاةُ الراضي في سنة تسعٍ وعشرين وثلاثمائة .

شرحُ حالِ الوزارةِ في أيّامهِ

أوّلُ وزرائه عليُّ بنُ مُقْلةَ ، وهي الوزارةُ الثالثةُ منْ وزارات ابن مُقْلة ، بَذَلَ فيها خمسمائةِ ألفِ دينارٍ حتّى اسْتَوْزرهُ الراضي ، ثُمّ شغبَ الجندُ وجرتْ فِتْنَةٌ أوْجَبَتْ عَزْلَهُ فعزَلَهُ الراضي واستَوْزَرَ عبد الرحمنِ بنَ عيسى بنِ داودَ بنِ الجراحِ ، وقد مضى منْ أخبارِ ابنِ مُقلةَ ما فيه كفاية .

وزارةُ عبدِ الرحمنِ بنِ عيسى بنِ الجرّاحِ

لما قبضَ الراضي على ابنِ مُقلة أحْضرَ عليَّ بنَ عيسى بنَ الجرّاحِ وأرادَهُ على الوزارةِ ، فأبى وامتنعَ وأظْهرَ العجْزَ ، فاستشارَهُ فيمنْ يولّيه فأشارَ بأخيهِ عبدِ الرحمن بنِ عيسى فأحْضَرَهُ ، وقلّدَهُ الوزارةِ وركبَ الموْكبَ بينَ يديه ، ثُمّ لم تَطُلْ أيّامُهُ ، واختلّتْ الأمورُ عليه ، فاستعفى من الوزارةِ . فقبض عليه ، ولم يكنْ له سيرةٌ تُؤثَر .

وزارةُ أبي جَعْفَرِ بنِ محمّدِ بنِ القاسم الكَرْخيِّ للرّاضي باللهِ

لمّا قبضَ الراضي على عبدِ الرحمن بن عيسى ، اسْتَوْزَر أبا جَعْفَرٍ محمدَ ابنَ القاسمِ الكَرْخيَّ ، وكانَ قصيراً جدّاً في غاية القصر ، فاحتاجوا أنّهم قطعوا من قوائم سريرِ الخِلافةِ أرْبَعَ أصابعَ حتّى يتمكّن الكرْخيُّ الوزيرُ منْ مُسارّةِ الخليفةِ ،

وتطيّرَ [1] الناسُ من ذلك وقالوا : هذا مُؤذنٌ [2] بنقْض [3] الدولة . فكان الأمرُ كما قالوا ، واختلفتْ الأحْوالُ عليه ، واضْطربت الأمورُ لديْه ، فاستتر ، قالوا : لما أراد الاستِتارَ قلَعَ رأس مُزَمّلة [4] وجلس فيها وأخرجت المزمّلةُ على أنها مزملةٌ ، وهو في وسطها وما زالَ مُستَتِراً حتّى ظهر وصُودِر ثم خَلَصَ [5] .

وزارةُ سُلَيْمانَ بنِ الحسنِ بنِ مخْلَدٍ لِلْراضي باللهِ

لما عَجزَ الكرْخيُّ عن النّهوضِ بأعباءِ الوزارة واستَتر ، أحْضر الرّاضي باللهِ سُلَيْمانَ بنَ الحَسنِ بنِ مَخْلَد واستَوْزَرهُ وخلع عليه خُلَعَ الوزارة . ثمّ إنّه عجز عَنْ تدبير الأمورِ لتغلّبِ أصْحابِ السُّيوفِ على المملكة . فلمّا رأى الخليفةُ الراضي عَجْزَ وزيرِهِ سُلَيْمانَ بنِ الحسَنِ بنِ مخْلد أرْسل إلى ابن رائق [6] ـ وهو أكبرُ الأمراء ـ فاستمالَهُ وسلّمَ الأمورَ إليه ورتّبهُ أميرَ الأمراء ، وكلّفه تدْبير المملكةِ فانضمّ إليهِ أمراءُ العَسكرِ وصاروا حزْباً واحدا ، وحضروا بين يدي الخليفة ، ، فأجْلَسَهُم فوْقَ الوزيرِ واستبدّ ابنُ رائقٍ أميرُ الأمراءِ بالأمور ، وولّى النُّظار والعُمّال ورُفِعَتِ المُطالعاتُ إليهِ ، وردّ الحكمُ في جميعِ الأمورِ إلى نظره ، ولم يبقَ للوزيرِ سوى الاسم من غيرِ حُكمٍ ولا تدبيرٍ . ومن تلك الأيام اضْطهدت الخلافةُ العبّاسيّةُ ، وخرجتْ الأمورُ منها ، واستولى الأعجامُ والأمراءُ وأربابُ السيوف على الدولةِ ، وجبوا الأموالَ وكفّوا يدَ الخليفةِ وقرّروا لهُ شيئا يسيراً وبُلْغةً قاصرة ، ووهن من يومئذٍ أمرُ الخِلافةِ .

---

[1] تطيّرَ : تشاءم وتوقّع شرّاً .

[2] مُؤْذِن : مُنْذِر .

[3] نقض الدولة : تهدّمها وزوالها .

[4] المُزَمّلة : الجرّة أو الخابية .

[5] خَلَصَ : خلا من المال .

[6] ابن رائق : محمد بن رائق ، قائد جيوش للراضي وأمير الأمراء . قتله ناصر الدين الحمداني عام / ٣٣٠ / هـ .

وزارةُ أبي الفَتْحِ الفضْلِ بن جعْفرِ بنِ الفُراتِ للراضي بالله

لما استولى أميرُ الأمراء ابنُ رائق على الأمور أشار على الراضي بالله بأن يولّي الوزارةَ للفضْل بنِ الفُرات ، ظَنّاً منهُ أنهُ يَجتذبُ لهُ الأمْوال ، فأحْضرَهُ الراضي وقلّدهُ الوزارة .

حدّث أبو الحسن بنُ ثابت بن سنان ، عنْ أبي الحسن عليَّ بن هشام قال : لما تقلّدَ الفضْلُ بنُ جعْفرِ بنِ الفرات الوزارة لقيتُ ابن مُقْلة وكان معْزولا مُسْتتِرا فقلتُ له : يقْبحُ بك يا سيّدنا أن تتأخر عن لقاء هذا الوزير وتهنئته بوزارته ، فقال : ما آمنهُ ولا لي حاجةٌ إلى الاجتماع به ، فقلْتُ : ينْبغي أن تكتب إليه رُقْعة تعتذرُ فيها عنْ تأخّرِك وتهنئهُ تهنئةً تقومُ مقامَ حُضورك ، فقالَ : أخافُ أن يُجيبني بما يسْتدعي حُضوري وأنْشدني لنفْسه :

وقائِلةٍ : قَدْ أضعْتَ الصَّوابَ ... بتَركِكَ هذا الوزيرَ الجَديدَا

فقلتُ لها : لا عَداكِ السُّرورُ ... ولا كانَ قَولُكِ إلا سديدا

أمِثْلي تُطاوعُهُ نَفْسُهُ ... على أنْ يُرى خاضِعاً مُسْتَزِيدا

(متقارب)

كان رَجُلاً مُتهوِّراً وسيعَ الصَّدْر شريفَ النّفْسِ عالي الهمّة ، تنقّلَ في الخدماتِ وتقلّبتْ به الأحوالُ منْ عُسْرٍ ويسْرٍ ، ومُصادرةٍ وعزْلٍ ، حتّى أدّى به سعةُ صدْرِه وقوّةُ نفسه وكبرُ همّته إلى جمع العساكر ورُكوب الأخْطار . ثم تغلّب على أعمالِ خُوزِستان والبصْرة ، فاستَوْزرهُ الراضي ، ثُمّ عزلَهُ وقلّد الوزارة سُلَيْمان بنَ الحَسَنِ بنِ مَخْلدٍ ، وقَدْ مرّ ذِكْرُهُ فلا حاجة إلى إعادتِهِ ، وهو آخرُ وُزرائِهِ .

انقضت أيام الراضي باللهِ بن المقتدر ووُزرائه .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ أخوهُ المتقي باللهِ أبو إسْحاق إبراهيمُ بنُ المُقْتَدِرِ باللهِ

بُويعَ لَهُ سَنةَ تسعٍ وعِشْرينَ وثلاثمائة ، ولم يكنْ لهُ من السِّيرةِ ما يُؤثَرُ واضطربتْ عليه الأمورُ ، واستولى عليه رَجُلٌ منْ أمراءِ الدّيلَمِ يقالُ لَهُ :

((تُوزون [١])) فهربَ المتّقي ومَعَهُ ابنهُ وأهلُهُ إلى الموْصِل خوْفاً على نفْسِه مِنْ حَربٍ ببغْداد .

وجرَتْ في تلك الأيّامِ حروبٌ وفِتَنٌ ، ونُهبتْ دارُ الخلافةِ وأُخذ ما كان بها. ثُمَّ إنَّ توزونَ كَتَبَ إلى المتّقي يستَميلهُ ، وحلف له أيماناً غليظةً أنّهُ لا ينالهُ مكروهٌ من جهتِهِ فاغترَّ المتقي بذلك ، وانْحدرَ من الموْصلِ إلى بَغداد ، ووصلَ إلى السنديّةِ منْ نهْرِ عيسى فخرجَ تُوزونُ إلى تلقّيه والناسُ كافةً ، فلما رآهُ توزونُ قبّلَ الأرضَ وكانَ قدْ أوصى جماعةً منْ أصْحابهِ سرّاً أن يحتاطُوا بهِ ، فاحتاطوا به ، وأدخلوهُ إلى خيْمَتِهِ ، ثُمَّ قبض عليهِ وسمَلَ عيْنَيْهِ ، وخلعهُ وبايع المُستكفي ، وماتَ المتّقي في سنةِ خمسينَ وثلاثمائة .

شَرْحُ حالِ الوَزارةِ في أيامهِ

أَقَرَّ سُلَيْمانَ بنَ الحَسَنِ بنِ مَخْلَدٍ على وزارتهِ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ ؛ ثُمَّ استَوْزَرَ أبا الخيْرِ أحْمَدَ بنَ مُحمّدِ بنِ ميْمونٍ ، ولم يَكُنْ لَهُ سوى الاسْمِ منَ الوزارة ، ولم يَكُنْ لهُ سيرةٌ تُؤثَرُ . ثُمَّ أمورٌ أدّتْ إلى القَبْضِ عليه وإلى عَزْلِهِ .

وزارةُ أبي عبدِ اللهِ البَريديِّ لِلْمُتّقي

قَدْ سَبَقَ حالُ تغلُّبِهِ وقوّةِ نفسِهِ وجمعُهُ للْعساكِرِ ، ثمّ إنّهُ في أيّامِ المتّقي وَصَلَ إلى بَغْدادَ ومَعَهُ جُموعٌ كثيرةٌ ، فأظهرَ المتقي السُّرورَ بهِ ، ثم استوْزرَهُ وهوَ كارِهٌ لِذلكَ . وَجَرَتْ بيْنَهُ وبَيْنَ المتّقي مُراسلاتٌ أدّتْ إلى أنّهُ أرْهبهُ وأفْزَعهُ ، فحمَلَ إليهِ خمسمائةِ ألفِ دينارٍ ووَقَعَتْ حروبٌ بينَ البريديِّ وأُمراءِ العسكرِ فنهبوا دارهُ وانْهزَمَ إلى واسطٍ ، فكانَ وقوعُ اسمِ الوزارةِ عليه دون شهْرٍ [٢] .

---

[١] تُوزون : أمير الأمراء من الدَّيْلم ، جاء بعد ناصر الدولة الحمداني ، وقتل الخليفة المتّقي . ماتَ / ٣٣٤ / هـ .

[٢] دون شهْرٍ : أقلّ من شهرٍ من الزمان .

وزارةُ أبي اسحاقَ محمّد بن إبْراهيم الإسكافيّ
المعروفِ بالقَراريطيّ لِلْمُتّقي

لم تَطُلْ أيّامُهُ ، فَلَبِثَ في الوزارة حُدود أربعينَ يوْمـا . سببُ وزارتِهِ أنه حضَرَ يوماً مَجْلِسَ أميرِ الأُمراء وهو يُصادر قوماً من الكُتّاب ويعسِفُهُمْ ، وهم يلِطّون [١] عليهِ فخلا القراريطيّ ببعض أصْحاب أميرِ الأُمراء وقال لـهُ : إنْ استَوْزَرَني الأميرُ نَهَضْتُ له بأضْعاف هذا وجمعْتُ لهُ الأموال ، وما احْوجهُ إلى هذا الصّداع ؟ فاسْتَوْزَرَهُ تُوزونُ بَعْدَ يَوْمَيْن ، ثُمّ بعْدَ يَوْمَيْنِ قبض عليه واسْتَوْزَرَ الكَرْخيّ ، فلمْ تَطُلْ أيّامُهُ أيضاً ، ولبث فيها نحْو خمسينَ يوما .

وزارةُ البريديّ مرّةً ثانيةً

اسْتَوْزَرَهُ المتّقي وكاتَبَهُ بالإصْعاد [٢] إلى بغْداد ، فأصْعدَ مِنْ واسط فاستُوْزِر . ومَكَثَ في الوزارةِ دون شهْرٍ ، ولم يستتِبَّ لهُ أمرٌ ، وجرتْ بينه وبين المتّقي حُروبٌ وكانتْ تِلْكَ الأيّامُ أيّامَ فِتَنٍ . ولما تولّى أبو عُبيد الله البريديُّ الوزارةَ هجاهُ أبو الفرجِ الأصْفهانيّ مُصنّفُ كتابِ الأغاني بقصيدةٍ طويلةٍ أوّلها :

يا سماءُ اسْقُطي ويا أرْضُ ميدي [٣] قد تولّى الوزارةَ ابنُ البَريديّ

(خفيف)

(مِنْها)

يا لَقَوْمي لِحَرِّ صَدْري وَعَوْلي [٤] وغَليلي وقَلبيَ المَعْمودِ [٥]

حينَ سارَ الخَميسُ [٦] يَوْمَ خَميسٍ بالبريديّ في ثيابٍ سُودِ [٧]

---

(١) يَلِطّون عليه : يتستّرون ويكتمون .

(٢) الإصعاد إلى بغداد : الانتقال إلى بغداد من واسط . تقع واسط جنوبي بغداد .

(٣) مادت الأرض : تزلزلتْ .

(٤) العوْل : الظُلْم والنقيصة .

(٥) المعمود : المصاب المبتلى .

(٦) الخميس : الجيش .

(٧) الثياب السود : الزيّ الرسمي العبّاسيّ .

قَـدْ حَبـاهُ بِهـا الإمـامُ اصْطِفـــاءً واعتِماداً مِنْهُ لِغَيْرِ عَميـدِ [1]
خُلَــعَ [2] تخلــعُ العُـلا ولـــــواءً عَقْدُهُ حَلُّ عُقْدَةِ المَعْقــودِ

وزارةُ أبي العبّاسِ أحْمَدَ بنِ عُبيدِ اللهِ الأصْفهانيُّ لِلمُتّقي

مَكَثَ في الوزارةِ حُدودَ خَمْسينَ يوماً ، ولم يكن لهُ علْمٌ ولا نظرٌ في الأمـور وَضعُفَ أمْرُ الوزارةِ والوزراءِ في تلك الأيّام ضعفاً كثيراً .

وزارةُ أبي الحَسَنِ عليِّ بنِ أبي عليِّ بنِ مُقْلَةَ لِلْمُتّقي

استَوْزَرَهُ المتّقي ولم تَطُـلْ أيّامُـهُ وخلِـع المتّقـي وهـو وزيـرُهُ . انقضـتْ أيّـامُ المتّقي ووُزرائِهِ .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ أبو القاسِمِ عَبْدُ اللهِ المُستَكفي ابنُ المكتفي بنِ المُعْتَضِدِ

بُويعَ له سَنَةَ ثلاثٍ وثلاثينَ وثلاثمائة . وَرَدَ الخبرُ إليه بوُصول مُعزّ الدَّولـةِ ابن بُويه فخافَ خوفاً شديداً ، واضطربَ الناسُ ، وأهدى المستكفي إلـى مُعزّ الدولـةِ ألطافاً وفاكِهةً ووَصلَ مُعـزُّ الدولـةِ إلـى حضـْرةِ المُسْتَكْفي فـردَّ إليـه إمـارةَ الأمـراءِ وأعطاهُ الطَّوْقَ والسِّوارَ وآلةَ السَّلْطَنةِ ، وعقَدَ لهُ لواءً . وَهْوَ أوّلُ ملوكِ بني بُويْهِ في الحَضْرَةِ الخليفيّة ، وهْوَ الذي لقبُهُ مُعِـزّ الدّولـة ، ولَقّبَ أخـاهُ الآخـرَ عمـادَ الدَّولـةِ ، وأمَرَ أنْ تُضرَبَ ألقابُهُم على الدّينارِ والدِّرْهمِ ، ونزلَتِ الدَّيْلَمُ دُورَ الناسِ ببغداد ، ولم يكُنْ يُعرفُ ذلك منْ قبل . ثم إنَّ معزُّ الدولة رَكبَ يوماً إلى دارِ الخِلافة وسـلم علـى المُستكفي وقبّلَ الأرْضَ بينَ يديه ، وأمر المستكفي فطُرِحَ كرسيٌّ فجلـس عليـهِ مُعِزُّ الدَّولةِ ، ثم تقدّمَ إلى المستكفي رجلانِ من الدّيلـم بمواطـأةِ مُعِـزّ الدّولـة فمـدّا أيديهُمـا نَحْوَهُ ، فظنَّ المُستكفي أنّهما يريدانِ تقْبيل يدهِ ، فمدَّ يدَهُ فجذَباها ونكساهُ مـن السـريرِ ووضعا عِمامَتَهُ في عُنُقِهِ وسَحَباهُ ، ونهض مُعِزُّ الدّولة وضُرِبتْ البُوقاتُ والطُّبولُ ، واختَلطَ الناسُ ودَخلَ الدَّيْلَمَ إلى حرمِ الخليفة ، وحُمِلَ المُسْتكفـي إلى دارِ مُعِزّ الدولةِ

---

[1] العميد : ما يعتمد عليه .

[2] الخُلَع : الهدايا والهبات وتقاليد المنصب .

فاعتُقِلَ بِها ، وخُلِعَ منَ الخِلافةِ ونُهبتْ دارُهُ وسُملتْ عَيْناهُ . ولم يزلْ في دارِ السَّلْطنةِ مُعتَقَلاً حتَى تَوفيَ في سنةِ ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائة .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامهِ

أوّلُ وُزرائهِ السامريُّ أبو الفَرَجِ مُحمّدُ بنُ عليٍّ . لم يكنْ له حكمٌ ولا استبدادٌ ولم تَطُلْ أيّامهُ وقُبض عليهِ ، وهجاهُ بعضُ الشُّعراء بقولهِ :

الآنَ إنْ كفرَ المُقَتَّرُ رزقُهُ[1] قالوا : كَفرتَ فَخَفَّ عِقابَ النّارِ
أأكونُ رِجْلي مَركَبي [2] وَجَنيبتي[3] خُفّي [4] ، على ذُلٍّ بذاكَ وعارِ
و(السرَّ مَنْ رائي[5]) في إصطَبلِهِ مائتا عَتيقٍ فارِهٍ مُخْتارِ
كَلْبٌ حِمارٌ بالخيولِ ، وكاتِبٌ فَطِنٌ يضيقُ بهِ كِراءُ [6] حِمارِ
أنا قدْ دَهِشْتُ فعرِّفوني أنْتُمْ هذا من الإنصافِ في الأقْدارِ؟

(كامل)

ثم اضطربتْ أحوالُ الخِلافةِ ، ولمْ يبْقَ لها رَوْنَقٌ ولا وزارةٌ ، وتملَّكَ البُوَيْهِيّون وصارتْ الوزارةُ منْ جِهتِهمْ والأعمال إليْهمْ ، وقُرِّر للخلفاء شيءٌ طفيفٌ برَسْمِ إخراجاتِهمْ .

انقَضتْ أيّامُ المستكفي ووزرائه .

ثم ملكَ بعدهُ المُطيعُ للهِ أبو القاسمِ الفضلُ بنُ المُقتدرِ

بُويعَ سنة أربعٍ وثلاثين وثلاثمائة وكان أمرهُ ضعيفاً في أيّامه رُدَّ الحجرَ الأسودَ إلى مكانهِ وكانتْ القرامطةُ الخوارجُ قد أخذوهُ ثم رَدُّوهُ وقالوا : قدْ أخذناهُ بأمرٍ وردَدْناهُ بأمرٍ . وقويَ الفالِجُ على المُطيعِ وثَقُلَ لسانهُ فدخلَ عليه سُبُكْتكينُ

---

(1) المقتّر رزقُه : قليل الرزق .
(2) رجله مركبه : كناية عن السير على الأقدام بلا دابّة .
(3) الجنيبة : الدابّة تمشي إلى جنب صاحبها .
(4) الخُفّ : النعل .
(5) السرّ من رائيْ : المنسوب إلى سُرّ من رأى وهي سامرّاء ، مدينة المعتصم وقصد به الوزير
(6) كِراء للحمار : أجرة استخدامه وركوبه .

حاجبُ مُعِزّ الدولةِ فدعاهُ إلى خلْعِ نفسهِ ومُبايعة ولدهِ الطّائعِ ، ففعلَ ذلك وعقدَ الأمرَ لولدهِ وخلعَ نفسهُ . وماتَ في سنةِ أربعٍ وستين وثلاثمائة .

ثُمَّ ملكَ بَعْدَهُ ابنُهُ عبدِ الكريمِ أبو بكْرٍ
الطّائعُ لأمرِ اللهِ

بُويعَ لهُ سنة ثلاثٍ وستين وثلاثمائة . كانَ الطّائعُ شديدَ المِنّة وكانَ قدْ استَفْحَلَ عِنْدَهُ في البُستانِ كَبْشٌ جَبَلِيٌّ ، ما جسر أحدٌ أن يدنو منهُ . فخرجَ الطّائعُ إليهِ فَحَمَلَ الكَبْشُ عليهِ فثبتَ لهُ حتّى مكّنَ يديهِ من قرْنَيهِ ، ثم استدعى نجاراً وأمرَهُ بِقَطْعِ قَرْنَيهِ بالمنشارِ ، فقطعهُما النجّارُ وَهُما في يدِ الطّائعِ .

وفي أيامهِ قويَتْ شوكَةُ آل بُوَيهِ ، ووصلَ عَضُدُ الدولةِ إلى بغْدادَ . وانتَشرَ حُكْمُ البُويهيّين . ثم قبضَ البُوَيْهيون على الطّائعِ في سنةِ إحدى وثمانين وثلاثمائة . وبُويعَ بَعْدَهُ للقادرُ :

انقضتْ أيامُ الطّائعِ للهِ .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ القادرُ أبو العبّاسِ أحمدُ
ابنُ اسحاقَ بنِ المُقْتَدِرِ

بُويعَ لهُ سنةَ إحدى وثمانين وثلاثمائة .

كانَ القادرُ من أفاضِلِ خُلفائِهم ، حسنَ الطريقة والسَّمْتِ . كثير الخَيْرِ والدِّينِ والمَعْروفِ والعِبادةِ . تزوَّجَ بِنْتَ بهاءِ الدولة بن عضُدِ الدولةِ على صداقٍ مبلَغُهُ مائة ألفِ دينار . وفي أيامهِ تراجعَ وقارُ الدولة العبّاسيّة ونما رَوْنَقُها ، وأخذَتْ أُمورُها في القوّةِ . ومكثَ القادِرُ في الخِلافةِ مدّةً طويلةً ، وماتَ في سنةِ اثنتين وعشرين وأربعمائةِ .

ثُمَّ ملكَ بَعْدَهُ ابنُهُ أبو جعْفَرٍ عَبْدُ اللهِ
القائِمُ بِأمرِ اللهِ

بُويِعَ في سنةِ اثنتينِ وعشرينَ وأربعمائة .

كانَ القائِمُ منْ أفاضِلِ خُلفائِهِمْ وصُلحائِهِمْ . وطالتْ مُدَّتَهُ في الخلافةِ وزادَ بِهِ وقَارُ الدَّوْلَةِ ونمتْ قُوَّتَها . وفي أيّامه انْقرضتْ دولةُ بني بُويه ، وظهرتْ دولةُ بني سلْجوقَ .

شَرْحُ حالِ الدَّولةِ السلْجوقيّةِ
وابْتِدائِها وانْتِهائِها

هذهِ دولةٌ قويّةٌ قَوِيَتْ شَوْكَتُها وعَرُضَتْ مملكَتُها ونفذت تقدماتها في الحضرةِ الخليفية . واستَولَتْ على الخلافة . وخُطِبَ لها على المنابر . وضُرِبَتْ أسماءُ مُلوكِها على الدِّرْهَمِ والدِّينارِ .

ذِكْرُ ابْتِداءِ حالِهِمْ

هُمْ قَومٌ أصلُهُمْ منَ التُّركِ الخَزَرْ . وكانوا يَخْدِمونَ مع ملوكِ التُّرْكِ . ونشأ جدُّهُمْ سلْجوقُ وكانتْ أماراتُ النَّجابةِ لائحةً عليهِ ، ودلائلُ السعادة ظاهرةً على حركاتِهِ فقرَّبَهُ ملكُ التُّركِ واختَصَّ بهِ ولقَّبَهُ ((شباشي)) ، ومعناهُ في لُغتِهِمْ : قائِم الجيش . فنبغَ سلْجوقُ بعلوِّ همّتِهِ ، واستمالَ قلوبِ الرجالِ بكرمهِ وعقلهِ ، وانقادتْ الأكابرُ إليهِ . فيقول : إنَّ زوجةَ ملك التُّرك قالتْ لزَوْجِها : إنّي أتوسمُ في سلْجوقَ تغلُّباً عليكَ والرأيُ عِنْدي أن تَقْتُلَهُ فقد كثُر ميلُ الناس إليهِ . فقالَ لها : سوفَ أُبْصِرُ ما أصنَعُ في أمرهِ ثم أحسَّ سلجوقُ بشيءٍ منْ ذلك العزمِ ، وظهرَ لهُ التَّغيُّر فجمعَ عشيرتَهُ ومَنْ تبعَهُ وحالَفَهُم ، واستَجْلَبَ مَنْ أطاعهُ ، وصارَ قائداً مُعظَّماً للغُزِّ [1] ونفر بِهِمْ من بلادِ التُّركِ إلى بلادِ المُسلمين ، فلمّا دخلَها أظْهر الإسلامَ ليكونَ

---

[1] الغُزّ : بضم العين أو كسرها ، قبيلة قديمة من الأتراك دانت لسلجوق .

المسلمونَ عَونًا لهُ وليمكّنوهُ منَ المراعي والمساكِنَ ، فنزلَ بالجُند وشرعَ في غزو مَنْ قارَبَهُ مِنْ أصنافِ التُركِ وكانَ لِمَلِكِ التُرك إتاوةٌ [1] على تلْكَ البلاد المُتاخمة لهُ فقطعَها سلْجوقُ وطردَ نُوّابَهُ وماتَ سلْجوقُ وعُمْرُهُ مائةُ سنةٍ . ثُمّ نشأَ أوْلادهُ في القوّةِ والنِّعْمَةِ والدَّولةِ ، واستولوا على كُلّ موْضعٍ استَضْعَفوهُ مِنْ بلادِ العَجَم ،وما زالَ أمْرُهم ينمي حتّى ملكَ طُغْرُلْبك (وهو أوّلُ سلاطينهم) طائفةً منْ بلادِ العَجَمِ،وما زالَ أمرُهُ يقْوى حتّى تغلّبَ البساسيري على بغْداد ونهبها وقتلَ مَنْ بها.وأخْرجَ الخليفةَ القائمَ فَحبسَهُ بقَلْعةِ الحديثة وكانتْ فتْنةُ البساسيري فتنةً عظيمةً ، فحينئذٍ كتبَ القائمُ إلى طُغْرُلْبك السُلْطان يسْتدْعيه إلى بغْدادَ لينْصرهُ على البساسيري،فسارَ طُغْرُلْبك بعساكِرهِ إلى بَغداد فلمّا سَمِعَ البساسيريّ بذلكَ انْتَقَض عليهِ أمْرُهُ وفارقَ بغْدادَ،دخلَ طُغْرُلْبك إلى بغداد،وأعاد رونَقَ الدولة الخليفيّة وخُطِبَ لهُ بالسلْطنةِ على منابرِ بَغدادَ،وكانَ ذلكَ أوّلَ سلْطنتهمْ بالحضْرة وأمّا انْتهاؤُها : فإنّها ما زالتْ أُمورُها تَضْعفُ حتّى انْقرضتْ بالكليّة في أيّام النّاصر ، وذلك في سنة تسعينَ وخمسمائةٍ فتعالى اللهُ ! وماتَ القائمُ في سنة سبعٍ وستّين وأرْبعمائةٍ .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيامهِ

وزَرَ لهُ فخْرُ الدولةِ أبو نصْرٍ محمدُ بنُ محمدِ بنِ جهير .

[1] الإتاوة : الضريبة تُجنى للسلطة تكليفاً وعنوة .

وزارةُ ابنِ جهيرٍ

كانَ فخرُ الدولةِ من عُقَـلاءِ الرِّجـال وذهـاتهِمْ ، كـان فـي ابتـداء أمـره فقيراً مُدْقِعاً وترامتْ بهِ الأسبابُ ، فمِنْ مبادئها : أنَهُ كان جالسا بالكوخ يوما ، فعـبر عليـه غسّالٌ مِمّنْ يَغسِلُ بالخَربات ومعهُ فصوصٌ عتْقٌ قدْ استَحالتْ ألوانُها ، فاشتراها منـهُ بثلاثةِ دنانير وجلا بعضَها ، فخرج أحدُها ياقوتاً أحمرَ ، وخرج الآخر فيروزجاً جيّداً فصاغَ لِكُلٍّ واحدٍ منهما خاتماً مِنْ ذهبٍ . ثم إنه تقلّبتْ به الأمـورُ حتـى مضـى فـي رسالةٍ إلى ملكِ الرُّومِ فأهدى إليه الخـاتمين ، فأعطـاهُ عشـرين ألـف دينـار ، فكـانتْ أصلَ غِناهُ ونِعْمَتهُ ، ثم تنقّلَ في الخدمات حتى اتّصلَ بابنِ مروان صاحبِ ديار بكرٍ [1] فخدَمَهُ مدّةً وأثـرى [2] عنْدَهُ ثـرْوَةً ضخمـةً ، فسَمتْ همّتُـهُ إلـى وزارة الخليفـةِ ، فأرْسَلَ سِرّاً إلى القائمِ ، وعرض عليه نفْسهُ ، وبذلَ لهُ ثلاثيـن ألـف دينـار ، فأرْسَـلَ القائمُ بعْضَ خواصِّهِ في رسالةٍ إلى ابـنِ مـرْوان ، وكـانَ غرضُـهُ مـنْ إرْسـالِ ذلـك الرّسولِ أن يَجتَمِعَ بفخْـرِ الدولـةِ سِرّاً ، وقـرّر معـهُ مـا أراد ، ثُـمَّ لمّـا أرادَ الرسولُ الرجوعَ إلى بغدادَ خرج فَخْرُ الدولةِ كأنهُ يُودِّعهُ ، فانْحدر معهُ إلى بغْداد ، وكانَ قبلَ ذلك قد فرّقَ أموالهُ بالبلادِ وأنفذَ منْها شيئاً إلى بغْدادَ .

فلمّا وصلَ الرّسولُ إلـى بَغْدادَ ، وصَحْبَتـهُ فَخْـرُ الدولـة ، أرْسَـل القـائمُ إليـهِ أصحابَهُ يتلقونَهُ ، ثم خلعَ عليهِ خِلَعَ الـوزارة ، ونـهض فخـرُ الدولـة بـأمور الـوزارةِ أحْسَنَ نُهوضٍ . وكـانتِ الأطـرافُ المُتاخِمـةُ للعـراق عاصيـة علـى الخليفـة ، وكـانَ مُلوكُها أصدقاءَ فَخْرِ الدَّولةِ ، فكاتَبَهُمْ وراسلَهُمْ ، واستمالَهُمْ فدخلُوا في طاعةِ الخليفـةِ

ثُمَّ عُزِلَ فَخْرُ الدولةِ عن الوزارةِ ، بسبب كدر جرى بيْنَهُ وبيْن نظـام المُلْك وزيـر السُّلْطانِ ثم أُعيدَ فخرُ الدَّولةَ إلى الوزارةِ ، ولمّا أُعيـدَ إلـى منْصبـه قـال ابنُ الفضْلِ الشاعرُ يمْدَحُهُ :

---

[1] ديارِ بكْر : بلاد أقصى شرق الأناضول .

[2] أثْرى : زادَ مالُهُ واغتنى .

قَدْ رَجَعَ الحقُّ إلى نِصابِـهِ ... وأنْتَ مِنْ دونِ الوَرَى أوْلى بهِ
ما كُنْتَ إلا السَّيفَ سَلَّتْهُ يدٌ ... ثُـمَّ أعـادَتْـهُ إلـى قِـــرابِـهِ[1]

(رَجَز)

ولما عادَ إلى الوزارةِ فَرِحَ النّـاسُ بـه فرحـاً شـديدا ، فيُقـالُ : إنَّ سـقّاءً ذَبَـحَ ثَوْراً له لم يكنْ يملكُ غيرَهُ وتَصَدَّقَ بلحْمِـه ، فأعْطـاهُ الوزيـرُ بغْـلاً بآلتـه ، وأعْطـاهُ مَعَهُ شيئاً من الذَّهب .

◄ وزارةُ رئيسِ الرُّؤساءِ عليِّ بنِ الحُسَيْنِ بنِ أحمدَ ابنِ مُحمَّدِ عُمَرَ بنِ المُسْلِمَةِ

كانَ وزيرَ القائمِ قَبْلَ ابنِ جَهير . ومِنْ أجْلِهِ وَقَعَتْ فتنةُ البَساسيري ، وكـانَ قَبْلَ الوزارةِ أحدَ المُعدِّلين [2] بِبَغْداذ ، وممَن له معْرِفةٌ بالفِقْه . وأنس بـالعلْمِ وروايـةِ الحَديثِ وَجلَّ أمْرُهُ ، وعَظُمَتْ مَنْزِلَتُهُ ، ووقَع بينهُ شرٌّ وبينَ البساسيري أبي الحـارثِ التُّركـيِّ وكانَ أحد الأمراءِ فاقتضى الحالُ أنّ البساسيريَّ هرب ، ثُمَّ جمـعَ الجُمـوعَ وورَدَ إلى بَغْداذ واستَولى علَيْها ، ثم ظَفِرَ بابنِ المُسْلِمةِ رئيسِ الرُّؤساءِ فمثَّلَ بِه .

فَمِنْ جُمْلَـةِ مـا فَعَلَ بهِ ، أنَّـهُ حَبَسـهُ ثُمَّ أخْرَجَـهُ مُقَيَّداً وعليـه جبـةُ صُـوفٍ وَطُرْطُورٌ [3]مِنَ لَبَدٍ أَحْمرَ ، وفي رقَبَتِهِ مِخْنَقَةٌ فيها جُلـود مقطَّعـةٌ شـبيهةٌ بالتَّعـاويذِ ، وأُرْكِبَ حِمـاراً وطيـفَ بـهِ فـي المحـالِ ووراءه مَـنْ يَضْرِبُـهُ بجلدٍ ويُنـادي عليـهِ ، ورئيسُ الرُّؤساءِ يقرأُ : ((قُلِ اللهمَّ مالكَ المُلْكِ تُؤتـي المُلْكَ مَـنْ تشـاءُ وتَـنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تشاءُ)) [4] وَشَهَرَهُ في البلدِ .

فلمّا اجتازَ بالكَرْخِ نَثَرَ عليهِ أهْلُ الكرْخِ المَداساتِ الخُلْعِ وبَصَقـوا فـي وجْهِـهِ ووقفَ بإزاءِ دارِ الخِلافةِ منَ الجانبِ الغَربيِّ ، ثمَّ أُعيدَ وقَـدْ نُصِبَـتْ لـهُ خشَـبةٌ فـي

[1] قِرابُ السَّيفِ : غِمْدُهُ .

[2] المعدِّلين : المشهود لهم بالعَدْل .

[3] الطُّرْطور : قَلَنْسُوةٌ طويلةٌ دقيقةُ الرأس ، واللِّبد : الصوف المتلبِّد .

[4] سورة آل عمران ، الآية ٢٣ .

باب خُراسانَ ، فأُنْزِل عنِ الحِمارِ ، وخيط عليه جِلْدُ ثَوْرٍ قَدْ سُلِخ في الحـال وجُعِلَتْ قُرونُهُ على رأسِهِ ، علِّقَ بِكلابٍ في حلقِهِ ، واستَبْقِيَ فـي الخَشَبةِ إلـى أنْ مـاتَ مِنْ يَوْمِهِ .

انقَضَتْ أيام القائِمِ بِأمرِ اللهِ ووُزَرائه .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ ابنُ ابنِهِ المُقْتَدي بِأمْرِ اللهِ

وهو أبو القاسِمِ عَبْدُ اللهِ بنُ الذّخيرة بن القائِمِ ، بُويـعَ فـي سـنةَ سَبْعٍ وستّينَ وأربعمائةِ .

كانَ المُقْتَدي عاليَ الهِمّةَ خبيراً بالأمور منْ أفاضِلِ خُلَفائهمْ ، واتّفَقَ لـهُ مـعَ السُّلْطانِ مَلِكْشاه واقعةٌ عجيبةٌ : كان السُّلْطانُ ملكشاهُ قَدْ قصد بغْداد فوصلَها في سـنةِ خَمْسٍ وثمانينَ وأربعمائةِ ، وقَدْ تغيّرتْ نيّتُهُ مع المُقْتَدي ، فأرْسل مَلْكْشاهُ إلى المُقْتَدي يقولُ له : تَخْرُجُ منْ بَغداد وتَسكُنُ أيَّ بلدٍ شئْتَ ، فانْزَعجَ المقتَدي مِنْ ذلكَ وطلَبَ منْهُ أنْ يُمهِلَهُ شهْراً ، فقالَ مَلْكْشاهُ : ولا ساعةً واحدةً . وتَرَدّدت الرُّسُلُ بيْنهما ، ثم استَقَرَّتِ الحالُ بواسطةِ تاجِ المُلْكِ أبي الغنائم وزيرِ مَلِكْشاه أنْ يُؤخِّرهُ عشَرةَ أيّامٍ ، فقالَ مَلِكْشاهُ : يجوزُ ، ففي عيدِ الفِطْرِ صلّى السُّلْطانُ وخرَجَ إلى الصَّيْدِ فحُمَّ وافتَصدَ [1] فتُوفّيَ في نِصفِ شوّال ، وضَبَطَتْ زوْجتُهُ زُبَيْدةُ خاتونُ العسْكرَ بعْدَ موتِهِ ، واستَقَرَّ مَعَ المُقْتَدي تَرتيبُ ابنِها مَحمُودٍ في السَّلْطَنةِ ، وعُمْرُهُ يوْمئذٍ ستُّ سنين فَخَطَبَ لَهُ وَخَلَعَ [2] المقتَدي عليه ، وخرَجَ العَسْكرُ وخاتونُ وابنُها محمود بنُ مَلِكْشاهَ إلى أصفَهانَ ، وكفى اللهُ شَرَّ مَلِكْشاهَ المُقْتَدي ، وتُوفِّي المقتَدي فجأةً في سنةَ سَبْعٍ وثمانينَ وأربعمائةِ .

---

[1] افتصد : أجْرَي عليه الفَصْد ، وهو شق العرق للاستطباب .

[2] خلع عليه : أهداه الخِلعة وهي لباس السلطنة أو الوزارة .

شَرْحُ حالِ الوزارة في أيَامهِ

لمّا بُويعَ المُقتدي بالخِلافةِ أقرَّ فخْر الدّولة بنَ جَهير وزير أبيه على وزارتِهِ وقَدْ مضى مِنْ سيرتِهِ ما يُغني عَنْ ذكْرِ شيء آخر .

وزارةُ ابنهِ عَميدِ الدَّولةِ مُحَمَّدِ بن محمَدِ ابنِ مُحَمَّدِ بنِ جَهيرٍ لِلْمُقْتَدي

كان القائمُ والمُقْتَدي يُرْسلانه في رسائل إلى السلاطين فتَنْجَحُ على يدهِ ، وكانَ فاضِلاً حَصيفاً [1] ، فاستحلاهُ نظامُ المُلْك وزيرُ السُّلطان ، وكان يعجبُ مِنْهُ ويقولُ : وددْتُ أني ولِدْتُ مِثْلهُ ، ثم زوّجهُ ابنتهُ . واسْتَوْزره المقتدي ، وفوّض الأمورَ إليهِ ، ثمّ عزلَهُ فَشَفَعَ لهُ نظامُ المُلْك فأُعيد إلى الوزارة.

ثُمَّ وَقَعَ بينَ عَميد الدّولةِ وبينَ سلاطين العَجَمِ وقعةٌ ، فطلبوا من الخليفةِ عَزْلَهُ وأشارَ أصحابُ الخليفةِ بذلك فعزلَهُ ، وحُبسَ بباطن دار الخلافة ، ثُمَّ أُخْرِج ميّتاً فدُفِنَ وكان يقولُ الشِّعْرَ ، فمِنْ شعْرِهِ :

إلى متى أنْتَ في حِلٍّ وتَرْحـــالِ ... تَبْغي العُلا والمعالي مَهْرُها غالي
يا طالبَ المَجْدِ دونَ المَجْدِ مَلْحَمَةٌ ... في طيِّها خَطَرٌ بالنَّفْسِ والمـــالِ
ولليالي صُروفٌ[2] قلّما انْجَذَبَتْ ... إلى مُرادِ امْرِىءٍ يَسْعى بِلا مـــالِ

(بسيط)

وزارةُ أبي شُجاعٍ ظَهيرِ الدينِ مُحَمَّدِ بنِ الحُسَيْنِ الهَمَذانيِّ لِلْمُقْتَدي

كانَ رجلاً ديّناً ، خيّراً كثيرَ الخيْرِ والبرِّ والصّدقة . وَقَفَ لهُ على ثَبَتٍ [3] خَرَجَ على وُجوهِ البرِّ والصّدقاتِ خاصّةً بما قَدْرُهُ مائةٌ وعشرون ألْف دينار ، وكان

---

[1] حصيفاً : عاقلاً ، جيّد الرأي .

[2] صُروف : أحداث ومصائب .

[3] الثَّبَت : الحجّة والبرهان . ما كتب على وجه التثبّت .

الذي أوْرَدَ هذا الثَّبت كاتِباً منْ جُمْلَةَ عشرة كَتَبَة يكتُبونَ صدقاته خاصَةَ . ولمّا ولي ظَهيرُ الدين المذكورُ كتبَ إليه ابنُ الحريري صاحبُ المقاماتِ :

هنيئاً لكَ الفَخْرُ فافْخَرْ هَنيا | كما قَدْ رُزِقْتَ مكاناً عليّا
وبِتَّ كآبائِكَ الأكْرمينَ | لدستِ [1] الوزارةِ كفؤاً رضيّا
تحمَّلْتَ أعباءَها يافِعاً | كما أوتيَ الحُكْمَ [2] يحيى صَبيّا

(متقارب)

كانَ يُصلّي الظُّهْرَ ويَحْضُر لكشْفِ المظالم إلى وقْتِ العصْرِ ، وكان الحُجّابُ يُنادونَ في الناسِ : منْ كانتْ لهُ حاجةٌ فلْيعْرِضْها .

ومنْ مناقبه : أنّهُ لما وقعتْ الفتنُ بين السُنيّةِ والشّيعة بالكرْخ وباب البصْرة منْ مدينةِ السلامِ ، تغاضى عن إراقةِ الدماء غاية التغاضي ، حتى قال لهُ المقتدي : إنَ الأمورَ لا تمشي بهذا اللين الذي تستَعْمِلهُ ، وقد أطمعْتَ النّاس بحلْمك وتجاوُزك ، ولا بُدَّ مِنْ نقضِ دُورِ عشْرَةٍ من كبار أهْلِ المحالّ حتّى تقومَ السّياسةُ وتسكُنَ هذه الفِتنُ . فأرْسَلَ الوزيرُ إلى المُحتَسب وقال له : قد تقدّمَ الخليفةُ بنقض دور عشرةٍ منْ كبار أهْلِ المَحالّ ولا تمكنني المُراجعة فيهم ، وما آمن أنْ يكون فيهمْ أحدٌ غيرُ مُستحقٍّ للمؤاخذة ، أو أنْ يكونَ المُلْكُ ليس له ، فأريدُ أن تبعث ثقاتك إلى هذه المحالّ وتشتري أملاك هؤلاء المتّهمين فإذا صارتْ الأملاكُ لي نقضتُها وأسْلمُ بذلك مِنَ الإثْم ومِنْ سُخْطِ الخليفة ونقْدهُ الثّمن في الحال ، ففعل المُحتَسبُ ذلك ، ثُمّ بعْد ذلك أرْسَلَ ونقضها . وحجَّ بيتَ الله تعالى . ولمْ يُؤرِّخ عنْ وزير أنهُ حجَّ في أيّام وزارته إلا هذا ، فإنَّ الوزراء قبْلَهُ كانوا يحجّون بعْد خلوّهمْ من الوزارة ، إلا البرامكةَ فإنّهم حجّوا في حال وزارتهمْ . وطلب السُّلْطانُ جلالُ الدولة ملكشاهُ مِنَ المُقْتدي عزْلَ هذا الوزير ، فخرجَ توقيعُ المقتدي بعزْله على حالةٍ جميلةٍ لمْ يُصْرفْ بمِثْلِها وزيرٌ ، وانصرف إلى داره وهْو يُنْشدُ :

---

[1] دسْتُ الوزارة : صدْرُها ومنصبها ، وكلمة دستْ فارسيّة .

[2] قولُهُ كما أوتي الحكمَ يحيى صبيّا : إشارة واقتباس من القرآن الكريم ((يا يحيى خذِ الكتابَ بقوّةٍ وآتيناهُ الحكمَ صبيّاً)) سورة مريم ، الآية /١٢/ .

تـولاها ولَيْسَ لَـهُ عَدُوٌّ وفارَقَها ولَيْسَ لَهُ صَديقٌ

(وافر)

ثم اعتَزَل وتزَهَّدَ ولبس ثِياب القطْنِ وتوجّه إلى الحجّ،وأقام بمدينة الرّسـولِ- صلواتُ اللهِ عليـه وسـلامُهُ-فكـانَ يكْنسُ المسْجد النبـويَّ ويفْـرِشُ الحُصُر ويُشْعِلُ المصابيحَ وعليهِ ثوْبٌ مِنْ غليظِ الخامِ،وبدأ يحْفظُ القرآن وختمـه هُنـاك.ولـهُ شـعْرٌ لا بأسَ به فمِنْهُ قوْلُهُ :

إنَّ مَنْ شتّتَ الجميعَ مِنَ الشّمْـ ل قَـديـرٌ بـأنْ يُجمـعَ أهْــــلا
لَسْـتُ مُسْتَيْئِساً وإنْ طالَ هَجْرٌ رُبَّ هجر يكونُ عُقْباهُ وَصْـــلا
وإذا أعقبَ الـوِصـالَ فـــراقٌ كانَ ذاكَ الوِصالُ في القَلْبِ أحْلى

(خفيف)

وماتَ - رضي اللهُ عنْهُ - في سنة ثلاث عشرةَ وخمسمائة .
انْقضتْ أيّامُ المقتدي بأمرِ الله ووزرائه .

ثُمَّ ملكَ بَعْدَهُ ابنُهُ المُسْتَظْهِرُ باللهِ أبو العبّاس أحْمَدُ

بُويعَ لهُ بالخلافةِ في سنة سبْعٍ وثمانين وأرْبعمائةٍ .

كانَ المُسْتَظْهِرُ كريماً وَصُولا ، حسـنَ الأخْـلاقِ كبير الهمّـة سـهْلَ العريكـةِ مُهذَّبِ الخِلالِ ، مُحبّاً لِلْخيْرِ مُبْغضاً للظُلْمِ . في أيّامهِ تفاقمَ حالُ الباطنيّة [1] واسْتولَوا على المعاقِلِ والحصونِ بخُراسانَ . وكان أصلُ دعْوتِهمْ بخُراسانَ الحسن بن صبـاحٍ [2] وهوَ رَجُلٌ أصلُهُ مِنْ مَرْوَ ، وسافر إلى مصر وأخذَ مِنْ دُعاة آلِ أبـي طـالبٍ بهـا المذاهبَ ، وكانَ رَجُلاً ذا دهاءٍ وصاحبَ حيل ، ثمّ إنّهُ رجع مِنْ مصْر إلى خُراسـان وصارَ داعياً لآلِ أبي طالبٍ وتوصّلَ بأنْواع التوصّلات حتّى ملك قلْعة من بلادِ الدَّيْلَمِ

---

[1] الباطنيّة : فرقةٌ من القرامطة تعتقد للقرآن معنى ظاهراً ومعنى باطنا . وكان علـى رأسـها إلـى حين الحسن بن الصباح .

[2] الحسَنُ بنُ الصَّبّاح : داعٍ فاطميّ من أنصار نزار في خلافه مع أخيه المستعلي . فرّ من مصـر إلى قلعة ألَموت بعد مقتل نزار ، وأسـس فـرقـة الإسـماعيليّـة ودولتهـا فـي المشـرق . قضـى على دولته هولاكو / ٦٥٤ / هـ . ماتَ الحسنُ عام / ٥١٨ / هـ .

تُعْرَفُ بالرّوذبار فلمّا مَلَكَها قَوِيَ أمرُهْ واستَغوَى طوائفَ من النّاس ، وفشا مَذْهبُ الباطنيّةِ ونما ، واعتَقَدَهُ خَلْقٌ مِنَ الأكابرِ في باطنِ الأمْرِ . وما زال يستفحلُ أمْرُهُمْ إلى أنْ قَصَدَتْ العساكرُ المغوليّةُ قِلاعَهمْ وفعلتْ بها ما فعلتْ . وماتَ المستظْهِرُ في سنةِ اثنتي عَشْرَةَ وخمْسِمائةٍ .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامِهِ

لم يكنْ للوزارةِ في أيّامِهِ كبيرُ أُبّهةٍ . فمنْ وُزرائهِ زعيمُ الرُّؤساءِ أبو القاسمِ عليُّ بنُ فخْرِ الدّولةِ بنِ جَهيرٍ ، لم تَطُلْ أيّامُهُ . ولم يكنْ لهُ منَ السِّيَرِ ما يُؤثَرُ ، وبَعْدَ يسيرٍ مِنْ وَزارتِهِ عُزِلَ وقُبِضَ عليه .

وزارةُ أبي المعالي هِبَةِ اللهِ بنِ مُحمّدِ ابنِ المُطّلِبِ لِلْمُسْتَظْهِرِ

كانَ رَجُلاً كافياً مِنْ كُفاةِ الدّولةِ العبّاسيّةِ ، واستوزَرَهُ المُسْتَظْهِرُ بعْدَ زعيمِ الرُّؤساءِ ابنِ جَهيرٍ ، وكانَ قَبْلَ الوزارةِ يتولّى ديوانَ الزّمامِ . فحدّثَ عنْهُ بَعْضُ أصحابِهِ قالَ : دَخلْتُ يوْماً الوزارةَ وهو صاحبُ ديوانٍ . فرأيتُهُ مُفكّراً مضطرِبَ الخاطرِ ، فسألْتُهُ عنِ السّبَبِ فقالَ : كُنْتُ قد أنْهيْتُ إلى المسْتظْهِرِ في السّنةِ الخاليةِ اجتهادي في عِمارةِ البلادِ وضَبْطي وتثْميري للحاصيلِ ، وقُلْتُ قَدْ حصلَ في هذهِ السنةِ اثنا عَشَرَ ألفَ كُرٍّ وفي السّنةِ المُسْتقبلةِ يحصلُ عشرونَ ألفَ كُرٍّ ، فخرجَ جوابُهُ يشكرُني ويُثْني عليَّ وشرّفَني بشيءٍ منْ ثيابِهِ ، فسُرِرْتُ وقُلْتُ : هذهِ ثمرةُ الاجتِهادِ . ثُمَّ جرّدْتُ هِمّتي للعمارةِ وانْبعثْتُ بجهدي وطاقتي في عمارةِ المستقبلِ ، فاتّفقَ أن انفجرَ بَثْقٌ [1] فتلفَ من الارتفاعِ شيءٌ كثيرٌ ، وجرتْ أحوالٌ أُخرُ اقْتَضتْ خُفوقَ الارتفاعِ بحيْثُ نَقَصَ عن ارتفاعِ السّنةِ الخاليةِ فكتبْتُ مطالعةً إلى الخليفةِ أعرّفُهُ فيها بخفوقِ الارتفاعِ ، وذكرتُ له كميّةَ الحاصلِ ولم أشْرحْ لهُ السّببَ في

---

[1] البَثْقُ أو البِثْق : موضع الكسر من الشّطر ، يتدفق منهُ الماء .

نقيصةِ الارتفاعِ ، وقلتُ في نفسي : إنْ سَألني عنِ السَّببِ شرحتُهُ لَهُ ، فخرجَ جوابُهُ إليَّ يشكُرُني ويُثني عليَّ وشرفني بشيءٍ منْ ثيابه كما فعَلَ في السَّنة الخالية ، فقُلْتُ في نفسي : واويْلاه ! هذا حالي مَعَهُ في حالةِ الاجتهادِ والتقصيرِ ، وقدْ شكرني على الحالتينِ المُتناقضتينِ ، وهذا يدُلُّ على أنَّهُ لا يُفكِّرُ فيما يَقولُهُ ويفْعلُهُ ، فما يؤْمنني أنْ بَعْضَ مَنْ هُوَ قريبٌ إليهِ منْ أعدائي يعْرضُ عليه في أمري مـا يكـونُ سَبباً لِهلاكـي فلا يَتأمَّلُ القضيَّةَ بلْ يَتَقدَّمُ بما يُوافِقُ غرض العدُوِّ ؟ قالَ الحـاكي : فقُلْتُ لـهُ يُعيذُكَ اللهُ ويقيكَ مِمَّا تَحْذَرُ ، وما بَرِحتُ حتَّى سلَّيْتُهُ وأزلْتُ غمَّهُ . وكانَ هـذا أبـو المعـالي بنُ المطَّلبِ مِنْ عُلماءِ الوزَراءِ وأفاضِلِهِمْ وأخْيارِهِمْ .

انْقَضَتْ أيامُ المُسْتَظْهِرِ باللهِ ووُزرائه .

ثمَّ ملكَ بَعْدَهُ ابنُهُ المُسْتَرْشِدِ أبو مَنْصورٍ
الفَضْلُ بنُ المُسْتَظْهِرِ باللهِ

بُويعَ في سنةِ اثْنَتي عشرةَ وَخَمْسِمائةٍ .

كانَ المُسْتَرْشِدُ رَجُلاً فاضِلاً ، ولمـا بُويـع بالخلافةِ هـربَ أخـوهُ الأميرُ أبـو الحَسَنِ وأخْفى نفسَهُ ، ومضى إلى الحِلَّةِ [1] مُستجيراً بِدُبَيْسٍ [2] بـنِ صدقـةَ صـاحبِ الحِلَّةِ وكانَ دبيسُ بنُ صدقةَ أحدَ أجوادِ الدُّنيا ، وكانَ صاحبَ الدارِ والجارِ ، والحِمى والذِّمارِ وكانتْ أيامُهُ أعْياداً ، وكانتِ الحِلَّـةُ فـي زمانـه محطَّ الرِّحـالِ ، وملجـأَ بنـي الآمالِ ، ومأوى الطَّريدِ ، ومعتصمَ الخائفِ الشَّريدِ . فأكْرَمَهُ دبيسُ إكراماً زائداً عـنِ الحدِّ ، وأفردَ لهُ داراً وأكرمهُ إكراماً كثيراً ، ومكثَ عِنْدَهُ مدةً على أحْسَنِ حالٍ . فلما علمَ أخوهُ المُسْتَرْشِدُ باللهِ أنهُ عِنْدَ دُبَيْسٍ قلقَ لِذلكَ ، وخافَ مِنْ أمرٍ يحدثُ من ناحيتهِ فبعثَ نقيبَ النُّقباءِ عليَّ بنَ طِرادٍ الزَّيْنيَّ إلى الحِلَّةِ بِخاتَمهِ وأمانِه ، وأمرهُ أنْ يأخُذَ

---

[1] الحِلَّة : مدينة على الفرات في العراق ، جنوبي بغداد ، في منطقة بابل .

[2] دُبَيْسُ بنُ صَدَقَة : أمير الحلة ، وبادية العراق . فارس مقاتل ضد الصليبيين . ورد ذِكْرُهُ في مقامات الحريري . اتُّهِمَ باغتيال الخليفة المسترشد واغتيل في بغداد بتدبير مسعود السلجوقي عام ٥٢٩ هـ .

البَيْعةَ على دُبَيْس ويَطْلب مِنْهُ أن يُسَلم إليهِ الأمير أبا الحَسَنِ فقال دُبَيْسٌ : أمّا البَيْعةُ فالسَّمْعُ والطّاعةُ لأمرِ أميرِ المُؤمنين ، وبايع ، وأما تَسْليمُ جاري فلا والله لا أسلِمهُ إليكُمْ وَهُوَ جاري ونَزيلي ولو قُتِلْتُ دونهُ . إلا إنْ اختارَ . فأبى الأميرُ أبو الحَسَنِ التوجُّهَ صحبةَ النقيبِ إلى أخيهِ فمضى النقيبُ وحدهُ . ثمَّ بعد ذلك ظفر به المسترشِدُ فسَجَنَهُ في بعضِ دُورِهِ في حالةٍ جميلةٍ . وجرتْ بين الخليفة المسترشد وبين السُّلْطانِ مسعودٍ وحشَةٌ ، وتفاقمَ الأمرُ فيها وأفضى الحالُ إلى الحَرْب ، فتوجَّه الخليفةُ المسترشِدُ وصحبتَهُ العَسكَرُ وأرْبابُ الدّولة وتجهّزَ مسعودٌ لِلقائهِمْ فلما التقوا والتحمَ القتالُ انكسرَ عَسْكرُ المسترشِدِ واستَظهرَ السّلطانُ مسعودٌ عليهِمْ ونهبَ عَسكَرُهُ مِنَ العَسكَرِ الخَليفيِّ أموالاً عظيمةً ، فيُقالُ : إنّ صَناديقَ المالِ كانتْ على مائةٍ وسبعينَ بَغْلاً ، وهي أربعةُ آلافِ ألف دينارٍ ، وكانَ الرَّحْلُ على خمسمائة جمل وكانَ مَعَهُ عشرةُ آلافِ عِمامةٍ ، وعَشَرةُ آلافِ جُبّةٍ ، وعشرةُ آلافِ قَباء [1] ، كلُّ ذلكَ من فاخرِ الثِّيابِ ، كانَ قدْ أعدَّها لِلتَشريفاتِ إنْ ظَفِرَ ، فيُقالُ إن جملةَ ما نُهِبَ عَشَرةُ ألفِ ألفِ دينارٍ ، ونهى مسعودٌ عن إراقةِ الدِّماءِ ، وقبضَ على أصحابِ الخليفةِ وحملهم إلى القلعةِ وأمّا الخليفةُ فأفرد لهُ خَيْمةً ووكلَ به جماعةً ، وسارَ مَسْعودٌ والخليفةُ معه إلى مَراغةَ [2] ، فوصلَ كتابُ السّلطانِ سنْجر [3] إلى مسعودٍ يَأمرُهُ بالاحْسانِ إلى الخليفةِ وإعادتهِ إلى بَغْدادَ مُكرَّماً معزّزاً ، وأن يردَّ عليهِ أمْوالَهُ وأن يَجْعَلَ لهُ مِنَ الحَشَمِ والبركِ والأسبابِ أعظم وأجملَ ممّا ذَهبَ منْهُ ويعيدهُ إلى بَغْدادَ على أتمِّ حالٍ فامتَثَلَ مسعودٌ جميعَ ذلك ، وصنعَ لهُ من البركِ والأسِرّةِ والخِيَمِ والحُمُولِ أشياءَ جميلةً ووقعَ العزمُ على العود إلى بَغْدادَ واتّفقت غفلةٌ عن مسعود

---

[1] القَباء : ثوب يرتدى فوق غيره من الثياب .

[2] مَراغَة : كبرى مدن أذربيجان كانت عاصمة هولاكو قديماً ، شرقي بُحَيرة أُرمية في إيران اليوم .

[3] السلطان سَنْجَر : هو أحمد سنجر بن ملكشاه آخر سلاجقةِ الفُرْس ، خسرَ بِلادَ ما وراء النهر وأُسِرَتْهُ قبائلُ الغُزّ فكانتْ نهايةُ عهده بداية الانحطاط السلجوقي فيما وراء النهر . ماتَ حوالي / ٥٥٢ / هـ .

والعسكرِ ، فهجمَ جماعةٌ منَ الباطنيّةِ على المسترشِدِ فضربوهُ بالسكاكينِ في مخيّمِهِ بقريةٍ بيْنَها وبينَ مراغةَ فرْسخٌ واحِدٌ وقتلوا معَهُ جماعةً منْ أصحابِه وحينَ علِمَ مسعودٌ بذلكَ ركِبَ منزعِجاً مُظْهِراً للْجزَعِ وأخذ القومَ فقتلَهُمْ ، ثمّ نقل المسترشدَ على رؤوسِ العُلماءِ والأمراءِ إلى مَراغةَ فدُفِنَ بها وقبْرُهُ الآنَ بها معْروفٌ تحتَ قبّةٍ حسنةٍ ، رأيتُها عند وصولي إلى مراغةَ في سنة سبعٍ وتسعين وستمائةٍ .

واختلفَ الناسُ عند قتلِ المسترشدِ في سببِ قتْلِه ، فقالَ قومٌ : إن مسْعوداً لم يعلمْ بذلك ولا رضيَ بهِ . وقالَ قومٌ : بل مسعودٌ هو الذي واطأَ الباطنيّةَ على قتلِهِ وأمرَهُمْ بذلك ، لأنهُ خافَهُ حيثُ قويتْ نفسُهُ على جمْعِ الجموعِ وجرِّ الجيوشِ ، ولم يمكنه قتله ظاهِراً ، ففعلَ ما فعلَ من الإحسانِ إليه ظاهراً ثمّ إنه أخْرجَ جماعةً مِنْ أهلِ الجَرائمِ فقتَلَهُمْ وأوْهَمَ الناس أنّهُ قد قتلَ قتلتَهُ ، ثم أطْلَقهمْ سِرّاً ، وذلك في سَنةِ تسعٍ وعشرينَ وخمسمائةٍ .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامهِ

منْ أفاضِلِ وزرائِهِ أبو عليٍّ الحَسَنُ بنُ عليِّ بنِ صَدَقَةَ ، كانَ فاضِلاً نحْريراً عالماً بقوانينِ الرّياسةِ خيّراً ، استوزرَهُ المسترشِدُ سنةَ ثلاثَ عشْرةَ وخمْسمائةٍ ، ولقّبهُ بِجلالِ الدينِ سيّدِ الوزراءِ صدْرِ الشرقِ والغرْبِ ظهيرِ أميرِ المؤمنينَ ، كانَتْ له معرفةٌ بالحِسابِ وأعمالِ السّوادِ ، غيرَ أنهُ لا يُنْسَبُ إليهِ شيءٌ منَ الكرَمِ .

ثم إنّ المسترشدَ قبضَ عليهِ وعزَلهُ عنِ الوزارةِ ، ولم يكنْ ذلك عن إرادةٍ منَ المسترشِد ، وإنّما دعتْهُ الضرورةُ إلى القبضِ عليهِ ، لأنّ وزيرَ السُّلْطانِ كانَ يتعصّبُ عليهِ .

ثُمّ بعْدَ ذلك بمُديْدةٍ زالَ المانِعُ ، فأعادَهُ المسترشِدُ إلى وزارتِه ، وخلَعَ عليهِ خُلَعَ الوزارةِ وتقدّمَ إلى أربابِ الدولةِ بالمشْيِ بين يديهِ إلى الديوانِ ، وهو أوّلُ وزيرٍ مشى أرْبابُ الدولةِ بينَ يديهِ رَجّالةً [1] .

---

[1] رَجّالةً : ماشين على أرجلهم .

كانَ الوزيرُ ابن صدَقَة جالِساً يوْماً في دَسْتِ الوزارةِ فدخلَ عليه سديدُ الدَّولةِ ابنُ الأنباريُّ كاتبُ الإنشاءِ ، وفي كمّه أبياتٌ قدْ هجاهُ فيها الوزيـر ، فسـقطتْ الرُّقْعـةُ مِنْ كُمّهِ ، فمدَّ الوزيرُ يَدَهُ سريعاً وتناولها ، فكان فيها من جملة أبياتٍ :

أنْتَ الذي كونُهُ فَسادٌ　　　في عالمِ الكونِ والفَسادِ

(بسيط)

فلما رآها سديدُ الدولةِ في يدِ الوزير سقطتْ قوّتهُ خوْفاً وخجلاً ، فلمّـا قرأهـا الوزيرُ فَطِنَ للقصّة وصرَفَ الهجو عن نفسه إلى سديد الدَّولة ، وقالَ : أعـرفُ هـذه الأبيات ومن جملتها :

ولقَّبوهُ السَّديدَ جَهْلاً　　　وَهْوَ بريءٌ مِنَ السَّدادِ

ونظَمَ الوزيرُ هذا البيتَ في الحالِ ، فاستحيا السَّديدُ بنُ الأنباري وأمْسكَ عَـنْ الجواب . ولمّا عزَمَ السُّلطان سنْجرُ على الوصول إلى بغْداد وتوعّد الخليفةَ كتبَ إليهِ الوزيرُ ابنَ صدقة – ((والله لئن تحركْتَ لأقْطعنَّ جميـعَ مـا وراءَك عنْـكَ وأُقْطعُـكَ عَنْهُ ولئنْ سرْتَ فرْسَخاً لأسيرَنَّ فرْسَخيْنِ)) .

ومَرِضَ الوزيرُ أبو عليّ بنُ صدقة في آخرِ أيّامهِ فعادَهُ المُسْتَرشدُ وأنْشدَهُ :

دَفَعْنا بِكَ الآفاتِ حتّى إذا أتتْ　　　تُريدُكَ لم نَسْطِعْ لها عنْكَ مَدْفَعا

(طويل)

ولم يزل أمرُهُ يضمحلّ حتى تُوفيَ في سنةَ اثنتين وعشرينَ وخمسمائِةٍ .

وزارةُ الشريفِ أبي القاسمِ عليِّ بنِ طِرادِ الزَّيْنَبيِّ

هُوَ أبو القاسمِ عليُّ بنُ طِراد بن مُحمّد نقيبُ النقباءِ بن الحسَنِ بنِ محمّـدِ بـنِ عبدِ الوهّابِ بنِ سُلَيْمانَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ محمّد بن إبراهيمَ الإمامِ بـنِ محمّـد بـن علـيِّ ابنِ عبدِ اللهِ ابنِ عبّاس . وإنّما عُرفـوا بـالزينبيين لأن أمَّهُـمْ زينـبُ بنـتُ سُلَيْمانَ بـنِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبّاسِ ، عُرِفوا بها . كان مترَوّياً منَ المعْرفة بقوانينِ الـوزارةِ وأسبابِ الرِّياسةِ وهو الذي جَمَعَ النّاس على خلْعِ الرّاشد ، وقام في خلْعهِ وأخذَ البيْعة

للمقتفي القيامَ العظيمَ واتّفقَ معَ السّلطانِ مَسعودٍ على ذلك ، ووزرَ لخليفتينِ المُسترشِدِ والمُقتفي .

ولما استوْزَرَهُ المسترشِدُ وشافَهَهُ بالولايةِ قالَ لهُ : كلُّ من رُدّتْ إليهِ الوزارة شَرُفَ بها إلا أنتَ فإنَّ الوزارةَ شَرُفَتْ بكَ . وحملَ إليهِ الدَّسْتَ الكاملَ مِنْ دارِ الخليفةِ ، وتقدّمَ إلى أربابِ المناصبِ بالسّعيِ بين يديْهِ إلى الديوانِ ، ومكثَ على ذلك مُدَيْدَةً ، ثُمَّ قبضَ عليهِ المُسترشِدُ وعزَلَهُ ، ثمّ أعادَهُ إلى أجملِ ما كانَ عليهِ . فلمّا خَرَجَ المسترشدُ إلى حربِ مَسْعودٍ كما تقدّمَ شرْحُهُ ، خرجَ الوزيرُ معَهُ ، فلمّا جرى على المسترشِدِ ما جرى حظيَ الوزيرُ عندَ السلطانِ مَسْعودٍ وقرّبَهُ وأعلى مَحلَّهُ واستَصْحَبَهُ إلى بَغْدادَ ، وقامَ الوزيرُ بينَ يديهِ في خلعِ الراشدِ وإجْلاسِ المقتفي القيامَ الذي عَرَفَهُ لهُ مَسْعودٌ وشكَرَهُ عليهِ . وباقي أخبارِهِ تَرِدُ عِنْدَ ذكْرِ وزارتِهِ للمقتفي .

وزارةُ الوزيرِ أبي نَصْرٍ أحمدَ بنِ الوزيرِ نظامِ المُلْكِ لِلْمُسْتَرْشِدِ

كانَ كريماً جميلَ الصُورةِ وَزَرَ لِلْمُسْتَرشدِ باللهِ فشُكِرَتْ سيرتُهُ ، ولمّا عَزَمَ المسترشدُ على عِمارةِ سُورِ بَغدادَ قسّطَ على الناسِ خَمْسةَ عشَرَ ألفَ دينارٍ ، فقامَ الوزيرُ أبو نَصْرٍ بِها وأدّاها عَنْ الناسِ مِنْ مالِهِ ، ولَمْ تَطُلْ أيّامُهُ ، فتُوفيَ في سنةِ أربعٍ وأرْبَعينَ وخَمْسِمائةٍ [1] .

وزارةُ أنوشِيرْوانَ خالدِ بنِ محمّدٍ القاشانيِّ لِلْمُسْتَرْشِدِ

كانَ رَجُلاً من أفاضلِ الناسِ ، وأعيانِهِمْ وأخيارِهِم ، تولّى الوزارةَ لِلسّلاطينِ وللخُلفاءِ ، وكانَ يستقيلُ من الوزارةِ فيُجابُ إلى ذلك ، ثم يُخْطَبُ لهـا فيُجيبُ كارهاً هُو الذي صنّفَ لَهُ ابنِ الحريري المقاماتِ الحريريّةَ ، وإليهِ أشارَ في أوّلِها بقولِهِ : ((فأشارَ مَنْ إشارتُهُ حُكْمٌ وطاعتهُ غُنْمٌ)) .

---

[1] تكرر هذا التاريخ لوفاة الوزير أبي نصر في جميع طبعات الفخري . ولعلّ صوابه (سنة أربع وعشرين وخمسمائة) ما دام مقتل المسترشد قد وقع عام / ٥٢٩ / هـ . المحقّق .

طلبَ الأرّجاني الشاعِرُ مِنَ الوزير أنوشرْوانَ خيمةً ، فأرسل إليه بدنانيرَ كثيرةٍ وقالَ لهُ – اشترِ بها خيْمةً ، فقالَ الأرّجاني في ذلك .

للهِ درُّ ابنِ خالِدٍ رَجُلاً … أحْيا لَنا الجُودَ بَعْدَ ما ذَهبا

سألتُهُ خَيْمةً ألوذُ بِهـا … فجادَ لي ملءَ خَيْمةٍ ذَهَبـا

(منسرح)

وكانَ أنوشِرْوانُ بنُ خالدٍ كثيرَ التّواضُعِ مشهوراً بذلكَ ، يقومُ لكلّ من يدخـلُ عليهِ ، فهجاه ابنُ الهبّاريّةِ الشاعِرِ بقولِه :

هذا تواضُعُكَ المشهورُ عَنْ ضَعةٍ … تبدو فَمِنْ أجلِها بالكِبْرِ تتّهـمُ

قَعَدْتَ عَنْ صِلةِ الراجي وقُمْتَ له … فذا وثوبٌ على الطُّلابِ لا لَهُمُ

(بسيط)

وفيهِ يقولُ أيضاً يشيرُ إلى كثْرةِ قيامهِ :

رأيتُ مشروبَهُ بعيى … مزاوداً في يدِ الغُلامِ

فما بِهِ حاجَةٌ إليـــهِ … فإنّهُ دائِمُ القِيـــامِ

(بسيط)

وكانَ بينَ أنو شيروانَ بنِ خالدٍ وبينَ الوزيرِ الزينبيِّ عداوةٌ وتباغُضٌ وتنافُسٌ على الوزارةِ ، فعُزِلَ الوزيرُ الزينبيُّ وتولى أنوشرْوانُ بنُ خالدٍ ، فتقرَّبَ النـاسُ إليـهِ بثَلْبِ الزينبيِّ فَدخلَ الحيصَ بيصَ [1] الشاعرُ عليه وأنْشَدَهُ قصيدةً أوّلُها :

شُكْراً لِدَهري بالضّميرِ وبالفَمِ … لمّا أعاضَ بِمُنْعِمٍ عَنْ مُنْعِمِ

(كامل)

يُشيرُ إلى أنوشيروانَ وإلى الزَّينبيِّ ، فاستَحْسَنَ النّاسُ منـه ذلـك واستَدلّوا بـهِ على وفائِهِ وحرِّيّتهِ ثمّ إنَّ أنوشيرْوانَ بنَ خالدٍ مـاتَ ، وأُعيدَ الزينبـيُّ إلـى الـوزارةِ ، فتقرَّبَ الناسُ إليهِ بمسبّةِ أنوشيرْوانَ ، فدَخلَ عليه الحَيْص بَيْصُ وأنْشَدَهُ :

بَقيتَ ولا زلْتَ بِكَ النّعْلُ إنّني … فقدتُ اصْطِباري يوْمَ فقْدِ ابنِ خالدٍ

(طويل)

وماتَ أنوشيرْوان في سنةِ اثنتينِ وثلاثينَ وخَمْسِمائةٍ .

انقَضَتْ أيّامُ المسترْشدِ باللهِ ووُزرائِه .

---

[1] الحَيْص بَيْص : سَعْدُ بنُ مُحمّدٍ التميميّ . شاعرٌ بغداديّ مشهور . نشأ فقيهاً ، وغلبَ عليهِ الأدب والشعر ، عمّر اثنين وثمانين عاماً ، وكانت وفاته / ٥٧٤ / هـ .

ثُمَّ ملكَ بَعْدَهُ ابنُهُ الرَّاشِدُ بِاللهِ
أبو جَعْفَر مَنْصورُ بنُ المُسْتَرشِد

بُويعَ لَهُ بالخِلافَةِ عقيبَ وُصولِ الخبرِ بِقَتلِ أبيهِ سنةَ تسعٍ وعشرينَ وخَمْسِمائةٍ وجهّزَ الرّاشدُ عَسكَراً كثيفاً وتوجّهَ لمُحارَبَةِ مَسْعودٍ ، نحوَ العراقِ طالباً لتملّكِهِ ، فوَصلَ إلى بَغْدادَ في خَمْسَةِ آلافِ فارسٍ ودَخَلَها ، فكفَّ الرّاشدُ عن حَرْبِهِ وَخَرَجَ منْها متوجِّهاً إلى المَوْصِلِ ، ودَخَلَ السُّلْطانُ مَسْعودٌ بَغدادَ واسْتَبَدَّ بتدبيرِ الأمورِ فيها ، وأظْهرَ العدْلَ ومنعَ الجُنْدَ من الأذى ، وجمعَ القُضاةَ والشُّهودَ وأخذَ خُطوطَهُمْ بالقَدْحِ في الرّاشِدِ وكتَبَ مَحْضراً بخلْعِ الرّاشدِ وأثْبَتَهُ على القضاةِ وتولّى ذلكَ لَهُ الوزيرُ الزَّيْنبيُّ ، وكانَ مسعودٌ قد استَشار الزَّيْنبيَّ فيمن يُوليه الخلافةَ فقالَ لهُ يا مولانا ، هناكَ رَجُلٌ يَصلُحُ لَها فَسألَهُ عن اسمهِ فقالَ لَهُ : يا مولانا إنْ سمّيْتُهُ أخافُ أن يُقْتَلَ ولكن إذا دَخَلْنا بَغْدادَ سَمَّيْتُهُ لكَ . فلمّا احتاجوا إلى إجْلاسِ خليفةٍ سمّى الزَّيْنَبيُّ لَهُ أبا عبدِ اللهِ مُحمَّداً المقتفي عمَّ الراشِدِ ، فبايعَ لَهُ وأجْلَسَهُ على سريرِ الخِلافةِ . ثُمَّ إنَّ الرَّاشِدَ لم يتمَّ لهُ بالمَوْصلِ أمْرٌ فسارَ عنْها إلى أصفهانَ ، فوَثَبَ عليهِ جماعةٌ مِنَ الملاحِدةِ فقتَلوهُ على بابِ أصفهانَ . ذلكَ في سنةِ اثنتينِ وثلاثينَ وخَمْسِمائةٍ وقَبْرُهُ هناكَ مَعْروفٌ .

شرحُ حالِ الوزارةِ في أيّامهِ

لمّا أفْضَتِ الخِلافةُ إليهِ استوْزَرَ جلالَ الدينِ أبا الرِّضا مُحمّدَ بنَ صدَقَةَ ، ولم تَطُلْ أيّامُهُ ، وخافَ مما جرى ، فالتَجأَ إلى زَنْكي بنِ آقْسنْقُر صاحبِ المَوْصِلِ[1] فأجارهُ وأصلَحَ أمْرَهُ . ثُمَّ لَمّا خَرَجَ الراشدُ منْ بَغْدادَ استَخْدَمَ هذا أبو الرِّضا في بعضِ الخَدَماتِ غيرِ الوزارةِ ، وماتَ في سنةِ ستٍّ وخمسينَ وخمسمائةٍ ، ولم يكنْ لَهُ مِنَ السيرةِ ما يُؤثَر .

انقَضَتْ أيّامُ الراشدِ ، ووُزرائهِ .

---

[1] زَنْكي بن آقْسنْقُر : عماد الدين ، أولاده غازي ومودود ومحمود . كان شجاعاً وهو أول ملوك الدولة الأتابكيّة بالموصل . وهو الذي قاد ميمنة الجيش في حرب الخليفة المسترشد بالله مع دُبَيْس ابن صنكة ، وقد توسّعت مملكته إلى حلب ودمشق وحارب الفرنجة الصليبيين واستعاد منهم الرُّها قُتِلَ غِيلةً عام / ٥٤١ / هـ . انظر تفصيلات أكثر في كتاب الأعلام للزركلي ج ٣ ص ٥٠ .

ثُمَّ ملَكَ بَعْدَهُ عمُّهُ المُقْتفي لأمرِ اللهِ أبو عبدِ اللهِ مُحَمَّدُ بنُ المُسْتَظْهِرِ

بُويِعَ لهُ بالخِلافةِ سنةَ ثلاثينَ وخمْسمائة .

كانَ المقتفي مِنْ أفاضِلِ الخُلفاءِ ، ولمّا أجْلسَهُ مَسْعودٌ وبايع لَهُ ، وكانَ قَدْ أخَذَ جميعَ ما بِدارِ الخِلافةِ مِنْ ذَهبٍ أو أثاثٍ ورَحْلٍ وغيرِ ذلك ، وتصرّفَ نوّابُهُ في جميعِ جميعِ أعمالِ العِراقِ – أرسلَ إلى المقتفي يقولُ لهُ : اذْكُرْ ما تحتاجُ إليهِ أنتَ وكلُّ مَنْ يتعلّقُ بكَ حتّى أعيّنَ لكَ بهِ إقطاعات ، فأرسلَ إليهِ المُقتفي يقولُ : عِنْدَنا بالدارِ ثمانونَ بغلاً تَنْقُلُ الماءَ مِنْ دجلّةَ ليشربهُ عيالُنا ، فانظُرْ أنت كمْ يحتاجُ إليهِ مَنْ يَشْرَبُ في كلِّ يومٍ ماءً يحمِلُهُ ثمانونَ بغْلاً ؟ فقال مسْعودٌ : لقَدْ أجْلسْنا في الخِلافةِ رجلاً عظيماً ، فاللهُ تعالى يكفينا شرّهُ . وجرتْ في أيّامه فتَنٌ وحُروبٌ بيْنَهُ وبيْنَ سلاطينِ العَجَمِ كانَتْ الغَلَبَةُ فيها لهُ .وثار في أيّامِهِ العيّارونَ والمُفْسدون ، فنَهضَ بِقَمْعِهِمْ أتمَّ نُهوضٍ . وتُوفّيَ المقتفي في سنةِ خمْسٍ وخمسينَ وخمْسمائةٍ .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامهِ

أوّلُ وُزرائهِ الزّيْنَبيُّ أبو القاسمِ عليُّ بنُ طِرادٍ العبّاسيَ وزيرُ أخيهِ المُسترشِدِ استَوْزرَهُ حينَ بُويعَ ، لأنّهُ هُوَ الذي قامَ في بيعته وأشارَ على مسْعودٍ به ، ومكثَ مدّةً في وزارةِ المقتفي ، ثُمْ جَرَتْ بيْنَهُ وبيْنَهُ وحشةٌ خافَ فيها منْهُ ، فاستَجار بدار السلطانِ وأقامَ بها مدّةً مُعْتَصِماً من المقتفي ، إلى أن رُوسِلَ الخليفةُ مِنْ جِهةِ السُّلطانِ في معناهُ فأذِنَ في عَوْدِهِ إلى دارِه مكرّماً ، فانصرف إلى داره وأقامَ بها على قدم البَطالة واضمحلَّ أمْرُهُ ورَقَّ حالُه ، ولقي شقاءً عظيماً وضائقةً شديدةً ، حتّى إنهُ مرضَ فاشتَهت نَفْسُه شيئاً من المشْموم فلمْ يقْدِرْ على ثمنه ، وقدْ كانَ أنْفَقَ أكثرَ مالِهِ لِما كانَ مُستَجيراً بدارِ السُّلطانِ على خواتينه [1] وأتباعه وأرباب دولته ، وكانَتْ مواهِبُهُ دارّةً على أكثرِ أربابِ الدّولة وغيرِهمْ منَ العلماء والوافدينَ والطالبينَ

---

[1] الخَواتين : جمع خاتون وهي المرأة الشّريفة من نساء الملوك . والكلمة أعجميّة .

ولما مَرِضَ مَرْضَتَه التي ماتَ فيها كتَبَ إليه المقتفي رقعة يستميلُهُ فيها ويعدهُ بكُلِّ جميلٍ فتمثّل الوزير :

أَتَتْ وَحِياضُ الموتِ بيْني وبيْنَها وجادَتْ بِوصْلٍ حينَ لا ينْفَعُ الوَصْلُ

(طويل)

وقالَ : وصيتي حِفْظُ حَرَمي وأطْفالي ، فلما توفّي قام المقتفي بجميعِ ما يحتاجُ إليهِ أولادُهُ وصغارُه ، وأجرى عليهم الجراياتِ [1] الكثيرة .

وَزارةُ نِظامِ الدّينِ أبي نصرِ المُظَفَّرِ بنِ محمدٍ ابنِ جَهيرٍ البَغْداديّ للمُقتَفي

كانَ لَهُ أُنسٌ بالعُلومِ وخاصّةً بالحديث النبويّ – صلَواتُ الله على صاحبهِ – ولم تَطُلْ أيّامُهُ ، ولم يكُنْ له مِنَ السِّيرةِ ما يُؤثَرُ .

وَزارةُ مُؤتَمَنِ الدَّولةِ أبي القاسِمِ عليٍّ ابنِ صَدَقَةَ لِلمُقتفي

بيتُه بيتٌ مَشْهورٌ بالوزارةِ مَعْروفٌ بالرِّياسةِ ، وكان مؤتمن الدَّولة حَسَنَ الصُّورةِ والخُلُقِ ، لكنْ لا عِلْمَ عِنْدَه بقوانينِ الوزارةِ ، وكان كثير التعبّد والصَّدقةِ ، استَوْزَرَهُ الخليفةُ المقتفي لِأمْرِ اللهِ ، قالوا : كانَ هذا مُؤتَمنُ الدولةِ الوزيرُ قليلَ الاشتغالِ بالعِلْمِ وكانَ ضعيفَ القراءةِ في الكُتُبِ ، وكانَ قدْ أدْمنَ في قراءةِ جزءٍ واحدٍ مِنْ أجزاءِ القرآنِ وفي كِتابٍ واحدٍ مِنْ كُتُبِ الأدَبِ ، فكانَ لا يزالُ الجزءُ المذكورُ والكِتابُ بيْنَ يدَيْهِ يقرأ فيهما قراءةً جيّدةً ، فخفي على الناسِ حالُهُ مدّةَ وزارتِهِ فلمّا مات ظَهَرَ ذلك عنْهُ ، ولم يكن له من السِّيرةِ ما يُؤثَر .

---

[1] الجرايات : العطاءات والمرتّبات .

وَزارةُ عونِ الدِّينِ أبي المُظَفَّرِ يحيى بنِ هُبَيْرة لِلمُقتَفي

أوّلُ مَنْشئه منْ قريةٍ تُعْرفُ بالدّور منْ أعمالِ دُجَيْل [١] ، تُعْرَف اليوم بدور الوَزيرِ نسْبةً إلى ابنِ هُبَيْرة ، وكانَ أبوهُ أكّارا [٢] بالقرية المذكورة ، وكان يحثُّ ولدَهُ على تحصيلِ الأدبِ وإدراكِ الفوائد ، وكان يردّدهُ صغيرا إلى بغداد ويُحْضِرُه إلى مجالسِ الصّدورِ وصُدورِ المجالسِ ، وكان هو كما قيل :

ولها مِنْ نَفْسِها طَرَبُ

وماتَ أبوهُ وهوَ صبيٌّ ، فتَفرَّد بالاشتغال ، وتقلّبتْ به تصاريفُ الأمورِ ، ومرّتْ عليه شدائد ، وكابدَ منَ الفقْرِ أهْوالا ، وتنقّل في الخدمات ، فكانَ لا ينتقلُ من خدمةٍ إلا إلى أكبرَ منْها ، ومازالَ ينْتقلُ منْ خدمةٍ إلى أُخْرى أرفع منْها حتّى تقلّدَ الوزارةَ للمقتفي فمكثَ فيها مدّةً ، ومُشاهرته في كلّ سنةٍ مائةُ ألفِ دينارٍ ، وكانَ كريماً جواداً سَمْحاً لا يخرجُ مِن السّنةِ وفي خزانته منْها دِرْهمٌ واحدٌ ، وكانَ المقتفي والمستنجدُ يقولانِ : ما وَزرَ لبني العبّاسِ كيحيى بن هُبَيْرة في جميعِ أحواله ، وكانتْ لَهُ في قَمْعِ الدَّوْلةِ السلْجوقية يدٌ قويّة وحِيل مرْضية ، وكان وقورا حليما مُتواضعاً ، لمّا تولّى الوزارةَ دَخَلَ الديوانَ وَعليْهِ الخِلَعُ ، فرأى غُلاماً منْ غِلْمانِ الديوانِ واقفاً عَنْ بعدٍ فاستدناهُ وتبسّم في وجههِ ، وأمرَ له بذهبٍ وكسْوةٍ ، ثم قالَ : لا إله إلا الله أذكُرُ مرّةً ، وقد دَخلْتُ هذا الديوانَ وجَلسْتُ في بعضِ المجالس،فجاء هذا الغُلامُ وجذبني بيدي وقالَ : قُمْ فليسَ هذا مَكانُكَ، وقد رأيتُه الساعةَ واقفا ، وأثرُ الخوفِ ظاهرٌ عليهِ ، فأحْبَبْتُ أن أؤانسهُ وأزيل رُعْبهُ ، ورأى يوماً في الديوان جنديّاً فقالَ لحاجبه : أعطِ هذا الجندي عشرين دينارا وكُرّ [٣] حنطةٍ ، وقُلْ لهُ : لا يدْخل الديوانَ ولا يُرينا وَجْهَه ، فتغامزَ الناسُ وتشوّقوا إلى معرفة السبب في ذلك وفطنَ الوزيرُ لِذلك ، فقالَ لهم : كانَ هذا الجنديُّ شحنَةَ في قريتنا ، فقتل شخصٌ من أهلِ

---

[١] دُجَيْل : إقليم بالأهواز فيه نهر بهذا الاسم .

[٢] الأكّار : الحرّاث أو الفلّاح .

[٣] الكُرّ : مكيال يعادل أربعين إرْدبا . والإردبُ أربعة وعشرون صاعا أو كأسا كبيرة .

القريةَ فجاء هذا الشَّحْنَةُ [1] وأخذَ جماعةً منْ أهْلِ القريـةِ وأخذنـي معهمْ مكتوفـاً فـي عرضِ الفرَسِ ، وبالغَ في أذاي وضَرْبِي ، ثُمَّ أخذ منْ كلِّ واحدٍ منهم شيئاً وأطلقهُمْ وبقيتُ أنا معَهُ ، فقالَ لي : أعطني شيئاً أخلصك ، فقلتُ : والله ما أملكُ شيئاً ، فأعادَ عليَّ الضربَ والإهانةَ ، ثُمَّ قالَ لي : اذهبْ إلى لعنةِ اللهِ ، ثم أطلقني ، فأنا لا أحبُّ أنْ أرى صورةَ وَجْهِه .

ومنْ أفكارِهِ اللطيفةِ ، أنَّ الوزراءَ كانوا قبْلَهُ يلقّبون ألقاباً مـنْ جُمْلَتِهـا : سيِّد الوزراءِ ، فتقدّم هو إلى الكتّاب ألا يكتبُوا هذا اللقبَ في ألقابـه ، وقـالَ إنّنـي افتكرتُ في هذا فرأيتُ اللهَ تعالى قدْ سمّى هارونَ وزيراً ، حتّى قال (عزّ منْ قائلٍ) حكايـةً عَنْ موسى – عليهِ السّـلامُ – : ﴿ **واجْعَلْ لـي وزيـراً مِنْ أهلي ۞ هـارونَ أخـي ۞ اشددْ به أزْرِي** [2] ﴾ وسَمِعْتُ عن (النبيِّ عليه السّلامُ) أنه قالَ : ((لي وزيرانِ مِنْ أهلِ السّماءِ : جبْرائيلُ ومكيائيلُ ، ووزيران مـنْ أهْلِ الأرْضِ : أبـو بكرٍ وعُمَـر)) وقالَ عليـهِ السلامُ : ((إنَّ اللهَ تعالى اختار لي أصحاباً فجعلَهُمْ وُزراءَ وأنصاراً))

وحدّثَ عنْهُ بعْضُ مُجالسيهِ قـال : كنّـا يومـاً عنـدهُ فدخـلَ الحـاجبُ وقـالَ : ياموْلانا بالبابِ رَجُلٌ سَواديٌّ ، يذكرُ أنَّهُ فلانُ بنُ فلانٍ ، ومعَهُ شَـمْلَةٌ مكوّرةٌ ، وهـو يطلُبُ الحضورَ بينَ يديْك فعرَفَهُ الوزيرُ وقالَ له : أدْخِلْهُ ، وقالَ : فدخلَ شيْخٌ طويـلٌ مِنْ أهلِ السّـوادِ عليـه ثيـابٌ غليظـةٌ مـنَ القُطْـنِ وعِمامـةُ فُوطٍ مُلونـةٌ ، وفـي رِجْلِـه جُمجمانٍ [3] فسلّم على الوزيرِ وقالَ : ياسيّدي أم الصُّغيرات – يعْنـي زوْجَتَـهُ – لمّا علِمَتْ أني أجيءُ إلى بَغْداد قالَتْ لي : سلّمْ على الشّيْخِ يحيى بن هُبيْرة واستَوْحشْ لَهُ [4] ، وقَدْ خَبَزَتْ لكَ هذا الخبزَ على اسْمِكَ ، فتبسّم الوزيرُ وهَشَّ بـه وقـالَ : جزاهـا اللهُ خيْراً وحَلَّ تِلْكَ الشَّمْلَةَ فإذا فيها خُبْزُ شعيرٍ مشْطور بكامخِ التوت ، فأخذَ الوزيـرُ مِنْه رغيفين وقالَ : هذا نصيبي منْ هذهِ الهديّة ، وفرّق الباقي على

---

[1] الشّحنة : هنا ، ضابط الأمن في البلد ، ما يعرف لدى عوام اليوم بالبوليس .

[2] سورة طه ، الآيات /٢٩ – ٣٠ – ٣١ / .

[3] جُمجمان : نعْلان خشبيّان .

[4] استوحشْ له : أظهرْ اشتياقك ووحشتك لبعده عنك .

الصُدور [١] الحاضِرين ، وسألَ الرّجُلَ عن حوائجهِ وحوائج زوْجته فقضاها ، وقال لِلْحاضِرين : هذا كانَ جاري في قرْيتي وشريكي في زريع [٢] وأعرفُ منه الأمانةَ .

ومِنْ حيلِهِ أنّه كانَ ببعضِ بلادِ العجم رجلٌ كلّما أُقيمت الخُطْبةُ يوم الجمعةِ في الجامعِ يقومُ ويذمُّ الخليفةَ ، ويَدْعو للسلطان ، فاتّصلَ ذلك بالوزيرِ ابنِ هُبيرةَ ، فأحْضَرَ شخصاً منْ أهلِ بَغْدادَ وأمَرهُ أن يُسافر إلى تلكَ البلدة ، وأعطاه عشرةَ دنانير ذهباً وقارورةً [٣] فيها خِطْر [٤] ، وقال لهُ : إذا دخلت ذلكَ البلدَ ، وحضرْتَ يومَ الجمعةِ في الجامعِ ، ورأيتَ الرّجُلَ الذي يسبُّ الخليفةَ فانْهضْ إليه ، وأنتَ على زيِّ التّجارِ وأمِّنْ على كلامِهِ ، وأظْهِرِ البُكاءَ عنْدَ مسبّةِ الخليفةِ ، وقُلْ : إي واللهِ ، فعلَ اللهُ بهِ وصنَعَ وهلْ غرّبني عَنْ عيالي ووَطني وأفقرني غيْرُه ، ثمّ افْعلْ في الجُمْعةِ الثانيةِ كذلكَ ، وقلْ لَهُ : قدْ حلفْتُ أني أمْلأُ فمَك دنانيرَ ، وضعْ هذه الدنانير حشْوَ فمِهِ وأخرُجْ عنهُ وبادِرْ إلى استعمال هذا الخِطْر على وجْهكَ ولحْيتك ، فإنه يُحدِثُ في الوجهِ سُمْرةً ، وفي شيبِ للحيةِ سواداً ، وغيّر زيّك حتى لا تُعْرَفَ فتهلكَ ، ففعلَ الرّجلُ ذلك ، وكانتْ الدّنانيرُ مسْمومةً ، فلما راح ذلك الرّجُل إلى بيْتِه مازال يتقلْقلُ حتّى ماتَ مِنْ يوْمِهِ ، واستعمل الرّجلُ المنفذُ الصِبْغَ ، فأخفى نفْسهُ ورجعَ إلى بَغْدادَ

ومِنْ حيَلِه أنّهُ كانَ يكتُبُ إلى مُلوكِ الأطْرافِ مُلْطفات [٥] صِغاراً في رقٍّ خفيفٍ ويشقُّ في جلدِ ساقِ الرّكابي بمقدارِ ما يُدْخلُها فيه ثم يتركُهُ حتى يلْتحم ويسيّره إلى حيْثُ أرادَ ، ومن قوّةِ جأْشِهِ وثباته ، أنه كانَ يوْماً جالساً بالديوان وبين يَدَيْه الأمراءُ والصُدورُ والأكابرُ ، فسقطتْ مِنَ السقف حيّةٌ كبيرةٌ ، فوقعتْ على كتِفِ الوزيرِ وسَرحَتْ مِنْ كتفهِ إلى حجْرهِ ، فنفر كلُّ منْ كان هناكَ منْ أربابِ الدولةِ عَنْ مُستقرّهِ وانْزعجوا عنْ مَراتبِهم ، والوزيرُ جالسٌ لمْ يَتحرّكْ عنْ مكانهِ ولا تَغيّر عَنْ

---

[١] الصُدور : هنا ، السادة والأعيان . الحَشَم .

[٢] الزّريع : الزرع المسقي بالمطر .

[٣] القارورة : إناء يجعل فيه العطر أو الشراب كالقَنينة .

[٤] الخِطْر : نبت يُختضب به . الخِضاب أو الصِّبْغ .

[٥] مُلْطفات : مُلصقات رقيقة .

دَستِه [1] ، ما كأنّ وقعَ عليهِ شيء ، ثمّ أمر المماليكَ بقَتْلِها فقُتِلَتْ بينَ يَدَيْهِ .

وفي الجُملةِ ، فكانَ ابنُ هُبيرَةَ منْ أفاضل الوزراءِ وأعيانِهمْ وأجدّهم ، لَهُ في تدبيرِ الدولةِ وضبْطِ المملكةِ اليد الطُولى ، ولهُ في العلومِ والتصانيف التبريزُ [2] على أهلِ عَصرِهِ ولَهُ أشعارٌ كثيرةٌ ، فمنها :

يَقينُ الفتى يُزْرِي [3] بِحالةِ حِرْصِهِ ... فَقُـوَّةُ ذا عن ضَعْفِ ذا تَتَحصَّلُ
إذا قَـلَّ مالُ الـمـرءِ قَـلَّ صَديقُـهُ ... وَقُـبْـحُ مِنْـهُ كُلُّ مـا كانَ يُجْمُلُ

(طويل)

وفي آخرِ أيامِهِ عَرضَ له تزايدُ البلْغمِ فمـاتَ وهُو سـاجدٌ ، وذلـك فـي سنةِ ستين وخَمْسمِائةِ .

انقضت أيام المقتفي لأمرِ الله وَوُزرائه .

ثُمَّ ملَكَ بَعْدَهُ المستنجدُ باللهِ المُظَفَّرُ يُوسُفُ

بُويعَ عقِبَ مَوْتِ أبيهِ في سنةِ خمس وخمسين وخمسمائةِ .

كـان المستنْجِدُ شَـهْماً عارفـاً بـالأمور ، لمـا ولـي الخلافـةَ أزال المُكـوسَ والمظَالِم ، إلا أنَّهُ فَعَل قبيحةً : حَلَّ المقاطعاتِ وأعادَها إلى الخَراجِ ، فشقَّ ذلك على العلويّين بالكوفةِ والمَشاهدِ مشقّةً عظيمةً ، ونسبوا هذا الفِعْلَ إلـى ابـنِ هُبَيْرة ولَعنُوه بالمَشَاهدِ .

وفي أيّامِهِ ابتدأ فَتْحُ مِصـْرَ وَضَعُفَتْ دَوْلـةُ الفـاطميين بهـا ، وفـي أيّـامِ ولَـدِهِ المُستضيء تكامَلَ فَتْحُها على يدِ صَلاحِ الدين يُوسُفَ بنِ أيّوبَ .

وماتَ المُستَنْجِدُ مخنوقاً في الحمّام ، وخنَقَه أكابرُ دَوْلَته عقيب مَرْضةٍ صَعْبةٍ كـانَتْ قَد عَرَضَتْ لَـهُ لأنَّهُمْ خـافوهُ علـى أنفسـهمْ ، وذلـك فـي سـنة سـتٍّ وسـتّين وخمسمائةِ .

---

[1] الدَّست : صدر المَجْلِس .

[2] التَّبْريز : التَّفَوّق .

[3] يُزْرِي : يحُطُّ بهِ وتنقص قيمته .

شَرْحُ حالِ الوزارةِ في أيّامِهِ

لمّا بُويِعَ بالخِلافَةِ أَقَرَّ ابنَ هُبَيْرةَ وزيرِ أبيهِ على وَزارتِهِ ، وزادَ في رَفْعِ مَنْزِلَتِهِ ، وقدْ مَضى مِنْ سيرةِ ابنِ هُبيرةَ ما يُغْني عن الإعادةِ .

وَزارةُ وَلَدِهِ محمّدِ بنِ يَحْيى بنِ هُبَيْرةَ

لَقَبُهُ عِزُّ الدين ، نابَ عَنِ الوزارةِ بعْدَ وفاةِ والدهِ ، وكان فاضلاً رئيساً عبقاً بالسِيّادةِ ، شاعراً رشيقَ المعاني ، خبيراً بالأدبِ والحديثِ النّبويّ ، وحُبِس بعْدَ مَوْتِ أبيهِ ولم يُعلَمْ خَبَرُهُ بعْدَ الحَبْسِ ، ورُوِيَ عَنْهُ هذانِ البيتانِ ، أنهما لهُ .

كم منَحْتُ الأحداثَ صَبْراً جميلاً ولَكَمْ خَلَيْتُ صابَها سَلْسَبِيلا

ولَكَمْ قُلْتُ للّذي ظَلَّ يَلْحا ني على الوَجْدِ والأسى سَلْ سَبيلا

(خفيف)

وَزارةُ شَرَفِ الدّينِ أبي جَعْفَرٍ مُحَمّدِ بنِ أبي الفتْحِ بنِ البلديّ لِلْمُسْتَنْجِدِ باللهِ

كانَ قَبْلَ الوزارةِ ناظراً بواسِطِ ، فأبانَ في مدّةِ ولايَته عليْها عَنْ قوّةٍ وجَلادةٍ وارتفاعاتٍ ناميةٍ وحُلومٍ دارّةٍ ، فعَظُمَتْ منزلتُهُ عنْدَ المُستَنْجِد ، وكُوتِب عَنِ الخليفةِ إلى واسِطٍ بما يَقضي أنْ يكونَ وَزيرَه ، وتأكّد الحالُ في ذلك ، فحكَمَ حُكْمَ الوزراءِ وهوَ بِواسِطٍ ، وَوقّعَ وكاتَبَ مُلوكَ الأطرافِ وهُو بواسطٍ ، ثمّ أصْعَد إلى بغْداد فَخرَجَ الموكِبُ لِتلقيهِ ، وَفيهِ جَميعُ أعْيانِ الدّولةِ ، وكانَ عَضُدُ الدينِ أبو الفرجِ محمّدُ بنُ رئيسِ الرُؤساءِ أستاذُ الدّارِ بيْنَه وبينَ ابنِ البلديّ كَدَرٌ ، فَكَره عضُدُ الدينِ الخُروجَ إلى تلقّيهِ ، وَقَدْ كانَ الخَليفةُ تقدّمَ إليهِ بِالخُروجِ ، فَبَذَل خمسةَ آلاف دينارٍ على أنْ يُعفى مِنَ الخُروجِ إليهِ ، فقال الخَليفةُ : إن عجّلها نَقْداً أعفَيتُهُ من الخُروجِ ، فوُزِنَتْ في الحالِ وحُمِلتْ ، فلمّا صارَتْ في الخِزَنِ تقدّم الخليفةُ إليه بالخروجِ لتلقي الوزيرِ ، وقيلَ لَهُ : هذا المالُ جنايةٌ عَنْ كَونِكَ تَكْرَهُ ما نُؤثر ، وتُراجِعُ في التقدماتِ الشّريفةِ ، فذَهبَ المالُ مِنْهُ وخَرَجَ عابِراً إلى الجانبِ الغربيّ صحبةَ المَوكِب ، ومضى النّاسُ

كلُّهمْ إلى صَرْصَرَ فتلقوْهُ هُناكَ ، فلمّا وقعتْ عينُ عضُدِ الدينِ أستاذ الدارِ على الوزيرِ أرادَ عضُدُ الدينِ أن يَترجَّلَ ، فصاحَ به الوزيرُ : واللهِ لئنْ ترجَّلْتَ ترجَّلْتُ أنا أيضاً ، فتقدّمهُ [1] ، ثمَّ اعتنقا على ظهورِ الدّوابِّ ، وسارَ بيْنَ يديْه ووصَلَ الوزيرُ إلى محاذاةِ التاج [2] ، وعَبَرَ في سفينةٍ وحضَرَ بينَ يدي الخليفةِ فشافَهَهُ بالوزارةِ ، وخُلِعَتْ عليه خُلَعُ الوَزارةِ ، وأُكّد عليه النهوض بالمهام الديّوانيّة فنهضَ بأعباءِ الوزارةِ ، ومازالَ أمرُهُ على السّدادِ إلى أن جرى للمُسْتَنْجِد ما جرى ، مِنْ تغلُّبِ عَضُدِ الدينِ أُستاذِ الدّارِ وأكابرِ الأمراءِ عليه وإِدْخالِه الحمّامَ وهُوَ مريضٌ حتّى ماتَ مِنَ الحرارةِ ، ثم إنّ عضُد الدينِ أستاذ الدّار أخْرَجَ وَلَدَه المُستضيء وبايَعَهُ ، وشَرَطَ عَلَيْه شُروطاً وأحْلَفَهُ عليها أيماناً مُؤكّدة ، مِنْها أنْ يكونَ هُوَ وزيراً ، وأن يكونَ وَلَدُه أُستاذَ الدارِ ، وفلانٌ أميرَ العَسْكرِ ، وفلانٌ كذا وكذا ، فالتزمَ المستضيءُ لهمْ بذلكَ وَحَلَفَ أيْماناً غليظةً ، ثُمَّ بُويِعَ المُستضيء في باطنِ الدّارِ البَيْعةَ الخاصّةَ ، واستُدْعِيَ الوزيرِ ابنُ البلديّ ليبايعَ فلما حضَرَ الدارَ عُدِلَ به إلى مكانٍ وضُرِبَتْ عُنُقُه ، وأُخْرِجَ فرُمِيَ على مَزْبلةٍ بباب المَراتِب ، ثُمَّ سُحِبَ وأُلقي في دجْلةَ ، وكانَ حَسَنَ الطَّرِيقَةِ مَشْكورَ الأَخْلاقِ .

انقضَتْ أيّامُ المُسْتَنْجِدِ ووُزرائِه .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ وَلَدُه المُستضيء أبو محمّدٍ الحَسَن بن المستنجد بالله

بُويعَ في سَنَةِ سِتٍّ وسِتِّين وخَمْسِمائةٍ ، ولم يكُنْ بسيرته بأسٌ ، وفي أيّامِهِ وَرَدَتْ البشائرُ إلى بغْدادَ بِفَتْحِ مِصْرَ وانقراضِ الدّوْلَةِ الفاطِمِيّةِ .

---

[1] في الأصل (فَخَدَمَه) ، ولعلّ الصواب (فتقدّمه) كما يقتضي المعنى . المحقق .

[2] التاج : قصر الخلافة في بغداد .

ولما جلَسَ على سريرِ الخلافة تقدّم بقتْل ابنِ البلديِّ وزير أبيه ، وتوفّي في سنةِ خمْسٍ وسَبْعين وخمسمائةٍ .

شَرْحُ حالِ الوَزارةِ في أيّامِهِ

أوّلُ وزارتِه عضدُ الدين أبو الفرج محمدُ بنُ أبي الفتوح عبدُ الله بنُ رئيس الرُّؤساءِ الذي كانَ قبْلَ ذلكَ أستاذَ الدار .

كانَ عَضُدُ الدّينِ مِنْ أفاضلِ النّاس وأعْيانِهِمْ ، وكانَ أستاذَ الدار في أيّام المُسْتنْجِدِ فلمّا جرى للمستنجد ما جرى استولى عضُدُ الدين ، ونهض في إخراجِ المُستَضيءِ مِنَ الحَبْسِ ومُبايَعتِه وإخلافه فاسْتوْزَرَهُ المُستضيء ، ونهض عضُدُ الدينِ بأعباءِ الوزارةِ نهوضاً مُرْضِياً وفرّقَ في يومِ جُلوسِهِ في دسْتِ الوزارةِ ذهباً كثيراً وحِنْطَةً على المُقيمين بالمشاهدِ والجوامعِ والمدارس والرُّبُط ، وتلطّف بالأمورِ تَلطفاً لَمْ يَكُنْ في حسابِ النّاسِ وبَيْتُه مشْهورٌ بالرّياسة يعْرَفون ببيتِ الرفيل وكانَ ابنُ التّعاويذي [1] الشاعرُ البغدادي شاعرهُمْ ومنقطعاً إليهمْ وأنفقَ جُلَّ عُمّرِهِ مَعَهُمْ ، ولَهُمْ يُخاطِبُ بِقولِه :

قَضَيْتُ شَطْرَ العُمْرِ في مَدْحِكُمْ … ظَنّاً بِكُمْ أنّكُمْ أهْلُهُ
وَعُدْتُ أفْنيهِ هِجاءً لَكُمْ … فضاعَ فيكُمْ عُمري كُلُّهُ

(سريع)

ولَهُ فيهم مدائح كثيرة فمِنْ جُمْلتِها :

ومازلتُ في آلِ الرُّفَيْل بِمَعْزِلٍ … عَنِ الجَوْرِمَبْذولاً لِيَ الأمْنُ والخِصْبُ
فإنْ أقترفْ ذَنْباً بِمَدْحِ سِواهُمُ … فإنَّ خِماصَ [2] الطَّيْرِ يَقْنِصُها الحَبُّ

---

[1] ابن التعاويذي : محمّد بن عبيدالله أبو الفتح التّعاويذي ، شاعر جزل الألفاظ رقيق المعاني ، كان كاتباً بديوان المقاطعات ببغداد وعمي في آخر عمره . جمع ديوانه بنفسه ، وكانت وفاته عام /٥٨٤/ هـ .

[2] الخِماص : الشديدة الجوع ، المهزولة ، والأخمص من الطير والحيوان : المهزول .

وإنْ عادَ لي عَطْفُ الوزيرِ مُحَمدٍ فَقَدْ أكْثَبَ [1] النائي ولانَ ليَ الصَّعْبُ
وَزِيــرٌ إذا اعْتَلَّ الـزَّمـانُ فَرَأيُهُ هِنَــاءٌ [2] بِهِ تُطلى خَـلائِـقُه الجُـرْبُ

(طويل)

ومازالَ أمْرُ عَضُدِالدِّينِ يَجْرِي على السَّداد حتَّـى عزلَـهُ المُسْتَضيءُ وقَبَضَ عَلَيْهِ وَصُورَةُ عزْلِهِ : كانَ يَوْماً جالِساً في الدَّسْتِ فَهَجَمَ عَلَيْه خادمٌ منْ خدم الخليفـةِ فقالَ لَهُ : قَدِ اسْتَغني عَنْكَ ، ثُمَّ أُطْبِقَ دَواتُهُ ودخلَ الأتـراكُ والجنـدُ إلـى دُورِهِ فنهبـوا مـا بِهـا ودَخَلَ العوامُ أيْضـاً ، وكُسِرتِ الصناديقُ الآبنُـوسُ [3] والعـاجُ بالدَّبـابيس [4] وأُخِذَ جَميعُ ما كـانَ بِهـا ، فخـرجَ عَضُدُ الديـنِ وهُـوَ يَتَشـاهَدُ ويقـولُ للأتْـراك : أمـا تَسْتَحْيُونَ منِّي ؟ أما دخلتُمْ داري ؟ أما أكلْتُم زادي ؟ فلَمْ يَنْفَعْـهُ ذلـكَ ، فلَـمْ يمـضِ إلا ساعةٌ واحدةٌ حتّى صارَتْ دارُه بلاقِعَ [5] ، ثُمَّ حُمِلَ إلى الحَريمِ وَوُكِلَ به هُناك مدّةً ثم أعادَهُ المُسْتَضيءُ إلى الـوزارةِ وحكّمـه وبسـطهُ ، فصفَتْ لَـهُ الدُّنيـا وَعظُـمَ شـأنُهُ وكَثُرَتْ خَيْراتُه وَهِباتُه وأحبّهُ الناس ، وكانَ سخيّا وَهُوباً شريفَ النَّفْسِ ، قيلَ إنَّهُ مـا اشْتَرى لِدارهِ قطُّ سُكَّراً بِأقلَّ مِنْ ألْفِ دينارٍ .

حَدَثَ عَنْهُ بعضُ مماليكِهِ قالَ : احتاج مَرَّةً إلى ألفِ دينارٍ ، فأنِفَتْ نفسُـه أنْ يَقْتَرِضَهَا مِنْ أوْلادِهِ أوْ مِنْ غيْرِهِمْ ، وكانَ يأْنَسُ بي فقالَ : ياولدي ، قد احْتَجْتُ إلـى ألفِ دينارٍ أعيدُها عليكَ بعـدَ أيّامٍ ، فَقُلْتُ : السّمعُ والطاعـة يامولاي ، ثُـمَّ مضَيْتُ وأحْضَرْتُ لَهُ خَمْسةَ آلافِ دينارٍ ، وقُلْتُ : يامولاي ، هذهِ واللـه اكتسـبْتُها منْـكَ فخـذْ مِنْها ما شِئْتَ ، فـأطرَقَ سـاعةً ثُمَّ قـالَ : واللـه لا أخـذْتُ منْهـا حبّـةً واحـدةً ، خُذْهـا وانْصرِفْ ، ثُمَّ أنْشَدَ :

والصّاحِبُ المتبوعُ يَقْبُحُ أنْ يُرى مُتَتَبِّعاً ما في يَدَيْ أتْباعِهِ

---

[1] أكْثَبَ : دَنا وقَرُبَ .

[2] الهِناء : القطرانُ يُطلى بهِ الأجْرب .

[3] الآبنوس : ضرب ثمينٌ من الخشب الصّلب الأسود .

[4] الدَّبابيس : العصيُّ الطويلة المحدّدة الرؤوس يقمع بها ويُضرَب .

[5] بلاقع : قفار خاوية .

ولم يَزَلْ أمْرُه في الوزارةِ الثانيةِ جاريا على السّداد حتّى كان آخرُ مدّتِه ، فَطَلَبَ مِنَ الخليفةِ الأذنِ له في الحج فأذنَ له ، فتجهّز تجهّزاً لمْ يُر مثلُه ، ثم عَبَرَ إلى الجانب الغربيّ مِنْ مدينة السّلام ليتوجّه إلى الحِلّة والكُوفة ، ومنْها إلى مكّة ، وبيْنَ يديْهِ جميعُ أرباب الدّولةِ ، فلقيهُ رجلٌ عِنْد محلّةٍ هناك تعْرفُ بقطفتا ، فقال : ياموْلانا مَظْلومٌ مَظْلومٌ وناولَهُ قصةً ، فتناولها الوزيرُ منْه ، فوثب عليه وثْبةً عاليةً وضربَهُ بسكيّن في تَرْقُوَتِه [1] ووثب عليْه آخرُ من الجانب الآخر فضربه في خاصرتِه ، ووثَبَ آخرُ وبيدِهِ سكينٌ مسْلولةٌ فلم يصلْ إليْه ، وتكاثرت النّاسُ على الثلاثةِ فقتلوهُمْ ، ثُمّ ماتَ الوزيرُ وصلّي عليه ودفِنَ في تُرْبتِهمْ ، وقيل:إنّ الثلاثةَ الذين قتَلوهُ كانوا مِنَ الباطنيّةِ مِنْ جَبَلِ السّماق .

وحكى بعضُ أهْلِ قطفْتا قالَ : دَخلْتُ قبْل قتْل الوزير بساعتيْن إلى مسْجدٍ هُناك فرأيْتُ بهِ ثلاثةَ رجالٍ وقدْ قدّموا واحداً منْهمْ إلى المحْراب وأناموهُ ثم صلّى الرّجُلانِ الآخرانِ عليهِ صلاةَ الميْت ، ثمّ قامَ ونامَ آخرُ وصلّى الآخرانِ عليه ، حتّى صلّىكلٌ واحدٍ مِنْهمْ على الآخر ، وأنا أراهمْ وهُمْ لا يرونني فعجبْتُ ممّا فعلوا ، ثُمّ لمّا قُتِلَ الوزير وقُتِلَ الثلاثةُ ، تأمّلْتُ وجوهَهُمْ فإذا هُم هُم .

وَزَارةُ ظَهيرِ الدّينِ أبي بَكْرِمَنْصورِ بنِ أبي القاسِمِ نصر بنِ العَطّار

كانَ تاجِراً في ابتداءِ أمْرِهِ ، ثُمّ مازج المتصرّفين ونفق على المُسْتضيء فاستوْزرَهُ وكانَ ثقيلَ الوطْأةِ علىالرعيّة ، وكانتْ العامّةُ تُبْغضُهُ ، فبقي إلى أنْ ماتَ المُستَضيءُ وولي الناصرُ ، وهُوَ آخِرُ وُزراء المُستَضيء .

انقضَتْ أيّامُ المُستَضيءِ ووُزرائِهِ .

---

[1] التّرْقُوة : العظم الذي في أعلى الصدر بين ثغرة النّحر والعاتق .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ ابنُه الإمامُ الناصِرُ لِدِينِ اللهِ أبو العَبّاسِ أحْمَدُ بنُ المُسْتَضيءِ بأمرِ اللهِ

يُويِعَ بالخلافةِ في سنةَ خَمْسٍ وسبْعِين وخَمْسمائةِ .

كانَ الناصرُ من أفاضلِ الخلفاءِ وأعيانهم ، بصيراً بالأمورِ مجرّبـا سائسـاً ، مهيباً مِقداماً ، عارفاً شُجاعاً ، مُتأيّداحادّ الخاطر والنادرة ، مُتوقّد الذكاءِ والفطنـةِ ، بليغاً غيرَ مُدافع عَنْ فضيلةِ علْمٍ ، ولا نادرة فهم ، يفاوضُ العُلماءَ مُفاوضـة خبيرٍ ، ويمارسُ الأمور السُّلْطانيّة ممارسةَ بصير ، وكـانَ يـرى رأي الإماميّـة [١] ، طـالتْ مدّتُه ، وصفا لهُ المُلْكُ وأحبَّ مُباشرةَ أحوال الرعيّةِ بنفسِـه ، حتّـى كـان يتمشّـى فـي الليلِ في دروبِ بغدادَ ليعرفَ أخبارَ الرعيّة ومـا يـدورُ بيْنَهُـم ، وكـان كـلُّ أحـدٍ مـن أربابِ المَنَاصب والرّعايا يخافُهُ ويحاذرُه بحيثُ كأنه يطلعُ عليه فـي داره ، وكثُرَتْ جَواسيسهُ وأصحابُ أخْبارِه عنْد السّلاطين وفي أطـراف البـلاد ، ولـهُ فـي مثْـلِ هـذهِ قِصَصٌ غريبةٌ ، وصنّفَ كُتُباً ، وسَمِعَ الـحديث النبويّ - صلواتُ الله على صاحبـه - وأسْمَعَهُ ، ولَبِسَ لباسَ الفتوة وألبسَـهُ وتفتّـى لـهُ خَلْقٌ كثـيرون مـنْ شـرْقِ الأرْضِ وغربِها ورَمى بالبُنْدُقِ [٢] ورمى له ناسٌ كثيرون ، وكانَ باقعةَ زمانه ورجُلَ عصْره في أيامِهِ انقَرَضَتْ دولةُ آلِ سلجوق بالكلّيّة وكـان للنـاصر مـن المبـارّ والوُقـوف مـا يفوتُ الحَصْرَ وبنى مِنْ دورِ الضيافاتِ والمساجد والرُّبطِ [٣] ما يتجاوزُ حدّ الكـثْرةِ ، وكانَ مَعَ ذلكَ يُبَخَّل ، وكانَ وقْتـه مَصْروفـاً إلـى تدبـير أمـور المملكـةِ وإلـى التوليـةِ والعَزْلِ والمصـادرةِ وتحصيلِ الأمورِ ، يُقالُ عنْهُ : إنه ملأ بركـةً مـن الذّهـب فرآهـا يوماً وقد بقي يعوزها حتـى تمـلأ وتفيـض شـيءٌ يسـيرٌ ، فقـال : تـرى أعيشُ حتّـى أملأها ، فماتَ قبلَ ذلك ، ويُقال إنّ المستنصر شاهدَ هذه البركة فقـالَ : تـرى أعيشُ حتّى أفنيها ! وكذلك فعَلَ ، ماتَ الناصرُ في سنةِ اثنتين وعشرين وستّمائةِ .

---

[١] الإماميّة : فرقة من الشّيعة .

[٢] البُنْدُق : كُرات من الرّصاص ، ومنهـا البندقيـة التـي اخترعت فيمـا بعـد لرمـي الرصـاص أو البندق .

[٣] الرُّبُط : النُّزُل تُربط بها الخيول للاستراحة والمبيت .

شَرْحُ حالِ الوَزارةِ في أيّامِهِ

لما بُويعَ النـاصِرُ بالخلافـة أقَّـر ابـنَ العطَّـار وزيـرَ أبيـه علـى قاعدتـه أيّامـاً يسيـرةً [1] ثمّ نكبهُ وقبض عليه وحبسهُ في باطن دار الخِلافـة ، ثـم أُخْـرِج بعْـد أيّـام ميتاً ، فسُلِّم إلى أختِه لتجّهزه وتدفنهُ ، فغسلتْه وأخْرجتْه في تابوتٍ علـى رأس حمّـالٍ لتدْفنه ، فغمزَ بهِ بعضُ النـاسِ فرجمُوهُ ، فرمـى الحمـالُ بالتـابوت وهـرَب ، فـأخذَهُ العوامُ وأخرجوهُ من التابوتِ ومثّلوا به ، وشدّوا في رجْله حبْلا وسحبوهُ ، ووضعوا في يدهِ خشبـةً ، ونـادوا بهِ : يامولانا ظهير الدين ، وقّعْ لنا ! .

ومِنْ طريفِ ما وقعَ في ذلك : أنّ بعض الأتْراك عمّر حمّاماً وجعل مَجْراتـه تجوزُ على دارِ بعضِ الجيرانِ ، فتأذّى الجار بتلك المجْراة ، فشكا ذلك إلـى الوزيـرِ فزبَرهُ [2] ولمْ يأخُذْ بيدهِ وقالَ لَـهُ : إن لـم تسكُتْ وإلا جعلْتُ رأسك فـي المَجـراة ، فيُقالُ : إنّ ابنَ العطّار لمـا سـحبهُ العـوامُ ومثّلـوا بـه اجتـازوا بـه علـى بـاب الحمّام المذكور ، فاتّفق أنه وقع في المجراةِ فسحبوه فيها خُطوات ، فتعجّب الناسُ من ذلك

وَزارةُ جلالِ الدينِ أبي المظفّرِ عُبَيْدِاللهِ

كانَ في ابتداءِ أمرِه أحدَ الشُهود المعدّلين ، ثم تقلّبـتْ بـه الأحـوالُ حتّـى بلـغ الـوزارةَ وأرْسـلَهُ النـاصِرُ صـحبةَ عسْكرٍ كثيـفٍ إلـى مُحاربـة السُلْطان طُغرل بـنِ أرْسلان بـنِ طُغْرلَ السلجوقيِّ ، فالتقيـا ، فكـانت الغلبـةُ لعسْكر السُلطانِ ، وانهزمَ عسكرُ الخليفةِ وثبتَ الوزيرُ فأُسِرَ ، ومكث مدّة فـي الأسْر ، ثـم أُطْلِق فوصلَ إلـى بغداد متخفيّاً ، ولم تَطُلْ مدّته بعدَ ذلكَ .

وَزارةُ معزِّ الدينِ سَعيدِ بنِ عليِّ بنِ جديدة الأنْصاريِّ

كانَ رجلاً فاضِلاً مُتصوّناً ، مُوسرا كثير المال ، رُوي أنّ نقيب البصـرةِ أبـا جعْفر محمّد بن أبي طالبِ الشاعِر ، أصْعَد [3] إلى بغداد متظلّماً إلى هذا الوزيرِ من

---

[1] أيّاماً يسيرةً : أيّاما قليلةً . [2] زبره : نهَرهُ موبّخاً .

[3] أصْعَدَ : مضى صُعوداً .

ناظرِ البصرة وأنْشَدَهُ قصيدةً مِنْ جُملتِها :

وقبائلُ الأنصارِ غيرُ قليلةٍ ... لكن بنو عَمٍّ هُمْ الأخْيارُ
منهُمْ أبو أيّوبَ [1] حَلَّ محمدٌ ... في داره واختارَهُ المُختارُ [2]
أنا منهُ في النَّسَبِ الصَّريحِ وأنتَ مِن ... ذاكَ القبيلِ فلي بذاكَ جوارُ
ولقدْ نزلْتُ عليكَ مِثْلَ نُزولِهِ ... في دارِ جَدِّكَ والنَّزيلُ يُجارُ
فعَلامَ أُظلَمُ والنبيُّ محمَّدٌ ... أنمى [3] إليهِ وقَوْمُكَ الأنصارُ

(كامل)

قالوا فلما سمعها الوزيرُ رقَّ لهُ وبكى ، وخلعَ عليه [4] وقضى حوائجَهُ وأنْصَفَهُ مِنْ ناظرِ البصْرةِ وعزَلَه ، وماتَ الوزيرُ المذكورُ معزولاً في سنةِ ستَّ عشرةَ وستّمائةٍ .

وزارةُ مؤيّدِ الدينِ أبي المظفّر مُحمّد ابنِ أحمدَ بنِ القصّابِ

هو أعجميُّ الأصلِ ، كان أبوهُ يبيعُ اللحم عن رأس درب البصريّين ببغداذ ونشأ هو مشتغلاً بالعُلومِ والآدابِ ، وبرع في علومِ المتصرّفين ، كالحساب ومعرفةِ الكروث والمساحاتِ والمقاساتِ ، ثم تبصّر بأسبابِ الوزارة ، وكانتْ نفسُه قويةً وهمّتُه عاليةً قادَ العساكرَ وفتّح الفتوحَ ، وجمع بين رياستي السيفِ والقلمِ ، ومضى إلى بلادِ خُوزستان وفتحَها وقرّر أمُورَها وقواعدَها ، ثمَّ مضى إلى بلاد العجَم وصُحْبَتَه العساكرُ فملكَ أكثرَها ، ثمَّ أدرَكه أجلُه فماتَ هُناك .

---

[1] أبو أيوب : هو أبو أيّوب الأنصاري ، مستضيف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليلة وصوله إلى المدينة المنورة مُهاجراً من مكّة .

[2] المُختار : من ألقاب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي اختاره الله للدعوة لدينه الحنيف .

[3] أنمى إليه بأنْسَبُ إليه .

[4] خلَعَ عليه : أهداه الثياب والمال .

وَزارةُ السيِّد نَصيرِ الدينِ ناصرِ بنِ مهديٍّ
العَلَويُّ الرزايُّ لِلناصرِ

هُوَ مازِندرانيُّ [١] المولِدِ والأَصْلِ ، رازيٌّ [٢] المنشأ ، بغداديُّ التديرِ والوَفاةِ كانَ مِن كُفاةِ الرِّجالِ وفضلائِهِمْ وأعيانِهِمْ وذوي الميزةِ منْهُمْ ، اشْتَغلَ بالآدابِ في صِباهُ فحصَّلَ منها طرفاً صالحاً ، ثم تبصَّرَ بأُمورِ الدواوينِ ففاقَ فيها .

كانَ في ابتداءِ أمرِه ينوبُ عن النَّقيبِ عزِّ الدينِ المُرتضى القمّي نقيبِ بلادِ العَجمِ كلِّها ، ومنْه استفادَ قوانينَ الرياسةِ ، وكانَ عزُّ الدينِ النقيبُ من أماجِدِ العالمِ وعظماءِ الساداتِ ، فلمّا قُتِلَ النقيبُ عزُّ الدينِ - قتلَه علاءُ الدينِ خوارزم مشاه - هَرَبَ ولَدُهُ النقيبُ شرفُ الدينِ محمّدٌ وقصدَ مدينةَ السّلامِ مُستجيراً بالخليفةِ الناصرِ ، وَصَحْبتَه نائبهُ نصيرُ الدينِ بنُ المهديّ ، وكانَ منْ عقلاءِ الرجالِ ، فاختبرَهُ الناصرُ فرآهُ عاقلاً لبيباً سديداً فصارَ يستشيرُ بهِ سرّاً فيما يتعلّقُ بملوكِ الأطرافِ ، فوجَدَ عِنْدَهُ خبرةً تامّةً بأحوالِ سلاطينِ العَجمِ ، ومعْرفةً بأمورِهم وقواعدِهم وأخلاقِ كلِّ واحدٍ منهم ، فكانَ الناصرُ كلمّا استشارَ بهِ في شيءٍ منْ ذلكَ يجدُه مُصيباً عينَ الصوابِ فاستخلَصُه لنفْسِه ورتّبَهُ أولاً نقيبَ الطالبيين ، ثمَّ فوّضَ إليه أمورَ الوزارةِ فمكثَ فيها مدّةَ تجري أمورُه على أتمِّ سدادٍ وكانَ كريماً وَصُولاً عاليَ الهمّةِ شريفَ النَّفْسِ ، حُدِّثَ عنهُ (أنه كانَ يوماً جالِساً في دسْتِ الوزارةِ وفي يده قطْعةُ عُودٍ كبيرةٌ فرأى الوزيرُ بعضَ الصّدورِ الحاضرينَ وهو يلحُّ بالنظرِ إليها ، فقالَ لهُ : تُعْجِبُكَ هذه ؟ فدَعا لهُ ، فوَهَبَهُ إيّاها ، وقامَ الرجلُ ليخْرُجَ فلمّا بعُدَ عنْ مجلِسِ الوزيرِ استدْعاه بسرعةٍ ، وقالَ له : تريدُ أن تفْضحنا وتصدّقَ المثَلَ فينا (بخّرْهُ عُريانَ) ثمَّ أمرَ فخَلَعَ عليه ، ودَفَعَ إليه تَخْتَ ثِيابٍ [٣] ، وقالَ لهُ : تبخَّرْ في هذه الثّيابِ ومدَحَهُ الأبهريُّ الشاعِرُ الأعْجمي بقصيدةٍ مشهورةٍ في العجمِ ،مِنْ جُمْلَةِ مدْحِها :

---

[١] مازندرانيّ : منسوب إلى مازاندران من بلاد فارس .

[٢] رازيّ : منسوبٌ إلى الرّيّ جنوب طبرستان وبحر قزوين وهي مدينة أو إقليم بهذا الاسم .

[٣] تخت ثياب : خزانة ملابس .

وزير مشرق ومغرب نصير ملت ودين كه بـازرايت عاليش تا ابد منصور
صريـر كلك تودر كشف مشكلات أمور كه هم جو نغمه داود درآداءزبور*

(بسيط)

وأرْسـلها الأبهَـرِيُّ صحبـةَ بَعْـضِ التّجـار مَـعْ بَعْـضِ القُفُـول ، وقـال للتّـاجرِ أوْصِلْها إلى الوزير ، وإنْ قدرتَ ألا تُعْلِمَهُ منْ قائلُها فافْعَلْ ، فلما عُرِضـتْ القصيـدةُ على الوزيرِ استَحْسَنَها وطلبَ التاجرَ ودفعَ إليه ألفَ دينارٍ ذهباً ، وقال ، هذه تُسـلِّمُها إلى الأبهريِّ ولا تُعْلِمْهُ ممَّنْ هيَ !! .

وقبضَ الناصرُ عليهِ كارِهاً لأمورٍ اقتضتْ ذلك ، وكانَ القبضُ عليه في سنةِ أرْبَعٍ وستّمائةٍ ، ونُقِلَ إلى دارٍ في دارِ الخلافة ، فأقامَ بها تحت الاسْتظْهارِ على حالـةِ الإكرامِ والمُراعاةِ ، إلى أنْ ماتَ تَحْتَ الاستظْهار(في سنةِ سبعَ عشْرة وستّمائةٍ .

وزارةُ مؤيِّد الدينِ مُحَمّدِ بن عَبْدالكَريم
برز [1] القُمّي لِلناصِرِ

هُوَ قُمّي الأصلِ والمَولِدِ ، بغداديُّ المَنْشـأ والوفـاةِ ، يَنْتَسـبُ إلـى المقدادِ بـنِ الأسْوَدِ الكِنْدي ، كانَ رَحِمَه اللهُ بصيراً بأمورِ المُلْك ، خبيراً بأدوات الرِياسة ، عالِماً بالقوانينِ عارفاً بـاصطلاحِ الدّواوينِ ، خبيرا بالحسـابِ ، ريّـانَ مِنْ فنونِ الأدبِ ، حافظاً لِمحاسِنِ الأشْعارِ ، راوياً لِطرائفِ الأخْبار ، وكانَ جَلْداً على مُمارسةِ الأمورِ الديوانيةِ ملازِماً لها من الغُدْوَةِ إلى العشيّةِ ، وكان في ابتـداءِ أمره قد تعلّقَ بخدمةِ سلاطينِ العجمِ ، وكانَ يلوذُ ببعضِ وزراء العجمِ بأصفهانَ في حالِ صباهُ ولم يَبْلُغْ العِشْرينَ من عمرِهِ ، وكـانَ ذلك الوزيـرُ قد ضجِرَ مـن الكتّـاب الذيـن بيـنَ يدَيْـهِ ، ونَسَبَهُمْ إلى أنّهم يخافون تقدماته ، فأبعدَهم عَنْهُ واستكتبَ القُمّيّ ظنّاً منـه أنـه لمجـردِ حداثةِ سنّهِ لا يُقدِمُ على مخالفةِ مـا يشيـرُ به فمكثَ القُمّي يكتبُ بينَ يديْه مدّةً ، ففي

---

* وترجمة البيتين باختصار : وزير المشرق والمغرب ، نصير الملة والدين . لتبق رايتـه العاليـة منصورة إلى الأبد صرير قلمك في كشف مشكلات الأمور مثل نغمة داود في ترتيل الزّبور .

[1] في التسمية بعض الاختلاف راجع ألما ص /٣٧٥/ ، ورحما ص /٢٣٧/ ، وطبعة بيروت ص /٣٢٦/ ، ولعلّ الصواب ما أثبتاه عن عزّ هاهنا .

بعضِ الأيّامِ أحْضِرَتْ بينَ يدي الوزيرِ جُملةٌ من الثيابِ النسيج ، بعضُها صحيحٌ وبعضُها مقطوعٌ ، فأحْضرَ القُمّيَ بين يديْه ليثبتَ عددَها ويحْملها إلى الخزانةِ ، وكانَ الوزيرُ يُوردُ عليه كذا وكذا ثوباً صحاحاً فيكتبُ القمّي كذا وكذا ثوباً ، وما يكْتُبُ لفظةَ ((صحاحاً)) ، فقالَ لهُ الوزيرُ : لم لا تكتبُ كما أقولُ لك ؟ فقال : يا مَوْلانا لا حاجةَ إلى ذِكْرِ الصّحاح ، فإني إذا وَصلْتُ إلى ذِكْرِ ثوبٍ مقطوعٍ ذكرتُ تحتَهُ أنّهُ مقطوعٌ ، فتخصيصُ المقطوعِ بالذكر يدلُّ على أنّ ما لم يُوصفْ بالقطعِ صحيحٌ فقالَ الوزيرُ : لا بل اكتبْ كما أقولُ لك فراجعهُ القمّيُ ، فحرد [1] الوزيرُ لذلك ، وارتفعَ صوتُه والتفتَ إلى الحاضرين وقال : أنا عزلْتُ الكتّابَ الكبارَ الذين كانوا عندي لِأجْلِ مُخالفتهم ولَجاجِهِمْ فيما أقولُهُ واستكتبتُ هذا الصبي ظنّاً منّي أنه لحداثةِ سنّهِ لا يكونُ عندهُ من التجرّؤ والمخالفة ما عِنْدَهم ، فإذا هو أشدُّ مخالفةً مِنْ أولئكَ ، فخرجَ بعضُ خدّامِ السُّلطانِ من بين يديه – وكان جالساً قريباً من مجلسِ الوزير – وسألَ عن كثرةِ الصّياحِ وحَرَدِ الوزير ، فعُرّفَ الخادمُ صورةَ ما جرى بينَ الوزير والقمّي فدَخَلَ وحكى للسلطانِ ما قيل ، فقالَ لهُ : اخْرُجْ وقلْ للوزيرِ الحقُّ ما أعمده [2] الصبيُّ الكاتبُ ، وصارَ الخادمُ يستشيرُه ويسكُن إليه ويأنسُ به ، فاتّفقَ أنّ السلطانَ عيّنَ على هذا الخادمِ وعلى رجلٍ آخرَ ليتوجّها في رسالةٍ إلى ديوانِ الخليفةِ ، فالتمس الخادمُ أن يكون القمّي صحبته ، فتوجّهوا إلى بغداد وحضرَ الخادمِ ورفيقُه عند الوزيرِ ابنِ القصّابِ فشافهاه بالرّسالةِ وسَمعا الجوابَ ، وكانَ جواباً غيرَ مُطابِقٍ للرسالةِ ولكنه كان نوعاً من المغالطة ، فقنع الخادمُ ورفيقهُ بذلك الجواب، وما تنبها على فساده، وخرجا فرجع القمي ووقف بين يدي الوزير وحادثه سراً وقال له: يا مولانا الجواب غير مطابق لما أنهاه المماليك، فقال له الوزير: صدقت ولكن دعهم على غباوتهم ولا تفطنهم إلى ذلك، فقال السمع والطاعة ، ثم إن ابنَ القصاب كتب إلى الخليفة يقول له : إنه قد وصل إلى صحبة خادم السلطان فلان

---

[1] حَرِدَ : غضبَ .

[2] أعمده : ((كذا في ألما ص /٣٧٧/ ، وهي اعتهدهُ في رحما ص /٢٣٨/ ، وفي طبعة بيروت ص /٣٢٧/ . ولعل الصّواب أعدّهُ أو اعتمده ومعناها أقرّهُ وارتضاه)) . المحقق .

شاب قمي قد جرى من تنبهه كيتَ وكيتَ ، ومثل هذا يجب أن يُصطنعَ ويحسن إليه ويستخدم، فكتب الخليفة بأمره بألا يمكنه من التوجّه معهم، فعمل له حجةً وقطع عنهم، فتوجهوا وأقام القمي ببغداد، فعين عليه في كتابة الإنشاء ، فمكث على ذلك مدة، ثم تولى الوزارة وتمكن في الدولة تمكناً لم يتمكن مثله أحدٌ من أمثاله، وكان أوحدَ زمانه في كل شيء حسن، كثيرَ البر والخير والصدقات.

حدث عنه مملوكُه بدرُ الدين آياز قال : طلب ليلة من الليالي حلاوة النبات فعُمِل في الحال منها صحونٌ كثيرة ، وأحضرت بين يديه في ذلك الليل فقال لي : ياآياز تقدِر تدّخر هذه الحلاوة لي موفّرة إلى يوم القيامة ؟ فقلت: يامولانا وكيف يكون ذلك ؟ وهل يمكن هذا ؟ قال : نعم ، تمضي في هذه الساعة إلى مشهد موسى والجواد -عليهما السلام - وتضع هذه الأصحن قدام أيتام العلويين ، فإنها تدّخر لي موفرّة إلى يوم القيامة ، قال آياز: فقلت : السمع والطاعة ، ومضيت - وكان نصف الليل - إلى المشهد وفتحت الأبوابَ وأنبهت الصبيانَ الأيتام ووضعتُ الأصحنَ بين يديهم ورجعتُ .

وما زال القُميّ على سدادٍ من أمره ، تولى الوزارة للناصر ثم للظاهر ثم للمستنصر حتى قبض عليه المستنصر وحبسه في باطن دار الخلافة مدة فمرض وأخرج مريضاً فمات - رحمه الله - في سنة تسع وعشرين وستمائة .

انقضت أيام الناصر لدين الله ووزرائه .

ثم ملك بعده ولده أبو نصرٍ محمدٌ الظاهرُ بأمر الله
ابن الناصر لدين الله

بويع في سنة اثنتين وعشرين وستمائة .

لم تطل أيامه ، ولم يجرِ فيها ما يسطر ، سوى احتراق القبة الشريفة بمشهد موسى والجوادِ – عليهما السلام – فشرع الظاهرُ في عمارتها ، فمات ولم تفرغ فتممها المستنصر .

وأيضاً فإن الظاهرَ هو الذي عمل هذا الجسر الموجودَ الآن في بغداد ، ولما فرغ عمل الشعراءُ فيه المدائحَ ووصفوا الجسر فيها ، فممن نظم في ذلك شعراً ، موفقُ الدين القاسم بن أبي الحديد كاتب الإنشاء ، وهو قوله :

أمام يحرم ذل السؤال ... ويعمل بالكرم الواجب
أقام طريقاً على دجلة ... لذي القصد منه وللذاهب
فعارض جسراً على جانب ... بجسر جديد على جانب
كسطرين في كاغدٍ أبيضٍ ... أجادهما قلمُ الكاتب
كمِخنقتيْ [1] عنبر [2] ضمتا ... بياض الترائب من كاعب
كصفين من إبِل أصبحا ... وقوفاً على جدَد[3] لاحبِ [4]

(متقارب)

ومات الظاهر في سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

شرح حال الوزارة في أيامه

أقر القمي على وزارته ولم يستوزر غيره .

---

[1] المخنقة : القِلادة وهي حلية في العنق .

[2] العَنْبَر : نوعٌ من الطِّيب . الزعفران .

[3] الجَدَد : الطريق ذو الأرض الغليظة المستوية .

[4] لاحب : واضح .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ أبو جَعْفَرٍ المَنْصُورُ المُسْتَنْصِرُ باللهِ

بُويع بالخلافَةِ في سنةِ ثلاثٍ وعشْرين وستّمائةٍ .

كانَ المُسْتَنْصر شَهْمًا جَواداً يباري الرّيحَ كرَماً وجُوداً ، وكانَتْ هباتُهُ وَعَطاياهُ أشْهَر مِنْ أنْ يُدَلَّ عليْه وأعْظَمَ مِنْ أنْ تُحصى ، ولوْ قيل : إنّه لم يكنْ في خُلفاء بني العبّاسِ مثْله لصَدقَ القائِلُ . ولَهُ الآثارُ الجَليلةُ : منْها - وهي أعْظمُها - المُسْتَنْصِرِيّةُ وهي أعْظَمُ مِنْ أن تُوصَفَ ، وشُهْرَتُها تُغْني عنْ وصفها ومنْها : خانُ حَرْبى وقَنْطَرتُها وخانُ نهرِ سابسٍ بأعمالِ واسط ، وخانِ الخرنيني ، وغيرُ ذلك مِنَ المساجِد والرُّبُط وذور الضيافات وكان المستنصرُ يقولُ : إني أخافُ أن اللهَ لا يُثيبني على ماأهَبُه وأُعطيهِ لأنّ اللهَ تعالى يقولُ : **﴿ لن تنالوا البرَّ حتّى تُنفِقوا ممّا تُحبّونَ ﴾** [(1)] وأنا واللهِ لا فَرْقَ عندي بينَ التراب والذّهبِ .

كانتْ أيامُـهُ طيبةً والدنيا في زمانه ساكِنَة، والخيراتُ دارّةً [(2)] والأعمال عامِرَةً وفي أيامه فُتِحَت إرْبلُ ، أرْسَلَ المستنصِرُ إليها إقْبالا الشرابيّ وصُحبتَه عارِضُ الجيوشِ، وذلك عِنْد وفاةِ صاحبِها مُظَفّرِ الدين بنِ زَيْنِ الدين علي كوجك .

وماتَ المُسْتَنصِرُ في سنةِ أربعينَ وستمائةٍ .

شَرْحُ حالِ الوَزارَةِ في أيامِهِ

لمّا بُويعَ بالخِلافَةِ أقرَّ القُمّيَّ وزيرَ أبيه وجدِّهِ على وزارته سنواتٍ ، ثُمَّ قبضَ عليهِ وَجَرى لَهُ ماتَقَدَّمَ مِنْ شَرْحِهِ .

وَزارةُ نصيرِ الدّينِ أبي الأزْهَرِ أحْمَدَ
ابنِ مُحَمَّدِ بنِ النّاقِدِ

ثم استَوزَرَ المُسْتَنْصِرُ بعد القُمّي أبا الأزْهرِ أحْمدَ بنَ النّاقِدِ ، كان في ابتداء أمْرِه وكيلاً ، فمَكَثَ مدّةً في الوكالةِ ثمّ مِنها إلى الوَزارةِ ، فنهضَ بأعبائها نهوضاً حَسَناً وقامَ بضَبطِ المملكةِ قياماً مَرْضياً ، وكان عظيم الأمانة قويَّ السياسة شديدَ الهَيْبَةِ على المتصرّفين حاسِماً لموادّ الأطْماعِ والفسادِ ، قيل : إنّهُ هُجي ببيتين فلَمّا

---

(1) سورة آل عمران ، الآية /٩٢/ .

(2) دارّة : كثيرة الدّرّ أو الخير .

سمعهما استحسنهما وهما :

وزيرُنا زاهِدٌ والناسُ قدْ زَهِدوا فـيهِ فكلٌّ عـن اللذاتِ مُنكَمِـشُ
أيـامُهُ مثْل شَهْرِ الصَّوْمِ خاليةٌ مِنَ المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

(بسيط)

ومازالت السَّعادةُ تخدمُهُ إلى آخـر عمـره ، فمنْ جُملـة سـعادته - وهـو من الاتّفاقاتِ العجيبةِ - ما حُدِّث عنْهُ ، وهو أنه قبـل الـوزارةِ عمل فـي بعـض الأعْيادِ سَنْبوسَجاً كثيراً ، وأحـبَّ أنْ يُداعب بَعْض أصحابِـه ، فـأمر أنْ يُحشى سـبْعون سَنبوسَجةً بحبِّ قُطْنٍ ونُخالةٍ وتُجعَل مُفْردة ، وعمل سَنْبوسَجا كثيراً كجاري العـادةِ ، وركِبَ إلى دارِ الخليفة فطُلِبَ مِنْهُ عَملُ شيء مـن السنْبوسـج ، فذكـر أنّ عِنْـدهُ شيئاً مفْروغاً مِنْهُ ، وأمرَ خادِماً لَهُ بإحْضارِ ما عِنْدهُ من السَّنْبوسجِ ، فمضـى الخـادمُ عَنْ غيرِ معْرفةٍ بذلك المحشوِّ بحبِّ القُطْنِ ومزَج الجميـع ووضعـهُ فـي الأطبـاقِ ليحْمِلـه إلى دارِ الخليفةِ ، فجاءَ الجواري والخدمُ وقالوا : أعْطونا حِصّتنا مِنْ هـذا ، فـأخذوا مِنه مائةَ سَنْبوسجةٍ ، وحَمَلَ الخادِمُ الأطبـاقَ بمـا فيهـا إلـى دارِ الخليفـة ، فلمّـا حُمِلَ السَّنْبوسَجُ وصارَ بدارِ الخليفةِ ورَجعَ ابنُ الناقد إلى داره سألَ عن السنبوسج المحشُـوِّ بِحَبِّ القُطْنِ ، فقالوا لَهُ : ما عرفْنا بشيءٍ منْ ذلك ، وفلانٌ الخادمُ جاء ومَزَجَ الجميعَ وأخذَهُ ومَضى ، فلَمْ يشكَّ أنّهُ هالكٌ وكـادتْ تسـقطُ قُوّتـهُ خوْفـاً وخجـلاً ، فقـال : أما تَخلّفَ مِنْهُ شيءٌ قطُّ ؟ قالوا : قدِ اقْتطعَ الجواري والخدمُ مِنْهُ حدودَ مائة سَنْبوسَـجةٍ ، فقالَ : أحْضِروها فأُحْضِرتْ وفُتِحَتْ بيْنَ يديْه ، فوجَـدَ السـبعين سنبوسـجةً المحشُـوّةَ بحَبِّ القُطْنِ قدْ حصَلتْ بأيدي الجواري والخدم في جملةِ ما أخذوه لأنْفُسهم ، لمْ تشذَّ مِنْهُمْ واحدة إلى دارِ الخليفة ، وماتَ نصيرُ الدين في سـنةِ اثنتيـن وأربعيـن وسـتّمائةٍ في خلافةِ المُستعصِم .

انقضت أيام المستنصر ووُزرائِهِ .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ وَلَدُه أبو أحْمَدَ عَبْدُاللهِ المستعصم بالله

بُويِعَ لَهُ بالخلافَةِ في سنةِ أربعينَ وستّمائة ، وَهوَ آخِرُ الخُلفاء .

كانَ المُسْتَعْصِمُ رَجُلاً خيِّراً متديِّناً ليِّن الجانبِ سهْلَ العريكـة عفيـف الـلسانِ حَمَلَ كتابَ اللهِ تعالى ، وكتَبَ خطّاً مليحاً وكان سهْلَ الأخْلاق ، وكان خفيف الوطْـأةِ إلّا أنّه كانَ مُستَضْعَفَ الرأي ضَعيفَ البَطْشِ ، قليلَ الخبْرةِ بـأمورِ المملكـة مطموعـاً

فيه ، غير مَهيبٍ في النفوسِ ، ولا مطّلعٍ على حقائقِ الأمورِ ، وكانَ زمانُهُ ينقضي أكثرُهُ بسَماعِ الأغاني والتفرُّجِ على المساخرة ، وفي بعضِ الأوقاتِ يجلسُ بخزانةِ الكُتُبِ جُلوساً ليْس فيه كبيرُ فائدةٍ ، وكانَ أصحابُهُ مستولينَ عليه ، وكلُّهمْ جُهالٌ منْ أراذلِ العوامّ ، إلا وَزيرَه مُؤيّد الدينِ مُحمّد بن العلْقَميّ فإنّه كانَ منْ أعيانِ الناسِ وعقلاءِ الرّجالِ ، وكانَ مكْفوفَ اليد مرْدود القوْل ، يترقّبُ العزْلَ والقبْضَ صباحَ مَساءَ .

(وكانتْ عادةُ الخُلفاءِ أكثرِهمْ أنْ يحبسوا أوْلادهُم وأقاربهُمْ - وبذلك جرتْ سُنّتُهم إلى آخرِ أيّامِ المُستنصر - فلمّا ولي المُستعصمُ أطلق أوْلادهُ الثلاثةَ ولَمْ يَحْبسْهُمْ وَهُمْ : الأميرُ الكبيرُ أبو العبّاس أحْمدُ ، والعامّةُ تسميّه أبا بكرٍ ، وليْس بصحيحٍ ، وإنما سمّوه بذلك ، لأنّهُ لمّا نهب الكرخ نسب الأمر في ذلك إليه وقيلَ إنّه هُوَ الذي أشارَ بذلك والأميرُ الأوْسطُ وَهُو أبو الفضائلِ عبْدُالرّحْمنِ كانَ شَهْماً ، خرَجَ إلى بين يدي السُّلطان هولاكو ، وَوَقع كلامُه بمَوْضعِ الاستحْسانِ في الحضرةِ السُّلطانيةِ ، والأميرُ الأصغرُ أبو المَناقب .

حدثني صفيُّ الدينِ عبْدُ المُؤْمِن بنُ فاخرِ الأرْمويّ - وكانَ قدْ صارَ في آخرِ أيّامِ المُستعْصم مقرّباً عِنْدَهُ ومِنْ خواصّه ، وكانَ قدْ استجدّ في آخر أيّامه خزانةَ كُتُبٍ ونقلَ إليها مِنْ نفائسِ الكُتُبِ وسلّم مفاتيحها إلى عبدالمُؤمن ، فصارَ عبْدُالمُؤْمِن يجلسُ ببابِ الخزانةِ ينْسخُ له ما يُريد ، وإذا خطر للخليفةِ الجلوسُ في خزانةِ الكُتُبِ جاءَ إليها وعدَلَ عنِ الخزانةِ الأولى التي كانتْ مُسلّمةً إلى الشيخِ صدْرِ الدّينِ عليّ ابن النيّار ، قالَ (أعني عبْدُ المُؤْمِنِ) : كُنْتُ مرّةً جالساً في حُجْرةٍ صغيرةٍ وأنا أنْسخُ وهُناكَ مَرْتَبَةٌ برَسْمِ الخليفةِ إذا جاءَ إلى هُناكَ جلسَ عليْها ، وقدْ بُسطتْ عليْها ملحفةٌ لِتَرُدُّ عنْها الغبارَ ، فجاءَ خُويْدِمٌ صغيرٌ ونامَ قريباً منَ المرْتبةِ المذْكورةِ واستَغْرقَ في النّومِ ، فتَقلّبَ حتى تلفّفَ في تلْك الملْحفةِ المبْسوطةِ على المرتبةِ ثم تقلّبَ حتّى صارتْ رِجْلاهُ على المِسْنَد ، قالَ : وأنا مشغولٌ بالنّسْخِ فاحْسستُ بوطْءٍ في الدّهْليزِ ، (فنظرْتُ فإذا هو الخليفةُ وهوُ يستدعيني بالاشارَة ويُخففُ وطْأهُ ، فقُمْتُ إليهِ مُنْزَعِجاً وقبّلتُ الأرْضَ ، فقالَ لي : هذا الخُويدِمُ الذي قد نام حتى تلفّفَ في هذهِ المِلْحَفَةِ وصارتْ رِجلاهُ على المِسْند متى هجمْتُ عليهِ حتّى يسْتَيْقظ ويعلم أنّي شاهَدْتُه على هذهِ الحال فتنفطرُ مَرارتُه من الخوْف ، فأيْقظْه أنتَ برفْقٍ فإني سأخْرُج

إلى البُستانِ ، ثُمَ أعودُ ، قالَ : وخرجَ الخليفةُ فدخلْتُ إلى الخُويْدم وأيقظتُهُ فانتبهَ ، ثم أصلَحنا المرتبةَ ، ثمّ دخَلَ الخليفةُ .

وحدثني بعضُ أهلِ بغدادَ قال : حُدِّثْتُ أنَ الشيخَ صدر الدين بن التيار شيخ الخليفةِ قالَ : دَخلْتُ مرّةً إلى خزانةِ الكتُبِ على عادتي وفي كمّي منديلٌ فيه رقاعٌ كثيرةٌ لجماعةٍ مِنْ أربابِ الحوائجِ ، فطرحْتُ المنديلَ وفيهِ الرّقاعُ في موْضعي ، ثم قُمتُ لِبَعْضِ شأني ، فلَما عُدتُ إلى الخزانة بعْد ساعةٍ حلَلْتُ الرقاع من المنديل حتى أتأملَها وأقدّمَ منْها المُهمَّ ، فرأيتُها جميعها وعليْها توقيعُ الخليفة بالإجابة إلى جميع مافيها ، فعَلِمْتُ أنّ الخليفةَ قدْ جاءَ إلى الخزانة عند قيامي فرأى المنْديلَ وفيهِ الرِّقاعُ ففتَحها ووَقّعَ على جَميعها والمُستَعْصِم هو آخر خلفاءِ الدولة العباسية ببغداد . ولم يجرِ في أيام المستعصم شيءٌ يُؤثّر سوى نهب الكرْخِ ، وبئس الأثرُ ذلك ! .

وفي آخِرِ أيّامِهِ قويت ، الأراجيفُ [1] بوصول عسْكرِ المغول صُحْبَةَ السّلطانِ هُولاكوُ فلم يحرّكْ ذلك منه عزْماً ، ولانبهَ منهُ هِمّةَ ، ولاأحْدث عِنْدَهُ همّاً ، وكانَ كلّما سَمِعَ عنِ السّلطانِ مِنَ الاحتيَاطِ والاستعْداد شيءٌ ظهر من الخليفة نقيضُهُ مِنَ التّفْرطِ والإهمالِ ، ولَمْ يَكنْ يتَصورُ حقيقةَ الحالِ في ذلك ، ولايعْرفُ هذه الدّولَةَ - يسّرَ اللهُ إحسانَها وأعلى شأنَها - حقّ المعْرفةَ .وكانَ وزيْره مؤيّدُ الدينِ بنُ العلْقميّ يَعْرفُ حقيقةَ الحالِ في ذلكَ ، ويُكاتبُهُ بالتّحْذيرِ والتّنبيه ، ويُشيرُ عليه بالتّيقظِ والاحتياط والاستعداد وهو لا يزداد إلا غفولا . وكان خواصّه يوهمونه أنّه ليسَ في هذا كبيرُ خطَرٍ ولا هُناكَ محْذورٌ ، وأنَ الوزير إنما يُعظّمُ هذا لينْفُقَ سُوقُه ولِتُبرْزَ إليه الأموالُ ليُجَنِّدَ بها العَساكِرَ فيَقْتَطِعَ منْها لنفسه .

ومازالتْ غفلةُ الخليفةِ تنْمي [2] ويقظةُ الجانبِ الآخرِ تتضاعفُ ، حتّى وَصلَ العَسْكرُ السلطاني إلى همَذانَ وأقامَ بها مدَيدةً ، ثُمّ تواترت الرُسُل السُلْطانيّةُ إلى الدّيوانِ المُستَعْصِميُ ، فوقّع التعيينُ منْ ديوانِ الخليفةِ على ولَد أُستاذ الدّار ، وهوَ شرَفُ الدينِ عبدُ اللهِ بنُ الجوْزيّ ، فبَعثَ رسولاً إلى خدْمة الدّركاه [3] السلطانيّةِ بهمَذان ، فلمّا وصلَ وسَمعَ جوابهُ علم أنه جوابُ مغالطةٍ ومُدافعةٍ ، فحينئذ

---

[1] الأراجيف : الشائعات من الأخبار .

[2] نمى يَنْمي : مثلهما : نما ينمو بمعنى زاد يزيدُ أو كثر يكثرُ .

[3] الدّركاه : القصرُ أو السُّدّة . والكلمة فارسيّة .

وقعَ الشُروعُ في قصدِ بغدادَ وبثِّ العساكرِ إليها ، فتوجّهَ عسكرٌ كثيفٌ من المغولِ ، والمقدمُ عليهمْ باجو ، إلى تكْريت ليَعْبُروا مِنْ هناكَ إلى الجانبِ الغربيّ ويقصُدوا بغدادَ مِنْ غربِها ، ويَقْصدَها العسكرُ السلطانيُّ مِنْ شرقيها ، فلمّا عبرَ عسْكرُ باجو مِن تكْريت ، وانحدرَ إلى أعمالِ بَغْداد أجْفلَ النّاسُ مِنْ دُجيْلٍ والإسحاقي ونهرِ ملِكِ ونهرِ عيسى ، ودَخلوا إلى المدينةِ بنسائهم وأوْلادهمْ ، حتّى كانَ الرجلُ أو المرأةُ يَقذِفُ بنفسهِ في الماءِ ، وكانَ المَلاحُ إذا عبرَ أحدٌ في سفينةٍ مِنْ جانبٍ إلى جانبٍ يأخذُ أُجْرَتَهُ سِوارًا مِنْ ذهبٍ أو طِرازًا من زركشٍ أو عدّةً من الدنانير . فلمّا وصلَ العَسْكرُ السلطانيُّ إلى دُجَيْلٍ – وهُو يزيدُ على ثلاثينَ ألفَ فارسٍ – خرجَ إليه عَسْكرُ الخليفةِ صحبةَ مُقدّمِ الجُيوشِ مُجاهدِ الدينِ أَيْبكَ الدُّويدارِ وكانَ عسْكرُه في غايةِ القِلّةِ ، فالتَقوا بالجانبِ الغرْبيِّ مِنْ بغدادَ قريبًا مِنَ البلدِ ، فكانتْ الغلبةُ في أوّلِ الأمْرِ لِعسْكرِ الخليفةِ ، ثُم كانتْ الكرّةُ للعسْكرِ السلطانيّ فأبادوهم قتْلا وأسْرًا ، وأعانَهُم على ذلك نهْرٌ فتحوهُ في طولِ الليلِ ، فكثُرتِ الوَحولُ في طريقِ المنْهزمين فلم يَنْجُ مِنْهُمْ إلا مَنْ رمى نفْسَهُ في الماءِ أو مِنْ دخلَ البريّةَ ومضى على وجْهِ الشّامِ ونجا الدُّويدارُ في جمعيّةٍ مِنْ عسكرِه ووَصلَ إلى بغْداد ، وساقَ باجو حتّى دخلَ البَلدَ مِنْ جانبِه الغربيِّ ، ووقفَ بعساكِرِهِ محاذي التّاجِ ، وجاسَتْ عساكِرُهُ خِلالَ الدِّيارِ وأقامَ محاذيَ التاجِ أيّامًا .

وأمّا حالُ مُعَسكرِ السلطاني فإنّهُ في يومِ الخميسِ رابعِ مُحرمٍ من سنةِ ستٍّ وخمْسينَ وستمّائةٍ ثارتْ غبْرةٌ عظيمةٌ شرقيَّ بغدادَ على دَرْبِ يعقوبَ بحيْثُ عمّتِ البلدَ فانزَعجَ الناسُ مِنْ ذلك وصعدوا إلى أعالي السُطوحِ والمنايرِ [1] يتشوفون ، فانْكشفتْ الغبْرةُ عن عساكرِ السلطانِ وخيولهِ ولفيفه وكراعه وقد طبق وجه الأرض وأحاط ببغدادَ من جميعِ جهاتِها، ثمّ أسرعوا في استعمالِ أسبابِ الحصارِ، وشرع العسكرُ الخليفي في المدافعةِ والمقاومةِ إلى اليومِ التاسعِ عشر من محرمٍ، فلم يشعرِ الناسُ إلا وراياتُ المغولِ ظاهرةٌ على سورِ بغدادَ من برجٍ يسمى برجَ العجمي من ناحيةِ بابٍ من أبوابِ بغدادَ يقالُ له بابُ كلواذي .

وكان هذا البرجُ أقصرَ أبراجِ السورِ ، وتقحمَ العسكرُ السلطاني هجومًا ودخولًا، فجرى من القتلِ الذريعِ والنهبِ العظيمِ والتمثيلِ البليغِ ما يعظمُ سماعُه

---

(1) المناير جمع منارة وهي المئذنة .

جملة فما الظن بتفاصيله:

وكان ما كان مما لست أنكره   فظنَّ ظناً ولا تسألْ عن الخبر

وأمر السلطانُ بخروجِ الخليفة وولده ونسائه إليه فخرجوا ، فحضر الخليفة بين يدي الدركاه ، فيقال إنه عوتب ووبّخ بما معناه نسبة العجز والتفريط والغفول إليه، ثم أوصل إلى اليأسا وولده الأكبر والأوسط أما بناته فأسرن ، ثم استشهد المستعصمُ في رابع صفر سنة ستٍ وخمسين وستمائة .

شرح حال الوزارة في أيامه

لما بويع بالخلافة أقر وزير أبيه ، وهو نصير الدين بن الناقد على وزارته إلى أن تُوفي، فلما توفي استوزر مؤيد الدين محمد بن العلقمي .

وزارة مؤيد الدين أبي طالب محمدِ بن أحمدَ بنِ العلقمي

هو أسديٌّ ، أصلُهم من النيل، وقيل لجده العلقميُّ ، لأنه حفر النهر المسمى بالعلقمي ، وهو الذي برز الأمرُ الشريف السلطاني بحفره ، وسمي القازاني ، اشتغل في صباه بالأدب ففاق فيه، وكتب خطا مليحا ، وترسّل ترسلا فصيحا ، وضبط ضبطاً صحيحاً، وكان رجلا فاضلاً كاملاً لبيبا ، كريماً وقورا ، محباً للرياسة كثير التجمل رئيسا متمسكاً بقوانين الرياسة، خبيرا بأدوات السياسة ، لبيق [1] الأعطاف [2] بآلات الوزارة ، وكان يحبُّ أهل الأدب ويقربُ أهل العلم ، اقتنى كتبا كثيرة نفيسةً.

حدثني ولده شرف الدين أبو القاسم علي – رحمه الله – قال : اشتملت خزانة والدي على عشرة آلاف مجلدٍ من نفائس الكتب ، وصنف الناس له الكتبَ ، فممن صنف له الصّغاني [3] اللغوي ، صنف له " العباب " ، وهو كتاب عظيم كبير في لغة العرب ، وصنف له عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد كتاب شرح نهج

---

[1] لبيق : لائق

[2] العطاف : الأكتاف .

[3] الصغاني : الحسن أبو الفضل الصغاني ، لغوي ومحدث ، وفقيه حنفي ، ولد في لاهور وتعلم في غزنة وأقام في بغداد : التكملة لصحاح الجوهري ، والعباب الزاخر . توفي عام ٦٥٠/هـ

البلاغة يشتمل على عشرين مجلداً ، فأثابهما وأحسن جائزتهما ، وكان ممدحاً ، مدحه الشعراء وانتجعه الفضلاء ، فممن مدحه كمالُ الدين بن البوقيّ بقصيدة من جملتها:

مؤيّد الدين أبو طالب   محمدُ بنُ العلقميِّ الوزيرْ

(سريع)

وهذا بيتٌ حسنٌ جمع فيه بين لقبه وكنيته واسم أبيه وصنعته

وكان مؤيد الدين الوزير عفيفا عن أموال الديوان وأموال الرعية، متنزهاً مترفعاً قيل إن بدر الدين صاحب الموصل أهدى إليه هدية تشتمل على كتب وثياب ولطائفَ قيمتها عشرةُ آلاف دينار ، فلما وصلت إلى الوزير حملها إلى خدمة الخليفة وقال: إن صاحب الموصل قد أهدى لي هذا واستحييتُ منه أن أرده إليه ، وقد حملته وأنا أسأل قبوله فقبل ، ثم إنه أهدى إلى بدر الدين عوض هديته شيئا من لطائف بغداد قيمته اثنا عشر ألف دينار ، والتمس منه ألا يهدي إليه شيئا بعد ذلك.

وكان خواصُّ الخليفة جميعُهم يكرهونه ويحسدونه، وكان الخليفة يعتقد فيه ويحبه وكثروا عليه عنده ، فكفَّ يده عن أكثر الأمور ونسبه الناسُ إلى أنه خامر [1] وليس ذلك بصحيح، ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامتُه في هذه الدولة ، فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير ، وأحسن إليه وحكّمه ، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوقُ إليه .

حدّثني كمالُ الدين أحمدُ بن الضحاك – هو ابن أخت الوزير مؤيد الدين بن العلقمي – قال لما نزل السلطان هولاكو على بغداد أرسل يطلبُ أن يخرج الوزيرُ إليه قال : فبعث الخليفةُ فطلب الوزير فحضر عنده وأنا معه ، وقال له الخليفة : قد أنفذ السلطان يطلبك وينبغي أن تخرج إليه ، فجزع الوزير من ذلك ، وقال يامولانا : إذا خرجت فمن يدبر البلد ، ومن يتولى المهام ؟ فقال الخليفة : لا بد أن تخرج ، قال : فقال : السمعَ والطاعة ، ثم مضى إلى داره وتهيأ للخروج ثم خرج، فلما حضر بين يدي السلطانِ وسمع كلامَه وقع بموقع الاستحسان ، وكان الذي تولى تربيته في الحضرة السلطانية الوزير السعيد نصيرُ الدين محمد الطوسيُّ – قدس الله

---

[1] خامر : تآمر وخان .

روحه – فلما فُتحت بغداذ سلمت إليه وإلى علي بهدار الشّحنة [1] ، فمكث الوزير شهوراً ، ثم مرض ومات – رحمه الله – في جمادى الأولى سنة ست وخمسين وستمائة .

انقضت دولةُ بني العباس ووزرانهم ، وبذلك انقضى الكتاب والحمدُ لله وحده وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

فرغ من تأليفه واستنساخه مؤلفه في مدة أولها جمادى الآخرة من سنة أحدى وسبعمائة، وآخرها خامس شوال من السنة المذكورة بالموصل الحدباء ، وهذا خطُّ يده تجاوز الله عنه.

تم الكتاب

[1] الشحنة : مسؤول الأمن كالبوليس في زماننا .

فهرس كتاب الفخري

جدول تواريخ تولّي الخلفاء في الدول الثلاث

أولا : دولة الخلفاء الراشدين	
١- أبو بكر الصدّيق	١١ هـ
٢- عمر بن الخطاب	١٣ هـ
٣- عثمان بن عفان	٢٣ هـ
٤- علي بن أبي طالب	٣٦ هـ
ثانيا : دولة الأمويين	
١- معاوية بن أبي سفيان	٤١ هـ
٢- يزيد بن معاوية	٦٠ هـ
٣- معاوية بن يزيد	٦٤ هـ
٤- مروان بن الحكم	٦٤ هـ
٥- عبدالملك بن مروان	٦٥ هـ
٦- الوليد بن عبدالملك	٨٦ هـ
٧- سليمان بن عبدالملك	٩٦ هـ
٨- عمر بن عبدالعزيز	٩٩ هـ
٩- يزيد بن عبدالملك	١٠١ هـ
١٠- هشام بن عبدالملك	١٠٥ هـ
١١- الوليد بن يزيد بن عبدالملك	١٢٥ هـ
١٢- يزيد بن الوليد الأول	١٢٦ هـ
١٣- مروان بن محمد الجعدي	١٢٧ هـ
ثالثًا : الدولة العباسية	
١- أبو العباس عبدالله السفاح	١٣٢ هـ
٢- أبو جعفر المنصور	١٣٦ هـ
٣- محمد المهدي	١٥٨ هـ
٤- موسى الهادي	١٦٩ هـ
٥- هارون الرشيد	١٧٠ هـ
٦- محمد الأمين	١٩٣ هـ
٧- عبدالله المأمون	١٩٨ هـ
٨- أبو إسحاق محمد المعتصم	٢١٨ هـ
٩- أبو جعفر هارون الواثق	٢٢٧ هـ
١٠- جعفر المتوكل على الله	٢٣٢ هـ
١١- محمد المنتصر	٢٤٧ هـ

١٢- أبو العباس أحمد المستعين	٢٤٨ هـ
١٣- أبو عبدالله المعتز	٢٥٢ هـ
١٤- محمد المهتدي بالله	٢٥٥ هـ

١٥- أحمد المعتمد على الله	٢٥٦ هـ
١٦- أحمد المعتضد بالله	٢٧٩ هـ
١٧- عليّ المكتفي بالله	٢٨٩ هـ
١٨- جعفر المقتدر بالله	٢٩٥ هـ
١٩- أبو منصور محمد القاهر	٣٢٠ هـ
٢٠- أبو العباس أحمد الراضي	٣٢٢ هـ
٢١- إبراهيم المتقي لله	٣٢٩ هـ
٢٢- عبدالله المستكفي بالله	٣٣٣ هـ
٢٣- القاسم المطيع لله	٣٣٤ هـ
٢٤- أبو بكر الطائع لله	٣٦٣ هـ
٢٥- أحمد القادر لله	٣٨١ هـ
٢٦- عبدالله القائم بأمر الله	٤٢٢ هـ
٢٧- عبدالله المقتدي بأمر الله	٤٦٧ هـ
٢٨- أحمد المستظهر بالله	٤٨٧ هـ
٢٩- فضل المسترشد بالله	٥١٢ هـ
٣٠- المنصور الراشد بالله	٥٢٩ هـ
٣١- محمد المقتفي لأمر الله	٥٣٠ هـ
٣٢- يوسف المستنجد بالله	٥٥٥ هـ
٣٣- حسن المستضيء بأمر الله	٥٦٦ هـ
٣٤- أحمد الناصر لدين الله	٥٧٥ هـ
٣٥- محمد الظاهر بأمر الله	٦٢٢ هـ
٣٦- منصور المستنصر بالله	٦٢٣ هـ
٣٧- عبدالله المستعصم بالله	٦٤٠ هـ